AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



محمد صالح الدفر
تلفون ٢٢٢٩٧٧

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمي والأدبي

892.709
S163aA
v.3
pt.2
c.1

تأليف

محمود رزق سليم

وكيل كلية الدراسات العربية

المجلد السادس

في

النثر الفني

وهو القسم الثاني من الجزء الثالث

١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والارشاد القومي
الادارة العامة للثقافة

الناشر
مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد فقد أذن الله سبحانه وتعالى أن يتقدم « المجلد السادس » من موسوعتنا « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » إلى الطبع فالنشر ، بعد لأى من الزمن ، وتعويق من الأيام . ولكن لكل شىء أوانا . فنحمد الله سبحانه على أن سهل الصعب ، ويسر العسر ، وراض الجموح ، وأتاح الفرصة .

ويتألف من هذا المجلد والمجلد الذى سبقه ، جزء من الموسوعة هو الجزء الثالث .

وموضوع هذا الجزء « النثر الفنى » . وتتكون منه الرسالة التى تقدمت بها لنيل الماجستير من كلية دار العلوم . وقد نوهت بذلك فى مقدمة المجلد الخامس .

ويحتوى المجلد السادس على ثلاثة أبواب من أبواب الرسالة ، وهى :

الباب الرابع : وموضوعه الحديث عن الخطب وأنواعها وما يتصل بها من مذهبيات ووصايا وعظات وحكم ، وما أثر فى ذلك من كتب ونصوص ، ومن عرف من الرجال بهذه الفنون .

الباب الخامس : وموضوعه الحديث عن النقد والنقاد . وهو دراسة مستفيضة لأحوال النقد الأدبى ومظاهره وتطوراته ورجاله واتجاهاتهم وأساليبهم .

الباب السادس : وموضوعه بيان الخصائص الفنية والسمات المميزة للنثر فى العصر المملوكى . وهو استنباط مركز معلل مما درس فى الأبواب السابقة .

وقد اعتمدنا فى كل خطواتنا – كما هى العادة – على مساءلة النصوص، وعلى الموازنة والترجيح، وعلى التعليل والاستدلال.

وسيرى القارىء أننا فى مجلدينا الخامس والسادس، قد درسنا عدة جوانب هامة من جوانب العصر، كالجانب الفكرى والاجتماعى، كما درسنا الحركة الأدبية فى نطاق واسع. وأننا أبرزنا ألواناً عدة من حيوية الشعب ورجاله فى الحقبة التى نؤرخ أدبها.

ونحن بذلك نشارك مشاركة متواضعة فى كتابة تاريخ بلادنا العزيزة، والكشف عن شخصية شعبها الكريم، آملين بذلك أن نفتح باباً يمر به باحثون جدد يرتادون الطريق وينشرون الأضواء.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يحفظ على البلاد جمهوريتها الفتية ورئيسها البطل العظيم جمال عبد الناصر.

وإنى لأسدى الشكر جزلا والحمد طيباً لرجال وزارة الثقافة والإرشاد القومى الذين هيئوا لهذا المجلد فرصة الطبع والنشر. والله الموفق للسداد؟

يناير سنة ١٩٦٢ م

المؤلف

الباب الرابع

باب المناظرات والخطب وما يتصل بذلك

تمهيد

كانت النزعات الدينية ذات شأن كبير فى حياة الطبقات فى عصر المماليك . وقد أذكتها جملة من العوامل ، فتولد عن ذلك نشاط محمود فى الحياة الفكرية ، كان له صدى عظيم فى الإنتاج الأدبى . وقام النثر الفنى بأداء هذا الإنتاج أداء بارزاً ، فشارك بذلك فى الحياة بنصيب وافر ملحوظ . وأدى رسالة من أجل الرسالات .

وهذا الباب الذى نقدمه هو فى الواقع دراسة وتصوير للعوامل المذكورة وما ترتب عليها من النتائج ، وما قام به النثر الفنى من عمل . فالباب بذلك يؤرخ لجانب من جوانب الحياة الفكرية والروحية المذكورة . ولو على مدى ضيق ، هو المقدار الذى يستلزمه بحث كبحثنا ، ليس مقصوراً على إبراز هذه الناحية وحدها .

وقد قسمت هذا الباب ثلاثة فصول :

١ — الفصل الأول :

تكلمت فيه عن المناظرات والمقالات المذهبية . فنوهت بالعوامل التى أدت إلى ظهورها . ورسمت فى إيجاز صورة للخلاف الناشب بين العلماء خاصا بالعقائد ، مدللا على ذلك ببعض الوقائع والظواهر ، عارضا بعض المقالات والمؤلفات فى ذلك عرضا مناسبا .

٢ — الفصل الثانى :

تحدثت فيه عن الخطب المنبرية وأسباب نشاطها ، وعن اختفاء الخطب السياسية وأسباب ذلك ، مشيراً إلى بعض ألوان الخطب الأخرى .

٣ — الفصل الثالث :

تناولت فيه بالحديث ، النصائح والمواعظ والوصايا والحكم ، مشيراً إلى بعض العوامل التى ساعدت على وجودها ونشاطها ، مع عرض مناسب لشىء منها .

تفصيل موضوعات هذه الفصول

الفصل الأول :

النزعة الدينية وأثرها فى بروز المناظرات والمقالات المذهبية . الصوفية . فقهاء المذاهب . أحرار العلماء . المذاهب الأخرى . النزاع بين ابن عبد السلام ومبتدعى الحنابلة . محاكمات ابن تيمية . المؤيدون له والمعارضون . فتنة ابن الفارض . بعض مشهورى المناظرين والمتكلمين فى العقائد : عز الدين بن عبد السلام . مقالته فى الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة . كتابه « مسائل الطريقة فى علم الحقيقة » . كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » تقى الدين بن تيمية وكتاب « الإيمان » والعقيدة الواسطية ، والعقيدة الحموية الكبرى — شمس الدين ابن القيم وكتابه « مدارج السالكين » وشفاء العليل . مناظرة بين جيرى وسنى . مناظرة بين قدرى وسنى . شهاب الدين بن جبريل الكلابى . مقالته فى الرد على ابن تيمية . رجال آخرون اشتهروا بالمناظرات والمقالات المذهبية . ملاحظات ست : الأولى فى أسلوب المناظرات . الثانية فى دلالتها على النشاط الفكرى . الثالثة فى قيمة هذا النشاط . الرابعة فى امتزاج المناظرات بعلوم أخرى . وامتزاج التفسير بها . الخامسة فى ألوان أخرى من المناظرات . السادسة فى التعريف بكتاب « مجالس السلطان الغورى » .

الفصل الثانى :

معنى الخطبة . الخطبة المنبرية وأسباب انتشارها . الخطبة السياسية وأسباب اختفائها . أنواع أخرى من الخطب . خطبة للخليفة العباسى الحاكم بأمر الله

الأول . خطبة للخليفة الحاكم بأمر الله الثانى . نماذج أخرى من الخطب . ملاحظات : الأولى فى عدد الخطباء وبعض منهم . الثانية فى قلة المأثور من الخطب وسبب ذلك . الثالثة فى ديوان زكريا الأنصارى . ونموذج منه .

الفصل الثالث :

معنى النصيحة أو العظة . الأسباب التى أدت إلى ذيوعها . بعض الوعاظ . رسالة النووى إلى بيبرس . رسالة له أخرى . رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص . رسالة السيوطى إلى ملك التكرور . كتب الوعظ : تاج العروس لابن عطاء الله بستان العارفين للنووى . مفتاح دار السعادة لابن القيم . إغاثة اللهفان لابن القيم . الوصية . الوصية الدينية . بعض أنواع الوصايا . وصايا ابن فضل الله . كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى . وصايا لابن تيمية . الحكمة معناها ومنزعها — فصل لابن حبيب الحلبى من نسيم الصبا . درر الكلم وغرر الحكم للسيوطى . حكم ابن عطاء الله .

الفصل الأول

المناظرات والمقالات المذهبية

رأينا فى بعض الأبواب السابقة ألوانا من المناظرات ، وهى المحاورات المعقودة بين اثنين أو أكثر ، من الأدوات ، أو الأشخاص ، أو الأشياء الأخرى ، وذلك كالموازنة بين السيف والقلم ، والمحاورة بين الأزهار .

غير أن هذه المناظرات التى رأيناها ، تنزع نزعة أدبية عمادها الوصف وحسن التشبيه والإبراز الجميل ، أكثر مما تنزع نزعة فكرية عمادها سلامة المنطق وقوة الحجة ونصوع الدليل ، والرغبة فى الإقناع . وهذا اللون الأخير — وهو من الخطبة أو بسبيل منها — هو الذى نعرض له فى هذا المقال[1] .

النزعة الدينية وأثرها فى هذا اللون :

وقد كان للنزعة الدينية الشائعة فى ذلك الحين ، أثر ملموس فى نضج هذا الضرب من المسالك الكلامية . وبيانا لذلك نقول :

منذ قامت الدولة الإسلامية ، وهى تصدر فى أعمالها عن روح دينية . ونحن لا نبحث هنا عن صواب هذه الأعمال أو خطئها ، أو مبلغ صلتها الحقيقية بالدين . ولكننا نقرر فحسب ، أن الشعوب والدول الإسلامية ، على وجه الإجمال ، تلبس أعمالها أثوابا دينية ، وتضفى عليها من صبغة الدين الشىء الكثير .

اتضح ذلك فى مصر ، فى عصور مختلفة . اتضح مثلا فى عهد الفاطميين ،

---

(١) يقلل الدكتور عبد اللطيف حمزة — راجع مقدمة « الحركة الفكرية » ص ٢٥ — من أهمية الجدل الذى نشب فى مصر بين علمائها والرافضة والحشوية وغيرهما . ويرى أنه مبنى على الحماسة اللفظية أكثر من غيرها . ويرى أن حدة الجدل قد انتهت قبل استئناف الجدل فى مصر . ونحن لا نوافقه على ذلك ، ونرى أن الجدل كان على جانب عظيم من الأهمية ويعتمد على المنطق والعقل والنقل معا . ويتضح ذلك فى كلامنا فى هذا الفصل .

الذين أسسوا دولتهم على أساس من الدين ، اتخذوا شعاره المذهب الشيعى . واتضح كذلك فى عهد الأيوبيين ، الذين كانوا من أهل السنة والجماعة ، وتعصبوا فى عقيدتهم لمذهب الأشعرى[1] ، وفى فقههم لمذهب الشافعى ، وأنشئوا فى مصر جملة من المدارس عنوا فيها بنشر الحديث النبوى وفقه الأئمة الأربعة ولا سيما فقه الشافعية . وزادهم تعصبا للدين قيام الصليبيين بحروبهم الطاحنة المتكررة ، وتأسيسهم المستعمرات على سيف البحر المتوسط فى بلاد الشام . فشغل الأيوبيون ، وشغلت معهم الجماهير فى مصر والشام بمكافحة الصليبيين .

وورث مماليك مصر هذه النزعة عن أساتذتهم الأيوبيين . فقد نشئوا فى كنفهم وشاركوهم بعض حروبهم الصليبية .

على أن هناك عوامل وحوادث أخرى ، عززت هذه النزعة الدينية فى المماليك ، بل أشاعتها بين الخاصة والعامة ، وأهمها تلف المسلمين وضياع ذخائرهم الفكرية فى بغداد وغيرها ، وأيلولة حكم مصر والشام إلى يدهم فى ذلك الوقت ، وكذلك الأقطار الحجازية . على حين أن المسلمين وأمراءهم فى مشارق الأرض ومغاربها قد ضعفوا واضطربت أحوالهم ، الأمر الذى نبه سلاطين مصر وحكامها حينذاك ، إلى ضرورة وقاية البلاد التى يحكمونها ، وحماية دينهم ودينها من الأعداء ، وأنهم إذا قصروا فى ذلك ، فربما تكون الطامة الكبرى .

تجلى هذا الشعور حين سار المماليك مع سلطانهم « نجم الدين الأيوبى » إلى معركة المنصورة عام ٦٤٧ هـ تعاونهم جموع الشعب فى النصر والغلب . وتجلى يوم حرض سلطان العلماء « عز الدين بن عبد السلام » السلطان المظفر قطز ، على حرب التتار ، وأثار معه حمية أمرائه ونخوة جنده ، فهزموا التتار فى موقعتين فاصلتين هما « عين جالوت » و « بيسان » عام « ٦٥٨ هـ » . وتجلى يوم أن هب السلطان الظاهر بيبرس فسار بجنوده إلى بلاد الشام وغيرها ، ولاقى التتار

---

(١) راجع خطط المقريزى جـ ٤ ص ١٦١ وما بعدها

والفرنجة وهزمهم شر هزيمة واستعاد إلى ملك مصر عددا ضخما من المدن ، ومهد الأمور فيها .

وظل سلاطين المماليك ، هكذا ، يصدرون عن هذه الروح طول العصر ، ويحاربون « أعداء المسلمين » ويجدون من العلماء كل نصيحة ، ومن الجماهير كل معونة .

ولم يقف جهد الحكام عند الحروب . بل أسسوا المدارس والمساجد ، وملئوا بها البلاد طولا وعرضا ، ولا سيما مدينة القاهرة التى فاضت بعشرات منها ، وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة الدارة ، واختاروا للتدريس فيها جلة العلماء ، وأجروا عليهم وعلى طلبتهم الأرزاق ، وقرروا الدروس التى تلقى فيها ، وكانت علوم الدين من فقه وحديث فى مقدمتها . وقد توج هذا كله بإنشاء الخلافة العباسية التى جعلت مصر قلبا ينبض فى جسد العالم الإسلامى .

بذلك تعززت هذه الروح الدينية وقويت واشتد ساعدها ، وآزرها نشاط العلماء وإقبالهم بشغف شديد على التعليم والتأليف ، واصطبغت العلوم بصبغات دينية . ووكل أمر القضاء والفصل فى شتى المنازعات إلى قضاة القضاة - وهم أربعة ، من كل مذهب قاض - هذا مع استثناء « حاجب الحجاب » الذى كان من اختصاصه الفصل فى منازعات جند المماليك ، وفى بعض القضايا الجنائية .

لم تقف جهودهم عند هذا الحد أيضاً ، بل أسسوا الربط والخوانق والزوايا ، ومكنوا للصوفية بما أوقفوا عليهم من أوقاف ، وما قرروه لهم من دروس .

بهذا وذاك تمكنت الروح الدينية ، ولهج الناس بها فى شتى شئونهم الحيوية . وأصبحت النزعات الدينية ، ولا سيما ما يتصل منها بالعقائد ، جزءاً هاما من السياسة العامة فى ذلك العصر .

فلا غرابة حينئذ إذا رأينا المجادلات والمناظرات قد قوى أمرها واشتد خطرها فيه ، وشغل كثير من العلماء بالنظر فى العقائد وغيرها من أمور الدين ، والمناقشة فيها ، وتعزيز الرأى الذى يذهبون إليه . ولا غرابة أيضا إذا تعددت

حوادث هذه المناظرات ، وتطورت فى بعض الأحوال ، حتى بلغت حداً من الحدة شديداً ، أو وصلت إلى الاحتكام إلى القضاة والمحاكمة .

ونحن هنا لا نبحث عن حقيقة هذه النزعات وتطوراتها ، ولا نتعمق تفاصيل الخلافات المذهبية ، فإن لها مقاما آخر . ولكننا أردنا أن نشير — فى إيجاز — إلى بعض الأسباب التى أدت إلى هذا النشاط الفكرى الذى كان من أهم مظاهره ، نشاط الجدل والمناظرة ، وتتابع المقالات والرسائل المذهبية ، بما يشعرنا بإحدى النواحى الهامة التى شارك فيها النثر الفنى بنصيب موفور ، فى هذا الزمان المستعجم .

* * *

ونستطيع أن نقسم المتحدثين فى العقائد حينذاك أربعة أقسام هى :

١ — الصوفية :

وهم الذين يقولون إنهم يعملون على المعرفة والاتصال بالله سبحانه وتعالى عن طريق الرياضة الروحية ، وتحرير النفس من ملاذ الدنيا وأرجاسها ، مع طول النظر والتأمل . وهؤلاء قد يصيبهم فى بعض سرحاتهم الخيالية ، وتأملاتهم النفسية ، ويقظاتهم الروحية ، ما يبدو كالغيبوبة ، إذ يذهلون عن عالم الحس ، فتقع فى خواطرهم — كما يقولون — معان ، وتفيض عليهم مشاهدات ، لا تسعفهم اللغة ، بحواجزها اللفظية وقيودها التعبيرية ، بدقة الإفصاح عنها . فينحرفون لذلك فى عباراتهم أحياناً بما يؤاخذون بظاهر لفظه ، وبما يوهم الحلول مثلا . وهم فى ذلك كله يقولون إنهم إنما يصدرون فى عملهم وتفكيرهم ، عن الكتاب والسنة ، كما كان السلف الصالح .

ويبدو أن هذه الطائفة كانت كثيرة الانتشار فى القاهرة ، وكانت جماهير متعددة واقعة تحت تأثيرها . ولهذا سارع بعض السلاطين إلى إرضائها ، وإلى تنفيذ مشيئتها ، وإلى التماس الرأى عندها فى بعض المناسبات . وشارك شيوخ منها فى الحركات الفكرية والاجتماعية . وقد أسس لهم عدد من الخوانق ليعيشوا ويعلموا بها .

وقد استطاع أحد شيوخ الصوفية « نصر المنبجى » أن يؤلب سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون ، على الشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى . لأنه حمل على الصوفية ، ممن يدينون بوحدة الوجود[١] ، حملة شعواء .

وفى إحدى المرات حمل رجل يسمى « عبد القادر بن الرماح » السلطان الأشرف قايتباى — وكان من خلصائه — على أن يقبل قدمى الشيخ عبدالقادر الدشطوطى ، أحد الأولياء ، لكى يسامحه ويعينه فى حربه مع العثمانيين . وبعد حين تبين أنه شيخ مزيف . . فجلد هو وابن الرماح[٢] .

ولما جاءت الأخبار بقتل السلطان الغورى ، وأريدت سلطنة الأشرف طومان باى الدوادار ، آخر سلاطين المماليك بمصر ، امتنع طومان باى ، وتعصى عليه جمع الأمراء على كلمة . . . ثم احتكموا إلى الشيخ أبى السعود الجارحى بمقامه فى كوم الجارح خارج القاهرة . . فحكم بينهم وجمع كلمتهم ، وخرج طومان باى من لدنه ، سلطاناً على البلاد[٣] . . .

هذه بعض الحوادث التى تبدو فيها سيطرة هؤلاء الأولياء والمتصوفة ، على عقول الناس والحاكمين حتى آخر العصر .

٢ — فقهاء المذاهب الأربعة :

وهؤلاء كانوا كثرة كاثرة . وهم جلة « المتعممين » المتخرجين فى مدارس الفقه والحديث . وكان فقهاء الشافعية من بينهم أكثر عددا من سواهم من رجال المذاهب الأخرى . وعقيدة هؤلاء الفقهاء فى جملتهم مستمدة من عقيدة السلف الصالح . ولكنهم لا يقفون عند ظاهر الآيات ، كما كان السلف يقفون . بل يدعمون هذا الظاهر على نمط أشعرى . وبهذه الروح كانوا يصححون العقائد ويردون على المناظرين ويفتون العامة . وكانوا بذلك ، لسان الدولة الرسمى الذى يعبر عن وجهة نظرها غالبا ، فى العقائد والمشاكل الفقهية .

---

(١) راجع ترجمة ابن تيمية فى جلاء العينين ، وفى الدرر الكامنة ، وفى المجلد الرابع من كتابنا هذا .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٢٥٦ فى ترجمة قايتباى .

(٣) بدائع ابن إياس فى ترجمة الأشرف طومان باى .

والقضاة الأربعة يختارون من بين هؤلاء الفقهاء ، سواء أكان ذلك بمصر أم بالشام . كما يختار من بينهم نواب الحكم « قضاة النواحى » الذين ينوبون عن قضاة القضاة .

وكان لهؤلاء — ولاسيما قضاة القضاة — نفوذ ضخم لدى السلاطين والجماهير ، مستمد من منصبهم الدينى . وربما اشتهر أحدهم بحدبه على الشعب ، وخوفه على ماله ، وتكرار نصيحته للسلطان برعاية العدل ، وجرأته على أن يقول كلمة الحق فى حينها . فيصيب من وراء ذلك منزلة لدى الجماهير لاتسامى . ومنهم على سبيل المثال : عز الدين بن عبد السلام وتقى الدين بن بنت الأعز ، وتقى الدين بن دقيق العيد ، ومحيي الدين النووى . والجلال السيوطى ، وابن حجر العسقلانى .

٣ — العلماء الأحرار :

وهم بعض فقهاء المذاهب الأربعة . ولكنهم يمتازون بالاجتهاد والتجديد بعض الأحكام ، وبالحرية فى الفتوى بما يناسب ظروف المجتمع ، ولايخرج عن روح الدين وعدالته . وكان رأى بعضهم أحياناً مثاراً للخلاف والمناظرة بينهم . ومن بين هؤلاء من كان يناهض الصوفية ، ويتنقصهم ويحمل عليهم ، مثل تقى الدين بن تيمية الحرانى . ومنهم من سلك سبيل الصوفية كالجلال السيوطى ، فقد كان شيخا للخانقاه البيبرسية :

وهؤلاء العلماء ، من أمثال ابن تيمية والتقى السبكى ، والتقى بن دقيق العيد ، والعز بن عبدالسلام ، هم — فى الحق — بما خلفوا من آراء ومبادئ وفتاوى اتسمت إلى حد كبير بالحرية وبعد النظر ودقة الفهم وحسن التكييف ، دليل على وجود يقظة فكرية جديرة بالتقدير . ومؤلفاتهم تعتبر من أهم المراجع فى موضوعاتها .

٤ — غير أهل السنة والجماعة :

وهؤلاء كالخوارج والرافضة والجهمية والمعطلة والقدرية والجبرية ومبتدعة

الحنابلة[1] ، ثم اليهود والنصارى . كان هؤلاء جميعاً - ولا سيما شواذ المسلمين - محلا لمناظرات فقهاء المذاهب ، وهدفا لحملاتهم . وقد فاضت كتب هؤلاء الفقهاء ببيان فساد عقائدهم وزائف آرائهم ، وبإبطال هذه العقائد والآراء ، عن طريق الجدل العنيف والحجج الدامغة والمنطق السليم والتدليل العقلى القوى المستمد من اتجاه السلف الصالح ومذهب الأشاعرة .

ولم يقتصروا على تأليف كتب كلامية تضم هذه المناظرات والمجادلات ، ولكنهم سجلوها وكرروا تسجيلها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . اتضح ذلك فى فتاواهم ، وفى كتب فقههم ، وفى كتب تفسيرهم ، إلى غير ذلك . ومن مقدميهم فى هذا الباب : ابن تيمية وابن القيم .

ويبدو أن مبعث اهتمام هؤلاء الفقهاء بمحاربة المتطرفين والشواذ ، يرجع إلى انتشارهم فى ذلك العصر ، هم والصليبيين وأذنابهم ، ولا سيما فى بلاد الشام . فخشى الفقهاء أن يفتنوا العامة ويشوهوا عقائدهم .

* * *

ولابد لنا هنا من وقفة قصيرة نوجز فيها الكلام على بعض الحوادث التى تجلت فيها هذه الخلافات المذهبية واتضحت الحرية الفكرية ، وكان للمناظرة فيها نصيب كبير ، وذلك على سبيل التمثيل . فمن ذلك :

---

١ — الخوارج : الذين خرجوا على على وأنكروا عليه قبوله التحكيم . ثم من اتبعهم ، وهم فرق . ومنهم من يجوز الإمامة فى غير قريش ، وجوزوا تعطيل الإمامة ، ومنهم من كفر عليا . ومنهم من يكفر مرتكب الكبيرة . . الخ .

والرافضة فريق من الشيعة وهم جماعة من أهل الكوفة رفضوا « زيد بن على » زعيم الزيدية وتلميذ واصل بن عطاء . وذلك لأنه خالف مذهب آبائه فى التبرىء وغيره .

والجبرية : هم الذين ينفون الفعل عن العبد ، ويضيفونه إلى الله تعالى . وهم فرق متعددة منها الجهمية المعطلة أتباع جهم بن صفوان .

والقدرية الذين يضيفون الفعل إلى العبد ، وينفونه عن الله سبحانه وتعالى ، وهم فريق من المعتزلة الذين ينفون الصفات عن الله . ويقولون مثلا إنه عالم بذاته لا بعلم ، حذراً من تعدد القديم . وهم عكس الصفاتية الذين يثبتون الصفات .

ومتبدعة الحنابلة فريق من الحنابلة قالوا بالصوت والحرف ووقعوا فى التجسيم .

راجع الملل والنحل للشهرستانى (تخريج الأستاذ فتح الله بدران) — وراجع خطط المقريزى ج ٤ ص ١٦٢ وما بعدها .

١ — النزاع بين ابن عبد السلام ومبتدعة الحنابلة :

يعتبر عز الدين بن عبد السلام رأس الشافعية فى زمانه، وكان يلقب بسلطان العلماء، لقبه بذلك تلميذه تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى . وقد عاش ابن عبد السلام زمناً كبيراً فى دمشق ، ثم يمم شطر مصر واتخذها دار إقامة . وله فيها حوادث رائعة تدل على جرأة قلبه وحرصه على الحق ، وحسن بلائه فى الدفاع عن المسلمين ، ومحافظته على أموالهم . وكان الظاهر بيبرس منقمعا تحت كلمته . وقد توفى بالقاهرة عام ٦٦٠ هـ .

وقد وقع بينه وبين مبتدعة الحنابلة نزاع ، رأينا أن نسوق خبره هنا فى إيجاز . وقد وقع قبيل العصر المملوكى الذى عاش فيه هذا المجتهد بنحو اثنتى عشرة سنة، وخلف فيه عدداً ضخماً من تلاميذه ، كان منهم دعاة حق وسرج هداية . فكان هذا الحادث أو النزاع فاتحة موفقة للحرية الفكرية وللكفاح فى سبيل العقيدة ، اللذين شهد العصر كثيراً من حوادثهما . لهذا رأينا أن نسوق خبره .

وقع هذا النزاع فى مدينة دمشق ، حينما كان يحكمها الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل الأيوبى — قبل أن يحكمها الصالح إسماعيل ، الذى هاجر الشيخ فى عهده إلى مصر —

كان الأشرف موسى يجل الشيخ ويعظمه ، ويحفظ له فى نفسه مكانة سامية . غير أنه كان ميالا إلى جماعة من مبتدعة الحنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى حرفاً وصوتاً . ويعتقد معتقدهم . وأفهموه أنه مذهب ابن حنبل والسلف الصالح .

وحقد هؤلاء المبتدعة على الشيخ لمنزلته لدى الأشرف ، وخشوا منه على منزلتهم . فوشوا إلى الأشرف ، وقالوا له إن الشيخ أشعرى العقيدة ، يخطئ من يعتقد الحرف والصوت ، ويعتبره مبتدعا ، وأنه يقول كما قال الأشعرى ، إن الخبز لا يشبع ، والماء لا يروى ، والنار لا تحرق .

وفى الحق ، أنهم قرروا مذهب الشيخ كما هو ، وهو يخالف معتقدهم الذى

أوهموا الأشرف أنه المعتقد الصحيح . فكتب استفتاء فى هذه المسائل ، ودفعها إلى الشيخ ، ليبدى فيها رأيه . فكتبه ببيان واضح وأسلوب جميل ، مقرراً مذهب السلف وابن حنبل والأشاعرة ، ومبيناً أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وحمل فيه على المبتدعين حملة شعواء[1] .

فلما اطلع الأشرف عليه ، هاله الأمر ، إذ رأى أن الشيخ اعترف بما ادعاه عليه المبتدعون . . ووقعت بينه وبين الشيخ مشادات ومراسلات ، أدت إلى أن أصدر أمره بمنع الشيخ من الفتيا وحرم عليه الاجتماع بالناس ، وألزمه بيته .

وقد فرح الشيخ بهذا الأمر فرحاً شديداً ، وقال لرسول السلطان :

« إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة على ، الموجبة للشكر لله تعالى على الدوام . أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها وأكرهها ، وأعتقد أن المفتى على شفير جهنم . ولولا أنى أعتقد أن الله أوجبها علىّ لتعينها علىّ فى هذا الزمان ، لما كنت تلوثت بها . والآن فقد عذرنى الحق ، وسقط عنى الوجوب ، وتخلصت ذمتى ، ولله الحمد والمنة » .

وما زال ، حتى أصلح بينه وبين السلطان ، العلامة جمال الدين الخضيرى شيخ الحنفية فى زمانه . وأفهم السلطان أن عقيدة الشيخ هى عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة . وحسنت صلة الشيخ بالسلطان حتى إنه أبطل كثيراً من مفاسد عصره — كالزنا وشرب الخمر — بإشارة الشيخ .

٢ — محاكمات ابن تيمية :

تقى الدين بن تيمية أبرز العلماء الأحرار فى هذا العصر ، ومن أصلبهم دفاعاً عن معتقده ، ومن أقساهم على أهل البدع والضلال ، ومن أنشطهم فى محاربة الفساد ، ومن أجرئهم فى إسداء النصيحة وقول الحق ، وقد توفى عام ٧٢٨ هـ ،

---

(١) راجع طبقات السبكى ج ٥ ترجمة ابن عبد السلام وفيها نص هذا البيان .

بعد أن ترك دويا فى عالم الفكر والرأى لايزال رنينه مسموعا .

وقد كان ابن تيمية حنبلى المذهب ، ولكنه لم يتقيد بما جاء فى المذاهب الأربعة ، واجتهد فى إبداء الرأى وإبراز الفتوى ، متحريا روح الإسلام وعدالة الدين ، بحسب اجتهاده ، ناظرا إلى ما يصلح من الأحكام لعصره ومقتضيات مجتمعه ، جاعلا نصب عينيه أن ينفى عن العامة زيف الشرك وشبه الباطل ، وأن يجنبهم عسر الحياة ، وييسر لهم سبلها ، بما لايخرج عن الدين ورحابة صدره وسماحته .

بذلك خالف ابن تيمية كثيراً من علماء عصره وفقهاء المذاهب ، واستهدف لحملاتهم ، واضطر إلى الرد عليهم . فظل لذلك قرابة ثلاثين عاماً ، فى جهاد ونضال ، يحاور ويناظر ، وينازل ويصاول ، ويدرس ويخطب ويؤلف . فكتب بذلك صفحة من أجمل صفحات الجهاد الفكرى الحر ، غير عابئ بما يلقى فى سبيله من الأذى .

لقد حوكم ابن تيمية ، وشرد وسجن . فماذا قال ؟ قال : « مايصنع أعدائى بى ؟ أنا بستانى فى صدرى . . أين رحت فهو معى . أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة وإخراجى من بلدى سياحة » .

وأهم فتاواه التى أثارت الحملات ضده : فتواه فى الطلاق ، وفى زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، وفى الوسيلة .

فمن رأيه أن الطلاق بالثلاث يقع واحدة .

وأنه لايجوز لمسلم أن يسافر قصداً إلى زيارة قبر من قبور الأنبياء والصالحين .

وأنه لايجوز لمسلم أن يتوسل إلى الله بشىء ما ، بل يلجأ إليه سبحانه مباشرة دون وسيط . .

وتحدث ابن تيمية عن صفات الله سبحانه وتعالى : الاستواء والنزول والصورة والعين واليد ، إلى غير ذلك ، كما وصف الله به نفسه فى القرآن ، وكما وصفه به رسوله الكريم ، دون كيفية ولا تمثيل ولا تشبيه . فهو يرى

مثلا : أنه تعالى استوى على العرش استواء حقيقياً لا مجازيا ولكنه لا يكيف هذا الاستواء ولا يمثله .

ومن المناسب فى هذا المقام أن نذكر أن ابن تيمية له رأى فى المجاز ونشوئه ، ويرى أن فكرة وجود المجاز فى اللغة من ابتداع العباسيين ، وينكر وقوع المجاز فى القرآن ، ولا سيما مايتصل منه بصفات الله سبحانه وتعالى .

وهذا - كما هو معلوم - مخالف لرأى المعتزلة الذى يقولون بالمجاز ، ويؤولون ماوقع فى القرآن الكريم من الألفاظ المتصلة ببعض صفاته تعالى كالاستواء واليد والعين والوجه ، على ضوء هذا المجاز(١)

وتعرض ابن تيمية أيضاً للصوفية ، الذين ينتمون إلى ابن عربى وابن سبعين والقونوى ، ممن يقولون بوحدة الوجود والاتحاد . إذ يرون أن العبد يصل من وراء عبادته إلى مرحلة تتجلى فيها الذات الإلهية له ، ويزول العبد ولا يبقى إلا الذات . أو يصير العبد والذات شيئاً واحداً . ويرى ابن تيمية أن هذا معناه الحلول والتجسيم والتشبيه .

هذه بعض آراء ابن تيمية ومعتقداته .

* * *

وكانت عقيدته فى صفات الله تعالى كثيرة الظهور فى مؤلفاته ورسائله بحججها وأدلتها . ومنها رسالته التى اسمها « العقيدة الحموية الكبرى » التى كتبها فى سنة ٦٩٨ هـ . وقد ثارت بسببها ثائرة الفقهاء والكلاميين ، وأولوا فى كلام ابن تيمية ، أو فهموه على أنه يذهب إلى التجسيم . وقد عاونهم قاضى قضاة الحنفية بدمشق حينذاك ، وطلب إليه المثول بين يديه للمحاكمة . فرفض

---

(١) انظر كتاب « الإيمان » لابن تيمية .

ابن تيمة قائلا له : « إن العقائد ليس أمرها إليك . وإن السلطان ولاك لتحكم بين الناس . وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضى ». فزاد حنق القاضى عليه ، وأمر بالنداء فى المدينة ببطلان عقيدة ابن تيمية . وقيل إنه حمل وطيف به إلى المدينة ونودى بالناس ألا يستفتوه ...

وقيل إن ابن تيمية قرأ رسالته هذه بعد ذلك ، فى جمع حاشد ، وبين للناس ما أشكل عليهم فيها . وظل فى قراءتها يومين ، حتى اقتنعوا بصحة عقيدته . وقال القاضى « إمام الدين الشافعى » : كل من تكلم فى الشيخ فأنا خصمه ».

* * *

ولما حمل ابن تيمية على الصوفية ، ونسبهم إلى الحلول والتجسيم والتشبيه وشدد عليهم النكير ، لما يحتالون من حيل يوهمون العامة بها أنها كرامات ، وكان قد كتب إلى شيخهم وهو « نصر المنبجى[1] » ، مقالا فى ثلثمائة سطر ينكر عليه هو وأتباعه معتقدهم وحيلهم . وكان « المنبجى » ذا جاه لدى الأمراء وخاصة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير — الذى ملك فيما بعد ولقب بالمظفر . ثار « المنبجى » وأتباعه وأذاع القالة عن ابن تيمية ، أنه مبتدع يخشى منه على الناس . واستعان بالأمير بيبرس حتى أقنعوا قضاة مصر باتهامه . ولذلك كتب الناصر بن قلاوون إلى نائبه بالشام ، أن يمتحن الشيخ ويسأله عن معتقده .

كان ذلك عام ٧٠٥ هـ . فجمع له النائب مجلساً من القضاة والعلماء بدمشق فى ذلك العام ، وقرئت فيه رسالته « العقيدة الوسطية » ونوقش فيها ، وناظره بعض مخالفيه فى الرأى من الفقهاء الأعلام ، ومن بينهم الشيخ صفى الدين الهندى علامة زمانه فى المناظرة بدمشق ، وكمال الدين بن الزملكانى قاضى قضاة الشافعية بدمشق . فانتهى المجلس على أن معتقد الشيخ صحيح لم يخرج فيه عن مذهب السلف

---

(١) نصر المنبجى : هو نصر بن سلمان المنبجى نزيل القاهرة ، كان أحد شيوخ الصوفية فيها ، وأحد عابدى زمانه . مات بزاويته بالقاهرة عام ٧١٩ هـ . (الدرر الكامنة ج ٤ رقم ١٠٧٦) .

ويبدو أن هذا الحكم لم يصادف رضا من أعداء الشيخ بمصر ، ومنهم قاضى المالكية بها « زين الدين بن مخلوف » لذلك أرسل السلطان الناصر ، إلى دمشق ، بإيفاد الشيخ إلى مصر ، لإعادة محاكمته فيها . فأبى نائب الشام أن يوفده ، ثم رضى فى النهاية ، فخرجت دمشق تودع علمها وداعاً حاراً .

دفع الشيخ إلى مجلس القضاء حيث تصدره القاضى « ابن مخلوف » وندب لرفع الدعوى عليه ، القاضى « شمس الدين بن عدلان » . فادعى عليه أنه يقول : « إن الله فوق العرش حقيقة » وأنه يتكلم بحرف وصوت ، وأنه يشار إليه إشارة حسية . وطلب إلى المجلس عقابه .

فسأل القاضى « ابن مخلوف » عما يقول فى ذلك . فبدأ ابن تيمية فى الإجابة فحمد الله وأثنى عليه ... فقال له القاضى : « ما جئنا بك لتخطب » ... فقال الشيخ : « ومن الحاكم فى » ؟ فقيل له : « القاضى المالكى » ... قال « كيف يحكم على وهو خصمى » ؟ وغضب غضباً شديداً ، وبدا عليه الانزعاج والفزع والثورة ... فقادوه إلى السجن « البرج » فحبس به أياما . ثم نقل إلى « الجب » — سجن آخر — فحبس به ومعه أخواه : شرف الدين وزين الدين .

ظلوا بعد ذلك يحضرونه للإجابة مرة بعد أخرى ، وهو فى كل مرة يناظر وينتصر على خصومه . ولبث فى سجنه زهاء ثمانية عشر شهراً . ثم أطلق سراحه فى ربيع الأول عام ٧٠٧ هـ بشفاعة الأمير العربى « حسام الدين بن مهنا » .

وقبيل خروجه من سجنه ، عقدت مناظرة أخرى حافلة بينه وبين جماعة من مبرزى العلماء منهم بدر الدين بن جماعة ، ونجم الدين بن الرفعة ، وعلاء الدين الباجى ، وفخر الدين بن بنت أبى سعد ، وعز الدين الفراوى ، وشمس الدين بن عدلان .

* * *

عاود ابن تيمية حملته على الصوفية بعد خروجه من سجنه ، وشدد النكير عليهم ، وذلك فى العام نفسه « ٧٠٧ هـ » . فشكاه الصوفية وعلى رأسهم شيخهم بالقاهرة « كريم الدين الآملى » إلى السلطان . فغير بين الرحيل عن القاهرة حتى

تهدأ الفتنة ، أو السجن ... فاختار أن يسجن ... ولكنهم حملوه قسراً إلى دمشق ، ثم أعادوه من الطريق وسجنوه فى سجن القضاة بحارة الديلم بالقاهرة .

اطمأن ابن تيمية إلى سجنه ، واتخذه مكاناً لإلقاء دروسه وعظاته . فقصده الناس فيه حتى أضحى جامعة علمية كبرى ... فنقل إلى سجن الإسكندرية ، فلبث به زهاء عامين حتى أطلق الناصر بن قلاوون سراحه عام ٧٠٩ هـ ، وتلطف به وأكرمه ، وأراده على أن ينكل بأعدائه ، فأبت نفسه وعفا عنهم ... وكانت بالسلطان رغبة فى أن يبطش بهم ..

* * *

عاد ابن تيمية إلى دمشق عام ٧١٢ هـ . وظل يحاضر ويناظر وينشر العلم ويؤلف الرسائل ، حتى أفتى فى عام ٨١٧ هـ . فتواه فى الطلاق ، وألف فيها رسالته ...

ثارت ثائرة الفقهاء عليه ، حتى أمر الناصر بمنعه من الفتوى . غير أن ابن تيمية لم يمتنع ... ولبث حتى عام ٧٢٠ هـ فعقد له مجلس لمحاكمته على فتواه هذه ، وسجن ولبث فى سجنه أكثر من خمسة أشهر ، ثم أطلق سراحه[1] .

وكانت هذه الفتوى سبباً فى إقبال كثير من العلماء على تأليف الرسائل فى موضوع الطلاق ، رداً على ابن تيمية وإبطالا لمذهبه . ومنها رسالة لتقى الدين السبكى تسمى « كتاب التحقيق فى مسألة التعليق » .

* * *

وما زال ابن تيمية حتى عام ٧٢٦ هـ ، وكان قد أصدر فتواه بتحريم السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين قصدا إلى زيارتها .

وقد أفاض فى الحديث عن زيارة القبور والتمسح بها ، والاستنجاد بالمقبور ، وألف فى ذلك رسالة قيمة هى « زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور » .

---

(١) أخذ بهذه الفتوى فى العصر الحديث منذ قريب وأصبح يقضى بها ... وبهذا يكون ابن تيمية قد سبق زمنه بنحو ستة قرون .

وهو يرمى إلى منع الوسيلة ، ورد المسلمين إلى روح الشريعة الغراء ، وإبعادهم عن مزالق الشرك ومظان الوثنية .

ثار الفقهاء والقضاة عليه بسبب هذه الفتوى . وأفتوا للناصر بن قلاوون بحبس ابن تيمية ، بل سعى بعضهم لديه فى قتله .

وهب كثير من العلماء للرد عليه وتزييف رأيه فكتبت فى ذلك مقالات ضافية ، منهامقالة لتقى الدين السبكى تسمى « شفاء السقام فى زيارة خير الأنام » .

سجن ابن تيمية ومعه تلميذه ابن القيم فى قلعة دمشق . فأقام بها نحو عامين ثم مات فى سجنه عام ٧٢٨ هـ بعد جهاد عنيف دام نحو ثلاثين عاما[١] .

* * *

هذه خلاصة وجيزة ولمحة سريعة من كفاح ابن تيمية فى سبيل الرأى والعقيدة . وقد كان ذلك سبباً فى نشاط فكرى محمود ، ومناظرات لاحد لها ، ووضع رسائل ومقالات لا تحصى .

أجل . انبرى له العلماء ، ولا سيما فقهاء الشافعية ، يردون عليه و يبطلون آراءه ، ويبينون فسادها ويقرون مكانها ما يرتئونه من الآراء والعقائد السليمة بالمناظرات والرسائل والمقالات . كما كان لابن تيمية أنصار يذهبون مذهبه ويرون رأيه ويتعصبون له ، فدافعوا عنه وناظروا وحاوروا ، ومنهم من أوذى من أجله .

ونذكر من الفريقين على سبيل المثال :

١ — شمس الدين بن القيم[٢] .

وهو تلميذ ابن تيمية وأحد مناصريه . تعصب لكثير من آرائه ودافع عنها . وقد ذهب مذهبه فى مسألة الطلاق وزيارة القبور . وحمل على الشيعة والقدرية والجبرية وغيرهم . ومن رسائله : « هداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى » و « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية » .

(١) أعدنا هنا شيئا مما كتبناه فيما سبق عن ابن تيميه ، لضرورته للمقام .

(٢) ترجمة ابن القيم فى جلاء العينين للألوسى ، وفى الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١٠٦٧ .

غير أنه يفارق أستاذه فى مسألة الصوفية والحملة عليهم . فقد سلك ابن القيم مسلك التصوف السليم ، وألف فى ذلك بعض الكتب الممتعة وفى مقدمتها : « مدارج السالكين » .

وقد سجن ابن القيم — كما أشرنا — فى قلعة دمشق ، لما سجن شيخه بها . وكان بعيداً عنه فى سجنه . ثم أطلق سراحه . وتوفى عام ٧٥١ هـ .

٢ — جمال الدين المزى الشافعى[١]

يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المتوفى عام ٧٤٢هـ . قيل أنه أوذى بسبب ابن تيمية ، فإنه لما وقعت المناظرة عام ٧٠٥ هـ بين ابن تيمية والصفى الهندى والكمال بن الزملكانى بالقصر الأبلق بدمشق ، شرع المزى يقرأ كتاب خلق أفعال العباد للبخارى وفيه فصل فى الرد على الجهمية ، فغضبوا وظنوا أنه يقصدهم بهذا . فأمر القاضى الشافعى بسجنه ثم أخرجه ابن تيمية من سجنه . فغضب نائب الشام « الأفرم » وأعاده ونادى بأن من يتكلم فى العقائد يقتل . .

٣ — أحمد بن محمد بن مرى الحنبلى[٢]

كان منحرفا عن ابن تيمية ثم اجتمع به فأحبه وتتلمذ له وكتب مصنفاته . وبالغ فى التعصب له ، وسلك مسلكه فى الحملة على الصوفية وزيارة القبور ، وتحدث فى التوسل بالنبى عليه السلام . فأراد بعض العامة قتله فهرب ، ثم قبض عليه وحوكم . واختلف فى أمره ، ثم سلم إلى قاضى المالكية فضربه حتى أدماه ، وشهره على حمار أركبه عليه مقلوبا ، وكاد يقتل . ثم سجن فلبث حتى شفع فيه بعضهم فأطلق سراحه . وقد توفى بعد ذلك .

٤ — نجم الدين ابن الرفعة[٣]

وهو العلامة الشافعى المشهور المتوفى عام ٧٠٧ هـ . ندب لمناظرة ابن تيمية

---

(١) ترجمته فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ١٢٦١ .
(٢) الدرر ج ١ رقم ٧٦٨ .
(٣) الدرر ج ١ رقم ٧٣٠ .

ثم سئل ابن تيمية عنه بعد ذلك فقال : « رأيت شيخا تتقاطر فروع الشافعية من لحيته » .

٥ — صدر الدين بن الوكيل[١]

محمد بن عمر بن مكى ، المتوفى عام ٧١٦ هـ كان أديبا وشاعرا وفقيها ومناظرا وكان — كما قيل — لا يقوم بمناظرة ابن تيمية أحد سواه ، حتى إنهما تناظرا يوما ، فاستشهد ابن تيمية ببعض الحاضرين . فأنشده ابن الوكيل من فوره .

إن انتصارك بالإخوان من عجب وهل رأى الناس منصورا بمكسور

٦ — كمال الدين بن الزملكانى[٢]

قاضى قضاة الشافعية بدمشق ، وقد ناظر ابن تيمية فى عقيدته . وصنف فى الرد عليه رسالتين . إحداهما فى مسألة الزيارة . والثانية فى مسألة الطلاق . وقد توفى عام « ٧٢٧ هـ » .

٧ — شرف الدين أبو الروح الحميرى المالكى[٣]

ناب فى الحكم عن قاضى المالكية ابن مخلوف . ورد على ابن تيمية فى موضوع الطلاق . ومات فى عام ٧٤٣ هـ .

٨ — تقى الدين السبكى[٤]

هو والد صاحب الطبقات . وكان رأس الشافعية فى زمانه ، مجتهداً فى استنباط الأحكام . وقد وقعت بينه وبين ابن تيمية مناظرات بسبب مسألة الطلاق وزيارة القبور . قرر فيها السبكى مذهب الشافعية . وقد أشرنا من قبل إلى رسالتيه فى الطلاق والزيارة . ونذكر هنا أن رسالته فى الزيارة « شفاء السقام » بين فيها أن السفر إلى زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام قربة من القربات

---

(١) الدرر ج ٤ رقم ٣١٨ ، وطبقات السبكى ج ٦ ص ٢٣ .

(٢) الدرر ج ٤ رقم ٢١٠ ، ج ٣ رقم ٦٠٩ فى سياق ترجمة البرزالى . والطبقات ج ٥ ص ٢٥١

(٣) الدرر ج ٣ رقم ٥١٠ ويقال له الجميزى .

(٤) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٤٦

وتحدث فيها عن التوسل والاستعانة والشفاعة ، واستدل على جوازها بآى القرآن والحديث . ووقعت مناظرة بينه وبين شمس الدين[1] الكنانى أحد المناظرين ونواب الحكم ، وموضوعها : حد الورع . . ويرى الكنانى أن الورع ترك الشبهة . ويرى السبكى أنه مراتب أدناها اجتناب الكبائر . وللتقى السبكى مناظرات أخرى فى النحو وغيره ، ومنها مناظرات وردود شعرية لطيفة .

٩ — شهاب الدين بن جبريل الكلابى الحلبى[2]

أحمد بن يحيى بن اسماعيل ، وله تصنيف فى خبر الجهة ردا على ابن تيمية . ونشير إليه بعد قليل .

١٠ — صفى الدين الهندى[3]

« محمد بن عبد الرحيم » المتوفى عام ٧١٥ هـ بدمشق . كان ممن ناظر ابن تيمية بإشارة نائب الشام « تنكز » وكان طويل النفس إذا قرر لا يدع شبهة ، ويعز على معارضه مقاومته .

٣ — فتنة بسبب ابن الفارض[4] :

عمر بن الفارض هو الشاعر المتصوف المشهور الذى عاش فى العصر الأيوبى . وعلى يده أينع شعر التصوف أو « الغزل الإلهى » الذى شدا فيه بمحاسن الذات الإلهية المحبوبة ، ودعا إلى الفناء فيها .

وفى عام ٨٧٥ هـ فى عهد الأشرف قايتباى ، وقعت فتنة جارفة بين العلماء بسبب هذا الشاعر ، إذ اختلف بعضهم فى فهم شىء من أبيات قصيدته التائية ، وكثرت بينهم المحاجة والمناظرة .

فمنهم من أخذ بظاهر لفظه ، فنسبه إلى الحلول والقول بالاتحاد ، وحكم بفسقه وكفره . وعلى رأس هذا الفريق : برهان الدين البقاعى ، وقاضى قضاة

(١) توفى الكنانى سنة ٧٤٩ هـ .
(٢) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٨١ .
(٣) الطبقات ج ٥ ص ٢٤٠ .
(٤) نوهنا بهذه الفتنة فى المجلد الثانى من كتابنا هذا ، وأعدنا ذكرها هنا للمناسبة .

الحنفية محب الدين بن الشحنة ، وولده القاضى عبد البر ، والشيخ نور الدين المحلى وقاضى القضاة عز الدين المحلى . وتبعهم جماعة كبيرة من العلماء . وألف البقاعى مقالة فى ذلك ، ورد عليها الجلال السيوطى [١] .

ومنهم من لم يأخذ بظاهر لفظه ، وأول كلامه ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر أو حلول أو اتحاد ، بل حكم بإيمانه الراسخ . وعلى رأس هذا الفريق الشيخ العلامة محيى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحيى بن حجى ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

وقد تناظر الفريقان فى ذلك ، وقال الشيخ قاسم بن قطلوبغا أثناء مناظرته بالاتحاد [٢] .

وكثر القيل والقال بين الفريقين ، وزاد بينهما التراشق ، وكل يعزز مذهبه ورأيه . فلما زاد الأمر بينهما واحتدم النزاع ، كتبت فيه عدة مقالات وفتاوى منها :

١ — مقالة للكافيجى .

٢ — رسالة للجلال السيوطى سماها « قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض » .

٣ — كتاب للبدر بن الفرس .

٤ — صنف أحدهم رسالة سماها « درياق الأفاعى فى الرد على البقاعى » يعنى الشيخ برهان الدين البقاعى .

وامتدت هذه المشاحنة المذهبية إلى شعراء العصر . فسخر بعضهم ممن طعن على ابن الفارض ، ونظم الشاعر شهاب الدين المنصورى يهجو البقاعى بقوله :

إن البقاعى بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالماً فقلبه يعاقب

---

(١) شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٣٩ .

(٢) راجع الضوء اللامع ج ٦ رقم ٦٣٥ .

وكذلك نظم قصيدة طويلة ضمنها كثيراً من أشطار قصيدة لابن الفارض جيمية ، فقال :

بين البقاعى وبين التاج من شرف ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
كلاهما مدع خوضاً بفكرته فى كل معنى لطيف رائق بهج

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى كل القبائح أوحد الأزمان
فى مصر علم أبى حنيفة تدعى جهلا وأنت معرة النعمان

* * *

ولما طال الأمر و تفاقم الخطب وخيفت الفتنة على العامة ، وعلا ضجيج الجدال وبلغ إلى مسامع السلطان ، تعصب لابن الفارض ، ورسم لكاتب سره « ابن مزهر » أن يكتب سؤالا فى الموضوع يوجهه إلى الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى ، فكتب :

« ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى الشافعى — نفع الله المسلمين به — عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن الفارض — تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه — فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه فى مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم ، لا محذور فيها شرعا . فهل يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته ، أم على اصطلاح أهل ملة غير الإسلام ؟ . فما الجواب عن ذلك ؟ أفتونا مأجورين » .

وأنت ترى أن السؤال بصيغته هذه فيه إيحاء بالجواب المطلوب ، وإشعار برأى السلطان .

وقد أجاب الشيخ زكريا على هذا الاستفتاء بعد تمنع شديد ، فقال :

« يحمل كلام هذا العارف — رحمة الله عليه ونفع ببركاته — على اصطلاح

هل طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى ، مجاز فى غيره ، كما هو مقرر فى محله . ولا ينظر إلى مايوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات فى القصيدة :

ولى من أتم الرتبتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان ، بحيث تضمحل ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد ، لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى إليها . كما قال جماعة من علماء الكلام — رضى الله عنهم — ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عن من لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر . ولكل قوم مقال . وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها ، عدم الطعن فيها ، كما قيل :

وإذا كنت بالمدارك غراً ثم أبصرت حاذقاً لاتمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى صبا معى ؛ لكنه ماذاقها

والحالة هذه . والله يمنح بفضله من يشاء بعدله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وقد كان تدخل السلطان واتضاح اتجاهه ، وصدور هذه الفتوى سبباً فى ركود ريح الخلاف والفتنة[1] .

* * *

ونسوق بعض الحوادث فى إيجاز ، فمنها :

١ — أن اسماعيل بن سعيد الكردى المقرئ المصرى ، الذى درس

(١) بدائع ابن إياس ج ٢ ص ١١٩ إلى ١٢١ .

القراءات والفقه والعربية ، وكان طلق العبارة سريع الجواب ، يحفظ الكثير من التوراة والإنجيل ، كان كثير الهزل فى حديثه لا يتهيب فى تعبيره فيما يتصل بالعقائد ، حتى حفظت عنه كلمات نابية ، اشتهر بها حتى أصبح يقال له « اسماعيل الكافر » و « اسماعيل الزنديق » . فادعى عليه لدى القاضى المالكى « تقى الدين الإخنائى » فخلط فى جوابه ، وأقيمت عليه البينة على سقطاته وقذفه فى حق سيدنا لوط ، وحكم القاضى بقتله فى صفر سنة ٧٢٠ هـ[١] .

٢ — أن شمس الدين بن اللبان المتوفى عام ٧٤٩ هـ الذى كان بارعاً فى فنون عدة واشتغل بالتدريس فى زاوية الشافعى ، كان متصوفاً على طريقة الشاذلية . وطار له بذلك صيت عظيم . ولكن ضبطت عليه كلمات على طريقة الاتحادية . فثار ضده الفقهاء وادعى عليه بمجلس القاضى « جلال الدين القزوينى » الشافعى ، والقاضى « شرف الدين عيسى الزواوى » المالكى . وكادوا يبطشون به لولا انتصار ابن فضل الله العمرى له[٢] .

٣ — أن فتح الدين البقنى المصرى « أحمد بن محمد » كان فقيهاً وأديباً ماهراً فى فنون عدة . وكان يناظر ويقضى على خصومه فى المناظرة ، ويفوقهم فى المحاضرة . غير أنه بدت منه أمور تدل على استهتاره بالدين ، فادعى عليه لدى القاضى المالكى « زين الدين بن مخلوف » وقامت عليه البينة . فحبس ثم حكم بقتله فضربت عنقه عام ٧٠١ هـ[٣] .

بعض مشهورى المناظرين والمتكلمين فى العقائد ، وشىء من كلامهم :

أشرنا فيما سبق إلى بعض هؤلاء الذين اشتركوا فى المعارك الكلامية والنظر فى العقائد ، ونحب هنا إكمالا لحديثنا عنهم وتدليلا على صوابه أن نعود اليهم لنشير فى إيضاح إلى بعض جهودهم وشىء من كلامهم . فمنهم :

---

(١) الدرر جـ ١ رقم ٩٢٨ .

(٢) الدرر جـ ٣ رقم ٨٨٧ — ولعل ابن فضل الله هو شهاب الدين .

(٣) الدرر جـ ١ .

١ — عز الدين بن عبد السلام :

سبقت الإشارة إليه ، وكان قاضياً لمصر ، ورأس الشافعية فى زمانه . وكانت به نزعة صوفية سليمة . وتوفى عام ٦٦٠ هـ .

مقالته فى الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة[١] :

وقد أشرنا إلى النزاع الذى احتدم بينه وبين مبتدعى الحنابلة . وقد كتب فى الرد عليهم مقالة فند فيها مزاعمهم ، وقرر مذهب الأشاعرة .

وقد بدأها بحمدالله وتنزيهه عن الولد ومماثلة الحوادث ، وتعاليه عن الزمان والمكان ، والاستواء الحسى على العرش . وذكر أنه مطلع على هواجس الضمائر ، محيط بكل شىء علما ، قديم متكلم ، لا بصوت ولا بحرف .

وبين أن أسماءه تعالى مندرجة فى أربع كلمات هن الباقيات الصالحات ، وهن :

« سبحان الله » اندرج تحتها نحو : القدوس والسلام . وتتضمن تنزيهه سبحانه عن كل نقص وعيب .

و « الحمد لله » ويندرج تحتها نحو : العليم والقدير والسميع والبصير ، وتتضمن إثبات كل كمال له ، وكل جلال .

و « الله أكبر » بمعنى أنه أجل مما نفى عنه ومما أثبت له ، ويندرج تحتها نحو الأعلى والمتعالى .

و « لا إله إلا الله » وهى تدل على أن من كان فى الوجود هذا شأنه ، لا يوجد من يشاكله أو يناظره ، فهو مستحق للعبودية . ويندرج تحتها نحو : الواحد والأحد وذو الجلال والإكرام .

مسائل الطريقة فى علم الحقيقة[٢] :

ويعرف « بالستين » ، وذلك لأنه يحتوى على ستين مسألة أو ستين سؤالا ،

---

(١) راجع طبقات السبكى ج ٥ فى ترجمة ابن عبد السلام . . والحشوية يقولون بالجهة فى جانب الذات الإلهية ، ويذهب مبتدعة الحنابلة مذهبهم فى آيات الجهة كما يثبتون الصوت والحرف .

(٢) هذه الرسالة توجد ضمن مجموعة مطبوعة بدار الكتب المصرية .

يتولى الشيخ عز الدين الإجابة على كل منها . وهى أسئلة تدور حول المعانى التصوفية والخلقية ، ويتسم السؤال والجواب بالإيجاز . ومن الأمثلة سؤال عن الإيمان . وسؤال فى تأويل « لاحول ولا قوة إلا بالله » . وسؤال فى الفرق بين الإسلام والإيمان . وهكذا .

وإليك نموذجاً منه ، قال :

(أ) « مسألة » : إذا قيل لك : « ما الإيمان . ومارأس الإيمان. وما وسط الإيمان . وما شجرة الإيمان . وما ماء الإيمان . وما نهر الإيمان » ؟

فالجواب ، أن تقول : « الإيمان هو الصدق . ورأسه التقوى . ووسطه الطاعة واليقين . وعروقه الصلاة والإخلاص . وشجرته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وغصنه التوحيد . وثمرته الزكاة . وأرضه المؤمنون . وماؤه كلام الله . ونهره العلم » .

(ب) « مسألة » : « إن قيل لك : لكل شىء جوهرة وجوهرة الإنسان العقل . وما جوهرة العقل » ؟ .

فقل : « جوهرة العقل الصبر ، والعمل بحركات القلوب عند مطالعة الغيوب . وأصل الطاعة الورع . وأصل الورع التقوى . وأصل التقوى محاسبة النفس بالخوف والرجاء من الله تعالى » .

(ح) « مسألة » إن قيل لك : « ما الذى يجب على الشيخ فى حق المريد ، وما الذى يجب على المريد فى حق الشيخ ؟ » .

فالجواب أن تقول : « على الشيخ ثلاثة أشياء : التسليك فى البداية . والتبليغ فى النهاية . والحفظ فى الرعاية » . والمريد يجب عليه ثلاثة أشياء : « امتثال أمره وكتمان سره وتعظيم قدره » .

(ء) مسألة : إن قيل لك : الجهل على كم قسم » ؟

فقل : « على قسمين ، جهل مركب وجهل بسيط . فالجهل المركب هو

اعتقاد أمر على خلاف ما هو عليه . والجهل البسيط هو عدم إدراك أمر من الأمور بخلاف المركب » .

هذا . وأنت ترى أن بعض عباراته ، لتوخيه الإيجاز فيها ، فى حاجة إلى شرح .

حل الرموز ومفاتيح الكنوز (١) :

موضوع هذا الكتاب الوجيز تصوفى خلقى أيضا ، ولكن على خط آخر . فقد رأى الشيخ عز الدين أن من الناس من يعترض على بعض الصوفية ولاسيما من تأخذهم الأحوال ، فيتفوهون بعبارات غريبة المجاز خفية الكناية بعيدة التأويل ، أو يظهرون بمظهر مضطرب يأباه الذوق والكياسة ، أو يناقض الشريعة وظاهرها .

أحب الشيخ عز الدين أن يبين لهؤلاء المعترضين سبب هذا التجوز والاضطراب والتناقض ، وأن يفصح لهم عن كنه هذه الرموز ، ويجلى لهم حلها حتى لا يتورطوا فى شئ لا يعلمون حقيقته .

واشتمل الكتاب على عدة فصول مكتوبة بأسلوب جذاب واضح نسبيا ، على الرغم من خطورة موضوعاتها ، وغرابة معانيها ... وهو يسجع أحيانا حينما يصفو له السجع ، ويسترسل إذا طاوعه اللفظ ، ويستشهد بالآيات والأحاديث ويفسر ويشرح أحيانا ويستنبط أخرى ويسوق المأثور من الشعر والنثر فى مناسباته ، وكثيرا ما يخف ويظرف ، وأحيانا يغلبه التعبير المنطق .

ومن موضوعاته : بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان . شرح معنى التوبة . العقبات الست التى لابد من قطعها حتى يصل المرء إلى منازل القربات مع بيان مايترتب من الفتوح على تخطى كل عقبة . . فناء المحب فى المحبوب وطريقة ذلك وما يتبعه من فيض . وتحدث فى فصول عن صلة العبد بربه وبيان حقيقة هذه الصلة وكيفيتها ، إلى غير ذلك .

---

(١) هذا الكتاب مطبوع بمصر عام ١٣١٧ هـ ومجلد مع كتاب . . « فتح الرحمن » لزكريا الأنصارى ، ويقع فى ٨٦ صفحة .

وقد قال فى فصل يوضح بعض الحالات عند من تخطى العقبات الست :

« هنا لك تغيب بما تشاهد من الأنسية عن الكثائف الحسية . فإذا أرادك لخصوصية الاصطفائية سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ ، وبالذوق شوقا . وبالقرب طلبا ، وبالسكون قلقا . » . ثم قال بعد سطور :

« فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك . فإذا أدهشك حيرك . فأنت ههنا مريد . فإذا أدام لك تحيرك ، أخذك منك . وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوبا مجذوبا . فأنت حينئذ مراد . إذ أنت معه بلا أنت . وعنده بلا أين . مشاهدة بلا كيف . فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك . وببقائه عن فنائك . وخلع عليك خلعة « فبى يسمع وبى يبصر » . فيكون هو متوليك ومواليك . فإن نطقت فبأذكاره . وإن نظرت فبأنواره . وإن تحركت فبأقداره . فهنالك ذهبت الأثنينية . واستحالت البينية . فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك ، وحار سكرك ، قلت : « هو » . وإن غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت : « أنا » . فأنت فى الأول متمكن ، وفى الثانى متلون . ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام . فقائل يقول : « زنديق فيقتل » . وقائل يقول : « صديق فيحمل » . وقائل يقول : « مغلوب عليه فيهمل » . فهو من حيث تحقيق حاله محقق فى علمه . والذى حكم فى قتله مصيب فى حكمه . إذ الشريعة لها حدود ، من تعداها أقيمت عليه الحدود . قال الله تعالى : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » . والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود » .

٢ — تقى الدين بن تيمية الحرانى

سبقت الإشارة إلى هذا العلامة وإلى بعض حوادث كفاحه . والآن نعرض على القارئ بعض رسائله ومقالاته . فمنها :

كتاب « الإيمان » [١]

هذا الكتاب من أفضل كتب ابن تيمية . تحدث فيه عن « الإيمان » وما يتصل به . وعقد لذلك فصولا متوالية متواصلة تحسبها فصلا واحدا ، وهذا دليل وحدة فكره .

وهو فى صميم العقائد ورد فيه على مزاعم الجهمية والمعطلة ، وأضرابهم .

ومن فصوله أو موضوعاته : تفريق النبى صلى الله عليه وسلم بين الإسلام والإيمان . بيان علم معنى المؤمن والمسلم والمهاجر . تفسير قوله تعالى : « أولئك هم المؤمنون حقا » . العلم علمان : علم القلب وعلم اللسان . خشوع الجسد تبع لخشوع القلب . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . إجماع المؤمنين حجة الخ

ويستطرد الباحث المؤلف إلى موضوعات مختلفة منها تفسير آيات من القرآن الكريم فى مناسباتها . ومنها بحوث أدبية أو تاريخية أو لغوية .

ولعل من أجمل بحوثه الجديرة بالنظر ، كلامه عن « الحقيقة والمجاز » . وهو ينكر وقوع المجاز فى اللغة . ويؤرخ أقوال العلماء فى هذا الموضوع مستشهداً بها . ويقول إن العلماء لم يتحدثوا عن المجاز إلا فى القرن الثالث أو أواخر القرن الثانى . أما قبل ذلك فلم يتحدث أحدهم عنه ولم يعرفوه .

وأول من عرف أنه تكلم بلفظ « المجاز » هو أبو عبيدة . ولكنه لم يكن يعنى بالمجاز ، ما عناه علماء البلاغة فيما بعد . بل كان يعنى تفسير آى القرآن [٢].

وأسلوب كتاب « الإيمان » مرسل فى جملته ، واضح الدلالة ، غزير المعانى ، متتابع الصور فى عجلة مصحوبة بآيات القرآن والأحاديث وأقوال العلماء فى مقام الاستدلال . ويسوق فى خلال ذلك أحيانا أقوال المعارضين ، ويدحضها ويعمل على إبطالها فى حجة قوية حاسمة ، ذلك لأنه يتحدث بقلبه وعقله معا .

---

(١) كتاب مطبوع .

(٢) لأبى عبيدة كتاب اسمه « مجاز القرآن » ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحتاج إلى تحقيق . وهى تفسير لبعض آى القرآن الكريم فى إيجاز .

وقد تحدث فى خطبته مفصحاً عن منهج بحثه فيه ، فقال :

« اعلم أن الإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله . وقد كثر كلام الناس فى حقيقة الإيمان والإسلام ، ونزاعهم واضطرابهم . وقد صنف فى ذلك مجلدات .

والنزاع فى ذلك من حين خرجت الخوارج بين عامة الطوائف . ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبى صلى الله عليه وسلم مع كلام الله تعالى . فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله ورسوله . فإن هذا هو المقصود . فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء ، بل نذكر من ذلك فى ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله ، ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى الرسول خير وأحسن تأويلا ، وأحسن عاقبة فى الدنيا والآخرة » .

وقال فى بعض فصوله مبينا معنى المسلم والمؤمن والمهاجر والمجاهد :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم . والمهاجر من هجر السيآت . والمجاهد من جاهد نفسه لله » .

وهذا مروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وغيرهما بإسناد جيد ، وهو فى السنن ، وبعضه فى الصحيحين .

وقد ثبت عنه من غير وجه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

ومعلوم أن من كان مأموناً على الدماء والأموال ، كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده . ولولا سلامتهم منه لما ائتمنوه . وكذلك فى حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبشة . وفى حديث عبد الله بن عبيد بن عمير أيضاً عن أبيه عن جده ، أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما الإسلام ؟ قال : « إطعام الطعام وطيب الكلام » . قيل : فما الإيمان ؟ قال : « السماحة والصبر » . قيل : فمن أفضل المسلمين إسلاماً . قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » . قيل : فمن أفضل المؤمنين إيمانا . قال : « أحسنهم

خلقا » . قيل : فما أفضل الهجرة قال : « من هجر ما حرم الله عليه » . قيل : أى الصلاة أفضل . قال : « طول القنوت » . قيل : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد المقل » . قيل : أى الجهاد أفضل . قال : « أن تجاهد بمالك ونفسك فيعقر جوادك ويراق دمك » . قيل : أى الساعات أفضل قال : « جوف الليل الغابر » .

ومعلوم أن هذا كله مراتب بعضها فوق بعض . وإلا فالمهاجر لابد أن يكون مؤمنا . وكذلك المجاهد . ولهذا قال : الإيمان السماحة والصبر . وقال فى الإسلام : « إطعام الطعام وطيب الكلام » .

والأول مستلزم للثانى . فإن من كان خلقه السماحة ، فعل هذا . بخلاف الأول . فإن الإنسان قد يفعل ذلك تخلقا ، ولا يكون فى خلقه سماحة وصبر . وكذلك قال : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » . وقال : « أفضل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » . ومعلوم أن هذا يتضمن الأول . فمن كان حسن الخلق فعل هذا " .

العقيدة الواسطية والمناظرة فى موضوعاتها (١) :

هى مقالة مذهبية كتبها ابن تيمية لما شكا إليه بعض قضاة واسط ، من أهل الخير والدين ، ما الناس فيه من جهل وظلم وبعد عن الدين والعلم . سأله أن يكتب لهم « عقيدة » ليستنيروا بها — وكان ذلك قبل مجىء التتار إلى الشام بنحو سبع سنين . وقد رد عليه ابن تيمية بأن الناس كتبوا من قبل عقائد السلف ، ولكن السائل ألح عليه فى السؤال ، فكتب له هذه العقيدة وسماها « الواسطية » وهى التى حوكم مرة من أجلها فى مجلس « الأفرم » نائب الشام .

وتقع هذه العقيدة فى نحو أربعمائة سطر . وقد أوجزها أولا فى سطرين ، ثم أخذ يشرحها ويبسط القول فيها معززا بالأسانيد العقلية والنقلية .

أما إجمالها فى سطرين فقد قال فيه :

---

(١) مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية .

« اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة ، أهل السنة والجماعة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره » .

وفى عداد الموضوعات التى تناولها فى خلال شرحه : صفات الله سبحانه وتعالى . وقد تناظر ابن تيمية مع لفيف من العلماء بمجلس الأفرم ، فى هذه العقيدة ، إذ أخذ كاتب الأفرم فى قراءتها على الحاضرين حرفاً حرفاً ويعترض بعضهم ويجيب ابن تيمية على اعتراضه ، ويسأله بعضهم ويرد ابن تيمية على سؤاله . وهكذا — ونورد لك من سطور هذه المناظرة الحامية حول العقيدة الواسطية ، ما دار حول صفات الله سبحانه وتعالى .

قال ابن تيمية :

" اعترض بعضهم على قولى فيها : « ومن الإيمان بالله ، الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل » . ومقصوده أن هذا ينفى التأويل الذى هو صرف اللفظ عن ظاهره إما وجوبا وإما جوازا . فقلت :

إنى عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ، لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه . وأنا تحريت فى هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة . فنفيت ما ذمه الله من التحريف ولم أذكر فيها لفظ التأويل ، لأنه لفظ له عدة معان كما بينته فى موضعه من القواعد . فإن معنى لفظ التأويل فى كتاب الله غير لفظ التأويل فى اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، وغير معنى التأويل فى اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف .

وقلت لهم : « ذكرت فى النفى التمثيل ولم أذكر التشبيه ، لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث يقول : « ليس كمثله شىء » .

وأخذوا يذكرون نفى التشبيه ، والتجسيم ، ويطنبون فى هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك . فقلت :

« قولى من غير تكييف ولا تمثيل ، ينفى كل باطل . وإنما اخترت هذين الاسمين لأن التكييف مأثور نفيه عن السلف . كما قال ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التى تلقاها العلماء بالقبول : « الاستواء معلوم . والكيف مجهول والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة » — فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا . فنفيت ذلك اتباعا لسلف الأمة . وهو أيضاً منفى بالنص ، فإن تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف ، وحقيقة صفاته غير معلومة . وهذا من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . كما قررت ذلك فى قاعدة مفردة ذكرتها فى التأويل والمعنى ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام وبين علمنا بتأويله .

وكذلك التمثيل منفى بالنص والإجماع القديم مع دلالة العقل على نفيه ونفى التكييف ، إذ كنه البارى غير معلوم للبشر .

وذكرت فى ضمن ذلك ، كلام الخطّابى الذى نقل أنه مذهب السلف ، وهو إجراء الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها ، إذ الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات ، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود ، لا إثبات تكييف » .

فقال أحد كبراء المخالفين : فحينئذ يجوز أن يقال « هو جسم لا كالأجسام » فقلت له أنا وبعض الفضلاء : إنما قيل إنه يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله . وليس فى الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا . وأول من قال إن الله جسم ، هشام بن الحكم الرافضى . وأما قولنا فهو فيهم الوسط فى فرق الأمة ، كما أن الأمة هى الوسط فى الأمم ، فهم وسط فى باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة " . . الخ . .

العقيدة الحموية الكبرى : (١)

تقع فى نحو ألف سطر . وهى رد على سؤال ورد إلى ابن تيمية فى آيات

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى مطبوعة ضمن مجموعة وبدار الكتب المصرية نسخة منها .

الصفات كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » . وقوله : « ثم استوى إلى السماء » ، إلى غير ذلك من الآيات . وأحاديث الصفات أيضاً كقوله صلى الله عليه وسلم « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » . وقوله : « يضع الجبار قدمه فى النار » إلى غير ذلك .

وقد أشار ابن تيمية فى مستهلها إلى ضرورة هداية الناس ، مبينا اختلافاتهم فى فهم كثير من الأمور التى ينبغى عليهم فيها الرجوع إلى القرآن والحديث ، وأن يقفوا عندهما .

وتحدث فيها طويلا عن جهة العلو والاستواء ونحوهما ، بما لا يخرج عما ذكرناه عنه من قبل . وأسلوبه فيها كأسلوبه فى العقيدة الحموية ومناظرته . فنكتفى بهذا .

ونكتفى بهذا أيضاً عن التعريف بكثير من مؤلفات ابن تيمية فإنها جميعاً تكاد تكون على نسق واحد من العناية بالكلام فى العقائد ومزجه بالتفسير والحديث والنقليات الأخرى ، مع وضوح وسعة شرح ودقة تعبير .

شمس الدين بن القيم :

سبق أن تحدثنا عن ابن القيم ونوهنا بشىء من جهاده فى سبيل العلم والدين والرأى ، وألمعنا إلى بعض صلاته بأستاذه ابن تيمية .

وابن القيم الحنبلى يكاد يكون صورة من ابن تيمية فى تفكيره ، لولا سلوكه مسلك الصوفية ، ولذلك لم يحمل عليهم ولم يتنقصهم كما تنقصهم ابن تيمية .

ولعل أهم وجوه الشبه بين الرجلين : تدفقهما فى العبارة ، وقوتهما فى بيان الحجة ، وإيمانهما التام بما يقولان ، وفهمهما الدقيق له ، وتقديرهما الأمانة العلمية التى حملاها فأداها ، ورجوعهما فى كل ما يذهبان إليه إلى الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح ، والاستشهاد بها فى كل مناسبة ، ثم مزجهما الكلاميات بمقالات التفسير وشرح الحديث .

ولا بن القيم ، كأستاذه ، مقالات ورسائل ومؤلفات لا تحصى ، نذكر منها مما يختص بموضوع بحثنا ما يلى :

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين :

هذا الكتاب شرح لكتاب « منازل السائرين » لأبى اسماعيل الأنصارى الحنبلى الهروى أحد الصوفية[1] فى القرن الخامس الهجرى .

ومنازل السائرين متن فى التصوف والأخلاق شديد الإيجاز ، فيه غموض وإبهام ومصطلحات صوفية شاقة . وقد عنى ابن القيم بشرحه شرحاً مستفيضا فى كتاب « مدارج السالكين » فأجاد وأفاد ، حتى لايحسب بجانبه متن الهروى شيئا مذكوراً .

وقد جمع ابن القيم فى شرحه بين السنة والرأى ، أو المنقول والمعقول . فلا هو إلى جماعة أهل الأثر ، ولا هو إلى غلاة المتصوفة أو المتأولين . فهو بينهما وسط صالح . وقسم كتابه ثلاثة أجزاء .

وفى الجزء الأول : عنى بتفسير فاتحة القرآن تفسيراً مفصلا شائقاً ، مبيناً ما تحتوى عليه من المعانى الكثيرة المنثورة فى القرآن كله ، ومن التوحيد . وتحدث فى سطوره عن الهداية والوحى والرقية بالفاتحة . ورد على كثير من أهل الفرق المبتدعة . وتكلم عن الذنب والمعصية والتوبة والاستغفار وغيرها.

وفى الجزء الثانى : شرح معنى الإخبات والورع والزهد والتبتل والرغبة والرعاية والمراقبة والاعتراض والإخلاص والتوكل المحمود والمذموم ، والاستقامة والشكر والإيثار والبخل والجود والمروءة ، إلى غير ذلك .

وفى الجزء الثالث : عرف بالهمة والمحبة والغيرة والشوق والوجد والأمل والذوق والاغتراب والغيبة والمشاهدة والمعاينة والحياة والقبض والبسط والسكر والصحو والاتصال والمعرفة والفناء والبقاء ، وغير ذلك .

ويبدو من هذا التدرج فى موضوعات الأجزاء الثلاثة ، أن ابن القيم أراد - كما أراد الهروى - أن يتدرج بالسالك من حالته الأولى إلى الحالة العليا . فبين

---

(١) الهروى هو عبد الله بن محمد بن على ، توفى فى ذى الحجة عام ٤٨١ هـ وترجمته فى تذكرة الحفاظ للذهبى ج ٣ الطبقة الرابعة .

فى الجزء الأول كيفية رياضة النفس ، وفى الثانى المقامات الحسنى والأخلاق النافعة التى إذا ثبت عليها وثابر ، بلغ المرتبة الثالثة ، وهى التى شرح أحوالها فى الجزء الثالث . وفيها يعى أشياء ويتذوق أشياء ما كان له أن يعيها ولا أن يتذوقها من قبل .

وقد ركز ابن القيم أكثر كلامه حول قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» ، وبين فى روح إسلامية صحيحة وبنظرة سليمة عالية ، ما فيها من الحقائق الرائعة والمعانى الرفيعة الجامعة .

وقد قال فى خطبة كتابه هذا ، يعرّض بمن لم يفهموا كتاب الله حق الفهم ، ولم يعملوا به ، ويتهكم بهم تهكما مراً ، قال :

« أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان . له السكة والخطبة ، وماله حكم نافذ ولا سلطان . المتمسك عندهم بالكتاب والسنة ، صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول . والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة ، والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول . وأهل الكتاب والسنة المقدّمون لنصوصها على غيرها ، جهال لديهم منقوصون . « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » . حرموا — والله — الوصول ، بعدولهم عن منهج الوحى وتضييعهم الأصول . وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها . فخانتهم أحرص ما كانوا عليها . وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها ، حتى إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور . وتميز لكل قوم حاصلهم الذى حصلوه . وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه . وقدموا على ما قدموه . وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وسقط فى أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه . فياشدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثوراً . ويا عظم المصيبة عند ما يتبين بوارق أمانيه خلبا وآماله كاذبة غرورا . فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى والتعصب للآراء ، بربه يوم تبلى السرائر . وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره فى يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذير » الخ . . .

شفاء العليل (١):

واسمه الكامل « شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » . وموضوعه واضح من عنوانه فهو يفصل الحديث عن مشكلة القضاء والقدر ، وما يتصل بها من الحديث عن صفات الله سبحانه وتعالى ، ومظاهرها ، وعن أفعال العباد وما يترتب عليها من ثواب وعقاب ، وغير ذلك من المسائل الشائكة فى العقيدة .

وقد تحدث ابن القيم عن اختلاف العقلاء فى ذلك ، وعن تباين الأمم وأهل العصور فى فهمه والوصول إلى حقيقة أمره . وجعل همه فى هذا الكتاب أن يبين وجه الحق فى هذه المسائل ، كما فهمه من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . وتطرق فى خلال فصوله إلى الحديث عن كثير من أهل المذاهب مع التفرقة بينهم كأهل السنة والقدرية والجبرية .

ومن فصوله : تقدير المقادير قبل خلق السموات والأرض . تقديره تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم . أن سبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضى ترك الأعمال . تفسير قوله : تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .

وتحدث فى فصول عن : مراتب القضاء والقدر . والمشيئة . وعن خلق الله للأعمال . والكسب والجبر . وتنزيه القضاء الإلهى عن الشر . وعن أن من أصول الإيمان : الإيمان بالقدر خيره وشره . حلوه ومره . . الخ » . .

كل هذا فى عبارة واضحة سلسة بعيدة عن التعقيد ، تترامى إليك معانيها طيعة مدعومة بالآيات والأحاديث فى مناسباتها الدقيقة ، مزودة بحججها القوية وبراهينها الساطعة ، على الرغم من فداحة الموضوعات وقسوة تصورها وعمق مراميها . يزجيها هينة لا كلفة فيها ولا قيود إلا ما يسنح بين آونة وأخرى .

ونحن نجتزئ من هذه الرسالة الفريدة بأن نثبت سطورا من مناظرتين

---

(١) هذا الكتاب مطبوع يقع فى نحو ٣٠٧ صفحة .

قيمتين سجلهما ابن القيم فيها بقلمه . وفيهما يبدو الحوار حامياً ، والنقاش قاسياً . وكل يحاول تعزيز رأيه بالحجة والمنطق .

المناظرة الأولى : عقدها بين جبرى وسنى . وتقع فى نحو أربعمائة سطر قال فى أولها :

قال الجبرى :

القول بالجبر لازم لصحة التوحيد . ولا يستقيم التوحيد إلا به . لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلا للحوادث مع الله ، إن شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل . وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر .

قال السنى :

بل القول بالجبر مناف للتوحيد . ومع منافاته للتوحيد فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب . فلو صح الجبر لبطلت الشرائع وبطل الأمر والنهى . ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب .

قال الجبرى:

ليس من العجيب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهى والثواب والعقاب فإن هذا لم يزل يقال . وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد . وهو من أقوى أدلة التوحيد . فكيف يكون المصور للشىء المقوى له منافيا له .

قال السنى :

منافاته للتوحيد من أظهر الأمور . ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهى . وبيان ذلك أن أصل عقيدة التوحيد وإثباته هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . والجبر ينافى الكلمتين . فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال ، المنعوت بنعوت الجلال . وهو الذى تؤلهه القلوب وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء . فالتوحيد الذى جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله ، الذى هو كمال الذل والخضوع والانقياد له مع كمال المحبة والإنابة وبذل الجهد فى طاعته ومرضاته ، وإيثار محابه ومراده الدينى على محبة العبد ومراده .

فهذا أصل دعوة الرسل وإليه دعوة الأمم وهو التوحيد الذى لا يقبل الله من أحد دينا سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين . وهو الذى أمر به رسله ، وأنزل به كتبه ودعا إليه عباده ، ووضع لهم دار الثواب والعقاب لأجله ، وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله . وكان من قولك أيها الجبرى : أن العبد لا قدرة له على هذا ألبتة ، ولا أثر له فيه ولا هو فعله وأمره . بهذا أمر له بما لا يطيق .. بل أمر له بإيجاد فعل الرب . والرب سبحانه أمره بذلك وأجبره على ضده . وحال بينه وبين أمره به ومنعه وصده عنه . ولم يجعل له إليه سبيلا بوجه من الوجوه . مع قولك إنه لا يحب ولا يحب . فلا تتألهه القلوب بالمحبة والود والشوق والطلب وإرادة وجهه . والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية وإثبات العبودية . فرفعت معنى الإلهية بإنكار كونه محبوبا مودوداً تتنافس القلوب فى محبته وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه . ورفعت حقيقة العبودية بإنكار كون العبد فاعلا وعابدا ومحبا . فإن هذا كله مجاز لا حقيقة له عندك ، فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه . لا سيما والوصف الذى وصفته به منفر للقلوب عنه حائل بينها وبين محبته . فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله . وينهاه عما لا يقدر على تركه . بل يأمره بفعله هو سبحانه . وينهاه عن فعله هو سبحانه . ثم يعاقبه أشد العقوبة على مالم يفعله ألبتة بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه ... » إلى آخر ما قال السنى ، وآخر ما تناظرا فيه .

المناظرة الثانية : عقدها بين قدرى وسنى . وتقع فى نحو ٨٠٠ سطر . قال فى أولها :

قال القدرى :

قد أضاف الله الأعمال إلى العباد بأنواع الإضافة العامة والخاصة . فأضافها إليهم بالاستطاعة تارة كقوله : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » . وبالمشيئة تارة كقوله : « لمن شاء منكم أن يستقيم » . وبالإرادة تارة كقول الخضر : « فأردت أن أعيبها » . وبالعقل والكسب والصنع كقوله :

«يفعلون» و «يعملون» و « بما كنتم تكسبون » و « لبئس ما كانوا يصنعون ».

وأما بالإضافة الخاصة فكإضافة الصلاة والصيام والحج والطهارة والزنا والسرقة والقتل والكذب والكفر والفسوق وسائر أفعالهم إليهم . وهذه الإضافة تمتنع إضافتها إليه . كما أن إضافة أفعاله تعالى ، تمتنع إضافتها إليهم . فلا تجوز إضافة أفعالهم إليه سبحانه دونهم ، ولا إليه معهم . فهى إذن مضافة إليهم دونه .

قال السنى :

هذا الكلام مشتمل على حق وباطل . أما قولك إنه أضاف الأفعال إليهم فحق لاريب فيه . وهذا حجة لك على خصومك من الجبرية . وهم يجيبونك بأن هذا الإسناد لا حقيقة له . وإنما هو نسبة مجازية صحها قيام الأفعال بهم . كما يقال : جرى الماء وبرد وسخن ، ومات زيد » . ونحن نساعدك على بطلان هذا الجواب ، ومنافاته للعقول والشرائع والفطر .

ولكن قولك : « هذه الإضافة تمنع إضافتها إليه سبحانه » ، كلام فيه إجمال وتلبيس . فإن أردت بمنع الإضافة إليه منع قيامها به ووصفه بها وجريان أحكامها عليه ، واشتقاق الأسماء منه له ، فنعم ، هى غير مضافة إليه بشىء من هذه الاعتبارات والوجوه . وإن أردت بعدم إضافتها إلى علمه بها وقدرته عليها ، ومشيئته العامة وخلقه ، فهذا باطل . فإنها معلومة له سبحانه مقدورة له مخلوقة . وإضافتها إليهم لا تمنع هذه الإضافة . كالأموال ، فإنها مخلوقة له سبحانه ، وهى ملكه حقيقة ، قد أضافها إليهم . فالأعمال والأموال خلقه وملكه ، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده ، وهو الذى جعلهم مالكيها وعامليها . فصحت النسبتان . وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم كحصول الأعمال . وهو الذى خلق الأموال وكاسبيها ، والأعمال وعامليها . فأموالهم وأعمالهم ملكه وبيده . كما أن أسماعهم وأبصارهم وأنفسهم ملكه وبيده . فهو الذى جعلهم يسمعون ويبصرون ويعملون فأعطاهم حاسة السمع والبصر وقوة السمع والبصر ، وفعل الأسماع والأبصار . وأعطاهم آلة العمل وقوة العمل ونفس العمل . فنسبة قوة

العمل إلى اليد ، والكلام إلى اللسان ، كنسبة الكلام والبطش إلى محلهما . وإن كانوا هم الذين خلقوا لأنفسهم الرؤية والسمع ، فهل خلقوا محلهما وقوى المحل ؟ ... والأسباب الكثيرة التى تصلح معها الرؤية والسمع ؟ أم الكل خلق من هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار ؟ » .

إلى آخر ما تناظرا فيه ...

وواضح من سياق هذه السطور الموجزة ، أن هاتين المناظرتين كانتا فى صالح السنّى أكثر من مناظريه ...

شهاب الدين بن جبريل الكلابى الحلبى [1] :

هو أحمد بن يحيى بن إسماعيل المتوفى عام ٧٣٧ هـ . وقد صنف تصنيفاً يقع فى نحو ٨٠٠ سطر ، فى خبر الجهة ، ورد فيه على ابن تيمية .

وقد بدأ هذا التصنيف بخطبة حمد الله فيها وأثنى عليه تعالى وعلى نبيه ، ونزهه عما يقوله أهل الغى والضلال قائلا :

« لا يحمله العرش . بل العرش وحملته محمولون بلطيف قدرته . مقهورون فى قبضته . أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . مطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر . فسبحانه . ما أعظم شانه . وأعز سلطانه !! » .

وقد أخذ يبين السبب فى تسطير نبذته فقال :

« أما بعد فالذى دعا إلى تسطير هذه النبذة ما وقع فى هذه المدة مما علقه بعضهم فى إثبات الجهة ، واغتر بها من لم يرسخ فى التعليم قدمه . ولم يتعلق بأذيال المعرفة ، ولا كبحه لجام الفهم ، ولا استبصر بنور الحكمة . فأحببت أن أذكر عقيدة أهل السنة والجماعة ، ثم أبين فساد ما ذكره مع أنه لم يدع دعوى إلا نقضها ولا اطرد قاعدة إلا هدمها » .

وأخذ يبين مذهب الحشوية فى إثبات الجهة ويزيفه ، وقد قسمهم فريقين:

---

(١) ترجمته فى طبقات السبكى ج ٥ ص ١٨١ ، وبها نص هذا التصنيف بتمامه .

فريق لا يتحاشى فى إظهار الحشو ، وفريق يتستر بمذهب السلف ، لغاية من سحت أو حطام أو هوى أو نحوه . وفى هذا الفريق من يكذب على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويزعم أنهم يقولون بمقالته وقال :

« وهؤلاء يتحلون بالرياء والتقشف ، فيجعلون الروث مفضضاً ، والكنيف مبيضاً . ويزهدون فى الذرة ليحصلوا الذرة . فأظهروا للناس نسكا وعلى المنقوش داروا .

ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه . دون التجسيم والتشبيه . والمبتدعة تزعم أنها على مذهب السلف .

وكل يدعون وصال ليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا »

وتحدث عن الخوارج والجهمية وكيف وقف لهم السلف . وبين أن السلف لم يكونوا يتكلمون فى شىء من الجهة ، بل قصروا همهم على الدعوى إلى التقوى والغزو وأفعال الخير والحث على العبادة . وأنه لم يؤثر عن النبى أو أحد أصحابه أنه جمع الناس وحدثهم فى صفات الله ، أو جهة علوه ، ثم قال عن الحشوية :

« ثم الحشوية إذا بحثوا فى مسائل أصول الدين مع المخالفين تكلموا بالعقول وتصرفوا فى المنقول . فإذا وصلوا إلى الحشو تبلدوا وتأسوا . فتراهم لا يفهمون بالعربية ولا بالعجمية ، كلا . . . والله لو فهموا لهاموا ، ولكن اعترضوا بحر الهوى ، فشقوه وعاموا . وأسمعوا كل ذى عقل ضعيف وذهن سخيف . وخالفوا السلف فى الكف عن ذلك مع العوام ، ولقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه إذا تكلم فى علم التوحيد أخرج غير أهله . وكانوا رحمهم الله تعالى . لا يتكلمون فيه إلا مع أهل السنة منهم ، إذ هى قاعدة أهل التحقيق . وكانوا يضنون به على الأحداث ، وقالوا : « الأحداث هم المستقلون الأمور المبتدئون فى الطريق . فلم يجربوا الأمور ولم يرسخ لهم فيها قدم ، وإن كانوا أبناء سبعين » . وقال سهل رضى الله عنه : « لا تطلعوا الأحداث على الأسرار قبل تمكنهم من اعتقاد أن الإله واحد ، وأن الموجد فرد صمد منزه عن الكيفية والأينية ،

لا تحيط به الأفكار ولا تكيفه الألباب » . وهذا الفريق لا يكتفى من إيمان الناس إلا باعتقاد الجهة . وكأنه لم يسمع الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

وأخذ يستنكر الخوض من العوام فى هذه الأمور . واستطرد حتى أجمل عقيدة أهل السنة فقال : « عقيدتنا أن الله قديم أزلى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، ليس له جهة ولا مكان ولا يحتوى عليه وقت ولا زمان . ولا يقال له أين ولا حيث يُرى . لا عن مقابلة ولا على مقابلة . كان ولا مكان . كوّن المكان ودبر الزمان . وهو الآن على ما عليه كان . هذا مذهب أهل السنة وعقيدة مشايخ الطريق — رضى الله عنهم » .

ثم طفق يوضح ما غمض فى هذه العقيدة ، ويفصل ما أجمل مستنداً إلى القرآن والحديث وتفاسير الأئمة والصالحين ، وتحدث فى التنزيه ، وأقام الحجة على نفى الجهة والتشبيه ، رادا على ابن تيمية فى ذلك ، مبيناً فساد رأيه فى تفسير الآيات : « إليه يصعد الكلم الطيب » . و« إنى متوفيك ورافعك إلىّ » . ذاهباً إلى أن الرفع يكون فى المرتبة والتقرب فى المكانة ، ويشهد لذلك عرف العرب ... الخ .

هذا ويبدو أن الخلاف بين ابن تيمية ومعارضيه خلاف لفظى ، أتى من الحرص على التعبير عن المعانى بطريق لفظى خاص . وذلك أن ابن تيمية يرى أن الله فى قوله تعالى : « استوى على العرش » استوى استواء حقيقياً لا مجازياً . وحجته فى ذلك أنه لا يخرج عن التعبير القرآنى ، وأنه لا يذهب مذهب أهل المجاز ولا يقره ، وأنه ينبغى ألا يفهم كلام الله عن طريق المجاز . بل كلامه سبحانه حقيقة لا مجاز فيها . واللغة تتسع للتعبير الحقيقى ، عن المعنى المجازى ، إذا أراده الله سبحانه ، فلا داعى إذن للتفسير المجازى . ثم إنه يوضح هذا الاستواء الحقيقى بأنه بلا كيفية ولا تمثيل ولا تشبيه ، فهو من هذه الناحية بعيد عن التجسيم .

أما معارضوه فإنهم يفهمون من كلامه أنه التجسيم ، شأنه فى ذلك شأن مبتدعة الحنابلة . وهو من ذلك براء . أما هم فينزهون الله سبحانه تنزيهاً مطلقاً .

وإلى هنا نكتفى بعرض النماذج الكلامية . ونسرد عليك أسماء رجال آخرين اشتهروا بمقدرتهم على المناظرة المذهبية ، فمنهم :

١ — برهان الدين الزرعى المتوفى عام ٧٤١ هـ ، كان إليه المنتهى فى التحرى وصحة الذهن وسرعة الإدراك وقوة المناظرة[١] .

٢ — علاء الدين الباجى المتوفى عام ٧١٤ هـ ، وقد أشرنا إلى أنه ممن ناظر ابن تيمية . وكان شافعى المذهب ماهراً فى عدة علوم قديراً على المناظرة . وقد قيل : « قال الشيخ الأصفونى : كنا عند ابن دقيق العيد فقال : يا فقهاء ! حضر شخص يهودى يطلب المناظرة . قال : فسكتنا . فبادر الباجى فقال : « أحضروه فنحن بحمد الله ندفع الشبهة » . وحكى عن نفسه قال : « إن ابن تيمية لما دخل القاهرة حضرت فى المجلس الذى عقدوه له فلما رآنى قال : « هذا شيخ البلاد » . فقلت : « لا تطرنى . ما ههنا إلا الحق ، وحاققته فى أربعة عشر موضعا . فغير ما كان كتب به خطه » . وقال عنه السبكى فى طبقاته « كان إليه مجالس المناظرات[٢] » .

٣ — قاسم بن قطلوبغا المتوفى عام ٨٧٩ هـ ، كان قديرا على المناظرة وإفحام الخصم ، مغرماً بالانتقاد . قيل : « إن كلامه أوسع من علمه » . وقال السخاوى « إن كلامه أحسن من قلمه[٣] » .

٤ — بهاء الدين السبكى « محمد بن عبد البر » المتوفى عام ٧٧٧ هـ ، ولى قضاء الشافعية بمصر مدة وكان ماهرا فى المناظرة[٤] .

٥ — زين الدين بن المرحل المتوفى عام ٦٩١ هـ ، كان مناظرا[٥] .

٦ — البساطى والعلاء البخارى تناظرا فى مسألة ابن الفارض وحكم بينهما الكمال بن الهمام[٦] .

---

(١) شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٢٩ .
(٢) الدرر جـ ٣ رقم ٣٣٢ والطبقات جـ ٦ ص ٢٢٧ .
(٣) الضوء اللامع جـ ٦ رقم ٦٣٥ .
(٤) الدرر جـ ٣ رقم ١٣١٦ . (٥) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩٦ .
(٦) الضوء جـ ٨ ص ١٢٩ فى ترجمة الكمال بن الهمام .

٧ — علاء الدين بن مغلى ونظام الدين السيرامى كانا يتناظران بحضرة السلطان المؤيد شيخ[١] .

٨ — ابن قاضى شهبة وبرهان الدين بن ظهيرة تناظرا بين يدى القاضى شهاب الدين بن حجر العسقلانى[٢] .

٩ — نجم الدين بن ملّى «أحمد بن محسِّن» المتوفى عام ٦٩٩ هـ ، الذى حدث بحلب ودمشق ، وتردد على مصر وشهد له أهلها بالفضل ، ودخل بغداد وأعاد بالمدرسة النظامية . قال عنه السبكى فى طبقاته : « المشهور بحسن المناظرة ، والقادر على إبداء الحجة المسرعة وإلجام الخصوم ، والذهن المتوقد كشعلة نار ، والوثوب على النظير فى مجالس النظر كأنه صاحب ثار[٣] » .

١٠ — تقى الدين بن قاضى عجلون المتوفى عام ٩٢٨ هـ ، أنكر على البقاعى حملته على الغزالى وابن عربى[٤] .

١١ — وجيه الدين البهنسى ، القاضى عبد الوهاب بن الحسين . قاضى مصر المتوفى عام ٦٨٥ هـ . كان يناظر . قال عنه السبكى : « تناظر هو والضياء ابن عبد الرحيم مرة ، فصار يعلو كلامه عليه . وكان يتغالى ويدل بفضله » . وقال : « وحضر عنده الشيخ شهاب الدين القرافى مرة وقت التدريس وهو يتكلم فى الأصول ، فشرع القرافى يناظره والوجيه يعلو بكلامه عليه . فقام طالب يتكلم بينهما ، فأسكته الوجيه ، وقال : « فروج يصيح بين الديكة[٥] ؟ » .

١٢ — شمس الدين البعلبكى « محمد بن الإمام فخر الدين » ، المتوفى عام ٦٩٩ هـ ، كان أحد المعروفين بالذكاء المفرط وحسن المناظرة[٦] .

١٣ — علاء الدين القونوى « على بن إسماعيل بن يوسف » المتوفى عام ٧٢٧ هـ . ذكر صاحب الطبقات أنه وقعت بينه وبين أبيه « تقى الدين

---

(١) الضوء ج ٦ ص ٣٥ .
(٢) الضوء ج ٧ ص ١٥٥ .
(٣) طبقات البكى ج ٥ ص ١٣ .
(٤) الشذرات ج ٨ ص ١٥٨ .
(٥) طبقات البكى ج ٥ ص ١٧٦ .
(٦) الشذرات ج ٥ ص ٤٥٢ .

السبكى ، مناظرة ـ ويبدو أن صاحب الطبقات كان سيثبتها فى كتابه إذ ترك لها بياضاً فى نسخته . ولكنه لم يفعل ، وليته فعل[١].

١٤ — برهان الدين الواسطى الحنفى المتوفى عام ٧٤٤ هـ . ممن اشتغل بالمناظرة[٢] .

خاتمة :

نختتم هذا الفصل بست ملاحظات هى :

الأولى : أن هذه المناظرات والمقالات المذهبية ـ كما رأينا من نماذجها ـ ذات نزعة خطابية قائمة على النقد وتمحيص الرأى ، تهدف إلى الإقناع . وهى ذات أسلوب جيد ، فى جملته ، سهل المأخذ سلس التراكيب غالباً ، واضح المرامى ، وتبدو فيه القوة لصدوره عن الإيمان وعمق الفهم ودقته وسعة الإحاطة . ولتزويده بالحجة الناصعة والمنطق المرتب السليم . وهو طلق لا قيد فيه ، بعيد عن البهارج اللفظية ، غير معنى بجمال الإبراز أو اصطناع التشابيه وما إليها ، رغبة فى حسن التصوير ، إلا فيما يتصل بإيضاح المعانى . مزود بالآيات والأحاديث وأقوال السلف وحوادث التاريخ فى مناسباتها الدقيقة ، مع عمق الاستنباط منها واستخلاص الدليل فى معرض التدليل ، ممتزج إلى حد كبير بعلوم شتى ، لاسيما التفسير والأصول وشرح الحديث .

الثانية : أن هذه المناظرات والرسائل من أبرز الأدلة على ما شاع فى خلال العصر من انتعاش فكرى عظيم . فلم يكن هناك ركود ولا جمود ، ولا نوم ولا استسلام ، وإنما كان كفاح وجهاد ، وكانت مجادلة ومحاجة .

حقاً دار هذا الجدل فى نطاق من القديم . ولكن القديم هنا هو رءوس

---

(١) طبقات السبكى ج ٦ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢١ .

المسائل والمعانى العامة والأفكار الرئيسية . وهذا أمر لا مناص منه . فقد صدر فقهاء المذاهب مثلا عن اتجاه السلف الصالح ورأى الأشعرية . ولكنك ، وأنت تقرأ مقالاتهم مفصلة ، ترى فكراً حراً ونظرة ثاقبة ، وفهما دقيقاً ، ومنطقاً قوياً جديداً ، وحججا مبتكرة ، وتدفقاً فى الحديث . وهم لا يقلون فى ذلك كله عمن سبقهم من العلماء . وربما شأوهم أو شأوا بعضهم ، بما صنفوه من عشرات الرسائل وردود الأسئلة الواردة عليهم من كل فج . فلم يتركوا العامة ضالة دون هداية ، أو حائرة دون إرشاد . فسدوا بذلك ثغرة فى عصرهم ، ما كان لها أن تسد لولاهم . وقاموا فيه بدور أساسى ما كان ليتم لولا قيامهم .

هذا ، إلى أن اختلافهم كان فى فهم هذا القديم على حقيقة ما أريد منه ، وفى صواب المسلك إليه .

الثالثة : أن هذا النشاط المذهبى الذى دار بحدته فى مدار القديم ، فبعثه قشيبا واضحا مدروسا ميسراً لمن يشاء ، والذى كان وليداً للنشاط الدينى الذى تحدثنا عنه وعن أسبابه فى مطلع هذا الفصل . هذا النشاط كان له أثر بالغ فى الغض من الاشتغال بالفلسفة الحرة الطليقة من كل قيد ، ومن العناية بالمعقولات الأخرى بصفة عامة . وذلك لأنه جذب إليه أفئدة العلماء الذين ثقفوا هذه الثقافة التى لونت ثقافة العصر . وشغلهم الفقه وعلوم الحديث — وكانت أثيرة عندهم — والكلام وتفسير كلام الله ، عن النظر الحر المطلق ، على نمط من نظر الفلاسفة .

ويبدو أن سيادة المذهب الأشعرى[1] فى العصر العباسى الثانى ، واستسلام عقائد الجماهير والدولة لها ، وما طرأ من الضعف السياسى على الشعوب العربية ، واتساع نفوذ العناصر الأعجمية فيها ، ولا سيما العنصر التركى الذى يبدو أنه كانت تغشيه غاشية من روح التصوف ، يبدو أن هذا كله مكن للمذهب

(١) الحركة الفكرية للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٨٧ تحت عنوان « عقيدة الأشعرى » .

الأشعرى فى عصر المماليك لموافقته لهذه الحالة النفسية التى تحياها الجماهير العربية فى مصر والشام حينذاك ، والتى تميل إلى تقديس الذات الإلهية تقديسا مطلقا . فكان لهذا أثره فى الغض من الاشتغال بالفلسفة وما يتصل بها ، ثم لعل روح القناعة والرضا التى يتسم بها الشعب المصرى ، وطيب الثمرات التى عرفت بها أرض بلاده — على الرغم من الضائقات الاقتصادية التى أصابته فى العصر المذكور — لها دخل أيضاً فى هذا الغض .

وحقا عرف من بين علماء المعقولات ، عدد له فضله وجهاده وحسن بلائه ، ومنهم : علاء الدين الباجى « ٧١٤ هـ » . وشمس الدين الأصفهانى « ٧٤٩ هـ » . وصفى الدين الهندى « ٧٥٠ هـ » وعز الدين بن جماعة « ٨٧٩ هـ » . ومحيى الدين الكافيجى « ٨٧٩ هـ[1] » .

ولكن هذا العدد ونتاجه العلمى لا يجزئان فى مجال الموازنة بينهم وبين فقهاء المذاهب والكلاميين منهم وجهادهم . ولا يجزىء فى مجال الموازنة بينهم وبين أسلافهم . ولا يجزئ عند الحديث عن عصر طويل كهذا العصر امتد قرابة ثلاثة قرون . . .

الرابعة : أننا أشرنا فى الملاحظة الأولى ، إلى أن هذه المناظرات المذهبية ، امتزجت بعلوم شتى أهمها التفسير والأصول والحديث . ونقول هنا إن علماء التفسير فى هذا العصر ساروا فى جملتهم على نهج فنى ، وهم نمط من مفسرى العصر العباسى المتأخرين[2] . مع دعمه بشىء من تفاسير السلف يقل أو يكثر . وعباراتهم فى كتبهم سهلة هينة مقبولة ، لا عناء فيها ولا جهد يبذل فى فهمها . غير أنهم خلطوها بألوان من العلوم والفنون كالنحو والمناظرات الكلامية واللغويات والأدب . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ، تفاسير ابن تيمية وابن القيم ،

---

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٥٨ تحت عنوان « ذكر من كان بمصر من أرباب المعقولات » .

(٢) بهذه المناسبة نذكر أن جلال الدين السيوطى له تفسير قيم يسمى « الدر المنثور فى التفسير المأثور » يقع فى ثلاث مجلدات ضخمة ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . وكله فى التفسير المأثور يقدم فيه الرواية بقوله : أخرج . وحبذا لو طبع .

وأبي حيان المغربي . وسار على نهجهم شراح الحديث ، كابن حجر والعيني والقسطلاني ، وكثيراً ما بدت لهم عبارات رائعة وتراكيب بليغة . ونحن نورد من كلامهم نماذج متنوعة فمثلا :

فسر ابن تيمية الآية الكريمة . « قل أعوذ برب الفلق » : قال :

« قال تعالى : « فالق الحب والنوى » وقال تعالى : « فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا » والفلق فعل بمعنى مفعول . كالقبض بمعنى المقبوض . فكل ما فلقه الرب فهو فلق . قال الحسن : « الفلق كل ما انفلق من شيء كالصبح والحب والنوى » . قال الزجاج : « وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق ، كالأرض بالنبات ، والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : « الفلق الصبح » ، فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح » . وقال بعضهم « الفلق الخلق كله » وأما من قال : إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة . بخلاف ما إذا قال « رب الخلق » ، أو رب كل ما انفلق ، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار . فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . وإذا قيل : الفلق يعم ويخص . فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق . وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب » .

هذا وقد بسط ابن تيمية الحديث بسطا واسعا في تفسير المعوذة الثانية أكثر من الأولى .[1] الخ . . .

وفسر أبو حيان قوله تعالى : « وتب علينا » فقال :

« قالوا : التوبة من حيث الشريعة تختلف باختلاف التائبين . فتوبة سائر المسلمين الندم بالقلب والرجوع عن الذنب ، والعزم على عدم العود ، ورد المظالم إذا أمكن ، ونية الرد إذا لم يمكن . وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات

---

(١) راجع تفسير المعوذتين لابن تيمية . منه نسخة بدار الكتب مطبوعة . مجاميع رقم ٥١٢ ، ٥٨٨ .

من خواطر السوء ، والفتور فى الأعمال . والإتيان بالعبادة على وجه الكمال . وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات والترقى فى المقامات . فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعوا لأنفسهما بالتوبة ، وكان الضمير فى قوله « وتب علينا » خاصا بهما ، فيحتمل أن تكون التوبة هنا من هذا القسم الأخير . قالوا : ويحتمل أن يريد التثبيت على تلك الحالة ، مثل : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » . وإن كان الضمير شاملا لهما وللذرية كان الوفاء بالتوبة منصرفا لمن هو من أهل التوبة . وإن كان الضمير قبله محذوفا مقدراً فالتقدير على عصاتنا . ويكون دعا بالتوبة للعصاة . ولا تدل هذه الآية على جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لما ذكرناه من الاحتمال ، خلافا لمن زعم ذلك وقال التوبة مشروطة بتقدم الذنب ، إذ لولا ذلك لاستحال طلب التوبة . والذى يقوى أن المراد الذرية العصاة قوله تعالى « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » . إلى قوله « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » الخ[1] .

الخامسة : أن المناظرات لم تكن مقصورة على النظر فى العقائد ومشاكل الفقه ، بل امتد أفقها إلى بعض العلوم ، كالنحو والتاريخ . ولكن نطاقها فيها لم يتسع كما اتسع فى ميدان العقائد .

ومما نذكره على سبيل المثال .

١ — أن أبا حيان النحوى الأندلسى ، لما وفد على مصر لقى تقى الدين بن تيمية ، وعقدت بينهما أواصر الصداقة . ثم تناظرا فى مسائل نحوية فاختلفا ، فاحتج أبو حيان بكتاب سيبويه . فقال له ابن تيمية « ما كان سيبويه نبى النحو ولا معصوما . بل أخطأ فى ثمانين موضعا لا تفهمها أنت » ... فكان ذلك سبباً فى الفرقة بين الرجلين ، حتى إن أبا حيان حمل حمله شعواء على ابن تيمية وآرائه ، فى تفسيره « البحر » ومختصره « النهر »[2] .

---

(١) عن تفسير أبى حيان « البحر » ج ١ ص ٣٩١ — وقد ألف أبو حيان تفسيره هذا بمصر منذ عام ٧١٠ هـ ، صرح بذلك فى مقدمته . وقد توفى أبو حيان بالقاهرة عام ٧٤٩ هـ .

(٢) البحر والنهر لأبى حيان — ثم راجع ترجمة ابن تيمية فى الدرر وجلاء العينين .

٢ — وتحدث الجلال السيوطى فى الجزء الثالث من كتابه ... « الأشباه والنظائر النحوية » عن الفن السادس وهو فن المناظرات والمجالسات والفتاوى ... الخ .

ولم يعن عناية محمودة بتسجيل مناظرات رجال عصره . وما كان أحراه بذلك . بل دون مناظرات السابقين من رجال العصور الأخرى . ولعل له عذراً . . . .

وقد أثبت فيما أثبت ، مناظرة بين صلاح الدين الصفدى ، والمولى شرف الدين بن حسين بن ريان . أدت إلى تحكيم القاضى كمال الدين بن الزملكانى بينهما .

وموضوع المناظرة نحوى لغوى . ولكن على أسلوبها سيما الأدب . لهذا أثبتناها كما أوردها السيوطى قال : « قال الصلاح الصفدى :

اختلفت أنا والمولى شرف الدين بن حسين بن ريان فى قول أبى القاسم الحريرى :

فلم يزل يبتزه دهره ما فيه من بطش وعود صليب

فذهب هو فى إعراب قوله : « ما فيه » إلى أنه فى موضع نصب ، على أنه مفعول ثان . وذهبت أنا إلى أنه بدل اشتمال من الهاء التى فى قوله « يبتزه » .

فكتب شرف الدين فتيا من صفد ، وجهزها إلى الشيخ كمال الدين بن الزملكانى وهى :

« ما يقول السادة علماء الدهر ، وفضلاء هذا العصر . لا برحوا لطالب العلم الشريف قبلة . وموطن السؤال ومحله . فى رجلين تجادلا فى مسألة نحوية وهى فى بيت من المقامات الحريرية وهو :

فلم يزل يبتزه دهره ما فيه من بطش وعود صليب

ذهبا إلى أن معنى « يبتزه » يسلبه . وكل منهما وافق فى هذا مذهب خصمه مذهبه . وموطن سؤالهما الغريب : إعراب قوله : « ما فيه من بطش وعود صليب » . لم يختلفا فى نصبه . بل خلفهما فيما انتصب به . فذهب أحدهما إلى أنه بدل اشتمال من الهاء المنصوبة فى « يبتزه » وله على ذلك استدلال . وذهب الآخر إلى أنه مفعول ثان « ليبتزه » . وجعل المفعول الهاء . واختلفا فى ذلك .

وقد سألا الإجابة عن هذه المسألة . فقد اضطرا فى ذلك إلى المسألة » .

فكتب الشيخ كمال الدين الجواب :

« الله يهدى إلى الحق . كل من المختلفين المذكورين قد نهج نهج صواب . وأتى بحكمة وفصل خطاب . ولكل من القولين مساغ فى النظر الصحيح . ولكن النظر إنما هو فى الترجيح . وجعل ذلك مفعولا أقوى توجيها فى الإعراب وأدق بحثاً عند ذوى الألباب . أما من جهة الصناعة العربية فلأن المفعول متعلق الفعل بذاته التى بوقوع الفعل عليه معينة . والبدل مبين لكون الأول مطرحاً فى النية . وهذا الفعل بهذا المعنى متعد إلى مفعولين . « وما فيه من بطش » هو أحد ذينك الاثنين . لئلا يفوت متعلق الفعل المستقل . والبدل بيان يرجع إلى توكيد بتأسيس المعنى مخل . وأما من جهة المعنى فلأن المقام مقام تشك وأخذ بالقلوب . وتمكين هذا المعنى أقوى إذا ذكر ما سلب منه مع بيان أنه مسلوب . فذكر المسلوب منه مقصود كذكر ما سلب . وفى ذلك من تمكين المعنى ما لا يخفى على ذوى الأرب . ووراء هذا بسط لا تحتمله هذه العجالة . والله سبحانه وتعالى أعلم[1] » .

السادسة : أن كتابا أصدره المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام فى عام ١٩٤١ م يضم خلاصة لكتابين فريدين مخطوطين ألفا فى عهد السلطان الغورى المتوفى عام ٩٢٢ هـ . الأول اسمه « نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار القرآنية » . والثانى اسمه « الكوكب الدرى فى مسائل الغورى » . وقد سمى الدكتور كتابه هذا « مجالس السلطان الغورى » .

وقد عنى الدكتور الفاضل — رحمه الله — بنشره لأن الكتابين اللذين يضم خلاصتهما يصوران كثيراً من أحوال مصر ومستواها العلمى ولو إلى حد ما .

والكتابان فيهما أحاديث شتى عن موضوعات دينية وتاريخية وأدبية ونحوها ، مما تجادل فيه السلطان الغورى وجلاسه من العلماء والأمراء .

وقد عرضنا لهذا الكتاب لننوه بأنه تحدث عن « مجالس » هذا السلطان

---

(١) انظر الأشباه والنظائر النحوية للسيوطى جـ ٣ .

وما دار فيها من جدل ومناظرة . وكان كثيراً ما يجتمع فى مجلسه بإمامه وببعض علمائه وأمرائه ، فيثيرون الحديث فى بعض مسائل الدين ومشاكل الأدب والتاريخ . فهو ثبت طريف سجل بروز المناظرات فى مجالس أحد سلاطين هذه الدولة الأعجمية . ولعل السبب الذى دفع الغورى إلى ذلك ، أنه كان أديبا ينظم الشعر بالعربية والتركية ، وأنه كان عالما يفهم فى الفقه والتفسير .

غير أننا نعجل بالقول بأن ما دون فى هذا الكتاب من مناظرات أو أسئلة وأجوبة أو بحوث ، إن هو إلا أفكار سريعة عاجلة مقتضبة ، وجزئيات فكرية وجيزة . ولو نمتها الثقافة وبذلت فيها العناية ، وشجع القائمون عليها ، لتحولت إلى جدل عظيم الجدوى . ولكنها فى جملتها لم تعد أن تكون آراء وكلمات منثورة مما يثار عرضا فى خلال مجالس الأنس والتسلية .

وإلى هنا نكتفى بما سطرناه فى هذا المقال ، منتقلين إلى الحديث عن الخطب .

الفصل الثانى

الخطب

لا نقصد هنا بالخطبة تلك المقدمة الافتتاحية التى يمهد بها مؤلف لكتابه يبين فيها غرضه من تأليفه ، ولا نقصد تلك السطور أو الديباجة التى تتصدر المقالة أو الرسالة ، وتحتوى على الحمد والشهادة والصلاة على النبى عليه السلام ، ويذكر الكاتب بعدها « أما بعد » ثم يكتب فى صلب موضوعه .

وإنما نقصد بها « المقالة » التى تلقى على جمهور من السامعين فى أحد الأغراض العامة التى لهم فى الحديث عنها نفع .

وقد ذكر القلقشندى : « أن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الكاتب إليها فى صدور بعض المكاتبات وفى البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير »[1] . وهو يقصد بذلك : « الديباجة » التى تحتوى على التحميدات والصلوات على النبى عليه السلام ، التى أشرنا إليها . وإطلاق لفظ « خطبة » عليها ، اصطلاح تأليفى .

ولكننا عند الحديث عن أقسام النثر نذكر « الخطبة » بمعناها الأدق الأصيل الأعم ، وهى أنها أحد قسمى النثر الفنى ، وهما : الكتابة والخطبة . ولكل منهما سمات وصفات[2] .

ومن سمات « الخطبة » ودعائمها التى تقوم عليها : الارتجال وحسن التصوير وسلامة المنطق وعمومية المناسبة والموضوع ، وقوة التعبير عن المعانى ، مع ترتيبها مزودة بأدلتها ، لتكون مؤثرة مقنعة .

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) عن هامش النثر الفنى لزكى مبارك ، أن المسيو مرسيه يقسم الكلام إلى نظم ونثر وخطبة . ويفرق بين النثر والخطبة . والنثر فى نظره هو « الكتابة الفنية » ويخرج من هذا بأن الجاهليين لم يعرفوا النثر الفنى — ص ٢٣ .

وهنا ترى أنه ينبغى للخطيب أن يكون محيطاً بموضوعه مقتنعاً به ، خبيراً بنفوس سامعيه ، حتى يضرب لهم على الوتر الحساس . وبذلك يمتلك زمامهم .

* * *

وقد وجدت « الخطبة » فى عصر المماليك ، غير أنها فقدت — فى الغالب — عنصراً هاماً من أفضل عناصرها ، وهو عنصر الارتجال . فلم نجد فيما قرأنا من تراجم علماء العصر وخطبائه ونابهيه ، ما يدل على إحسان الارتجال — مع استثناء المناظرات — إلا لمحات قليلة لاتعاون على إصدار حكم حاسم . كأن يقال « كان — فلان — خطيبا بليغا مفوها »[1]

غير أننا قرأنا فيما سجل من مزايا بعضهم : « إنه كان يخطب من إنشائه[2] » هذه عبارة تدل على أن من الخطباء من كان منشئاً يعنى بتدبيج خطبته قبل إلقائها . وهذا يؤيد ماقلناه من اضمحلال عنصر الارتجال ، والمقدرة عليه ، لاسيما إذا عرفنا أن « إعداد الخطبة » إنما كان يذكر فى سياق المدح . على أن العبارة تدل أيضاً على أن بعض الخطباء كان يخطب من إنشاء غيره ... وهذا ضرب من الضعف ، من أشنع مايصاب به الخطباء .

وقع هذا وذاك ، على الرغم من انتشار التعليم والثقافة اللذين من شأنهما أن يمهدا السبيل إلى الارتجال ...

على أن هذا الإعداد — إعداد الخطبة — يشعرنا بأنه لم يكن هناك فارق كبير بين « الرسالة » و « الخطبة » . وكان من السهل تحويل إحداهما إلى الأخرى . وقديما رأى أبو هلال العسكرى ألوانا من التشاكل بين الرسائل والخطب وأنه من السهل تحويل إحداهما إلى الأخرى[3] .

وإذا كان هذا التحويل سهلا فيما سلف ، فهو فى هذا العصر أسهل ، إذ أنه — كما يبدو لنا — كان الخطباء كتابا قبل أن يكونوا خطباء . وأن ندرة عنصر الارتجال أو زواله ، وغلبة الإعداد ، كل هذا مما ييسر أمر التحويل .

---

(١) انظر ترجمة ناصر الدين الخطيب « محمد بن على » فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٢٣٧ .

(٢) انظر ترجمة يوسف بن سليمان « جمال الدين النابلسى » فى الدرر ج ٤ رقم ١٢٥٦ .

(٣) هامش النثر الفنى لزكى مبارك ج ١ ص ٢٣ .

لهذا ترى على « الخطب » سمات « الرسائل » . لقد سلك الخطباء فى خطبهم مسالك الكتاب فى رسائلهم . فاصطفوا الأسلوب البديعى المسجوع ، واقتدوا فيها بأساليب القرآن الكريم ، وأكثروا من الاقتباس من آياته البينات ، ومن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن أقوال السلف الصالح ، ووقائع التاريخ ذات العبر .

ولا غرابة فى ذلك . فقد كانت الخطب فى أغلب أمرها ، دينية منبرية . تنزع نحو العظة والنصيحة ، وتدور أغراضها فى فلك دينى . غير أنها أغراض دينية عامة تتناول المشاكل تناولا عاماً سطحياً ، ولا تتعمق فى التفاصيل ، ولا تخوض فى خلافات الطبقات ، وضروب النزاع بين فئات المجتمع ، موجهة النصيحة غالباً إلى الفرد الذى ينبغى أن يعنى بخويصة نفسه ، محببة الثواب مخوفة من العقاب ، واعدة متوعدة .

فلا غرابة إذن ، إن لم نجد فى هذه القرون الثلاثة ، خطباً سياسية واجتماعية ، تعنى بالقضايا العامة فى داخل الوطن وخارجه ، وتسلط أضواء على مشاكل المجتمع الإسلامى ، على غرار ما تعرف فى الأدب الحديث . وسواء لدينا حينذاك ، أألقيت على المنبر ، أم فى محفل عام ،

ولكن لكل عصر منطقه وسياقه اللذين يخلقان المظهر الأدبى ، والأداة الكلامية المناسبين . فليست الخطب السياسية وليدة المزاج الفردى أو رهينة القدرة الشخصية أو الموهبة الأدبية وحدها . ولكنها رجع للظروف العامة التى تمر بالبلاد من اجتماعية وثقافية وسياسية وغيرها . تتفاعل كلها فى بوتقة شعور المجتمع وعقله ، وتحدث فيها شيئاً جديداً يكون له أثر بالغ فى توليد نمط من الأدب جديد .

ولم تكن حينذاك عوامل جادة من شأنها أن تؤثر هذا التأثير . لقد كانت الطبقة الحاكمة طاغية مستبدة باغية ، تقبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وهى تتجدد تجددا تقليدياً من خارج مصر لا من داخلها . . ولم تحاول الاندماج فى شعبها مطلقاً . إذ اعتبرته طبقة محكومة لا ينبغى لأحد من أفرادها أن يلى

حكما — عدا وظائف القضاء والكتابة وما يشبههما — وهذه الوظائف ، وإن كان لشاغليها شيء من الجاه والنفوذ ، كانت بمنأى واسع عن الحكم الأصيل والجاه الصميم ، وقصاراهم أنهم يستمدون وجودهم فيها من سادتهم ، ويتلقفونها من أيدى الطبقة الحاكمة ، التى لم يكن بعضها يتورع عن أن يتناول رشوة فى سبيل الجود بهذه المناصب ، والتى ما دامت راضية على شاغليها اطمأنوا على عيشهم ... لذلك كان بعيداً أن تراود نفوسهم نزعة معارضة ، إلا فى مسائل جزئية أو حوادث عارضة ...

وحقاً كان بعض العلماء أو القضاة يثور وينصح ، وينذر ويتوعد ولكنه فى الوقت الذى كان لا يستطيع أن يُلزم باتباع النصيحة — فى الغالب — يقف عند أدائها . وقد ينفذ وعيده — عند عدم اتباعها — بأن يعزل نفسه من منصبه ، معتقدا بذلك أنه أدى ما عليه من الواجبات ، وقام بما طلب إليه من الأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

ولا ننكر أنه قد تولد نقد اجتماعى ، يمس الحاكمين . ولكنه فى جملته نقد رفيق . وتراه ماثلا أكثر فى شعر الشعراء . فلبعضهم أبيات ناقدة يتندر بها على الأتراك والجركس الحاكمين ، ويتفكه بذكر معايبهم .

هذا النقد — كان رفيقاً كما أشرنا — ولم يعم ولم يسم إلى درجة أن يكون نقداً سياسيا عاما يولد روحا قوية معارضة مناهضة ، يكون لها أثر فى توليد خطابة سياسية ذات شأن ، و خطابة اجتماعية ذات أثر ونتيجة .

ولا ندرى كيف نعلل لهذه الظاهرة أكثر مما عللنا . ويبدو أن استعجام الحكام ، ثم اعتمادهم اعتماداً كبيراً على كتاب الإنشاء ، على أن تكون الرسائل التى يكتبونها عنهم ، رجعاً لسياستهم وتعزيزاً لوجهة نظرهم ، ثم تزاحم الأدباء على مناصب الديوان ، ونشاط كتابه ، لأداء المهمة الموكولة إليهم . يبدو أن كل ذلك فى جملة الأسباب التى غضت من شأن الخطابة بعامة ، والخطابة السياسة بخاصة . هذا بجوار الأسباب العامة ، وهى أن الكتابة بدأت تحل محل الخطابة ، والقلم محل اللسان ، منذ أن كثر الأعاجم والدخلاء فى الدول العربية :

ثم إن الشعوب لم تكن حينذاك تعرف مانسميه اليوم : حقوقا دستورية ،

ولم تكن هناك يقظة سياسية تناهض الفردية وتراقب الحاكمين وتعارضهم فيما يمس حقوق الشعوب . لقد استنامت الشعوب العربية منذ أمد ، واستسلمت إلى حكامها من الأتراك والأكراد ونحوهم ، ما داموا « مسلمين » ، وفى عنقهم أمانة الحكم ، ويعرفون أنهم مسئولون عنها بين يدى الله .

وقد كان المماليك فى مصر - وحدهم - القوة المسلحة ، ومعهم أسباب الغلبة والسلطان . نشئوا أنفسهم على ذلك ، وربوا تربية عسكرية خاصة ، حرموها على أبناء الشعب ، كما حرموا عليهم امتلاك الأراضى الزراعية . فكان ذلك فى جملة الوسائل التى قيدوا بها الشعب بقيود من الإذلال ، وقر فى نفسه أنه لا يستطيع لها حلا . . لذلك استسلم وطال استسلامه .

ولعل مما عزاه عن بلواه ، ولفته عن مصيبته ، ما قام به هؤلاء من حروب ودفاع مجيد ، ضد أعداء مصر والإسلام ، من فرنجة وتتار . فصانوهما بذلك عن عبثهم ، والوقوع فى براثنهم ، وجنبوا مصر ما أصاب غيرها من دمار وهلاك .

* * *

خلا العصر إذن من الخطابة السياسية . ولكن الحق أننا نجد ريحها فى بعض المناسبات . فقد كان من التقاليد المتبعة ، تبادل الوفادات بين الملوك فيما يتصل بشئونهم وشئون بلادهم ، واختيار بعض الخطباء فى إعداد رسلهم ، ممن يحسنون مخاطبة الملوك ، ويجيدون الخطبة بين أيديهم . فلعل هذا كان أحد منشطات الخطابة فى ذلك الزمان المستعجم ، ولعل خطب الرسل حينذاك كانت ضربا من الخطب السياسية ، إذ تدور عادة حول شئون الدولتين ومصالح الملكين .

وقد أرسل التتار عام ٦٩٨ هـ إلى الناصر محمد بن قلاوون ، كمال الدين بن بهاء الدين قاضى الموصل وخطيبها فى وفد ، منه ومن رجل تركى وآخر أعجمى[1] .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ حوادث عام ٦٩٨ هـ ص ١٣٥ ، ١٣٩ .

قال أبو المحاسن يصف الاحتفال بمقدمهم فى قصر السلطان ما ملخصه :

« وبعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحوا من ألف شمعة . ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر . ثم أحضروا الرسل . وحضر القاضى بجملتهم وعلى رأسه طرحة . فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة ، وذكر آيات كثيرة فى معنى الصلح واتفاق الكلمة ورغب فيه . ثم دعا للملكين ودفع إلى الناصر رسالة سلطانه محمود غازان » .

هذا وقد أوفد الناصر إلى غازان وفدا اختار فيه « شمس الدين بن الجوزى » خطيب جامع ابن طولون . فاعتذر ابن الجوزى . فعين مكانه القاضى « عماد الدين بن السكرى » خطيب جامع الحاكم[1] .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت الخطب الدينية المنبرية أزهى وأزهر ، وأكثر وأشهر . ذلك لحاجة العصر الماسة إليها . فالنزعة الدينية — كما نوهنا مراراً — كانت سارية إلى حد بعيد فى جميع الطبقات . ونصب السلاطين والأمراء أنفسهم حماة للدين وذادة عن المسلمين . وألهب هذه الحماسة ما كان من اعتداء التتار والصليبيين على بلادهم . وشد العلماء أزرهم ، ومن ورائهم الجمهور .

وأقبل السلاطين والأمراء على بناء المساجد بدافع دينى أو دنيوى ، وعنوا عناية ملموسة باختيار خطبائها من بين مشهورى العلماء . بل لقد اعتلى بعض خلفاء بنى العباس المنابر ، وخطبوا فى الناس أيام الجمعات فى بعض المناسبات .

بذلك كله أصبحت الخطابة الدينية لامعة بين مظاهر الأدب المختلفة . وأصبحت الخطابة المنبرية فى جملة ما يذكره المؤرخون من مناصب حين يترجمون لبعض الأعلام . واشتهر بعضهم مثلا بأنه « خطيب دمشق » أو « خطيب الجامع الأموى » . أو « خطيب الجامع العتيق » وهلم جرا . وكثيراً ما يكون الخطيب المختار قاضياً أو نائب حكم أو مدرساً أو نحو ذلك .

---

(١) المصدر السابق .

وهذا كله يدلنا على أهمية الخطبة المنبرية حينذاك ، ويشعرنا ضمنا بما كانت عليه أساليبها من رونق وجودة وحسن إبانة وجمال إنشاء ، ولا سيما فى أوائل العصر وأواسطه .

* * *

على أن هناك نوعين آخرين من الخطب ، لا بأس من الإشارة إليهما :

الأول : هو خطب الزواج ، وليس بين أيدينا كثير من نماذجها حتى نستطيع الحكم بأنها كانت ذات رونق وجودة ، وإن تكن موجودة فعلا بحكم ضرورتها الدينية .

الثانى : هو خطب الافتتاح ، كخطبة افتتاح المدرس لدروسه عند أول ولايته التدريس ، أو خطبة افتتاح حفلة مبايعة مثلا . وهذا النوع بشقيه ، لم نجد من نماذجه ما يعيننا على أن نعتبره تقليداً كان متبعا فى ذلك العصر .

وإليك نماذج تبين لك ألوانا من الخطب :

١ — خطبة للخليفة العباسى الحاكم بأمر الله[1] « الأول »

هذه خطبة منبرية جيدة ، خطبها الخليفة المذكور فى يوم الجمعة ٩ المحرم سنة ٦٦١ﻫ غداة مبايعته بالخلافة ومبايعة السلطان الظاهر بيبرس بالسلطنة . وكان موضوعها حض الناس على قتال التتار أعداء الإسلام والمسلمين .

واشتملت على عدة عناصر منها : الديباجة « المقدمة » وفيها الحمد والثناء والشهادتان والصلاة على النبى عليه السلام . وقد تضمن الحمد إشارات تناسب المقام وتناسب موضوع الخطبة . فذكر بنى العباس وما قيضه الله لهم بوجود ركن الدين الظاهر بيبرس ، وباستنصاره على الأعداء .

وتحدث بعد المقدمة عن الإمامة وضرورتها للناس والمجتمع ، وضرورة الذود عنها ومكافحة أعدائها . واستحث الهمة للقتال والمحاربة ، واصفا ما اجترحه التتار ببغداد ، منوها بجهاد بيبرس فى سبيل الدين والمسلمين .

(١) الحاكم بأمر الله العباسى ، ولى الخلافة بمصر عام ٦٦١ ﻫ وظل بها حتى مات عام ٧٠١ ﻫ .

وهذا نصها :

« الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا . وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيراً . أحمده على السراء والضراء . وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء . وأستنصره على الأعداء . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ، نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء . الأربعة الخلفاء . وعلى العباس عمه . وكاشف غمه . وعلى السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أيها الناس ! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام . والجهاد محتوم على جميع الأنام . ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد . ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم . ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أهل الإسلام حين دخلوا دار السلام . واستباحوا الدماء والأموال . وقتلوا الرجال والأطفال . وهتكوا حرم الخلافة والحريم . وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم . فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل . وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه . وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه .

فشمروا ساق الاجتهاد . فى إحياء فرض الجهاد . « فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين . والمحاماة عن المسلمين . وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد والمؤيد ركن الدنيا والدين . قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار . وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار . فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود . والدولة العباسية به متكاثرة الجنود . فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نياتكم تنصروا . وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا . ولا يردعنكم ماجرى . فالحرب سجال ، والعاقبة للمتقين . والدهر يومان والآخرة للمؤمنين . جمع الله على التقوى

أمركم . وأعز بالإيمان نصركم . وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين . فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم » .

ثم خطب الثانية فصلى بالناس وكتبت بيعته إلى الآفاق[١] .

هذا . وقد خطب هذا الخليفة فى أيام الجمع أكثر من مرة بين يدى السلاطين والقضاة[٢] .

* * *

٢ — خطبة للخليفة الحاكم بأمر الله « الثانى[٣] »

وهى خطبة مبايعة وجيزة . قال السيوطى :

« فى يوم الاثنين ثانى المحرم سنة اثنتين وأربعين ، حضر الخليفة الحاكم والسلطان المنصور (يعنى المنصور بن الناصر محمد بن قلاوون) والقضاة بدار العدل . فجلس الخليفة على الدرجة العليا . وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرقومة بالذهب . وجلس السلطان دونه . فقام الخليفة وخطب خطبة افتتحها بقوله :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. الآية ... وبقوله: « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » الآية . . ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعية وإقامة الحق وتعظيم شعائر الإسلام ونصرة الدين . ثم قال :

فوضت إليك جميع أحكام المسلمين . وقلدتك جميع ما تقلدته من أمور الدين « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ...الآية «... وجلس »[٤] .

٣ — خطبة مدرس يفتتح دروسه :

ألقى تقى الدين أبو الفتح السبكى « محمد بن عبد اللطيف بن يحيى » الذى كان أديباً وفقيها ومحدثا ونائباً فى الحكم ، والمتوفى عام ٧٤٤ هـ ، والمدفون بقاسيون ، خطبة عندما عين مدرساً بالمدرسة الركنية بمصر ، افتتح بها دروسه .

---

(١) نصها عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٣ (٢) المصدر السابق

(٣) الحاكم بأمر الله « الثانى » هو أحمد بن المستكفى . ولى الخلافة العباسية بمصر عام ٧٤١ هـ وليت بها حتى توفى عام ٧٥٤ هـ .

(٤) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥

وقد وصف صاحب الطبقات ، هذه الخطبة بأنها « فائقة » — قال فى مطلعها :

« الحمد الله ناصر الملك الناصر للدين الحنيفى . وممضى عزائمه ومشيد أركانه بالقائم بالشرع المحمدى . ومقوى دعائمه ومخصص أهل التقوى بعلى ماخطب أهل التقصير بمعالمه . وجامع شمل المتقين بمكارمه . وشامل جميع الموقنين بمراحمه . والمتفضل على من التجأ إليه . واعتمد فى أموره عليه » .

وبعد الحمد والشهادة والصلاة قال :

« أما بعد فإن غريب الدار ، ولو نال مناط الثريا فيكفى أن يقال : غريب . وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ ، فماله فى الراحة منهم نصيب . ولمشقة الغربة ازدادت رتبة الهجرة فى العبادة . وشرفت الوفاة حتى جاء موت الغريب شهادة . والغربة كربة ولو كانت بين الأقارب . ومفارقة الأوطان صعبة ولو عن سم العقارب . فأنى يقاس ببلاد الغربة — وإن شرف قدرها وعذب شرابها —

بلاد بهـــا نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها » .

لم يورد صاحب الطبقات من هذه الخطبة إلا نحو عشرين سطرا بما فيها ديباجتها . ولو أوردها بتمامها لكانت كسبا محمودا . وقد قال عنها : « والخطبة طويلة فائقة اقتصرنا منها على ما أوردنا » .(١)

هذا ويبدو أن الخطيب تحدث فيها عن « الغربة » لأنه من بلاد الشام .

* * *

٤ — خطبة زواج لزين الدين بن الوردى ، فى نكاح بعض بنى النصيبى على بنت عمه قال :

« الحمد لله الذى أطلع فى منازل الشرف شمساً مصونة البهاء والضياء . وأبدع لشرف تاجه البديع درة مكنونة فى بحر الحيا والحياة . ومنحه عقدا زان به جيد الوجود . وجمع الشمس والقمر فى سعود الطالع وطالع السعود » . إلى آخر التحميد والصلاة على النبى عليه السلام ثم قال : « وبعد : فإن أولى

(١) طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٤١ ، ٢٤٦ .

ما بادر إليه أولو الأحلام . وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام . ما كان لتكثير الأمة متضمنا . ولفضيلة العاجل والآجل نافعا نفعاً بينا . وهى سنة النكاح التى عظمت بها المنة . وأثنى عليها لسان الكتاب وأشارت إليها يد السنة. وخصوصاً بنات العم التى أرشدت قصة البتول عليها السلام إليها . وحسن أن يتلى لها بطريق الأولى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » . فإن بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر . وأوفى بالمودة وأوفر وأصبى إلى العهد وأصبر . ولاسيما من حازت كرم الأوائل والأواخر . وجمعت عناصر الكرم وكرم العناصر . وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر . . الخ[1].

خاتمة :

نختتم هذا الفصل بتسجيل ثلاث ملاحظات :

الأولى : أن عدد الخطباء الدينيين المنبريين فى هذا العصر ، ضخم . ونعنى الممتازين منهم . لأنه من البدهى أنه كان لكل مسجد خطيب ، ولكن بعضهم هو الممتاز ، ونفهم سر امتيازه من سياق ترجمة حياته فى كتب التراجم ، وأنه لاشتهار فضله فى العلم ومعرفته بالتقوى مثلا اختير خطيبا « لجامع كذا » . والذين دون ذلك عنهم فى تراجمهم لا يحصون عددا . ونذكر منهم على سبيل المثال والاستدلال ، نقلا عن كتب التراجم :

١ — جمال الدين يوسف الخطيب الشاعر : كان خطيباً يخطب من إنشائه[2].

٢ — شرف الدين الأسيوطى اللخمى «محمد بن محمد بن أحمد» ولد بالقاهرة . وولى الخطابة بالمدينة وله ديوان خطب مدون اسمه « الجواهر السنية » ومات سنة ٧٤٥ هـ[3] .

٣ — محمود بن محمد بن عبدالرحيم بن عبدالوهاب السلمى المعروف بخطيب بعلبك ، المتوفى عام ٧٣٥ هـ ، وكان يخطب جيداً بنغمة حسنة[4] .

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ١٦٥ . (٢) الدرر ج ٤ رقم ١٢٥٦ .
(٣) الدرر ج ٤ رقم ٤٢٣ . (٤) الدرر ج ٤ رقم ٩١٥ .

٤ — نجم الدين القرطبي « حسن بن محمد » كان خطيب قلعة صفد[١] .

٥ — شرف الدين النابلسى المقدسى المتوفى عام ٦٩٤ هـ . « أحمد بن أحمد ابن نعمة » . كان « خطيب دمشق[٢] » .

٦ — تقى الدين بن بنت الأعز ، قاضى القضاة المتوفى عام ٦٩٥ هـ . ولى خطابة الجامع الأزهر[٣].

٧ — عز الدين بن عبد السلام المتوفى عام ٦٦١ هـ ، ولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموى . قال عنه الشيخ شهاب الدين أبو شامة وهو أحد تلاميذه : « كان أحق الناس بالخطابة والإمامة[٤] » .

٨ — بدر الدين بن جماعة « محمد بن إبراهيم سعد الله » المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وكان قاضى قضاة مصر . وكان مما وليه قضاء القدس ثم خطابتها[٥] .

٩ — تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى المتوفى عام ٧٠٢ هـ . وكان قاضى قضاة الشافعية بمصر ، واشتهر بالورع والتقوى ، كما عرف بالأدب والقدرة على النثر والنظم . ونثره بليغ رائق جيد ، وبه النزعة الخطابية المؤثرة ، وهو واعظ عاطفى مثير . وقد أشرنا إليه ، وسنشير إليه فى الفصل الآتى . وقد ذكر السبكى فى طبقاته « أن له ديوان خطب معروفا[٦] » .

١٠ — محمد بن يوسف بن عبد الله الجزرى المتوفى بمصر سنة ٧١١ هـ ، كان خطيباً بالجامع الصالحى بمصر[٧] .

١١ — جلال الدين القزوينى : أحد علماء البلاغة ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ . كان نائب حكم فى دمشق ثم ولى خطابتها وقد عرف « بالخطيب » ثم ولى قضاء الشافعية بالشام ثم بمصر[٨] .

---

(١) الدرر جـ ٢ رقم ١٥٦٨ .
(٢) طبقات السبكى جـ ٥ ص ٧ .
(٣) الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٤) الطبقات جـ ٥ ص ٨٠ .
(٥) الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٠ .
(٦) الطبقات جـ ٦ ص ٢ .
(٧) الطبقات جـ ٦ ص ٣٢ .
(٨) الطبقات جـ ٥ ص ٢٣٨ .

١٢ — تقى الدين المقدسى الحنبلى . المتوفى عام ٧٢٦ هـ . كان خطيبا . قال ابن العماد : وكان يخطب جيداً بالجامع المظفرى[١] .

الثانية : أننا لم نعثر على كثير من الخطب ، وإن كنا قد وقفنا على أخبار الخطباء ، وعرفنا أن لبعضهم دواوين كانوا يجمعون فيها خطبهم ؛ مثل شرف الدين الأسيوطى اللخمى ، وتقى الدين بن دقيق العيد ، وزين الدين زكريا الأنصارى. والأخير ديوان خطبه موجود ومطبوع ونتحدث عنه فى الملاحظة الثالثة .

وجمع الخطب فى ديوان يعزز القول بإعدادها قبل إلقائها . ولعله يعزز أيضا القول بأن البعض كان يخطب من غير إنشائه ، فلعل الديوان كان يجمع ليستفيد منه الخطباء ، كما يستفيد منه الأدباء .

على أننا نعانى فى هذا العصر قلة فى خطبه الموجودة بالفعل ، كما أشرنا ، وربما كان السبب فى ذلك عبث الزمان بها أو عدم العناية بتدوينها وجمعها . وليس خلو مأثور الأدب من الخطب فى عصر ما ، دليلا دائما على أنها لم تعش فى العصر المذكور .

الثالثة : أن من الدواوين الموجودة ديوان خطب الشيخ زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ وهو أحد العلماء الممتازين ، وكان رأسا للشافعية فى زمانه وولى قضاء القضاة بمصر زمنا طويلا . وله كثير من المؤلفات فى النحو والصرف والبلاغة والفقه والحديث والأصول والتوحيد وغير ذلك . وهو من مفاخر مصر والإسلام . واسم ديوانه « التحفة السنية » . وهو مجموعة من الخطب المنبرية مرتبة حسب جمع الشهور العربية ، فخطبة للجمعة الأولى من المحرم ، وخطبة للجمعة الثانية ، وخطبة للجمعة الثالثة ، وهكذا ... ! ... كما أن به خطباً للمناسبات كوفاء النيل .

---

(١) الشذرات ج ٦ ص ٧١ .

وهو ينتزع موضوع الخطبة من المناسبات ، دينية كانت أو غيرها ، ويتحدث عنها ذاكرا فضل الله فيها ، وما ينبغى للمسلم عمله حيالها .

ويهمنا أن نلفت النظر فى هذه المناسبة إلى أن أسلوب الشيخ زكريا الأنصارى فى ديوانه هذا ، وإن كان به رونق وعليه شىء من الطلاوة ، أقل رونقاً وطلاوة من أسلوب تقى الدين بن دقيق العيد ، فى وعظياته ويبدو لنا أن الفرق بين أسلوب الرجلين - مع تماثلهما علما وثقافة وورعا وفهما — هو الفرق بينهما فى سنتى وفاتهما : ٧٠٢ هـ ، ٩٢٦ هـ ! لأنه يبدو أن الأسلوب كان كلما تراخى به الزمان تخرقت ديباجته وقلت جودته .

ونسجل هنا نموذجا من خطب هذا الديوان :قال من خطبة «تقال بمناسبة وفاء النيل» : بعد أن حمد وصلى وتشهد :

«اعلموا أن الله قد شق أحداق حدائق الرياض لتمام الانتفاع بزهرات مختلفات الأنواع . وتفكروا فى صنع الله وحكمته . الذى أنزل هذا النيل من سماء مملكته إلى بحر عظمته بكيل مكنون ووزن موزون . يعلم عدد قطراته على كل قطرة ملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون . فيهبط على جبال مرتفعة . وتفذفه إلى أرض منخفضة وأودية متسعة لاسائق من الآدميين يسوقه . ولا عائق بالليل والنهار يمنعه ويعوقه . حتى يأتى أرض مصر فينفع من فيها من الأحرار والعبيد وتابعيها . وفجر الأرض عيونا لكل إقليم أوجده الله فيها . قد علم كل أناس مشربهم الذى يشربون . أفترى أحداً يزيد فى تياره . أو ينادى بزيادة مقداره . «أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون» .

وأذن ليوم شهود عموده . عند وفاء حقوقه وحدوده . فيجبر بقطع سده كل قلب محزون . فعمت بركته البرك والخلجان وسار بيد القدرة فى سائر البلدان . فيرتوى به الظمآن . فيحمده الحامدون فتصبح الأرض لجة بيضاء كأنها صرح ممرد من قوارير . وجاء فى أوانه من غير تأخير ولا تقديم . ذلك تقدير العزيز العليم .

فاجتنبوا — رحمكم الله — ركوب النيل مع ارتكاب الكبائر . وعظموا حرمته باجتناب المآثم والجرائر . وتجنبوا سبب النقم . فإن المعاصى تزيل النعم . واجتنبوا الغناء والدف والمزمار على وجه الماء لعلكم ترحمون .

جاء فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من عصى الله فوق الماء فكأنما عصاه فوق أجنحة الملائكة . ومن عصاه فى المقبرة فكأنما عصاه يوم القيامة » . أو كما قال .

ونكتفى بهذا فى فصل الخطب .

الفصل الثالث

النصائح والمواعظ والوصايا والحكم

النصيحة أو العظة كلمة فى سطور ، تلقى إلى إنسان أو جمع رجاء الإصلاح وتهذيب النفس ، والدعوة إلى ترك الشرور والآثام ، لما يترتب عليها من هلاك وبوار فى الدنيا والآخرة . والحض على اتباع الخير والقيام بالعمل الصالح جهد المستطاع ، لما يترتب على ذلك من الثواب الجزيل والنفع العميم والسعادة الحقيقية .

وقد وجد هذا الضرب الكلامى فى العصر الذى نؤرخ نثره ولكن نصائحه وعظاته كانت صنواً لخطبه المنبرية . إذ تصدر جميعاً عن معين واحد ، وتدور حول غرض رئيسى واحد هو إصلاح النفوس عن طريق الوازع الدينى . وإبراز محاسن الشريعة الغراء وبيان ما فيها من الحكم ، وما فى اتباعها من نفع عظيم وسعادة لاتحد فى الدارين . غير أنها تفترق عنها بأنها قد تبدو أحيانا فى شكل « رسالة » وبأنها مخصوصة ببيان حكم الشريعة — غالبا — وأنها تسلك سبيل الإثارة العاطفية أكثر مما تخاطب القوة المفكرة ولذلك يكثر فيها ضرب الأمثال وذكر الحكم ، وسوق القصص ذات العبر ، والمبالغة عند الترغيب أو الترهيب .

وقلما خلا عصر من النصائح والعظات . ولذلك كانت لها سوق نافقة فى عصر المماليك ، لما سبقت إليه الإشارة ، من غلبة الثقافة الدينية على ماعداها من ضروب الثقافات ، ومن شأن المثقفين عن طريقها أن يعملوا على إظهار أنفسهم وأداء واجبهم واستخدام ثقافتهم ، وتلك ثمرة تعليمهم ، فلا بد لهم أن يخطبوا وأن يعظوا وينصحوا .

على أن الفساد كان مستشريا فى كثير من طبقات الأمة ، من الأمراء إلى السوقة . وقد نوهنا بذلك فى مناسبات سابقة . واستشهدنا له بطرائف من النثر .

وهذا الفساد المنتشر ، من شأنه أن يقوى ملكة النصح والإرشاد فى نفوس العاملين والمصلحين ، ويشحذ هممهم لمحاربته واقتلاعه من النفوس وإعادتها إلى حظيرة الدين والكرامة .

على أن هناك أيضا عاملا آخر ، نشعر أنه كان موجودا ، إلى جانب هذا الفساد ، وهو حسن استعداد هذه النفوس للاستجابة عند النصيحة ، والتلبية وقت العظة . فقد كانت الروح الدينية ، على ما وصفنا ، متغلغلة بين المسلمين . إذ كانوا يجدون فيها حينذاك أهم مقوم من مقوماتهم ، وأفضل عامل من عوامل تكتلهم . وخصوصا فى ذلك الوقت الذى يحيط فيه بهم أعداء دينهم من جهات كثيرة ، فهم إليه أحوج ورعايته بهم أمس .

ولا أدل على ذلك من أن الملوك كانوا يسترشدون فى كثير من مهام دولتهم برجال الدين . وكان الظاهر بيبرس مثلا ، كما أشرنا من قبل ، منقمعا تحت كلمة سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام . وهذا السلطان نفسه — بيبرس — أرسل إليه محي الدين النووى شيخ علماء عصره ، نصيحة قاسية — سنشير إليها وهكذا .

والحق أننا لسنا فى حاجة كبيرة للتدليل على تغلغل الروح الدينية واستجابة الجماهير لها ، حينذاك . وحسبك أن تعرف مدى هذه الروح أو العاطفة ، ودقة فهم الجماهير للناصحين العاملين على إرشادهم ونفعهم من تجمعهم آلافا مؤلفة حينما يموت أحد هؤلاء العلماء العاملين ، ليشهدوا جنازته . وترى أخبار ذلك منشورة مسجلة فى تراجمهم .

هذا . ويبدو أن سوق الوعظ كانت نافقة . ونقرأ فى تراجم بعض العلماء مثلا أنه « كان واعظا » أو أنه « كان يعظ الناس » و « يعقد المجالس للذكر والوعظ » . ومن الأمثلة على ذلك :

١ — ابن عطاء الله السكندرى « أحمد بن محمد بن عبد الكريم » المتوفى عام ٧٠٩ هـ ، كان إماما عارفا استوطن القاهرة ، يعظ الناس ويرشدهم . وله الكلمات البديعة دونها أصحابه فى كتب جمعوها من كلامه[1] .

---

(١) طبقات السبكى ج ٥ ص ١٧٦ .

٢ — شمس الدين بن اللبان، محمد بن أحمد بن عبد المؤمن، المتوفى عام ٧٤٩ هـ. كان متصوفاً يصحب الشيخ ياقوت العرشي صاحب أبي العباس المرسي بالإسكندرية. وكان بارعا فى الفقه والأصول والنحو. وله مؤلفات. وكان يعظ الناس ويعقد مجالس الذكر بمصر[١].

٣ — شمس الدين حسين بن راشد، كان واعظاً حسن المذاكرة والعلم. توفى بمصر عن أربع وثمانين سنة، عام ٧٣٩ هـ[٢].

٤ — زين الدين أحمد بن محمد الأندلسى الأصل المعروف بكشاكش المصرى، الواعظ الأديب الشاعر. كان إماما فى الوعظ، ولد سنة ٦٠٥ هـ ومات بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ٦٨٤ هـ[٣].

٥ — شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ميلق الشاذلى الواعظ. كان يجلس للوعظ، ولوعظه تأثير فى القلوب مات سنة ٧٤٩ هـ[٥].

٦ — عز الدين أحمد بن عبد السلام بن غانم المقدسى الواعظ أحد المبرزين فى الوعظ والنظم والنثر. توفى بالقاهرة فى شوال عام ٦٨٨ هـ. وينسب إليه كتاب «كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار» الذى نوهنا به فى باب الوصف[٥].

* * *

هذا على أنك ترى روح الوعظ وعبارات النصح بادية فى الكتب الدينية على اختلاف مناحيها، ولاسيما مايتصل منها بالتصوف أو علم الكلام. وسنحدثك عن بعضها قريباً.

وإننا حينما نتصدى للحديث عن النصائح والعظات، تملكنا نشوة سرور، وهزة طرب وإعجاب بالناصحين الواعظين، الذين خطوها بيمينهم ودبجوها بأقلامهم فإنهم لم يريدوا منها أن يظهروا للناس كتابا منشئين، يبهرونهم بحسن

---

(١) الطبقات جـ ٥ ص ٢١٣.

(٢) الشذرات جـ ٦ ص ١١٠

(٣، ٤) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٦٤، ٢٦٥.

(٥) الشذرات جـ ٥ ص ٣٦٢. راجع كتاب كشف الأسرار فى باب الوصف بالمجلد الخامس

البيان وقوة اللسان وبلاغة المنطق . أو يلتمسون لديهم غنما من مال أو منصب أوجاه ، بل كانوا أولا وقبل كل شيء يسدون النصيحة خالصة لوجه الله ، ويبعثون العظة صادرة من قلب يملؤه الإيمان وتغمره محبة الناس ، ويشعرون أنهم يصنعون ذلك أداء لواجبهم الدينى ، وقياما بالأمانة التى حملوها أمام الله ، وعاهدوه على تأديتها .

لهذا اكتسب بيانهم قوة ، بل عنفا أحيانا ، وبدت عباراتهم فى ثوب من الوضوح ، جريئة مقدامة ثائرة ، فيها الوعد والوعيد ، وفيها التلويح بالثواب والعقاب . وهذا نتيجة صدق الطوية ، وإخلاص السريرة ، والإشفاق الشديد على الحاكم والمحكوم على السواء . فلعل أعنف ما كان يوجه النصح ، إذا وجه إلى الملوك والحاكمين .

يتجلى لنا هـــذا فى رسائل أربع كتبها علماء فضلاء إلى ملوك طغاة . وإليك قصتها :

الرسالة الأولى :

هى نصيحة ثمينة كتبها شيخ علماء عصره محيى الدين النووى إلى سلطان زمانه الظاهر بيبرس . وكان قد كتب إليه نصيحة سابقة يطلب إليه فيها الرفق بالرعية والعدل بينها وإلغاء المكوس التى فرضها عليها .(١) وقيل إن الظاهر لما خرج إلى قتال التتار بالشام أخذ فتوى من علمائها بإنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به ، ووقعوا عليها ما عدا النووى . فلما طلب إليه التوقيع امتنع ، وقال للسلطان : إنى سمعت أن عندك ألف مملوك لكل منهم حياصة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل منهن حق من الحلى ، وطلب إليه أن ينفق ذلك أولا على الجهاد ، ثم يفتيه بالأخذ من الرعية (٢).

وقد أرسل النووى نصيحته الأولى مع الأمير بدر الدين بيلبك أمير الشام ليسلمها للسلطان . وكتب له بذلك رسالة قيمة يصف فيها ما أصاب الشام . فلما

(١ ، ٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٩ .

اطلع السلطان عليها ، ردها وأنكر ما فيها وأجاب جواباً خشنا . . . ولم يدون السيوطى — الذى روى ذلك — هذه النصيحة وردها فلا ندرى محتوياتهما . غير أننا نستطيع أن نستخلص بعض محتويات رد السلطان عليها ، من نص النصيحة الثانية التى أرسلها إليه النووى رداً على رده . ومن حسن الحظ أن أثبتها السيوطى فى حسن محاضرته . وهذه النصيحة هى التى نتحدث عنها هنا .

ويفهم منها أن السلطان قد اعترض فى رده على نصيحة النووى الأولى بجملة اعتراضات منها (١) أن ما يفرضه من الضرائب حق للجنود ، لأنهم يقومون بواجب الجهاد ، بينما قعدت عنه الطوائف الأخرى (٢) أنه يرفض تلك النصيحة ويرى أن الشيخ كان أولى به أن يتقدم بها إلى الكفار . . . (٣) وأنه يمن عليه وعلى الرعية بأنه قام مع جنوده بالجهاد وطرد الأعداء ، وأنه فتح البلاد والحصون (٤) وأنه سينتقم من الرعية بسبب هذه النصيحة . . .

هذه أمور فندها النووى فى نصيحته الثانية وسفهها بلباقة وكياسة ، ورد عليها بما يناسبها .

فأما أخذ الضرائب من الرعية لأنها حق الأجناد لقيامهم بواجب الطوائف الأخرى ، فقد قال له النووى ما نصه :

« وذكر فى الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد . وهذا أمر لم ندعه . وكان الجهاد فرض كفاية . فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال . كما هو الواقع ، تفرغ باقى الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة ، والصنائع وغيرهما مما يحتاج الناس كلهم إليه[1] . فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شىء مادام فى بيت المال شىء من نقد أو متاع ، أو أرض أو ضياع تباع ، أو غير ذلك . وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان . أعز الله أنصاره . متفقون على هذا . وبيت المال بحمد الله معمور » الخ .

---

(١) نستطيع أن نفهم من هذه العبارات بعد نظر النووى ودقة فهمه للأمور بما يناسب ما قرره أهل الحروب الحديثة من أن الجندى فى الميدان يحتاج إلى عشرة جنود من ورائه يدبرون له ما يحتاج إليه .

وأما رفض السلطان هذه النصيحة ، وتنديده بمرسلها وأنه كان أحرى به أن يرسل بها إلى الكفار . فقد رد النووى على ذلك بقوله .

« وأما ما ذكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا فى البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ، وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ » .

وأما تهديد السلطان للرعية بسبب نصيحة النووى ، فقد قابله بقوله دون اكتراث ، وفى منطق سليم : « وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . وأى حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ولا علم لهم به[1] . وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه .

وأما أنا نفسى فلا يضرنى التهديد ولا أكثر منه . ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان . فإنى أعتقد أن هذا واجب علىّ وعلى غيرى . وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى . إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وأن الآخرة هى دار القرار ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخاف فى الله لومة لائم . ونحن نحب السلطان فى كل الأحوال ، وما ينفعه فى آخرته ودنياه ويكون سبباً لدوام الخيرات له ويبقى ذكره على مر الأيام ويخلد به فى الجنة ، ويجد نفسه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا » .

وأما منّ السلطان على الرعية بأنه فتح البلاد ودك الحصون وهزم الأعداء . فقد قال النووى رداً عليه :

« وأما ما ذكر من تمهيد السلطان البلاد وإدامته الجهاد وفتوح الحصون وقهر الأعداء ، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصة والعامة ، وطارت فى أقطار الأرض . فلله الحمد ، وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا . . . ولا حجة لنا

---

(١) يبدو أنه سقط فى الأصل شىء من الألفاظ فى هذه العبارات .

عند الله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » .

هذا وقد افتتح النووى نصيحته هذه ، بذكر الآيات القرآنية التى توجب على العلماء بذل النصيحة لمن يحتاج إليها . قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد . من عبد الله يحيى النووى :

ينهى أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد . وفهمنا منه أن الجهاد ذكر فى الجواب على خلاف حكم الشرع .

وقد أوجب الله أيضاً الكلام عند الحكام عند الحاجة إليه . فقال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » . فوجب علينا حينئذ بيانه . وحرم علينا السكوت . وقال تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم » .

هذا عرض وجيز لتلك النصيحة « الثانية » التى وجهها النووى إلى بيبرس وردوده فيها على اعتراضات بيبرس على نصيحته الأولى التى يطالبه فيها بالرفق بالرعية والعدل بينها ، ورفع الضرائب عن كاهلها ، ولا سيما فى هذه الضائقة التى قد أصابت بلاد الشام وقتذاك[1]

الرسالة الثالثة :

هى أيضاً من نصائح النووى إلى بيبرس ، كتبها إليه — على ماروواه السيوطى عند ما احتيط على أملاك دمشق — ويبدو أن السلطان صادر بعض ممتلكات الدمشقيين وطالبهم بإثبات ملكيتها . فكان ذلك مثارا للشكاية وسبباً للنصيحة التى تقدم بها إليه النووى .

---

(١) نص الرسالة فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٦ ، ٧٧ .

و تناول النووى فى رسالته هذه عناصر تألفت منها هى :

(١) بيان وجوب النصيحة . (٢) المطالبة بالشفقة على الرعية .
(٣) الدعاء للسلطان والثناء عليه . (٤) بيان موضوع الشكاية .
(٥) الترغيب فى الإجابة .

١ — أما بيان وجوب النصيحة فقد اعتمد فيه النووى على سوق الآيات والأحاديث الناطقة بوجوبها فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان — أعز الله أنصاره — ونصيحة عامة المسلمين . فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الدين النصيحة لله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم » — ومن نصيحة السلطان — وفقه الله تعالى لطاعته وأولاه كرامته — أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام . »

٢ — أما المطالبة بالشفقة على الرعية فقد اعتمد فيها كذلك على الآيات والأحاديث المناسبة التى تترجح بين الوعد للمشفق الرحيم ، والوعيد للفظ الظالم الجائر قال :

« وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفة ، وإزالة ، الضرر عنهم . قال الله تعالى : « واخفض جناحك للمؤمنين » . وفى الحديث الصحيح : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق اللهم به . ومن شق عليهم فاشقق اللهم عليه . » الخ

٣ — أما الثناء على السلطان والدعاء له ، فهو يحمل فى طياته — أو كأنى

به يحمل فى طياته — التنبيه إلى وجوب حمد الله على نعمته وشكره على فضله أن مكن للسلطان من أعدائه ، فلزمه بهذا ، أن يعدل بين الناس ويشفق على الرعية . قال النووى :

«وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان — أعز الله أنصاره — فقد أقامه لنصرة الدين والذب عن المسلمين . وأذل له الأعداء من جميع الطوائف . وفتح عليه الفتوحات المشهورة فى المدة اليسيرة . وأوقع الرعب منه فى قلوب أعداء الدين وسائر المارين . ومهد له البلاد والعباد وقمع بسيفه أهل الزيغ والفساد ، وأمده بالإعانة واللطف والسداد . فلله الحمد على هذه النعم المتظاهرة والخيرات المتكاثرة . ونسأل الله الكريم دوامها لنا وللمسلمين . وزيادتها فى خير وعافية . آمين . وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين .»

٤ — أما موضوع الشكاية فقد عرضه النووى مبينا حكم الشرع فى هذه المصادرة ومحببا السلطان إلى اتباعه فقال :

« وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات مالا يلزمهم . فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين . بل من فى يده شىء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه ولا يكلف بإثبات .

وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع فيوصى نوابه فهو أولى من عمل به .

والسؤال إطلاق الناس من هذه الحوطة والإفراج عن جميعهم . فأطلقهم أطلقك الله من مكروه . فهم ضعفة وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون . وبهم تنصر وتغاث وترزق . وهم سكان الشام المبارك جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم . فلهم حرمات من جهات .

ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم

وأطلقهم فى الحال ولم يؤخرهم . ولكن لا تنهى إليه الأمور على جهتها » .

٥ — أما الترغيب فى الإجابة فقد قال فيه وهو يترجح بين الوعد والوعيد أيضاً :

«فبالله أغث المسلمين يغثك الله . وارفق يرفق الله بك . وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم . فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك عن أسلافهم ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء ، وقد نهبت كتبهم .

وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رفق بأمته . ونصره على أعدائه . فقد قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » . ويتوافر له من رعيته الدعوات وتظهر فى مملكته البركات . ويبارك له فى جميع مايقصده من الخيرات . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

نسأل الله أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التى يذكر بها إلى يوم القيامة ، ويحميه من السيئة . فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان . ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه فيها القبول . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »[1]

هذا وللنووى نصيحة أخرى بعث بها لبيبرس ينصحه فيها بحسن معاملة فقهاء الشريعة . ويبدو أنه كان كثير النصح لهذا السلطان .

* * *

الرسالة الثالثة[2] :

هذه إحدى رسائل ابن تيمية الحرانى وتسمى « الرسالة القبرصية » وتقع فى نحو أربعمائة سطر . وقد سميت كذلك — على ما يبدو — لأن كاتبها أرسلها إلى سرجواس[3] ملك جزيرة قبرص .

---

(١) نص النصيحتين فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٩ .

(٢) الرسالة القبرصية مطبوعة وتقع فى نحو ٣٣ صفحة .

(٣) سرجواس اسم ملك قبرص المرسل إليه ، هكذا ثبت اسمه فى عنوان الرسالة . ولكن فى ديباجتها قيل سرجوان بالنون . ولعل إحداهما خطأ مطبعى .

وهى نصيحة وجهها إلى هذا الملك الذى يبدو أنه قد طغى وبغى، وظلم من قبله من المسلمين النازلين بسواحل قبرص . لذلك أرسل إليه ابن تيمية ينذره ويحذره ، ويتوعده ويهدده ، أملا منه فى أن يقلع عن غيه وظلمه .

وكان الملك المذكور مسيحياً ، فطفق ابن تيمية يسوق إليه العظات الرادعة ، ويضرب له المثل بالتتار الذين حاربهم جنود المسلمين ، لما ظلموا ، على الرغم من ادعائهم الإسلام .

وتشعر وأنت تقرأ الرسالة بجرأة قلب كاتبها ومطاوعة قلمه لما فى قلبه . وأنه لولا معرفتنا به رجلا من رجال الدين ، لقلنا إنه لسان السلطان أو خليفة المسلمين ، يترجم عن رأى عال ، ويتهدد بخطة مرسومة ، وينذر عن كتائب مجموعة بين يديه ، وأنه على وشك أن يسوق الجيوش للانتقام .

على أن ابن تيمية كان يرجو الخير من نصيحته إليه ، وكان متفائلا إلى حد بعيد ، أن يصيب هدفه الذى رمى إليه . ولهذا لم يكتف بأن يطلب منه الكف عن ظلم المسلمين ، بل راوده على ترك دينه والدخول فى ملة الإسلام . وأنبأه بأنه يتوسم فيه الخير والصلاح . ومن كان كذلك استجاب لداعى النصيحة ولبى نداء العظة .

وإليك عرضاً وجيزاً لما تحتويه هذه الرسالة الفريدة .

١ — بدأها بقوله :

« من أحمد بن تيمية إلى سرجوان ، عظيم أهل ملته . ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين وعظماء القسيسين والرهبان والأمراء والكتاب وأتباعهم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، إله إبراهيم وآل عمران . ونسأله أن يصلى على عباده المصطفين وأنبيائه المرسلين » الخ .

وبعد أن صلى على الأنبياء خص بالذكر منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وترى ترتيب الديباجة فيه بعض التغيير عن المألوف المتبع فى افتتاح الرسائل ،

إذ ذكر إبراهيم وآل عمران مثلا . وذلك مراعاة لحال المرسل إليه .

٢ — وتحدث بعد ذلك عن حكمة خلق الله لعباده ، وأنها العبادة . وأن السعيد هو الذى هداه الله إليها وأحب ربه حب الصبي لأمه ، وحن إليه حنين النسر إلى وكره .

وبين أن الناس بين آدم ونوح ، كانوا على دين آدم حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بشبهات زينها لهم الشيطان بفلسفة حائدة زائفة. وزعموا أنها ظلام الكواكب والأرواح العلوية . . . وقلد الناس رؤساءهم فى ذلك ، فضلوا بهم . لذلك بعث الله نوحاً ليهديهم إلى عبادته ، ثم آمن به قليلون . فأمره الله أن يصنع الفلك . ونجاه هو وقومه وأغرق الكافرين .

ثم جاءت الرسل تترى من بعد نوح . حتى عم الأرض دين الصابئة والمشركين ، فبعث الله إبراهيم لينهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وليدعوهم إلى عبادة الرحمن . وأخذ يجادلهم ثم كان من أمرهم ما كان . .

وتوالى إرسال الرسل والأنبياء من أهل بيته ، وجعل لكل منهم خصائص ، وآتى كلا منهم من الآيات مايبهر البشر ويدعوهم إلى الإيمان : ومنهم موسى وآيته العصا وفلق البحر وتفجر الماء من الصخر .

وبعث بعده أنبياء من بنى إسرائيل ، منهم من أحيا الله على يده الموتى ، ومنهم من شفى المرضى ومنهم من أطلعه الله على غيبه ، ومنهم من سخر له المخلوقات . . الخ واتفقت على ذلك جميع أهل الملل والكتب .

وكانت بنو إسرائيل أمة قاسية عاصية تعبد الأصنام والأوثان . وتقتل النبيين بغير حق ، ويستحلون محارم الله . فلعنوا أولا على لسان داود ، وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف .

٣ — تحدث الكاتب بعد ذلك عن المسيح ، فبين أن الله سبحانه أرسله وجعله وأمه آية ، وكان بنو إسرائيل قد تمردوا ، فدعاهم إلى عبادة الله متبعاً سنة إخوانه المرسلين ، مصدقاً لمن قبله ، ومبشراً بمن بعده .

وكان غالب أمره اللين والرحمة والعفو والصفح . فتفرق الناس فيه ثلاثة أحزاب :

(ا) قوم اتبعوه وجعل الله فى قلوبهم رأفة ورحمة ، ومنهم قسيسون ورهبان .

(ب) وقوم كذبوه وقالوا إنه ابن بغى ، ونسبوه إلى يوسف النجار وزعموا ان شريعة التوراة لم تنسخ .. الخ .

(ح) وقوم اتبعوه وغلوا فيه وزعموا أنه الله ، وابن الله ... الخ . وهؤلاء تفرقوا فى التثليث بما لا يقره عاقل . وهكذا دخل الفساد إليهم . وعامة رؤسائهم من القسيسين والرهبان إذا ميزوا انحلوا عن دينهم وعاشوا منافقين يرامون ملوكهم لما يصيبهم من رزق وحظ ، مثل ابن البورى ببيت المقدس ، وابن القف بدمشق والبابا بالقسطنطينية ، وغيرهم . وبقوا كذلك لأجل الرياسة والغنى . وذو الفضل منهم ينبغ فى علم رياضى كالمنطق والهيئة والحساب والنجوم ، أو طبيعى كالطب ، أو إلهى على طريقة الصابئة الفلاسفة .

وأخذ الكاتب يزيف كثيراً مما اصطنعه هؤلاء من صنوف الحيل والمكر للضحك على العامة ، حتى تفرقوا أحزاباً وعلا أمر الشرك بينهم .

٤ — بين الكاتب بعد ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، بعث حينئذ رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأمره بدعوة الخلق جميعاً إلى الحق ، وإلى توحيده سبحانه ، وقال : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء .. » .

ثم أخذ يبين طرفاً من الشريعة السمحة الغراء ، من عبادة وخلق واجتماع ، حتى كانت الأمة بها أمة وسطا .

٥ — ثم خاطب الملك بعد هذا البيان ، بأن يراعى العدالة والإنصاف ، وأنه خاطبه به وما بعث إليه بهذه النصيحة إلا لما يترامى إلى سمعه من حبه الخير ، ومن امتلاء قلبه بالرحمة . وغير ذلك مما حدثه به عنه « الشيخ أبو العباس المقدسى » ورجا له بعد ذلك أن يهديه الله إلى الحق ، حتى يجمع له خيرى الدنيا والآخرة .

وقد لفته ـ وهذا من باب الإنذار والوعيد ـ إلى ما كان من أمر غازان مقدّم التتار : هو وأتباعه . حين قدموا إلى دمشق مدعين الإسلام دون أن يعملوا بتعاليمه . فكانت عاقبتهم الهزيمة النكراء والبوار والتلف ، ومعهم صاحب سيس ..

وأخذ ابن تيمية ينصحه وكأنه يدعوه إلى الإسلام . وظل يضرب له الأمثال . ويقص عليه من وقائع التاريخ ما فيه العبرة . وذكر له ما كان من النصارى على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومجيء وفد نجران إليه . وبعثه وفوده إلى قيصر والنجاشي . وما أجابا به ، وقد قال قيصر لما تبين له الحق « وددت أني أخلص إليه حتى أغسل عن قدميه . ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه » .

٦ — ثم أخذ ابن تيمية يغلظ له النصيحة ، وينذره بأن يقع به مثل ما وقع بالتتار ، فإنهم مع كثرتهم ، لم يغنوا عن أنفسهم شيئاً أمام إيمان جنود المسلمين وتصميمهم على الإيقاع بأعداء الإسلام الكائدين له ... وقال له « فيأيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسوله » .

وهدده بأن في ديار مصر عدداً ضخماً من النصارى الذين يعاملون بالحسنى . فليحذر أن يعاملوا بمثل ما يعامل به مسلمي قبرص . وأن بين المسلمين عدداً من « الفداوية » — الفدائيين — الذين يغتالون الملوك في فرشها وعلى أفراسها . وأن بينهم الصالحين الذين لا يرد الله دعوتهم . الخ . . .

وقد طلب ابن تيمية من الملك أن يستجيب لنصحه ويسمع لقوله . وكره إليه الدنيا وحبب إليه الآخرة . ثم أبدى له استعداده لأن يستمر على نصحه مكاتبة أو مشافهة إذا أراد ذلك ، وأنه على استعداد للسفر إليه إذا شاء ...

٧ — وتلمح في هذه الرسالة — عدا ما سبق — اعتزاز ابن تيمية بالإسلام وجنوده . وتمجيده لهم لأنهم ينصرون دين الله . يقول وقد خرجوا للقاء التتار :

« فلما انصرف العسكر إلى مصر ، وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد وعدم الدين ، خرجت جنود الله ، وللأرض منها وئيد . وقد ملأت السهل والجبل فى كثرة وقوة وعدة وإيمان وصدق . قد بهرت العقول والألباب ، محفوفة بملائكة الله التى مازال يمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها . فانهزم العدو بين أيديها ولم يقف لمقابلتها . » الخ ...

٨ — وعبارة الرسالة قوية واضحة الحجة بارزة المعانى محددة الهدف ، مرسلة لا تعنى بقيود البديع إلا لماما ، دون تكلف .

ومما قاله فيها يحقر للملك أمر الدنيا ، ويبين أن خير ما ينفع المرء هو التمسك بدين الله وحسن الاعتقاد به :

« وأما الدنيا فأمرها حقير . وكبيرها صغير . وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال . وغاية ذى الرياسة أن يكون كفرعون الذى أغرقه الله فى اليم انتقاما منه . وغاية ذى المال أن يكون كقارون الذى خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة لما آذى نبى الله موسى .

وهذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين ، كلها أمر بعبادة الله والتجرد للدار الآخرة . والإعراض عن هذه الحياة الدنيا .

ولما كان أمر الدنيا خسيساً ، رأيت أن أعظم ما يهدى لعظيم قومه ، المفاتحة فى العلم والدين بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله . والكلام فى الفروع مبنى على الأصول .

وأنتم تعلمون أن دين الله لا يكون بهوى النفس ولا بعادات الآباء وأهل المدنية ، وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل وفيما اتفق الناس عليه وما اختلفوا فيه . ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح . وإن كان لا يمكن الإنسان أن يظهر كل ما فى نفسه لكل أحد ، فينتفع هو بذلك القدر . » الخ ...

الرسالة الرابعة[1] :

هذه رسالة للجلال السيوطى قريبة الشبه برسالة ابن تيمية فى موضوعها ومنحاها وقد أرسلها كاتبها إلى ملوك التكرور ، وكانوا مسلمين . ولكن يبدو أنه تفشى بينهم الظلم للرعية ، وانتشرت محاباتهم لأتباعهم ، وجورهم على من سواهم ، وتجاوزهم حدود الله وأحكام الشريعة الغراء ، فى أحكامهم .

ويبدو أنه بلغ إلى أسماع السيوطى أن بعض قضاتهم حكم بغير الشريعة فى إحدى القضايا تبعا للهوى ، وأنه قد فشت فيهم عوائد ليست من الدين فى شىء . لهذا كتب السيوطى إليهم عامة . وإلى الملك الزاهد محمد بن صعفن صاحب « أكدر » وإخوته ، خاصة . ينصحهم ويردهم إلى حكم الله ، ويذكرهم بقوته سبحانه وتعالى ، وهو أحق أن يخشوه ويتجنبوا عذابه .

وهذه الرسالة تقع فى نحو ٤٦ سطرا ، وخطها ردىء جداً . وقد جهدت فى قراءتها ونقلها ، ولذلك أسجل منها سطوراً أكثر من سابقتها فمنها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .
« يأيها الذين آمنو اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم . ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما .

من الفقير عبد الرحمن السيوطى إلى الملوك والسلاطين ببلاد التكرور عموما وإلى الملك الزاهد « محمد بن صعفن » صاحب أكدر وأخيه محمد وعمرو ابن أختهم محمد عبد الرحمن . وإلى الملك صاحب كاسنة خصوصا .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فإنى إليكم أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أوصيكم بتقوى الله فإنها رأس الأمر وسنامه . وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه . وأحثكم على العدل بين الرعية والوقوف عند حدود الأحكام

---

(١) هذه الرسالة مخطوطة بدار الكتب المصرية — مجموعة رقم ٤١٦ .

الشرعية . ولا يغرن أمرأ منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة . وما خوله الله من زينة الحياة الدنيا ، كلها سنة منام ولا بد أن يستيقظ من السنة .

وقد بلغنى عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعى فى واقعة ، والمحكوم عليه ينتم إليه فيحضنه . ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحصنه . ويقول هذا دخل فى ملكى أو جعل فى سلطانى . وردُّ ما حكم به الشرع الشريف اغترار بالأمانى — أفلا يخشى أحدكم من مالك الملك أن يحل عليه العذاب الأكبر . أو ينزل عليه سخطه فى الدنيا قبل أن يقبر . إن بطش ربك لشديد . وما ربك بظلام للعبيد . أيغتر أحدكم بملكه الذى هو كقطرة أو صبابة . ويريد أن يلغى حكم الله بإقامة ناموسه الذى لا يساوى عند الله جناح ذبابة . أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض . أو يدكدك عليكم ما بين طولها والعرض ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده . فإذا عدل كان له الأجر . وعلى الرعية الشكر . وإذا جار كان عليه الإصر . وعلى الرعية الصبر » . وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : قلت يارسول الله : أخبرنى عن هذا السلطان الذى ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ، ما هو ؟ « قال : » ظل الله تعالى فى الأرض . فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر . وإن أساءوا فعليهم الإصر وعليكم الصبر . » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سيليكم أمراء يعتدون وما يصلح الله بهم أكثر . فمن عمل منهم بطاعة الله فلهم الأجر وعليكم الشكر . ومن عمل منهم بمعصية الله فعليهم الوزر وعليكم الصبر » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : سلطان غشوم عسوف ، وعابد مارق فى الدين . »

وظل السيوطى يسوق من الأحاديث النبوية جملة فى هذه المعانى . ثم قال :

« فلذلك بذلت لكم النصيحة . وبلغتكم ما جاء عن رسول الله عليه وسلم ، من الأحاديث الصحيحة . فأقيموا السلطنة بعدلها . وأدوا الأمانة إلى أهلها .

ومما ينص بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذى عليه تغلب . وحاد عن الحق وتنكب . وحكم عليه القاضى محمد بن عبد الكريم بأنه باق فى رقه : وأمر بأن يسلم إلى مستحقه .. » إلى قال :

فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة . ولا تحولوا بين السيد وعبده ، إلا أن يكاتبه باختياره ويعتقه . وقد بلغنى أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه وتاب . ورجع إلى ربه وأناب . وهذا هو الذى ينفعه فى المآب .

وقد بلغنى عن أهل « كوبر » أن منهم من إذا مرض ذبح عبداً له ، أو أمة . ويزعم أن ذلك يفديه من الموت . (هنا بياض فى الأصل) : إن كفره فيما صنعه وفيما زعمه هذا مما يسوله الشيطان . ومما يزينه من العدوان : ومما يئول بصاحبه إلى الكفران .. فليعلم من فعل ذلك أن الله برىء منه ورسوله وليس هو ببالغ بذلك هناه وسؤله . لو أعتقه كان أقرب إلى الفداء . بعيداً عن الاعتداء . فمن عرض له أمر فليعرضه على حملة الشريعة . ويسأل عالما يوثق بعلمه ويجب عليه أن يطيعه . واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .»

هذا وتعانى بعض عبارات الرساله شيئاً من الاضطراب والنقص ، ويبدو أن ذلك بسبب النسخ .

وقد سهل للسيوطى مخاطبة ملوك التكرور — على مانفهم — أنه كانت له إلى بلادهم من قبل رحلات وطوفات ؛ فلعله تعرف إليهم وحظى لديهم . والله أعلم

* * *

وبعد فلم يكن توجيه النصائح والعظات ، مقصوراً على الملوك والطغاة . بل تناول غيرهم من الناس ممن هم بحكم عملهم وولايتهم فى حاجة إلى النصح والإرشاد .

ونذكر بهذه المناسبة ، رسالة جيدة وجهها قاضى قضاة الشافعية بمصر تقى الدين

ابن دقيق العيد ، إلى نائب حكم فى إخميم — وكان ابن دقيق كثيراً ما يكتب إلى نوابه ويعظهم ويبالغ فى وعظهم .

وهذه الرسالة ذات أسلوب جيد ، وقد أعلن له فيها ما استحكم على القلوب من الغفلة ، وما شاع بين الناس من الفساد ونسيان الدين وتعاليمه ، ولم يستثن من ذلك قضاة الشرع الذين حملوا أمانته ولم يؤدوها . وبين ما ينجم من ذلك كله من عذاب فى الدنيا والآخرة. وأخذ يحذره وينذره ويخيفه من عذاب الله ، وطفق يضرب له الأمثال بأحوال السلف الصالح وأقوالهم .

قال فى مطلعها :

« صدرت هذه المكاتبة إلى مجلس مخلص الدين — وفقه الله تعالى لقبول النصيحة . وأتاه لما يقربه إليه قصداً صحيحاً ونية صحيحة .

أصدرناها إليه ، بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ويمهل حتى لا يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور . ونذكره بأيام الله . « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أجد سواه مغبون . عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه . وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار . فإنى أخاف أن يتردى فيخر من ولاه . والعياذ بالله.

والمقتضى لإصدارها ، ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب . ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب . ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها . وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كئود وهم لا يتخففون منها . ولا سيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة . وظهروا بصور كبار وهمم نحيفة . ووالله إن الأمر عظيم والخطب جسيم . ولا أرى مع ذلك أمناً ولا إقراراً . ولا راحة ولا استمراراً . اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراءه . واتخذ إلهه هواه . وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه . فغاية مطلبه حب الجاه . والرغبة فى قلوب الناس وتحسين الزى والملبس . والركبة والمجلس . غير مستشعر خساسة حاله ولا ركاكة مقصده . فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور .

فاتق الله الذى يراك حين تقوم . واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم . وما أنا وإياكم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمى ، وقد قال له قائل : « ليتنا لم نخلق » قال : « وقد وقعتم فاحتالوا » . وإن خفى عليك مثل هذا الخطر وشغلتك الدنيا عن معرفة الوطن ، فتأمل كلام النبوة : « القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار . » . . . الخ

وضرب له الأمثال وسن له طريق التقوى فقال :

« وقال الفاروق : « ليت أم عمر لم تلده » . وقال على ، والخزائن مملوءة ذهبا وفضة : « من يشترى سيفى هذا ، ولو وجدت ما أشترى به رداء ما بعته » . وقطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض . وعلق بعض السلف سوطا يؤدب به نفسه إذا فتر . فترى ذلك سدى أم نحن المقربون وهم البعداء ؟ . فهذه أحوال لا تؤخذ من كتاب السلم والإجارة والجنايات ، وإنما تنال بالخضوع والخشوع . وأن تظمأ وتجوع .

ومما يعينك على الأمر الذى دعوتك إليه . ويزودك فى السفر المعرض عليه . أن تجعل لك وقتا تعمره بالتذكر والتفكير . وإنابة تجعلها معدة لجلاء قلبك . فإنه إن استحكم صداه صعب تلافيه . وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه . فاجعل همومك لاستعداد المعاد . والتأهب لجواب الملك الجواد . فإنه يقول : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » . ومهما وجدت من همتك قصورا . واستشعرت من نفسك عما بدا لها نفوراً . فاجررها إليه وقف ببابه واطلب فإنه لا يعرض عمن صدق . ولا يعزب عن علمه خفايا الضمائر . « ألا يعلم من خلق » .

فهذه نصيحتى إليك ، وحجتى بين يدى الله إن فرطت ، إذا سئلت عنك ، فنسأل الله ولك ، قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً ونفسا مطمئنة . بمنه وكرمه وخفى لطفه . والسلام »[1]

* * *

(١) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ .

هذا وكتب صاحب كتاب « نسيم الصبا » عظة ساقها على لسان أحد الوعاظ يذم فيها الدنيا إلى الناس . وافتتحها بديباجة كديباجة المقامات فقال :

« أعلمنى من أثق بنقله . ولا أشك فى معرفته وفضله . بقدوم بليغ من الوعاظ . يبرز دقائق المعانى فى جليل الألفاظ . وأشار بحضور مجلسه . والاهتداء بضوء قبسه . فقبلت الإشارة . وانتظمت فى سلك السيارة . حتى أفضينا إلى ناد فسيح . لسان مناديه فصيح . قد جمع بين الغنى والفقير . واشتمل على المأمور والأمير . وإذا بشيخ قائم فى بهرة حلقته . يفتن بسحر الكلام قلوب فرقته . فسمعته يقول :

أيها الناس ! ما الموت بساه ولا ناس . فتأهبوا لحلوله . واستعدوا له قبل نزوله . وحصلوا الراحلة والزاد . وردوا العاصى إلى الطريق فقد زاد . ولا تعدلوا عن محجة الحجا . واتقوا دعوة المظلوم فى ظلام الدجا . وآمنوا بالقدر خيره وشره . وارضوا بالقضاء حلوه ومره . وأفرغوا ذنوب الذنوب . وافزعوا إلى علام الغيوب . وامنعوا من الأمل ما كان جموحا . وتوبوا إلى الله توبة نصوحا .

وتجنبوا سبق الخطا فلكم هوى رب الهوى عن حصنه وعقابه
وتمسكوا بجناب تقوى ربكم كى تسلموا من خزيه وعقابه

وإياكم والدنيا فإنها تمكر بصاحبها . وتهدى إلى أقاربها سموم عقاربها . عامرها خراب . وغامرها سراب . أمدها قصير . وإلى الفناء نصير . صفوها كدر . وجرحها هدر . والخاطر بها على خطر . لأنها لا تبقى ولا تذر » الخ[1]

* * *

كتب الوعظ :

أما الكتب والمؤلفات التى صنفت للعظة والنصيحة ، أو تضمنت الكثير من ألوانها ، فهى وفيرة العدد . وقد سبقت إشارتنا إلى أن كتب التصوف والكلام عن العقائد ، تضمنت الشىء الكثير من النصائح .

---

(٢) العظة بتمامها فى « نسيم الصبا » بالباب الثلاثين .

وإليك أحاديث وجيزة عن بعض هذه المؤلفات النافعة . وهى بما تتضمنه من أفكار وما تبرزه من المعانى السامية التى تنطق بجدتها وعمقها ، جديرة بأن تسمو بكاتبيها إلى مصاف قادة الفكر المبتكرين . فمنها :

تاج العروس :

واسمه الكامل « تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس » . مؤلفه تاج الدين ابن عطاء الله السكندرى المتوفى عام ٧٠٩ هـ . وقد أشرنا إليه من قبل ، وإلى أنه استوطن القاهرة وسلك سبيل المتصوفين ، وأخذ نفسه بوعظ الناس والعمل على تهذيب نفوسهم وتطهيرها بتنبيهها إلى حكم الشريعة الغراء .

وكتابه « تاج العروس » نمط من نفسه ، ورجع لما فى فؤاده ، وصدى لما طفق يردده على الناس وعلى أتباعه من حكم جامعة ، ومواعظ نافعة . والكتاب تحليل نفوس وتعمق أخلاق وتشخيص داء ووصف دواء . وهو دليل مادى على عقلية هذا الرجل ومدى فهمه للشريعة ، وعمق إيمانه بالله ، ومقدار معرفته بالنفس البشرية ، ومبلغ حبه للناس . ثم تمكنه من إبراز معانيه العالية فى ثوب لفظى جميل مقبول قل فيه الخفاء والغموض ، على الرغم من أن الشيخ أحد رجال الصوفية الذين لهم مصطلحاتهم .

وموضوع الكتاب جملة من الحكم والآيات البينات المزودة بالأحاديث وبالأمثال الرائعة والقصص الرادعة ، التى تدعو الإنسان إلى التزود من الدنيا للآخرة ، وإلى التجرد من متاعها العاجل ، وإلى الإقبال على الله بجمع النفس وملء القلب ، وتطهيره بالتوبة ، وإقلاعه عن المعصية ، حتى تفيض عليه أنوار العلم ، ويسبغ الإيمان رداءه فوقه .

قال ناصحاً بالتوبة داعياً إليها مبيناً سبيلها :

« أيها العبد : اطلب التوبة من الله فى كل وقت . فإن الله تعالى قد ندبك إليها فقال تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » : وقال تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى ليعان على قلبى . وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

فإن أردت التوبة فينبغى لك أن تخلو من التفكير طول عمرك فتفكر فيما صنعت فى نهارك . فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها ، وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك . واستغفر الله وتب إليه . فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك . ولا توبخها وأنت ضاحك فرح ، بل وبخها وأنت مجد صادق ، مظهر للعبوسة ، حزين القلب ، منكسر ذليل . فإن فعلت أبدلك الله بالحزن فرحا . وبالذل عزا ، وبالظلمة نورا ، وبالحجاب كشفاً » .

وقال متحدثاً عن المعصية وآثارها ، وهو فى ذلك كالطبيب الذى يصف مضاعفات المرض :

« واعلم أن المعصية تتضمن نقض العهد . وتحليل عقد الود . والإيثار على المولى . والطاعة للهوى . وخلع جلباب الحياء . والمبادرة لله بمالا يرضى . مع ما فى ذلك من الآثار الظاهرة ، من ظهور الكدورة فى الأعضاء . والجمود فى العين . والكسل فى الخدمة . وترك الحفظ للحرمة . وظهور كسب الشهوات . وذهاب بهجة الطاعات . وأما الآثار الباطنة فكالقساوة فى القلب ، ومعاندة النفس ، وضيق الصدر بالشهوات . وفقدان حلاوة الطاعات . وترادف الأغيار المانعة من بروق شوارق الأنوار . واستيلاء دولة الهوى . إلى غير ذلك من ترادف الارتياب . ونسيان المآب وطول الحساب » الخ ...

وقال فى الطاعة متلطفاً فى وصفها وفى ضرب الأمثال فى سبيل الترغيب وفيها:

« ما أحسن العيش إذا أطعت الله فيه بذكر الله تعالى والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . يروى أنه مامن صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى . لأن السارق لا يسرق بيتاً وأهله أيقاظ ، بل على غفلة أو نوم . ومن علم قرب رحيله أسرع فى تحصيل الزاد . ومن علم أن إحسان غيره لا ينفعه جد فى الإحسان . ومن أخرج ولم يحسب ، خسر ولم يدر . ومن وكل وكيلا واطلع على خيانته عزله . وكذلك نفسك قد اطلعت على خيانتها فاعزلها وضيق عليها المسالك .

إذا رأيت فيك الإعراض والشهوة والغفلة ، فهذا وصفك . وإذا رأيت

فيك الإنابة والخشية والزهد ، فهذا من صنائع الله . مثال ذلك : إذا رأيت ببلدك الحلفاء والشوك والعوسج ، فهذا نبات أرض بلدك . وإذا رأيت بها العود الرطب والمسك والعنبر فاعلم أنه مجلوب من صنائع الله . وليس من نبات أرضك . » الخ . . .

بستان العارفين :[1]

هذا كتيب مخطوط بدار الكتب المصرية ، ألفه عالم عصره وزاهد زمانه محي الدين النووى المتوفى عام ٦٧٦ هـ . وهو نتيجة تصوف هذا الرجل ونسكه وتقواه ، ألفه ليرسم به طريق الرشاد الذى يسلكه العابد ليصل به إلى الله وإلى السعادة المنشودة ، وذلك بأن يتخلق بالأخلاق الفاضلة ، وأن يتزود بجملة من نفائس اللطائف وحقائق المعارف ، تعينه على بلوغ إربته والوصول إلى طلبته .

ويمتزج حديثه فيه بتفسير القرآن وشرح الحديث فى المناسبات ، مصحوبة بأقوال السلف والمأثور عن الأخيار من حكايات وأشعار . وقد عنى فيه ببعض الأحاديث النبوية مبينا صحيحها وحسنها ، وأحوال رواتها مع توضيح لخفى مراميها والمشكل من معانيها ، مستطردا إلى مشاكل كلامية كمسألة كسب العبد .

فهو كتاب يهدى إلى الطاعة ويعالج أدواء النفوس ، ويسمو بها عن طريق التعاليم الشرعية .

ومن كلامه فى ورقة رقم ٨ ، يتكلم عن « حقيقة الإخلاص والصدق » قال : « أما الإخلاص فقال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، الآية . وروينا عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنهما ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص « ما هو » فقال : سألت جبريل عن الإخلاص ماهو ، فقال سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ، قال: سر من أسرارى أودعته قلب من أحبه من عبادى » . وروينا عن إسناد الإمام

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية — مجاميع ٤٦ .

أبى القاسم القشيرى — رحمه الله — قال : الإخلاص إفراد الحق فى الطاعة بالقصد » . وهو يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شىء آخر من التصنع لمخلوق ، واكتساب محمدة عند الناس ، أو منحة مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى . » الخ . . .

مفتاح دار السعادة[1] :

اسمه الكامل : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . أحد كتب ابن القيم المطبوعة فى جزأين يحتوى كل منهما على نحو ثلثمائة صفحة .

وقد تحدثنا عن ابن القيم فى مناسبات سابقة ، وعرفنا طرفا من اتجاهه ونزعته . وهذا الكتاب نموذج جديد يطلعنا على هذا الاتجاه وتلك النزعة . وهو فى رأينا ، يدور حول موضوع عام واحد ، هو توجيه نظر الإنسان إلى كثير من الحكم التى تتضح فيما خلقه الله سبحانه وتعالى ، وما قدره ونظمه ، لتبدو من ورائها قدرة القادر وبديع صنعه ، سبحانه . وهذا حرى بأن يدفع العاقل اليقظ المتدبر إلى عبادة ربه عبادة نقية صافية لا تشوبها شائبة ، ولا يحوم حولها ريب ، ولا يطوف بها شك ، وفى هذا سعادة لا تحد .

وملك الله سبحانه واسع المدى . ومظاهر قدرته لا تحصى ، والواعظ الناصح الواسع الأفق ، البصير ذو النظر الثاقب ، والرأى الفاحص ، يجد فيها ميداناً بعيد الآفاق يقبس منه كيفما شاء . ولهذا ترى أن ابن القيم قد تشعبت معه مناحى الكلام فى كتابه . ونثر بين فصوله ، حديثه عن موضوعات شتى يختلف الكلام فيها طولا وقصراً . ومن بينها فصل » فى بيان الأسرار التى بدت فى هبوط آدم من الجنة » . وفصل فى « وصف الجبال وبيان مزاياها » . وفصل فى « بيان الحكمة فى كثرة بكاء الأطفال » . وفصل فى « بيان حاجة الناس إلى الشريعة » . وهكذا .

هى موضوعات متباعدة فيما تتناوله . ولكنها مترابطة فى الغاية التى تهدف

---

(١) مطبوع .

إليها . وهى توخى الحكمة وتقديم العظة مما خلق الله وما شرعه ، وما قدره . وفى هذا دعوة إلى تعظيمه والخضوع له وعبادته .

وهى فى الواقع دروس تعليمية تهذيبية متعددة الألوان . فطورا تحدثك عن الإنسان وما أودع الله فيه من قوى ومميزات ، وطورا تصف لك الأجرام السماوية ، وتخاطبك عن مظاهر الطبيعة من ريح وزلزال ، وعن التضاريس الأرضية وما تحتوى عليه من معادن ونبات وماء وحيوان وإنسان . وبينما تحدثك عن الفروق الخلقية بين الرجل والمرأة ، إذ تكلمك عن الساعة وعلمها واستئثار الله سبحانه به ، وفائدة ذلك للإنسان ، إلى غير ذلك .

فقارئ الكتاب يحار فيه : أهو كتاب فقه وتشريع أم تفسير وحديث ، أو تصوف وعقائد أو تاريخ وقصص ، أو هو كتاب من كتب علم النفس تحليلى يتحدث عن الأخلاق ويرسم مناهج التربية ، أو هو كتاب أدب بما ضم بين دفتيه من مأثور الشعر والنثر ؟

هو كل ذلك فى الواقع ، وربما تجد فيه من الحقائق العلمية ما يحتاج إلى تمحيص ، ولكنه على كل حال يرمى إلى غرض عام رئيسى ، وهو تهذيب النفس باطلاعها على حكم صنعة الله سبحانه ، ودعوتها إلى الإيمان التام به والاستسلام له وطاعته وعبادته . كل هذا فى عبارة مرسلة وتراكيب سهلة وأسلوب جيد ، تتراوح فيه بعض المصطلحات من آن إلى آن ، وتبدو فيه روح الاستقصاء واستيفاء الأجزاء من وقت لآخر .

وإليك سطورا مما قاله :

قال يتحدث عن كمالات النفس الأربعة التى ذكرها الفلاسفة وهى : العفة والحلم والشجاعة والعلم :

« وهذه الكمالات الأربعة التى ذكرها الفلاسفة للنفس ، لابد منها فى كمالها وصلاحها . ولكن قصروا غاية التقصير فى أنهم لم يبينوا متعلقها ولم يحدوا لها حدا فاصلا بين ما تحصل به السعادة ومالا تحصل به . فإنهم لم يذكروا متعلق «العفة» ولا عما ذا تكون ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه العبد وقع فى الفجور .

وكذلك « الحلم » لم يذكروا مواقعه ومقداره وأين يحسن وأين يقبح . وكذلك « الشجاعة » وكذلك « العلم » ، لم يميزوا العلم الذى تزكو به النفوس وتسعد ، من غيره ، بل لم يعرفوه أصلا .

وأما الرسل صلاة الله وسلامه عليهم ، فبينوا ذلك غاية البيان وفصلوه أحسن تفصيل . وقد جمع الله ذلك فى كتابه فى آية واحدة فقال : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » — فهذه الأنواع الأربعة التى حرمها الله تحريما مطلقا لم يبح منها شيئا لأحد من الخلق ولا فى حال من الأحوال . بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير فإنها تحرم فى حال وتباح فى حال .

وأما هذه الأربعة فهى محرمة . فالفواحش متعلقة بالشهوة ، وتعديل قوة الشهوة باجتنابها . والبغى بغير الحق متعلق بالغضب ، وتعديل القوة الغضبية باجتنابه . والشرك بالله ظلم عظيم ، بل هو الظلم على الإطلاق وهو مناف للعدل والعلم . وقوله « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » متضمن تحريم أصل الظلم فى حق الله . وذلك يستلزم إيجاب العدل فى حقه . وهو عبادته وحده لا شريك له . فإن النفس لها قوتان : العلمية والعملية . وعمل الإنسان عمل اختيارى تابع لإرادة العبد . وكل إرادة فلها مراد . وكما هو : إما مراد لنفسه ، وإما مراد لغيره ينتهى إلى المراد لنفسه ولا بد . فالقوة العملية تستلزم أن يكون للنفس مراد تستكمل بإرادته . فإن كان ذلك المراد مضمحلا فانيا زالت الإرادة بزواله ، ولم يكن للنفس مراد غيره ففاتها أعظم سعادتها وفلاحها . فيجب إذن أن يكون مرادها الذى تستكمل بإرادته وحبه وإيثاره باقيا لا يفنى ولا يزول . وليس ذلك إلا الله وحده . » الخ[1] . . .

وقال يصف القلب السليم :

« والقلب السليم الذى ينجو من عذاب الله ، هو القلب الذى قد سلم من

---

(١) مفتاح دار السعادة جـ ١ ص ١٢٨

هذا وهذا . فهو القلب الذى قد سلم لربه وسلم لأمره ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره . فهو سليم مما سوى الله وأمره . لا يريد إلا الله ، ولا يفعل إلا ما أمره الله وحده ، غايته وأمره وشرعه ، وسيلته وطريقته . لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره . لكن لا تمر عليه إلا وهى مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه . ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه . ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع ، وسليم من الغى ، وسليم من الباطل . وكل الأقوال التى قيلت فى تفسيره فذلك يتضمنها . وحقيقته أنه القلب الذى سلم لعبودية ربه حياء وخوفاً وطمعاً ورجاء . فغنى بحبه عن حب ما سواه . وبخوفه عن خوف ما سواه ، وبرجائه عن رجاء ما سواه . وسلم لأمره ولرسوله تصديقاً وطاعة كما تقدم . واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره ، إلخ[1] ...

إغاثة اللهفان[2] :

هذا كتاب آخر فريد من كتب ابن القيم ، واسمه « إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان » . ولابن القيم كثير من هذه النفائس التى تفيض وعظاً وتعليما ، وتنضح نصحاً وتهذيباً ، وتلقى على الناس دروساً قيمة فى الأخلاق ، وتسلك بهم سبيل الفضائل الصحيحة .

و « إغاثة اللهفان » تحليل لنفسية الإنسان وقلبه ، وحديث عن مبلغ إيمانه ومرضه وطرق علاجه . عدا ما تضمنه من شتى الموضوعات والعقائد والاجتماعيات والأحوال الشخصية والأحكام الفقهية .

ومن فصوله ذات الصلة بموضوعنا :

فصل فى القلب الميت الذى لا حياة له فصل فى أن حياة القلب لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق . فصل فى قياس مرض القلب على مرض البدن . فصل فى انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبيعية وشرعية . فصل فى أن القرآن

---

(١) مفتاح دار السعادة ، ج ٢ ص ٤٣ . (٢) مطبوع ويقع فى نحو ٤٢٢ صفحة .

متضمن لأدوية القلب وعلاجه . فصل فى طهارة القلب من أدرانه ونجاساته . فصل فى النفس اللوامة . فصل فى الغناء واللهو وشهادة الزور واللغو وما يتصل بذلك من مداخل الشيطان. فصل فى أن من مكايد الشيطان الفتنة بالقبور . إلخ ...

وأحاديثه تدل على تمكنه من فهم الشريعة الغراء ، وانطباعه بطابعها الأصيل ، وغيرته على الناس وخوفه عليهم أن ينحرفوا فيصيبهم عذاب الله . فهو يبين لهم وينصح ، ويشرح ويوضح ، ويضىء معالم الطريق للسالكين بنفس خيرة تملؤها المحبة العامة . ويسوق معانيه السامية فى عبارات واضحة لا التواء فيها ولا تأويل ، معتمدة على قرآن الله وأحاديث نبيه عليه السلام ، وأقوال السلف وكبار الأئمة وأحوال السابقين .

انظر إليه يتحدث عن قلب الإنسان وقد قسمه ثلاثة أقسام : قلب سليم ، وقلب ميت ، وقلب له حياة وبه علة . وبعد أن وصف القلب السليم ، قال يصف القلب الميت :

« والقلب الثانى ضد هذا ، وهو القلب الميت الذى لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ولا يعبد بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته وإرادته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالى ، إذا فاز بشهوته وحظه ، رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاء ورضا وسخطاً وتعظيما وذلا . إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه ، والشهوات قائده ، والجهل سائسه ، والغفلة مركبه . فهو بالفكر فى تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكر الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه ، فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى :

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ومن قربت ليلى أحب وقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سم ، ومجالسته هلاك » .

الوصية :

نقصد بالوصية هنا فى هذا الباب ، النصيحة والعظة ، وهى كلمة الإرشاد التى تصدر عن روح ونية قويمة ونزعة إسلامية سليمة ، والتى تدعو إلى العزوف عن الدنيا ، والتزود للآخرة ، وخشية الله فى كل ما يتناول المرء من الأعمال . وهذا هو ما سبق الحديث عنه .

غير أننا أردنا الآن أن نذكر القارئ بما سطرناه عن « الوصايا » فى باب الرسائل ، لنحسن الربط بينها فى الباب المذكور ، وبينها فى تلك السطور .

وقد رأينا هناك كيف كانت « الوصية » عنصراً بارزاً بين عناصر الرسائل الديوانية . لم تكن « الوصية » موضوعا للرسالة ، ولكنها أحد عناصرها . وقلما خلت رسالة ديوانية ، سواء أكانت ملوكية أم تقليداً أم توقيعاً أم غير ذلك كما رأينا ، من وصية توجه إلى المرسل إليه فى ثنايا الرسالة .

ورأينا كذلك أن « الوصية » ، وإن كانت فى جملتها تدعو إلى الأمانة والصدق والعدل وحسن المعاملة ونحو ذلك من الأخلاق الفاضلة التى يدعو إليها الدين الحنيف ، كانت مع هذا ، متنوعة المسالك تختلف فى جزئياتها باختلاف المرسل إليهم ، وباختلاف أعمالهم المنوطة بهم ، ومن هنا لم تتلون « الوصايا » هناك بالألوان الدينية الزاهية التى لمعت لمعاناً واضحاً فى النصائح والمواعظ التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل .

وقد ألمعنا هناك إلى أن شهاب الدين بن فضل العمرى ، أورد فى كتابه « التعريف » جملة نماذج للوصايا التى تكتب فى المراسلات الديوانية . فمنها وصية مثلا للخليفة أو الملك تكتب « فى بيعته » . ومنها وصية تكتب لنائب السلطنة فى تقليده . ومنها وصية لوزير ، وأخرى لنائب قلعة ، وهلم جرا .

وقد قدم ابن فضل الله كلامه عن وصاياه ونماذجها بقوله : « هذا باب

كبير وللقلم فيه سبح طويل . ولو تكلفنا استيعاب الوصايا لألزمنا تكليف مالا يطاق . »[1]

وقد اختلفت عبارات ابن فضل الله ، ومعانيها ، باختلاف أعمال المرسل إليهم . فإنه نظر فى اختصاص كل منهم ، وما وكل إليه الإشراف عليه ، وراح يوصيه برعايته وحسن الهيمنة عليه وتصريفه ، وإن كان — فى الجملة — يدعو إلى تقوى الله .

* * *

وهناك رجل آخر غير ابن فضل الله ، كتب مثل هذه الوصايا . إلا أن ابن فضل الله كان كاتبا منشئا ورئيسا من رؤساء الديوان ، ومقننا للديوان وكتابه . فوضع كتابه «التعريف» نموذجا لهم ليقتدوا بما فيه من رسوم ومناهج تعبيرية . وكان هذا الاعتبار أهم ما صدر عنه ابن فضل الله فى « تعريفه » .

أما الرجل الآخر فلم يكن من رجال الديوان ، ولم يكن معدودا فى جملة المنشئين ، وإن كان أديبا وكاتبا وشاعرا . إلا أنه كان فقيها ومؤرخا قبل كل شىء . ومن هنا اتسمت « وصاياه » بالسمات الدينية ، على نمط من النصائح والعظات التى درسناها . أو على الأقل اتسمت بها أكثر مما اتسمت وصايا ابن فضل الله . بل إن ابن فضل الله كان فى « وصاياه » صاحب قلم أولا ، أما هذا الرجل فكان صاحب فكرة أولا . وهى فكرة كلية عميقة وليدة الفهم والدرس ، أوردها ثم أخذ يشرح تفاصيلها ويدلل على صوابها ، ويبين مناهج تطبيقها . ولهذا رأينا أن ننوه بها فى هذا الفصل .

* * *

هذا الفقيه هو صاحب طبقات الشافعية ، وأعنى « تاج الدين السبكى » . وقد اجتمعت « وصاياه » فى كتاب لطيف طبع فى مصر وفى أوربا . واسمه « معيد النعم ومبيد النقم » وإليك وجازة عنه :

---

(١) راجع التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله ، ص ٩١

معيد النعم ومبيد النقم :

وضعه مؤلفه إجابة لسؤال ورد إليه هو : « هل من طريق لمن سلب نعمة دينية أو دنيوية ، إذا سلكها عادت إليه وردت عليه » ؟

فكان جوابه — وهو يمثل فكرته ، وتراها منتزعة من صميم الشريعة وروحها — قوله :

« طريقه أن يعرف من أين أتى فيتوب منه . ويعترف بما فى المحنة بذلك من الفوائد فيرضى بها . ثم يتضرع إلى الله بالطريق التى نذكرها . هذه ثلاثة أمور هى طريقه التى يحصل بمجموعها دواء مرضه ، ويعقبها زوال علته ، بعضها مرتب على بعض ، لا يتقدم ثالثها على ثانيها ولا ثانيها على أولها » .

والأمور الثلاثة كما ترى هى التوبة ، والرضا ، والتضرع .

وقد عاد السائل إلى تاج الدين يسأله قائلا : « اشرح لنا هذه الأمور شرحا مبينا مختصرا ، وصف لنا هذا الدواء وصفا واضحا نستعمله » .

فقال : « هذا سر غريب ، جمهور الخلف لا يحيطون بعلمه . ونبأ عظيم ، أكثر الناس معرضون عن فهمه . لاستيلاء الغفلة على القلوب . ولغلبة الجهل بما يجب للرب على المربوب » .

ثم أخذ تاج الدين يشرح هذه الأمور الثلاثة ، باختصار ، كما قال . ويبين تفاصيلها ، وبذلك كتب جملة كبيرة من النصائح والوصايا ذات متات وثيق بشيئين. الأول : الشريعة وماتوجبه على العاصى من توبة ورضا واستسلام لقضاء الله وقدره ، الثانى : العمل الذى يتولاه الموصى وما ينبغى له من رعاية وعناية ومراقبة لله سبحانه وتعالى فيه ، حتى يقبله قبولا حسنا ، وتحسن بذلك العاقبة ، وتعود النعمة المسلوبة .

وملخص رأى هذا الناصح : أن من سلبت منه النعمة ، وأحب أن يعيدها فعليه بالتوبة ، وعليه أن يخلص الشكر لله ، حتى تعود إليه نعمته فيستمر على شكرها .

أما شكر النعمة فمعنى عام ، أما كيفيته وتفصيله فيختلفان باختلاف نوع النعمة وطبيعة العمل . فمثلا : العين ترى ، وشكر الله على نعمة العين يكون باستخدامها فيما أمر الله به ، وبعدها عما نهى عنه ، فلا تقع على محرم مما حرم الله النظر إليه — والأذن تسمع ، وشكر الله على نعمة الأذن يكون بتجنبها ما حرم الله سماعه ، والإقبال بها على سماع ما أمر الله أن يسمع ، وهكذا .

وعلى هذا الأساس فرع المؤلف ألواناً من الشكر ، يناسب كل منها طبيعة العمل الذى يؤديه المرء ، وكلف أداءه . وعلى هذا أصبح لكل عامل وموظف وعالم وصانع ، وغير ذلك ، طريقة من طرق الشكر يستجلب بها النعمة المسلوبة ، ثم يستديمها إذا عادت إليه .

ومجمل تفصيله فى وصف طرق شكر النعم هو إتقان العمل ورعاية حق الله فيه والإخلاص فى أدائه .

فنائب السلطنة مثلا ، يشكر النعمة ، برعاية أمور الرعية نيابة عن سلطانه . وإسداء النصيحة للسلطان خالصة لوجه الله .

والعالم مثلا ، يشكر النعمة بنشر العلم والدأب على تعليم الناس أمور دينهم ، وإخلاص النصيحة للخاصة والعامة على السواء فيما يعود عليهم بالنفع فى الدارين . . . وهكذا .

وإليك سطوراً مما قاله فى « المثال الخامس » ، وهو بيان عمل السلطان وطريقة قيامه به شكرا لنعمة الله بالسلطنة . قال :

« السلطان : أعنى الإمام الأعظم . وقد أكثر الفقهاء الحديث عنه فى باب الإمامة ، وأفرد منهم كثيرون الأحكام السلطانية بالتصنيف . ونحن ننبه على مهمات أهملها الملوك أو قصروا فيها .

فمن وظائف السلطان تجنيد الجنود وإقامة فرض الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى . فإن الله تعالى لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً آكلا شارباً مستريحاً ، بل لينصر الدين ويعلى الكلمة .

فمن حقه ألا يدع الكفار يكفرون أنعم الله تعالى . ولا يؤمنون بالله تعالى ولا برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم . فإذا رأينا ملكا تقاعد عن هذا الأمر وأخذ يظلم المسلمين ويأخذ أموالهم بغير حق ، ثم سلبه الله تعالى نعمته ، وجاء يعتب الزمان ويشكو الدهر ، أفليس هو الظالم ؟ . وقد كان يمكنه بدل أخذ أموال الناس وظلمهم ، أن يقيم جماعة فى البحر يتلصصون على أهل الحرب . وإن كان هذا الملك شجاعاً ناهضاً فليرنا همته فى أعداء الله تعالى الكفار ، ويجاهدهم ويتلصصهم ويعمل الحيلة فى أخذ أموالهم . . ؟ . . ويدع عنه أذية المسلمين .

ومن وظائفه أن ينظر الإقطاعات ويضمها إلى مواضعها ، ويستخدم من ينفع المسلمين ويحمى حوزة الدين ، ويكف أيدى المعتدين .

فإن فرق الإقطاعات على مماليكه ، واصطفاها وزينها بأنواع الملابس والزراكش المحرمة ، وافتخر بركوبها بين يديه ، وترك الذين ينفعون الإسلام جياعاً فى بيوتهم ، ثم سلبه الله تعالى النعمة ، وأخذ يبكى ويقول : « ما بال نعمتى زالت ، وأيامى قصرت » ! فيقال له : « يا أحمق ! أما علمت السبب ؟ أو لست الجانى على نفسك » . ؟ ؟

ومن هذه السطور تتجلى لك أمور منها :

١ — أن المؤلف يصدر فى نصائحه عن روح الشريعة كما نوهنا . ويذكر النعمة ويصف طريق شكرها .

٢ — أنه وصف فيما وصف ، جملة من مفاسد الملوك ، ولا ريب أنه يقصد ملوك عصره إذ هم إليه أقرب .

٣ — أنه كما يبدو لنا — وإن كان راضياً عن نظام الإقطاع — كان فى نفسه شىء منه . ويرى توجيهه لنفع المسلمين .

٤ — أنه جرىء اللفظ فى توجيه نصحه للملوك . وهذا فى رأينا هو ما ينبغى للعالم اتباعه مع الجائرين من الملوك : فقد أثبتت التجارب أن المصانعات لا تجدى ، وأن النقد الجرىء الصادق هو العلاج الحاسم .

٥ — أنه فى خلال نصيحته بين بعض اختصاصات السلاطين فى وظائفهم كتجنيد الجنود ومحاربة الأعداء وحماية الرعية ، ومراقبة المحاربين .. الخ .

* * *

وهذه الملاحظة الخامسة هى التى نحب هنا أن نوجه إليها النظر ، ليبين للقارئ إحدى مميزات هذا الكتاب النافع . فقد أخذ مؤلفه يعقد لكل ذى عمل ووظيفة وصنعة فى الدولة ، فصلا يطول أو يقصر ، يبين له فيه عمله ونعمة هذا العمل وطريق شكرها . وسمى الفصل « مثالا » .

وقد بلغ عدد أمثلته أكثر من مائة ، كل منها معنون بوظيفة المنصوح الموصى . فمثال للسلطان . ومثال لنائب السلطنة . ومثال للاستادار . ومثال للدوادار . وهكذا .

وقد سجل المؤلف فى أمثلته هذه جملة من أسماء الصناعات والحرف كالوراق والجزار والدهان . ومن هنا نستطيع الاستفادة من هذا الكتاب ، فى معرفة كثير من وظائف الدولة وأسماء الحرف المنتشرة بها واختصاص كل وظيفة وحرفة ، على وجه الإجمال . وهذه فائدة ينتفع بها المؤرخون الاجتماعيون .

* * *

هذا . وقد ساق المؤلف نصائحه — كما رأيت من نموذجها — هينة سهلة واضحة المعانى لا يئودها تكلف ولا قيد . مدعومة أحياناً كثيرة بالآيات والأحاديث .

وقبل أن نترك الحديث عن الوصية إلى الحكمة ، نشير إلى أن لابن تيمية وصيتين جيدتين ؛ تسمى إحداهما « الوصية الكبرى » ، وهى طويلة فى صفحات عدة ، كتبها إلى أتباع الشيخ العارف أبى البركات عدى بن مسافر الأموى ومن نحا نحوهم . . وتسمى الثانية « الوصية الصغرى » وقد كتبها إلى رجل يقال له « أبو القاسم القاسم بن يوسف النجيبى » الذى طلب إليه أن ينصحه بما يفيده فى دينه وكسبه وعلمه . وتقع فى نحو ١٨٠ سطراً .

وقد سلك ابن تيمية فيهما مسلكه الدائم فى الدعوة إلى الله واتباع ما أحل واجتناب ما حرم، معززاً كلامه بشواهد من الآيات والأحاديث والمأثور من الأقوال والحوادث عن السلف الصالح (١).

* * *

الحكمة :

بقى علينا فى هذا الفصل أن نتحدث فى إيجاز عن الحكم ومبلغ نصيب العصر منها.

والحكمة أولا، كما يقال، حقيقة أو قول صادق مسلم به، مصوغ فى عبارة موجزة غالباً. وقد تكون — أو كثيراً ما تكون — «الحكمة» نصيحة صبت فى قالب من اللفظ مقتضب، وتستمد من الناحية الدينية أو الخلقية أو الاجتماعية، أو تدور حولها.

والحكم — غالباً — وليدة طول الدراسة وبعد الثقافة وعمق النظر وحسن الفهم وسعة الإحاطة والعلم بالأمور. ومن هنا كانت وثيقة الصلة بعلوم الفلسفة والمنطق والمعقولات بصفة عامة. وقد سبق لنا التنويه بضعف الاشتغال بهذه العلوم. وبسبب ذلك ضعف إنتاج الحكم. على أنه قد مر علينا بعضها، وبخاصة عند الحديث عن مفاكهة الخلفاء لابن عربشاه.

غير أن انتشار الروح الدينية وإقبال العلماء على فهم الشريعة الغراء، ثم التنازع فيما بينهم على العقائد، هذا، إلى ذيوع النزعة التصوفية، كل ذلك كان ذا أثر فى وجود شىء من الحكم.

ويحضرنا فى هذا المقام، فصل كتبه ابن حبيب الحلبى فى كتابه «نسيم الصبا» ومقالة للسيوطى، وكتاب لتاج الدين بن عطاء الله السكندرى. سجل كل منهم فيه شيئاً من مبتكرات حكمه. وإليك عرضاً وجيزاً لكل منها.

---

(١) الوصية الكبرى والصغرى مطبوعتان ضمن مجموعة بدار الكتب المصرية.

فصل لابن حبيب الحلبي :

هو الفصل التاسع والعشرون من كتابه «نسيم الصبا» ويتألف من عشرات من الحكم المنثورة التي تدور حول مدح العلم والعقل ، والحث على طلب المجد ، والرضا بالقدر ، والتخلق بالصفات الحميدة . وفي مطلعه يقول :

« العلم نعم السمير . والعقل بشير بالخير يشير . اجتهد في طلب العلوم . تنفرد بما يرفعك إلى النجوم . المجد ببذل اللهى . والفضل بالأدب والنهى . من صادق العلماء زها بدره . ومن رافق السفهاء وهى قدره . العلم ثمرته الإنصاف . والزهد نتيجته العفاف . التقوى أفضل حلة . والمروءة أجل خلة . الحق سيف قاطع . والحلم درع مانع . الزم الحجا فهو ألطف سائس . ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس . العقل أحسن المواهب . والجهل أقبح المصائب :

العقل أحسن معقل فاهرع إلى أبوابه العليا تنل كل العلا
واعلم بأن الشيء يرخص كثرة والعقل إن كثرت حواصله غلا

من رضى بالقدر . وقى شر الحذر . اليأس يعز الأصاغر . والطمع يذل الأكابر . حاسب نفسك تسلم . ولا تقتحم الأخطار تندم . من سره الفساد في الأرض . ساءه طول التعب يوم العرض . لا تقل إلا ما يطيب عنك نشره . ولا تنقل إلا ما يسطر لك أجره . السعيد من اتعظ بماضي أمسه . والشقي من ضن بخيره على نفسه . لا تغرنك صحة بدنك اليسيرة . فمدة العصر وإن طالت قصيرة . من لم يعتبر بالمساء والصباح . لم يرتدع بقول اللوام والنصاح . من قنع برزقه استغنى . ومن صبر نال ما تمنى . » الخ . . .

* * *

مقالة للسيوطي :

هذه مقالة للجلال السيوطي مخطوطة[1] اسمها « درر الكلم وغرر الحكم » وتقع في نحو ٦٠ سطراً . وهي مكونة من حكم مزدوجة غالباً ، بمعنى أن كل حكمة

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ـ مجاميع ٤١٦ .

مكونة من جملتين مسجوعتين تكمل إحداهما الأخرى . وهى فى مجموعها تدل على نفوب بصر وسعة معرفة بشئون الناس وأخلاقهم ، وأمور المجتمع وأوضاعه ومنها قوله :

« صلة الناس ليس لها عائد . ومعرفتهم نزرة الفوائد — من عرف الناس خص بالبلاء . وأحاط به الرق والولاء — رب امرئ أوليته جميلا . فكان بالإساءة إليك جميلا — الكتاب الكتاب . ولا يصدنك العتاب — والسنة السنة . ولو علتك الأسنة — عليك بعلم الشريعة . فإنه إلى الله أقوى الذريعة — أف للدنيا تقدم الجاهل ، وتؤخر الفاضل . وتبا للعلياء يفوتها السابق والفاضل — الكريم يرى ألم الكلام . أشد من ألم الكلام — رب ساكت أعلم من ناطق . وساكن ليس له بارق — رب رجل أزهى من ذباب . وهو أوهى من سراب — رب أغيد ، من الغزالة أنور . ومن الغزال أنفر — قبح الله من جهل العلوم المشرفة . وتمثل بعلوم الفلسفة ... — من تحكم بالشريعة فعارضه مسجوم . ومن تكلم بالفلسفة فلسانه ملجوم — ! ما للعوام غير السيف . ولو أصابهم الحيف — ! لسان العالم . سنان فى الملاحم — حسب العالم سبقه رفيقه فى المحافل . وتأخر من كان فى رواء الجهل رافل ؟ — العوام كالأنعام . بل أضل وأجحد للإنعام . ما كل خطيب مصقع . ولا كل واعظ يصدع — قطع الرءوس لدى العاقل أهون من الانقطاع فى المحافل — اعضض على الحق بناجذيك . واغضض عن الخلق شاهديك . » الخ

هذا . وقد لفت نظرنا رأيه فى الفلسفة وفى العوام . فأما رأيه فى الفلسفة فهو يمثل بوجه الإجمال عقلية أهل العصر ومبلغ تقديرهم لعلوم الفلسفة بجانب علوم الشريعة . أما رأيه فى العوام فيبدو أنه يعنى بهم الجهال المكابرين الذين لاينقادون لتعاليم الشريعة .

* * *

كتاب ابن عطاء الله :

نوهنا بابن عطاء الله السكندرى فى أكثر من مناسبة . وهو رجل متصوف فقيه فى الشريعة . وله أكثر من كتاب . من بينها كتاب يسمى « حكم ابن عطاء الله

وقد تناوله بالشرح بعض الأدباء . وقد تصفحت شرح العلامة ابن زروق الفاسى « أحمد بن أحمد بن عيسى »[١] وله ثلاثة شروح لتلك الحكم ، هذا الشرح أكبرها .

وحكم ابن عطاء الله حكم صوفية تنزع إلى بث المعانى الروحية السامية فى نفوس القارئين ، وتدعو إلى التفانى فى ذات الله سبحانه وتعالى ، وإلى الاتكال التام عليه فى كل مايصدر إليه المرء ويرد عنه ، وإلى ترك مصاير الأمور إليه . وهى إلى ذلك تصف أحوال العباد فى هذه الدائرة التصوفية .

ونحن ننقل إلى القارىء شيئاً منها . قال :

« ربما دلهم الأدب على ترك الطلب . إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال . وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال . ورود الفاقات أعياد المريدين . إنما احتجب لشدة ظهوره . وخفى عن الأبصار لعظم نوره . من عرف الحق شهده فى كل شىء ، ومن فنى فيه غاب عن كل شىء — من اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه . حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى . وحظها فى الطاعة باطن خفى . إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد مامنه إليك . وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن ، فاشهد ما منك إليه . إذا وقع منك ذنب فلا يكن سبباً يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك . متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع ، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك وعدم صدقك فى عبودتيك . الناس يمدحونك بما يظنون فيك ، فكن ذاما لنفسك لما تعلم منها . لاعمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويحتقر عندك وجوده . الغافل إذا أصبح نظر ما يفعل ، والعاقل إذا أصبح نظر مايفعل به . » الخ . . .

هذه بعض حكم ابن عطاء الله ، وهى تصوفية يحتاج بعضها إلى شرح ومزيد إيضاح . ولهذا عنى بشرحها بعض الأدباء كما ذكرنا . وهى تدل على قلب مؤمن وعقل فاهم ونفس فانية .

---

(١) يوجد من هذا الشرح نسخة مخطوطة بدار كتب بلدية الإسكندرية تقع فى نحو ١٧٥ صفحة ومنه مطبوع .

الباب الخامس

النقد والنقاد

تمهيد

كلمة عامة فى وصف حالة النقد

النقد الأدبى وأهميته :

النقد الأدبى كما نفهمه فى العصر الحديث ، هو النظر فى النتاج الأدبى لأمة أو فرد ، لنرى مبلغ دلالته الفنية ، متخذين من الموازين الأدبية السليمة مقياسا للحكم على صدقه ، ومقدار نطقه بالحق . ونقلبه على وجوهه المتعددة ، تحريا لمظاهر الحسن فيه ، وتلمسا لمواضع النقص منه ، جاهدين فى إبراز حسنه أو نقصه .

ومعنى ذلك تحليل الأدب وتعليله لفظا ونظما وفكرة . وتوضيح المؤثرات التى تأثر بها ثقافية أو جغرافية ، أو تاريخية ، أواجتماعية ، أوشخصية ، أونحوها . مع توضيح آثارها فيه . ثم بيان مدى تأثير هذا الأدب ، فى فرد آخر أوجماعة أخرى ، باعتباره عاملا جديداً من العوامل الحيوية المؤثرة فى حياتهما . ثم موازنة هذا الأدب بغيره ومعرفة مدى الفوارق بينهما ، إبرازاً لقوة أحدهما أو ضعفه ، وسموه أوضعته ، وصدقه أو مينه ، وتأثره بغيره أو عدم تأثره .

والموازنة بذلك ، تعين على تشخيص الأدب وإبراز عناصره ، وإيضاح مميزاته وخصائصه .

والناقد يحتاج إلى سعة من العلم ، وإحاطة بالأدب ، ودراسة اجتماعية حاذقة ، وفلسفة نفسية عمقية . هذا ، إلى ذوق فنى سليم ، واطلاع شامل على ما كتبه أرباب النقد البيانى ، ورجال البلاغة ، للاستئناس به ، والاسترشاد بقواعده . حتى يكون بذلك كامل العدة ، واضح المحجة ، جامعا لأصول النقد الصحيح من ذوق ومعرفة .

مثل هذا الناقد ، إذا تصدى للحكم على الأدب ، نرجح أن يكون حكمه عادلا ونافعاً .

ونقول : نافعاً ، لأن النفع الجديد الذى يتضمنه حكمه ، هو مزية النقد الكبرى ، ومزية الناقدين . وأبسط ما توصف به هذه المزية ، أنها تبصير حق بالأدب المنقود ، يضاعف أثره ، وتمهيد جميل للأدب الجديد .

وإذا كان النقد ، فى العرف الحديث ، أدبا وصفيا ، فهو أدب إنشائى من ناحية أخرى ، وعلى الأقل ، من ناحية أنه يشق السبيل أمام الأدب الجديد ، ويرسم له الطريق الذى يسلكه ، ويهيئه — بزعمه — لبلوغ كماله .

والنقاد — فى هذا — يعبرون عن مزاج جيلهم وذوق معاصريهم ، وحاجة جمهورهم . ويجهد الأدباء ، كتابا وشعراء ، فى تحرى أذواق النقاد ، والتجانف عما يريبهم . فينضج أدبهم مطبوعا بطابع نقادهم . لهذا يقال إن النقاد هم موجهو الأدب فى الأمة وهداته . ولا يحرر من ربقتهم إلا أديب معاصر ... ولكن لديه من المؤثرات الخاصة عدة عوامل جنحت به إلى أفق من الحرية . على أنه قد يعيش غريبا بين قومه ، وقد لا يتأثرون بأدبه إلا بعد فترة من الزمن . وهذا هو العبقرى الملهم الذى تختاره الأقدار ، وتكون صناعته فى ميدان الأدب ، الخلق والإيجاد .

نشأته وتطوره :

هذا بمجمل ما فهمناه فى العصر الحديث من معانى النقد الأدبى . فهل ولد النقد قبل اليوم مولدا على هذا الغرار ؟

الحديث عن ذلك طويل ، يضطرنا إلى النظر فى اتجاهات النقد ، فى كل من العصور الأدبية المنصرمة . وهذا ما لم نقصده هنا الآن . وإنما قصدنا أن نعرض فى إيجاز إلى الحديث عن النقد الأدبى فى العصر المملوكى .

غير أنه لا ريب فى أن النقد الأدبى ولد بمولد الأدب ، إذا راعينا أن قارئى الأدب أو سامعيه ، سواء أكانوا من الخاصة أم العامة ، مولعون أبدا

بالنقد والتعليق ، على كل مايقرءون أو يسمعون ، ولو بكلمة عابرة ، أو نقدة طائرة . وهكذا نستطيع القول إن النقد قد ولد مع الأدب الجاهلى . غير أنه كان نقداً فطريا فيه سذاجة وبداءة ، وفى نطاق ضيق ، وبين خليط من اعتبارات شتى . ومرجعه الذوق الخاص ، وغير مقيد بقواعد ولا مرتبط بذوق عام ...

ثم نضج النقد الأدبى بعض النضج بمجىء الإسلام . وأقبل الناس على سماع الأدب والنظر فيه . وكانت بالأمويين عناية فائقة بسماع الشعر قديمه وحديثه . والتعليق عليه ، وقياس شعر بشعر ، وموازنة بيت ببيت ، وقبول المليح ، ورد القبيح ، وإثابة شاعر وحرمان آخر .

حتى جاء العصر العباسى ، وأقبل القوم على الدرس والتصنيف والترجمة . ولقحت العقول بالترجمات . وفاضت المجالس بما ينشده الشعراء والرواة من محاسن الآداب العربية . ونشط النقد ، وتكون ما يشبه الذوق العام ، وعنى بالدفاع عن أساليب القرآن وبيان مافيها من أسرار التراكيب . وأعيدت دراسته بعقول جديدة لقحت بما عرب من أدب ومنطق وفلسفة . فظهرت بوادر العلوم البلاغية ، ثم اشتد أزرها وقوى أمرها وتجمعت حقائقها ، حتى تألفت علوما لها موضوعاتها وأبوابها وقواعدها . وصنفت كتب فى النقد والموازنات اعتمدت فيما اعتمدت عليه على الذوق الخاص . وهكذا انتهى عصر بنى العباس بعد أن خلف فى ميدانى النقد الأدبى والبيانى ذخيرة نفيسة ، هى أفضل عدة ، وأجمل أساس ، لمن أراد — اليوم — أن يبنى فى النقد بناء سامقا .

ولكن النقد — على كل حال — لم يبلغ ذلك المبلغ الذى رسمنا صورته فى أول هذا الكلام ، وهو المبلغ الذى يتقاضاه منا العصر الحديث .

النقد فى عصر المماليك :

وبعد ، فما نصيب العصر المملوكى من هذا التراث ؟ وما الذى أضافه إليه ؟

أهم ما يجبهنا من ذلك ، ذوق بديعى عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعا ، لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد فى النقد البيانى فحسب ، وإن كانت

هذه القواعد من أهم دعائمه ومصادر إلهامه . وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة جديدها وقديمها تحت راية البديع .

ولقد كان للقاضى الفاضل « ٥٩٦ هـ » عميد الأدباء فى العصر الأيوبى ، أثر بارز فى الكتابة والشعر فى العصر المملوكى . لأنه ابتدع للأسلوب طريقته البديعية الخاصة التى أساسها الإكثار من المحسنات ، وبخاصة السجع فقد التزمه ، والجناس والطباق ، مع الغلو فى سوق التورية والاستخدام ، والإمعان فى التشبيه والاستعارة وترادف الأوصاف والألقاب ، والتلميح إلى الحوادث الماضية والنوادر الأدبية ، والتوجيه بالمصطلح العلمى أو نحوه ، والإبهام الذى يحتمل معنيين متضادين ، وتضمين المأثور ، والاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف . إلى غير ذلك من محسنات وسمات .

هذه الطريقة فى الأسلوب مبنية — كما سبقت الإشارة — على ما سنه من قبله الكاتب الشهير ابن العميد « ٣٦٠ هـ » وغيره من أدباء العراق .

غير أن الفاضل غلا فى التزام ما استحسنه سابقوه . ثم انقاد الأدباء من بعده — وبخاصة فى العصر المملوكى — إلى طريقته ، وتعصبوا لها ، وقد تركزت فى أذواقهم ، وفى أذواق النقاد جميعاً ، وأصبحت منهجا متبعا ، وقاعدة مرعية بين قواعد النقد التى يزنون بها الآثار الأدبية ، الجديد منها والقديم ، على حد سواء .

وظهر شاعر مصر الكبير ، جمال الدين بن نباته « ٧٦٨ هـ » فنهج نهج القاضى الفاضل ، وتعصب لطريقته ، فكان بذلك زعيما ثانياً للطريقة الفاضلية فى الشعر والكتابة ، واتجهت عناية ابن نباتة إلى إجادة التورية والتضمين ، فأبدع فيهما أيما إبداع ، وأتى فيهما — وفى غيرهما — بالعجب العجاب ، فى شعره ونثره على السواء . وقد اتجهت عنايته كذلك ، إلى الجناس ، ولكنه أخرجه مخرج التورية . فأجاد وأطرب . وأفاد وأعجب . فكان بذلك وبغيره ، ذا طريقة جديدة هى الطريقة النباتية . وأصبح لها أتباع ومتعصبون هم جمهرة عظيمة من أدباء العصر المملوكى ونقاده .

وتركزت بدورها فى أذواقهم حتى صاغوا أساليبهم فى قوالبها ، أو اتخذوا منها قواعد جديدة للنقد ، وزنوا بها ووازنوا ، بين أدب وأدب ، وبين شعر وشعر.

وفى مقدمة المتعصبين من الأدباء والناقدين للطريقة الفاضلية : شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبى « ٧٢٥ هـ » صاحب كتاب « حسن التوسل فى صناعة الترسل » . ومن المتعصبين لها وللطريقة النباتية : تقى الدين بن حجة الحموى « ٨٣٧ هـ » صاحب كتاب « خزانة الأدب » . وهو أوسع نطاقاً من سابقه .

وقد استطاع ابن حجة فى كتابه هذا ، أن يخرج كثيراً عن النطاق العلمى الذى ضربه علماء البلاغة حول النقد ، فى أخريات العصر العباسى . كالسكاكى «٦٢٦هـ» . واستطاع أن يجعل من كتابه هذا ، معرضاً أدبياً ضافيا تألق فيه كثير من شعر العصر المملوكى ونثره ، مع نقدهما نقدا هو مزاج من النقد الأدبى الصحيح الذى أساسه الذوق ، ومن النقد البيانى الموروث الذى أساسه العلم . مبينا بين الفينة والفينة مذاهب الشواذ والخارجين على الطريقة النباتية من أدباء العصر . ومنهم صلاح الدين الصفدى الذى جن جنونا بالجناس وأنواعه ، كما جن به الصاحب بن عباد من قبل ، بل أكثر مما جن . وقد حمل عليه ابن حجة ، وسفه ولوعه بالجناس مبيناً أن هذا المذهب يخالف مذهب ابن نباتة وتابعيه ، من العناية بالتورية ، واعتبارها أسمى ضروب البديع ، بل أجود أبواب البلاغة.

وقد انساق الصفدى ، بدافع من حب الجناس ، إلى وضع كتاب فيه خاصة ، وسماه « جنان الجناس » ملأه أمثلة منه من شعره . وقد نقده ابن حجة فى كتابه « خزانة الأدب » نقداً مراً ، وأورد من نظمه أمثلة . وذكر أن جمال الدين ابن نباتة لما قرأ عنوان الكتاب قرأه هكذا : « جنان الخناس » . وجرى بين الرجلين بسبب ذلك ما يطول شرحه .

وذكر أيضاً أن من بين ناقدى الصفدى الشيخ بدر الدين البشتكى[1] الذى

---

(١) توفى فى زمن السلطان جقمق «٨٤٢ هـ — ٨٥٧ هـ» — قاله ابن إياس ج ٢ ص ٣٦ .

قال عن الصفدى بمناسبة نظمه هذا : « وإن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين »

هذا إلى أن ابن حجة قد ألف كتابا آخر فى نقد الصفدى وتسفيه كتابيه « جنان الجناس » و « فض الختام » وهو « كشف اللثام » .

هذا كله يشعرنا بأن ابن حجة وغيره من نقاد العصر ، لم يتقيدوا بالقواعد البلاغية ولا بما وصل إليه النقد البيانى من تقعيد ، بل حكموا فى كثير مما نقدوه أذواقهم وقواعد نهجهم البديعى .

وهذا لا يمنعنا الإشارة إلى أن هناك رجالا صرفوا جهودهم إلى النقد البيانى وقواعده الموروثة عن العصر السابق . فكانوا علماء أكثر منهم أدباء . وفى رأينا أنهم لم يأتوا من وراء هذه الجهود بجديد له قيمة . وما مؤلفاتهم إلا شروح أو مختصرات لمؤلفات السالفين من علماء البلاغة . وقد حظى كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى « ٦٢٦ هـ » بنصيب كبير من هذه الشروح والمختصرات . ومنها ما وضعه الجلال القزوينى « ٧٣٩هـ » والبهاء السبكى « ٧٧٣ هـ » والجلال السيوطى « ٩١١هـ » وزين الدين زكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ » .

غير أننا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء لا يمثلون العصر ، ولا ذوقه الأدبى ولا قواعده فى النقد بما ألفوه من شروح ومختصرات . أما الفريق الآخر فهم أدنى إلى هذا التمثيل وأقرب .

على أن النقد الأدبى — فى الحق — كان أوسع نطاقا مما وصفنا ، وأكثر شغلا للقوم مما رسمنا . إذ كانت له عوامل عدة أذكت ناره ، وأشعلت أواره ، وأكثرت سماره . ففضلا عن حب البديع والتسابق إلى ابتكار التوريات والتضمينات ، كانت هناك منافسات أدبية بين أدباء مصر وأدباء الشام ، أو بين أديب وآخر ، ومن الناس من يتعصب لهذا أو يتحمس لذاك . وكان كثير من وجوه الناس وأعيان الرؤساء يضرى هذه المنافسات ، ويغرى بالمعارضات . كما كان بعض الملوك والرؤساء ذوى بصر بالشعر ومكانه ، كما كان بالشعراء ولوع بالتضمين ، فولجوا إليه كل باب ، حتى تهاووا إلى السرقة ، عمدا أو دون عمد .

كل هـــذه الأمور ترينا أن النقد الأدبى ، قد وجد الأسباب ، فدق الأبواب ، وولج الأعتاب . وعاش بين القوم فى أخفض جناح وأخصب مراح .

ويضيق بنا المقام ، إذا ذهبنا نضرب لذلك كله الأمثال . فلنكتف بالإشارة عن العبارة ، وبالتلميح عن التصريح . فنقول :

روى[١] المقريزى فى خططه . أن الملك الأشرف خليلا ، عاد فى عام ٦٩٠ هـ من الشام ، بعد أن فتح عكا . فلقيته القاهرة برجالها فى حفل عظيم ، وتقدم ابن العنبرى الشاعر . فأنشد قصيدة قال فى مطلعها :

زر والديك وقف على قبريهما فكأننى بك قد نقلت إليهما

فتطير الأشرف من هذا البيت ، ونهض قائما حانقاً ، وهو يقول : ما وجد هذا شيئاً يقوله سوى هذا البيت الخ .

وروى[٢] تاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧٧ هـ فى طبقاته ، عن تاج الدين المراكشى ، قال : « دخلت عليه مرة ، وهو ينشد قول ابن تقى :

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئا وكان معانقى
أبعدته عن أضلع تشتاقه كى لا ينام على وساد خافق

وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد فأضلعى هاك من وساد
ونم على خفقها هـــدوءا كالطفل فى هـــزة المهاد

وهو ومن عنده يقولون إن قول الحكم أجدر بالصواب . فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين الصفدى — أمتع الله ببقائه — فى ذلك رداً على ابن تقى :

أبعدته من بعد ما زحزحته ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق

---

(١) الخطط المقريزية ج ٤ ص ٢٢٠ تحت عنوان « القبة المنصورية » .
(٢) طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٣٣ ترجمة تاج الدين المراكشى .

إن شئت قل : أبعدت عنه أضالعى ليكون فعل المستهام الوامق
أو قل فبات على اضطراب جوانحى كالطفل مضطجعاً بمهد خافق

قلت — أى السبكى — إن ابن تقى ، وإن ساء لفظا حيث قال : « أبعدته » فقد أحسن معنى . لأنه وصف أضلعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها . فقدم مصلحته على مصلحته : وترك ما يريد لما يريد . وأبعده عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضلعاً تشتاقه » لأحسن لفظاً كما أحسن معنى . وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل ، وهذا نقص .

فوقع النزاع فى ذلك ، وأرسلوا إلى القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى رحمه الله ، صورة سؤال عن الرجلين ، ابن تقى والحكم : أيهما المصيب . فكتب :

قول ابن تقى ، عليه مأخذ لكنه قول المحب الصادق :

يكفيه فى صدق المحبة قوله كى لا ينام على وساد خافق
ما الحب إلا ما يهدله الحشا ويهد أيسره فؤاد العاشق »

هذا وقد أخذ السبكى بعد ذلك يتكلم عن نكتة شبيهة بهذه ، لجرير ، وهى كلمة ارجعى ، فى قوله :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وأخذ السبكى يتكلم عن كلمة « ارجعى » وعمن عابوها على جرير وأورد أقوالا لهم ، ومن بينهم معاصرون له — أى للسبكى .

هذا مثل من أمثلة المجالس الأدبية ومجالس النقد ، وفى الطبقات وغيره ، أشباه له كثيرة .

وسنشير فيما يلى عند حديثنا عن ابن حجة الحموى ، إلى أنه حينما كان ينظم بديعيته كان يعود بأبياتها بيتاً بيتاً ، إلى صديقه الأديب ابن البارزى ليعرضه

عليه ويتناقشا فيه معنى ولفظا ، حتى يستقر القرار على شيء . وأنه نظمها معارضة لبديعيتى الحلى والموصلى .

وبمناسبة ابن حجة أيضاً ، نذكر أنه عارض تائيتين إحداهما للجمال بن نباتة ، والأخرى للبرهان القيراطى ، بتائية ثالثة . ثم عرض ذلك على عالم عصره شهاب الدين بن حجر العسقلانى فحكم بتفضيل تائية ابن حجة عليهما[١] .

أما السرقات الشعرية فقد زاد خطرها ، وتطاير شررها فى هذا العصر ، وكانت مثاراً لحركة نقد محمودة . ومن لطيف ما قاله مجير الدين[٢] بن تميم منوها بسرقاته وتضميناته :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

واشتهرت سرقات ابن نباتة من علاء الدين الوداعى[٣] ، كما اشتهرت سرقات الصلاح الصفدى من ابن نباتة .

ولما وقف جمال الدين بن نباتة على مسروقات الصفدى منه ، ألف فى ذلك كتابا سماه « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم . ونقد فيه الصفدى ، وأورد كثيراً من سرقاته . وقد استهل الحديث فى هذا الكتاب بقوله : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » . ونلحظ أن مناسبة الآية هنا ، تجعل فى كلمة « بيتى » تورية .

وقد تتبع ابن حجة سرقاتهم فى خزانته ، وأورد أمثلة كثيرة منها فى باب « براعة الاستهلال » وغيره[٤] .

---

(١) راجع كتابه تأهيل الغريب . مخطوط بمكتبة المعهد الدينى بالإسكندرية .

(٢) مجير الدين بن تميم الإسعردى الدمشقى ، شاعر رقيق مات عام ٦٨٤ هـ أو قريبا منه . « فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) علاء الدين الوداعى أحد شعراء هذا العصر المجيدين . توفى سنة ٧١٦ هـ « الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٢٩٨ » .

(٤) وكذلك ردد ابن حجة أخبار السرقات فى تأهيل الغريب .

على أن ابن حجة نفسه قد تعقبه أكثر من أديب ، ومنهم معاصره شمس الدين النواجى ، إذ نقده وأفصح عن سرقاته فى كتاب سماه « المحجة فى سرقات ابن حجة » .

هذا ، والأديب النحوى البارع بدرالدين بن الدماميني ، كتاب آخر فى نقد الصلاح الصفدى فى شرحه للامية العجم ، واسمه « نزول الغيث الذى انسجم » .

والملحوظ أن النقاد لم يتتبعوا من السرقات إلا الشعرية دون النثرية . على أن ابن حجة روى فى خزانته أن الفخر بن مكانس نقد استدعاء بدر الدين بن الصاحب له ، وأثبت ذلك فى ديوانه . ولكنا قرأنا نسخة من ديوانه فلم نجد بها النقد المذكور . وطالعنا نسخة أخرى فضقنا ذرعا برداءة خطها ولم نستطع له حلا .. وكلتا النسختين بدار الكتب المصرية .

* * *

ومما تقدم نشعر بمقدار عناية أدباء العصر المملوكى ، بنقد الأدب وبيان زائفه من طارفه . وهذا دليل على الحيوية الأدبية واليقظة الفكرية والنزعة الفنية . ولا يقدح فى هذا اختلاف أذواقهم عن أذواقنا — نحن أهل العصر الحديث — فلكل أهل عصر فى آدابه ونقده ، اتجاهات وقواعد وأذواق .

ونلحظ أن العناية بنقد الشعر كانت أبرز من العناية بنقد النثر ، إذن فليعذرنا القارئ إذا سقنا بعض النماذج الشعرية .

* * *

وبعد فهذه كلمة عامة عن حركة النقد فى العصر المملوكى ، عنينا فيها بإجمال الحديث عنها دون تفصيله ، لأن مرادنا أن نرسم لها صورة عاجلة واضحة تعين على حسن تصورها . ونفصل الحديث عنها فى الفصول القادمة لنبين أهم مناهج النقد وآراء النقاد ، ونزعاتهم الفنية فى صوغ الأساليب .

وتتجلى لنا مذاهب نقاد العصر فى رجلين هما : أبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبى المتوفى عام ٧٢٥ هـ ، وتقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى المتوفى

عام ٨٣٧ هـ . ولأولهما كتابه « حسن التوسل فى صناعة الترسل » ولثانيهما كتابه « خزانة الأدب » .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، أن هذين الرجلين من أرباب النقد البلاغى الذى أساسه العلم . وهذا حق . ولكنهما قبل أن يكونا عالمين ، كانا أديبين . وقبل أن يخضعا للقاعدة خضعا للذوق — وكتاباهما أجمع كتب العصر تقريباً ، لحديث النقد ، وبخاصة « خزانة الأدب » . ولهذا نكتفى بالحديث عنهما مثلا لغيرهما وللعصر .

ثم نتحدث بعدهما عن ناقد معارض مخالف لمذهبيهما : وهو الأديب المؤرخ المشهور ولى الدين بن خلدون صاحب المقدمة :

ثم نختم هذا الباب بفصل وجيز عن جلال الدين القزوينى صاحب كتابى : التلخيص والإيضاح : المبنيين على « مفتاح العلوم » للسكاكى ، لأن أكثر البلاغيين من بعده متأثرون به وناقلون عنه وشارحون له أو مختصرون . والقزوينى بذلك يمثل النقاد البلاغيين ، ويعتبر عمدتهم فى العصر المملوكى ، بل إلى العصر الحاضر : ونتحدث — ونحن بصدد النقد — عن الحركة البلاغية فى سياقه :

بذلك نكون قد أحطنا بحركة النقد فى العصر من أطرافها ، على قدر استطاعتنا . ورسمنا لها فى الأذهان صورة أدنى إلى الواقع وأقرب إلى الحق . ونكون قد أبرزنا جانبا من الجوانب الحيوية التى شارك النثر الفنى فيها بنصيب وافر .

* * *

ومما سبق يتبين لنا أن الفصول الآتية فى هذا الباب أربعة :

الفصل الأول : فى شهاب الدين محمود الحلبى ومنهجه وآرائه

الفصل الثانى : فى تقى الدين بن حجة الحموى ومنهجه وآرائه

الفصل الثالث : فى ولى الدين بن خلدون ورأيه فى نثر معاصريه :

الفصل الرابع : فى جلال الدين القزوينى رأس بلاغيي العصر .

الفصل الأول

شهاب الدين محمود الحلبي [1]

٦٤٤ هـ — ٧٢٥ هـ

هو الأديب العلامة الشاعر المنشىء البارع ، المشار إليه فى عصره ، محمود ابن سليمان — وقيل سلمان — بن محمود الحلبي الحنبلى الدمشقى . وكنيته أبو الثناء .

ولد عام ٦٤٤ هـ ، وأخذ فى حفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسماعه من أئمة الحفاظ . وأقبل على دراسة علوم العربية ، وتتلمذ فى النحو والأدب لجمال الدين بن مالك ، وغيره . وتفقه بمذهب ابن حنبل ، حتى برع فيه ، وامتاز على أقرانه ، وكاد — لذلك — يلى قضاء الحنابلة .

واستفاضت شهرته فى نظم الشعر وتدبيج الكتابة الأدبية . لذلك حسنت صلاته وروابطه بسلاطين عصره وأمرائه ، لحاجتهم إليه . وعاصر الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون وابنيه الأشرف خليلا والناصر محمداً . واستكتبوه فى ديوانى الإنشاء بدمشق والقاهرة . وقد نقل إلى القاهرة عقب وفاة منشئها الكبير ، القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر . ثم ولى كتابة السر — وقيل رياسة ديوان الإنشاء — بدمشق فلبث بها زهاء ثمان سنوات ، محمود المنزلة مرعى المكانة لحذقه وسلامة خلقه وحسن سعيه . وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثيرين من أدباء زمانه . وتوفى بدمشق عام ٧٢٥ هـ [2]

وجرى فى كتابته ونظم شعره على أسلوب بديعى هين مقبول ، لا تنوده كثرة البديع ، ولا يثقله كلف الصناعة . وقد نظم الشعر فى مناسبات كثيرة ،

---

(١) توجد ترجمته فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٨٨٦ — وفوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥٨ وصفحات أخرى — وفى ابن إياس ج ١ ص ١٦١ .

(٢) هذه رواية الدرر ، وفى الفوات ٧٥٥ هـ . وفى بن إياس ٧١٩ هـ ويبدو أن الأولى أصوب .

وفى أغراض عدة ، منها المدح والمديح النبوى والوصف والغزل ، واللغز والتهنئة والإخوانيات ، والرثاء ووصف الحروب والفخر والحماسة .

ومن مصنفاته مقامة العشاق . ومنازل الأحباب وأسنى المنائح ، وهى قصيدة فى المديح النبوى تبلغ ٢٣٦٥ بيت ، ومنها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . وله أيضا : حسن التوسل فى صناعة الترسل وهو مطبوع ، وهو أيضاً موضوع حديثنا هنا . وله تذييل على كتاب « الكامل » لابن الأثير فى التاريخ .

كتابه . . « حسن التوسل فى صناعة الترسل » ومنهجه فيه :

فى كتابه « حسن التوسل » يتجلى منهجه النقدى وقواعده الفنية . واسم الكتاب يوحى بموضوعه وينم عنه ، إذ أراد فيه مؤلفه أن يبين للناشئ المتأدب ، أفضل الوسائل وأنجع الطرق التى بها يستطيع أن يكون كاتبا ومنشئا . ويبرز له الأدوات التى ينبغى أن يحتازها ، والمزايا التى عليه أن يتحلى بها ، ليسلك فى عداد الأدباء المنشئين .

وهو بذلك إنما يستمد معلوماته واتجاهاته من روح عصره وأوضاع جيله . ولا ريب أن شيئا من هذه الروح ، وقبساً من تلك الأوضاع ، مستلهم من الماضى الغابر ، وذكرياته وتعاليمه . ولكن الرجل — بلا ريب أيضا — قد أضفى على مستلهمه ومقتبسه صوبا من سيل نفسه ، وثوباً من نسيج روحه . هما من صنع عصره ووحيه ، وصدى لزمانه ، ورجع لصوت جيله ، ولون لصبغه وتقاليده . وبذلك نعتقد أنه النموذج البارز الذى يمثل كيف تلقى العصر المملوكى تراث النقد عن سابقه ، وأخذ يخرجه بذوقه .

ولعل عبارته التالية تفصح بأجلى بيان وأوضح برهان ، عما ذهبنا إليه . إذ قال ما نصه فى مقدمة كتابه : « فإنه لما جعل الله فى كتابة الإنشاء رزقا . باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت . وعاشرت من أجله من أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت . ورأيت من مذاهبهم فى أساليبهم ما رأيت . ورويت عنهم من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت . واطلعت فيها بكثرة المباشرة على طرائق . وألجئت فيها باختلاف الوقائع إلى مضايق أى مضايق . ونشأ لى من

الولد وولد الولد من عاناها. وترشح لها من بنى من لم أرض له بالتلبس بصورتها دون التحلى بمعناها . فأحببت أن أضع لهم ولمن يرغب فى ذلك ، فى هذه الأوراق من فصولها قواعد . وأقيم لهم فيها على ما لا يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد . ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها . ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها » .

ونفهم من هذا النص جملة أمور ، منها :

أولا : أنه عاشر كثيراً من أئمة الإنشاء ورأى مذاهبهم فى أساليبه . ومعنى هذا أنه كسب خبرة بهذه المعاشرة . وأصبح عارفا عالما بكافة أساليب المنشئين ، وخصائصهم الفنية فى إنشائهم ، وأنواع الثقافة التى تثقفوا بها ، وبها اقتدروا على هذه الصناعة ، ودانت لهم ، وألقت إليهم بأزمتها ، فصرفوها أنى شاءوا . وبدت لهم فيها قواعد هى نتاج الثقافة والبيئة وحاجة العصر ومنطق تعبيره . ولقد وصلوا من وراء ذلك إلى اكتناه اللفظ وإماطة اللثام عن أسرار أساليب العربية ، حتى أنطقوها بمختلجات نفوسهم ، ومضطربات جوانحهم ومستجنات عواطفهم . فاستطاع المؤلف بذلك أن يرسم لهم صورة لا تنقصها الدقة ولا تبعد عن المنطق الحق ، رعاية لشتى ملابساتهم ومختلف صلاتهم .

وإذا وصل الناقد إلى هذا الحد من المعرفة ، استطاع أن يتسلم زمام الحكم بين الأدباء فيبرز مواطن الحسن فى مذاهبهم ، وآيات الجمال فى أساليبهم ، ويوازن ما شاء له بصره وحسن خبرته ، بين أسلوب وأسلوب وبين تركيب وتركيب . ويستطيع فى النهاية أن يصل من وراء ذلك إلى قرار حاسم ، وإلى حكم مقبول ، هو نتيجة هذه الخبرة وحسن البصر . يدعم قواعد الفن به ، ويقر قوانين الجمال فيه .

ثانياً : أنه غامر بقلمه فى ميدان هذه الصناعة العتيدة ، والحرفة المجيدة . فلم يكتف بأن يكون رقيباً يرقب الحوادث ، ومسجلا يسجل الوقائع . ويدون الظواهر ، وأن يقيم من نفسه حكما بين الأدباء ، دون أن يدلى بدلوه فى الدلاء

ليكون نهجه قدوة وأسلوبه أمثوله ، وطريقته تطبيقاً عمليا يقام لهم إماما ، وحجة ناصعة ، وبينة ساطعة .

وهذه المرانة من شأنها أن تجرئ الناشىء ، وتجذب بضبعه إلى طريق الفن المستقيم . وكلما أوغل فى مرانته ، نار أمامه الطريق وضاء ، واتسع أفقه وتكشف ، حتى يبلغ من صناعته قمتها ، ومن حرفته غايتها . ومثله حينذاك إذا قال سمع قوله ، وإذا فصل ارتضى فصله .

ولا شك فى أن ابن فهد ، قد بلغ من ذلك كله مقاما محمودا ، ومنزلة مرضية . فحسبك أن تعلم أنه بلغ من وراء فراهة إنشائه وحذق فنه ، منصبا تشد إليه الرحال ، وتنقطع دونه أعناق الرجال ، وهو رياسة ديوان الإنشاء .

ثالثاً : أنه بعد أن دأب على التعلم زمنا طويلا ، وأخذ من الثقافة نصيبا مرضيا ، اطمأنت نفسه إليه وارتاح ضميره به ، وبعد أن كسب بصحبته لأرباب القلم وأمراء البيان ، خبرة طيبة ، وتجربة نافعة ، واطلع على مختلف طرائقهم وشتى أساليبهم ، وكيفيات تعبيراتهم ، وأنه بعد أن زاول مهنة الكتابة وتدرج فى مدارجها وتنقل فى مراقيها وشارك فى إعلاء شأنها وتشييد دولتها ، حتى تسنم من مناصبها ذروتها ، واقتعد فى عليا مراكزها غاربها — بعد ذلك كله ، آن له أن يجلس من الناشئة مجلس المعلم فيشرع لهم مشارع الكتابة ، ويضع قوانين الترسل ويضىء مسالك الإنشاء عطفا عليهم وحدبا ، ولطفا بهم وأدبا . يلحب لهم الطريق ليسلكوها ، ويرسم لهم الخطة ليتبعوها . حتى إذا تأدبوا بتأديبه ، وتهذبوا بتهذيبه ، كان لهم فى ذلك غنية عن طول المسير وبعد شقته وتحمل وعثائه .

* * *

وبعد فهذه أمور ثلاثة تتلخص فى :

١ — ثقافة وحسن ملاحظة ٢ — مرانة وخبرة عملية . ٣ — رغبة فى التقنين والتشريع . وهى مراحل ينبغى لكل ناقد أن ينتقل إليها تباعا .

وقد دلت كلمة هذا الأديب الناقد ، على أنه قد بلغ من كل مرحلة غايتها .

ويؤيد هذا ما عرف من سيرته . وما تركه من تراث أدبى . وها هو ذا ابن حجة الحموى ، وهو رأس أدباء جيله وشاعر عصره ، يتلمس عنده الرأى ويتطلب لديه القدوة ، ويشير إلى آرائه بين الفينة والفينة ، فى خزانة أدبه .

* * *

وكتابه « حسن التوسل » وهو الكتاب المتواضع الصغير الحجم الكبير النفع ، ينقسم ثلاثة أقسام بارزة — وإن لم يقسمه المؤلف — فقد أخذ بعد المقدمة الموجزة ، يرسم طريق الصناعة ويعلم الناشئة ويقدم الأدوات الكفيلة بتأهبلها لإتقانها . وهو — فى الواقع — يضع مناهج النقد وأقيسته واضحة ، ليتميز بها غث الأدب من سمينه .

فالقسم الأول[1] :

طفق فيه يبين بعض الأدوات بعبارات أدبية لطيفة ، ومنطق سليم رائع ، وجمل مواتية قوية ، وحجج ساطعة حكيمة ، مع شواهد متنوعة عدة ، ولم يسلك فى هذا القسم مسالك علماء البلاغة الحريصين على التعاريف والحدود والرسوم ، أو سوق الأمثلة التقليدية — التى آثروا تناقلها — على قلتها وعسر الاستشهاد بها أحياناً . .

ويتلخص ما ذهب إليه فى هذا القسم فيما يلى :

١ — أنه ينبغى للناشىء أن يحفظ كتاب الله تعالى ، وأن يديم قراءته ، ويلازم درسه ، ويتدبر معانيه . وكتاب الله كان وسيبقى المثل الأعلى والنموذج الأرفع للكلام البليغ ، وهو أفضل معين ينهل منه الأديب ، وأمتع مائدة تشهى إليه الأدب اللباب . وبخاصة إذا لازم درسه ، وتدبر مراميه ، حتى يظل مصوراً فى فكره ، دائراً بألفاظه ومعانيه على لسانه . وهذا يفيده ، فضلا عما يثبت منه

---

(١) لعل هذه الوصايا أو القواعد التى شرعها الشهاب الحلبى وغيره ، لصناعة الكتابة ، أساسها الأول وصية عبد الحميد الكاتب التى أوصى بها الكتاب .

فى قلبه من بارع الفكر ، ورائع التصور ، فائدتين بارزتين لا تزالان حلية الأديب وزينة الكاتب .

الأولى : أنه يستطيع الاستشهاد بآياته والاقتباس منها عند المناسبة ويكون استشهاده ، إذ ذاك ، كالدليل القاطع ، والحجة المنيعة ، التى تحل عند السامعين — متى أحكمت فى مناسبتها — محل التسليم ، بعد أن تكسب كلامه قوة وحسن بيان .

والثانية : أنه يزداد بأفكاره وتصوراته سمواً فى الفكر ودقة فى التصور . كما يزيد بألفاظه وتراكيبه ، قدرة على حسن التعبير عما يدور بخلده ، ويثور فى خاطره .

وضروب الأدب الأخرى من أشعار العرب وسيرها ، ومعرفة أيامها وأمثالها ورسائلها وخطبها ، إلى غير ذلك مما يشبهه ، قد يشارك القرآن الكريم ، فى تقديم هاتين الفائدتين ، ولكن القرآن — دون ريب — أبعد منها خطراً ، وأمجد أثراً ، لكمال بلاغته ، وقربه من القلوب — وبخاصة إذا والاه الأديب بملازمة الدرس وتدبر المعانى .

والأمثلة التى ساقها المؤلف تشعرنا أن حديثه عن مزايا حفظ القرآن الكريم ، وما يعود منه على المتأدب ، أبعد من حديثه عن «الاقتباس» وأوسع نظراً وأسمى أفقاً . ولعل من النافع هنا أن نشير إلى أنه عقد فصلا وجيزا فى نهاية القسم الثانى من كتابه ، تحدث فيه عن «الاقتباس» وأنواعه مع شواهده . وكان حديثه عنه من الضيق والإيجاز ، بحيث لا يقاس بحديثه عن مزايا القرآن الكريم ، وحسن اصطناعه فى أسلوب الأديب ، مع أمثلته وشواهده المتعددة ، وهى — بلا ريب — نماذج ساقها للاقتداء .

ونجتزئ بالمثلين الآتيين من شواهده :

(١) أن صلاح الدين الأيوبى — رحمه الله ، كتب إلى بغداد كتاباً ، يعدد فيه مواقفه فى إقامة دعوة بنى العباس ، فكُتب جوابه بهذه الآية :

« يمنون عليك أن أسلموا . قل لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » .

(ب) وكتب الأذفونش — ملك أسبانيا — إلى يعقوب بن عبد المؤمن ، بخط وزير له يقال له ابن الفخار :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ..... وأنتم تعتقدون أن الله عز وجل ، فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم . فالآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً . فلتقاتل عشرة منكم ، الواحد منا ... الخ » .

فكتب يعقوب بن عبد المؤمن على أعلى كتابه :

« ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها . ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .

هذا ، وقد بين المؤلف فى سياق حديثه عن أدب اصطناع آى القرآن الكريم ، بعض القيود التى ارتآها البعض فى هذا الاصطناع . ومنها : ألا يستشهد بالآيات التى أراد الله بها نفسه كقوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

ولم يعن — فى هذا المقام — بالحديث عن الاقتباس وألوانه والمباح منه وغير المباح ، والممدوح وغير الممدوح ، على نمط من كلام علماء البلاغة فى هذه المناسبة . وكأنه يكل ذلك إلى ذوق الأديب .

٢ — أنه ينبغى للأديب الاستكثار من حفظ أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام : ولا سيما ما يتصل منها بالسيرة والمغازى والأحكام ، مع الدقة فى فهم معانيها ، وتدبر فصاحتها ، وحفظ غريب لفظها .

ولا ريب أن حفظ الأحاديث يتلو فى الأهمية ، حفظ القرآن الكريم . ولها من بعده ، أثر مثل أثره وفوائد قريبة من فوائده . وقد ساق المؤلف الحجة على صواب مذهبه ، وهو أن فهم الأحاديث يستطيع به المتأدب على حد قوله « أن ينفق منها عن سعة ، ويستشهد بكل شىء فى موضعه ، ويحتج بمكان الحجة ويستدل بموضع الدليل ، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه ... الخ » .

* * *

٣ — وأنه ينبغى للأديب دراسة النحو ، وممارسة الإعراب ، حتى يرتسم فى ذهنه ، ويدور على لسانه ، وينطلق به عقال قلمه

ودراسة النحو — فى الواقع — أمر أوّلى لابد منه للمتأدب ، فى هذه العصور المستعجمة ، حتى يعصم لسانه من اللحن ، ويبتعد عن مزالق العامية ، ويحكم تراكيبه ، وفق ما يريده من المعانى . فلكل تركيب معنى يؤديه . وباختلاف التراكيب تختلف المعانى . والدقة فى سوق التراكيب تبرىء الأسلوب من ألوان التعقيد .

وللمؤلف كلمة متصلة بهذا الموضوع ، نشير إليها فى موضع قريب .

* * *

٤ — وأنه ينبغى له أن يقرأ مايستطيع من مختصرات كتب اللغة . ويرمى من وراء ذلك إلى أن يتزود بمفردات لغوية تسعفه عند صوغ العبارة ، وتقدره على الدقة المطلوبة فى أداء الفكرة وحسن تصويرها . وكلما اتسع معجمه اللغوى كان ذا مكنة واستطاعة ، ونأى بجانبه عن العامى والدخيل . وبذلك تفصح عبارته وتملح إشارته .

وهو يرى أن الاطلاع على مختصرات كتب اللغة كفيل بذلك — وهو به حقاً كفيل — غير أن استظهار المفردات عن طريق المعجمات ، فيه صعوبة وعسر ، ولعل فيه أيضاً إضاعة لوقت المتأدب . وأفضل من ذلك — فى رأينا — العناية باستظهار الآثار الأدبية شعراً ونثراً ، واستيعاب ما فيها من المفردات اللغوية فى أماكنها من هذه الآثار . فهذا مما يساعد على حفظها وتذكر معانيها ، فضلا عما يستفيده المستظهر من تربية ملكته الأدبية .

ولعل المؤلف يرمى إلى هذه الفوائد من نصائحه الآتية .

* * *

٥ — وأن يحفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ، ومخاطباتهم ومحاوراتهم ونحوها . وأن ينظر فى أيام العرب ، ووقائعهم وحروبهم

ومناقضاتهم فيها، ويعى أخبار الدول وسير الملوك وما يتصل بذلك من حوادث التاريخ. وأن يقرأ أشعار قدماء العرب، ويخص بالقراءة والحفظ، أشعار المحدثين منهم، للطف مأخذهم، ودوران الصناعة فى كلامهم، ورقة توليد المعانى فى أشعارهم، وقرب أسلوبهم من الخطابة والكتابة. وأن يطالع رسائل المتقدمين، دون أن يعنى بحفظها، لأنها تنقح القريحة وترشد الخاطر وتسهل الاقتداء وتعصم من الخطأ، وذلك بمعرفة ما نقد منها، وما يهرجه النقد.

وحجته فى الدعوة إلى عدم حفظ الرسائل، ألا يكل الخاطر، بسبب محفوظه، فيركن إليه ويعتمد عليه، دون أن يأتى من عنده بجديد. وهى حجة لها وجاهتها.

* * *

٦ — وأن يقرأ كتب الأمثال، وأن يحكم النظر فى الأحكام السلطانية، لأن الكاتب المنشئ فى الديوان، قد يؤمر بأمر، فيعرف — بهذه الأحكام — كيف يجرى قلمه على حكم الشريعة المطهرة، من ولاية قضاء وحسبة، وغيرهما.

* * *

هذه المسائل التى أجملناها — وهى فى تفصيلها اثنتا عشرة مسألة — يعتبرها المؤلف أمورا كلية لابد للمترشح لصناعة الكتابة، من الإكباب على مطالعتها ومزاولتها وممارستها والاستكثار منها. ونستنبط من ذلك أمورا. منها:

الأول: أن المؤلف هنا ناقد تعليمى، وضع الأسس الأولى والدعائم الأصيلة التى يقوم عليها أسلوب الكاتب، والتى ينبغى أن يراعيها الكاتب حتى يتمشى أسلوبه فى رسن من البلاغة الصحيحة. وبفحص هذه الأسس ترى أنها تؤدى إلى الحرى مع الطريقة الفاضلية التى كانت دستور البلغاء فى العصر المملوكى.

فيحفظ القرآن الكريم والحديث، يقتدر الكاتب على «الاقتباس» بشتى طرقه وأقسامه. وبمعرفة مفردات اللغة وتحديد معانيها يستطاع «التجنيس»

و « التورية » و « المطابقة » و « المقابلة » و « الاستخدام » وغير ذلك . وباستيعاب أشعار العرب وأيامهم وأمثالهم يملك زمام « التورية » و « التلميح » و « التضمين » وهكذا .

والمؤلف لم يفصح عن ذلك إفصاحاً بارزاً . ولكن عباراته وأمثلته ، وخاصة التى من إنشائه هو ، يستنبط منها هذا .

الثانى : أنه يبدو من عنايته بالتنبيه على حفظ القرآن الكريم ، وتدبره ، ومعرفة الحديث وأحكامه ، وشعر العرب . . . الخ ، أنه ينبغى أن يحتوى الأسلوب على شىء منها بأى سبيل من سبل القول . لأن ذلك يدعم المعنى ويقويه ويوضحه ويبرزه ، ويكسوه ثوب جمال . فهى ليست غايات مقصودة لذاتها ، ولكنها وسائل لإكساب المعنى جماله المرجو الذى يبرز فيه القوة ويؤدى به إلى الوضوح والتأثير .

الثالث : أنه يرمى من وراء هذه التعليمات المؤدية إلى استعمال أصباغ بديعية ، إلى خدمة المعنى ووضعه فى لوحة جميلة وإطار جميل ، ترى فيه ظلاله وحواشيه الجانبية التى تكمله وتجعله رائعاً . والألفاظ أو الأصباغ هى التى تشع عليه هذه الأضواء ، وتزيده روعة وتأثيراً .

تأثر الحلبى بابن الأثير :

قبل أن ننتقل بالحديث عن هذا القسم ، الذى هو جوهرى لتعليم الكتابة ، نشعر أن الحلبى متأثر فيه تأثراً بالغاً بابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » . فقد عقد فيه فصلين ممتعين فى تعليم الكتابة ، هما الفصل التاسع والعاشر من فصول مقدمته .

وهو فى الفصل العاشر مسهب كثير التفصيل ، دقيق فى إبراز المعانى التى يقصدها ويوضحها بلا مواربة ، ولا خشبة غالباً .

فصله التاسع : وهو فى أركان صناعة الكتابة .

ويتلخص فى أن لصناعة الكتابة خمسة أركان :

١ — أن يكون مطلع الكتاب — أو الرسالة — عليه جدة ورشاقة .

٢ — أن يكون الدعاء المودع فى صدره مشتقاً من المعنى الذى بنى عليه .

٣ — أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى ، برابطة .

٤ — أن تكون ألفاظ الكتاب غير مبتذلة بكثرة الاستعمال ، بشرط ألا تكون غريبة .

٥ — ألا يخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن الكريم .

وهو فى بيان هذه الأركان — كما ترى — يدعو إلى براعة الاستهلال أو حسن الابتداء ، وإلى مراعاة النظير والتورية ، وإلى حسن التخلص ، وإلى رعاية السهولة والوضوح ، وإلى الاقتباس ، على التوالى .

وهذه أمور سنراها بوضوح فى منهج «ابن حجة» فى الفصل الآتى . ولكن شاهدنا هنا هو الركن الأخير ، وهو وجوب احتواء الكلام على معنى من معانى القرآن الكريم .

فصله العاشر : وهو فى بيان الطريق إلى تعلم الكتابه .

يتلخص كلامه فيه فيما يلى :

١ — أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم فى استعمال الألفاظ والمعانى ، ثم يحذو حذوهم . وهذه أدنى الطبقات .

ويبدو أنه يقصد بها طبقة المقلدين الذين يرددون عبارات سابقيهم فحسب .

٢ — أن يمزج الكاتب كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة فى اللفظ والمعنى . وهذه الطبقة أعلى من سابقتها .

ويبدو أنه يقصد بها طبقة تسرق سرقة نثرية ، فتخلط نثر غيرها — أو شعره — بنثرها .

٣ — ألا يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شىء منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة

من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الإجادة فى المعانى والألفاظ. ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، ثم يمرن نفسه بالاقتباس منها ، حتى يقوم لسانه ويهذب قلمه ويستقيم على طريقة .

وهذه الطبقة أعلى الطبقات ...

ويبدو لنا من كلامه عامة ، ومن البند الثالث خاصة ، مدى ما للأساليب القرآنية من سلطان على عقول الناقدين والأدباء . حتى دعوا دعوة مطردة إلى الاقتباس منه ، والاقتداء بأساليبه ، ونظم الكلام على نظمه . وإن أشركوا معه أحاديث الرسول عليه السلام ، وجيد الشعر .

ولعل هذه النزعة ، من ابن الأثير ، أشد وضوحاً فى الفصل الذى عقده للكلام عن « السجع » . وسنعود للحديث عن ذلك الباب — أو الفصل — عند حديثنا عن ابن حجة الحموى .

هذا ، وقد أخذ ابن الأثير يبين طريقة الانتفاع بالشعر وحله فى الكتابة . وشرع لذلك ثلاث طرق ، بعد ما قال إنه لا يقصد أن يكون الكاتب مرتبطاً بما يستخرجه من القرآن والحديث والشعر ، بحيث لا ينشىء إلا منها . أما طرقه :

فالأولى : أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بألفاظه من غير زيادة ، وهذا — فى نظره — عيب فاحش .

الثانية : أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبر عن بقية ألفاظه بألفاظ أخر من عنده ، وهنا يحتاج الأمر إلى لباقة وحسن صناعة فى رعاية المؤاخاة والمماثلة بين الألفاظ ، حتى تتلاءم كلها معاً ، فكأنها من صنع أديب واحد .

الثالثة : وهى أعلى من سابقتها ، هى أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ جديدة . وهنا يتبين حذق الكاتب وقدرته فى الزيادة على المعنى ، وفى التصرف فيه .

وقد ضرب ابن الأثير لذلك أمثلة لا حصر لها ، من إنشائه . كما خللها بتفصيلات أخرى دقيقة فى الطرق العملية للانتفاع بالمحفوظ .

ثم تكلم عن حل آيات القرآن الكريم . فبين أنه ينبغى المحافظة على ألفاظه

لمكانها من الفصاحة . إلا أنه لا ينبغى أن يؤخذ لفظ الآية بجملته ، فإن ذلك يكون من باب « التضمين » . وإنما يؤخذ بعضه ، ويجعل أولا ، أو آخراً ، حسب المناسبة . وكذلك تحل الأخبار النبوية .

وقد بين أن المتصدى لحل معانى القرآن ، يحتاج إلى كثرة درسه ، وإدامة النظر فيه . فكلما أعاد دراسته ونظره بانت له معان جديدة انتفع بها . وضرب لذلك المثل بنفسه . فإنه كان يقرأ السورة ويسجل مايتراءى له من المعانى وقت قراءتها ، ثم يعيد قراءتها فتتراءى له معان أخرى ، وهكذا ...

هذه خلاصة تعاليم ابن الأثير . ومن الطريف أنه صدّر الفصل العاشر المذكور بقوله : « هذا الفصل هو كنز الكتابة ومنبعها . وما رأيت أحداً تكلم فيه بشىء » . . .

ومن هذه الخلاصة يبدو لنا جليا ، أن الشهاب الحلبى قد تأثر بها . ولكنه زاد عليها ، وصرف عناية كبرى إلى دراسة النحو وحفظ مفردات اللغة ، وقراءة نثر المتقدمين ، ومنه خطب الصحابة وغيرهم من البلغاء .

والحلبى أدق بعض الدقة حينما دعا إلى قراءة النثر — ولم يدع إليها ابن الأثير بدعوى أن الشعر هو مجتمع معانى العرب — وحينما دعا أيضاً إلى حفظ الرسائل ونحوها ، ثم نسيانها . وهو — بلا ريب — يقصد بذلك أن يهتضمها الأديب فى ضميره ، فتنفعه وتعينه على إنشائه دون أن تبدو فيه بدوا ملموساً .

من هذا ، ومما سنحدثك به عن ابن حجة الحموى ، ترى أن شروط صناعة الكتابة وتعاليم زعمائها ، زادت حنكة ولباقة فى العصر المملوكى عن العصور المتقدمة .

* * *

القسم الثانى :

ذهب المؤلف فى هذا القسم مذهب علماء البلاغة ، إذ خلع عنه ثوب الأديب المشرع الذى ارتداه فى القسم الأول ، ولو إلى حد ، وأخذ يتحدث عن ألوان من البيان والمعانى والبديع بلغت نحو ثمانين لونا ، فى أسلوب علمى هين ، فيه تعاريف وحدود ، وفيه تقاسيم وموازنات ، وفيه استدلالات واحتجاجات .

وقد تأثر فى ذلك الحديث ، بمذاهب المتقدمين من علماء البلاغة على اختلافهم . ومنهم عبد القاهر الجرجانى ، وقدامة بن جعفر ، وابن سنان الخفاجى ، ونقل شيئا عنهم .

ولم يفرق بين ألوان البديع وغيرها من ألوان البلاغة ، بل عقدها فصولا متوالية . إلا أن الفصول البديعية كلها فى المؤخرة . ولا نريد أن نستنبط من ذلك شيئا ، ولا سيما إذا عرفنا أنه نص فى مقدمة الكلام فى هذا القسم ، بما يفهم منه أنه يتحدث عن علم البيان والمعانى والبديع . وفى هذا إشعار منه بمغايرة كل علم بأقسامه ، للآخر وأقسامه . ولكن ليس إشعارا بأن البديع تابع للمعانى والبيان ، كما ذهب إليه الجلال القزوينى .

وليس فى الألوان البلاغية التى تعرض للحديث عنها حديثا علميا ، شىء جديد ، أو شىء نعتقد أنه ذو صلة بموضوعنا ، سوى تسجيل هذه الألوان التى تعود علماء البلاغة أن يتحدثوا عنها . غير أننا نقف منها عند جملة أمور :

الأول : أن المؤلف عندما بدأ الحديث عن هذه الألوان البلاغية ، تكلم عنها باعتبارها أداة من الأدوات التى ينبغى للناشئ معرفتها . فهى إذن ، المسألة الثالثة عشرة . ولكنها تفترق عن الأدوات الكلية السالفة ، بأنها من المكملات لهذا الفن . وقد قال فى ذلك بعد أن تحدث عن الأدوات الاثنتى عشرة السابقة :

فهذه أمور كلية ، لا بد للمترشح لهذه الصناعة من التصدى للاطلاع عليها ، والإكباب على مطالعتها ، والاستكثار منها ، لينفق من تلك المواد ، وليسلك فى الوصول إلى تلك الصناعة بذلك الجواد ، وإلا فليعلم أنه فى واد ، والكتابة فى واد .

وأما الأمور الخاصة التى تزيد معرفتها قدره ، ويزين العلم بها نظمه ونثره ، فإنها من المكملات لهذا الفن ، وإن لم يضطر إليها ذو الذهن الثاقب ، والطبع السليم ، والقريحة المطاوعة ، والفكرة المنقحة ، والبديهة المجيبة ، والروية المتصرفة . ولكن العالم بها متمكن من أزمة المعانى ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب .

فمن ذلك : علم المعانى والبيان والبديع ، والكتب المؤلفة فى إعجاز الكتاب العزيز ، ككتب الرمانى والجرجانى ، والإمام فخر الدين ، والسكاكى ، والخفاجى وغيرهم .

وأنا أشير إلى نكت منها تدل على جلالة قدر هذا العلم ، وعظم الفائدة به ، وإن الأديب والكاتب العاريين عنه قاصران عن أدنى رتب الكمال . . . » الخ .

فأنت تراه يعتبر هذه الأدوات البلاغية مكملات . أما ماتقدمها فهى أمور كلية ، بمعنى أصيلة ضرورية لابد منها ولا محيد عنها . لأن كلمة « كلية » هنا مطابقة لكلمة « مكملة » ، فعلى ضوء هذا الطباق نفسرها .

وهى مكملة للأديب حتى يتصرف فى زمام القول عن علم وبينة وفهم لما يتصرف فيه . والأديب الذى أوتى ذهنا ثاقبا وطبعا سليما . . . . الخ ، يستطيع أن يفيض خاطره بالمليح من القول ، والرائع من البيان ، دون أن يكون متمكنا من معرفة هذه الألوان البلاغية معرفة علمية . ومن هذا يتضح أن المؤلف يرمى من أنها مكملة للأديب ، إلى محض العلم بها وفهم مختلفاتها ، على نسق مايريده علماء البلاغة .

فالأديب المطبوع يدرسها ليستزيد بها علما فحسب . وهذا يمكنه من أزمة المعانى ، حتى يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد عن حجة . الخ .

ويمدولنا جليا من هذا الحديث الواضح ، أن المؤلف إنما يرمى إلى أن يهيئ للأديب كل أداة يستطيع بها أن يتمكن من أزمة المعانى ، حتى يصرفها وفق ما فى نفسه ، فليس هدفه إذن إقدار الأديب على امتلاك العناية باللفظ وأن يحسن الحلية للحلية ، وإنما يحسنها خدمة للمعانى وتقوية لها .

أما الأديب ذو الذهن الثاقب والطبع السليم والقريحة المطاوعة والفكرة المنقحة . . . الخ ، فلا بأس عليه إذا جهل هذه الأدوات . فإن جهله بها — من الناحية العلمية — ليس معناه جهله بها من الناحية الطبعية . فهى مستقرة فى نفسه الأديبة ، جارية على لسانه المبين ، دون وعى أو تكلف . وحسبه ما يتصف به

من ثقوب ذهن وسلامة طبع ومطاوعة قريحة . . . . الخ . وأديب هذه صفاته لن تفلت منه أزمة المعانى ، ولن يعتاص عليه لفظ أو تركيب . وإنه لتجذبه مغناطيسية ذهنه حين يثور إلى العمل ، وينبرى للإنتاج البيانى .

الثانى : أن المؤلف ساق خلال حديثه عن الألوان البلاغة ، أمثلة وشواهد متعددة . وهو — بلا ريب — يرمى من ورائها إلى أن تكون نماذج للناشئ المتأدب تبصره بطرق إبراز المعانى فى صورة قوية واضحة مؤثرة . وتمرن قريحته على تذوق الجمال فى الأسلوب . لأن الجمال — فى الحق — ليس أمرا محدودا يستطاع ضبطه وتعريفه تعريفا محدودا داخل سور ، وإنما هو أمر ذوقى . ولهذا ساق المؤلف كلمة مقتبسة عن الإمام عبد القاهر الجرجانى ، إذ قال :

« وحكى الإمام عبد القاهر الجرجانى قال : ركب الكندى المتفلسف إلى أبى العباس ، وقال له : إنى أجد فى كلام العرب حشوا . فقال له أبو العباس : فى أى موضع وجدت ذلك ؟ قال : وجدت العرب تقول : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم . فالألفاظ متكررة والمعنى واحد » . فقال أبو العباس : بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ . فقولهم : « عبد الله قائم » إخبار عن قيامه . وقولهم : « إن عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل . وقولهم : « إن عبد الله لقائم » جواب عن إنكار منكر قيامه — فما أحار المتفلسف جوابا . فإذا ذهب مثل هذا على الكندى ، فما الظن بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم فى امتزاجه بالقلوب ، غير الذوق السليم ، كما قال الشاعر .

شئ به فتن الورى غير الذى يدعى الجمال ، ولست أدرى ما هو

وهذا كله يؤيد ما نشعر به ، أو ما نستنبطه من مذهب هذا الرجل . وهو رميه إلى إجادة المعانى وحسن إبرازها . وكل ما يوصى بالاطلاع عليه ، والاستكثار منه ، والعلم به ، إنما هو لخدمة المعانى .

الثالث : أن المؤلف عقد فصلا تحت عنوان : « القول فى النظم » ، تكلم فيه عن الإيجاز والإطناب . وقد مهد لكلامه بحديثه عن النحو . وبين ضرورة

رعايته ، مراعاة للمعانى ، لأن لكل قانون نحوى معنى يؤديه ولأن الكلام ، دون نحو ، لا فضل فيه ، بلغ ما بلغ من غرابة المعانى . فكمال المعانى أن تكون فى قوالب أسلوبية نحوية معربه . وأن سبب فساد المعانى ترك العمل بالقرائن النحوية .

وهذا كله مما يؤيد توجيهه نحو العناية بالمعانى . ومما يعزز كلامه هنا ، ما سبق أن عرّف به البلاغة عند أول حديثه عنها ، حيث قال :

« البلاغة أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده ، مع إيجاز بلا إخلال ، وإطالة فى غير إملال » . وسواء أكان معنى هذه العبارة منقولا أم غير منقول . فهو معبر عن رأيه على كل حال .

وفى نفس الفصل « القول فى النظم » يقول ما ملخصه :

« إن الجمل الكبيرة إذا نظمت نظما واحداً ، فهى على قسمين :

الأول : ألا يتعلق البعض بالبعض ، فلا يحتاج واضعه إلى فكر وروية فى استخراجه ، بل هو كمن عمد إلى اللآلئ ينظمها فى سلك . ومثاله قول الحافظ : « جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة . . . الخ » .

والثانى : أن تكون الجمل المذكورة يتعلق بعضها ببعض ، وهناك تظهر قوة الطبع وجودة القريحة واستقامة الذهن . ثم ليس لهذا الباب قانون يحفظ . فإنما يجىء على وجوه شتى ... الخ » . ثم تكلم عن الإيجاز والأطناب . . .

ويبدو من حديثه فى القسمين ، اهتمامه بإجادة المعانى وحسن إبرازها وجمال تأديتها . فهو فى القسم الأول يصفها باللآلىء المنظومة فى سلك . ولا ينصب وصفه هذا على الألفاظ ، لأن الألفاظ ، من حيث هى ألفاظ ، لا تعتبر لآلئ ولا نحوها . فليس للفظ قيمة ذاتية ، إلا بما يسكنه من المعنى . وبمقدار صلة هذا المعنى بما يجاوره من المعانى — وفى القسم الثانى . يطمئن عليها تمام الطمأنينة ، ما دام للكاتب قوة طبع وجودة قريحة واستقامة ذهن ... وهذه فى الواقع أدوات تؤدى بصاحبها إلى الابتكار فى المعانى ، والقدرة على وضعها فى قوالب لفظية جميلة رائعة تتضح منها وتؤثر بها .

غير أننا نعترض على حديثه فى القسم الأول ، عند قوله إنها لايحتاج نظمها إلى فكر وروية... الخ . ونرى أن هذا الضرب من الجمل — وهو الذى لا يرتبط بعضه ببعض بروابط وحدة الموضوع واتفاقه — يحتاج إلى حنكة وكياسة ولباقة فى التأدية ، تعوض هذه الجمل ما فاتها من وحدة الموضوع ومتانة الاتصال ، وتفرغ عليها ثوبا من القربى ، ونسيجا من الاتصال . وإلا بدت مفككة ينفر كل منها من الآخر ، نفور الغريب من القريب — والعجيب أنه استشهد بكلام بعض نوابغ البلغاء : كالجاحظ والنابغة . وإذا نحن أجلنا النظر فى جمل كل منهما — وجمل غيرهما ممن استشهد بهم — نجد بينها روابط معنوية تجمع بين شتاتها المتفرق .

الرابع : أنه عقد فصلا موجزاً لطيفا تحت عنوان «فصل : فى الفقر المسجوعة ومقاديرها» . بدأه بقوله :

« قصر الفقرات يدل على قوة التمكن وإحكام الصناعة ، وأقل ما يكون من كلمتين » .

ثم تكلم عن الفقرات المختلفة فقال ما نصه :

« فأما الفقر المختلفة فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى ، ولكن لا بقدر كثير ، لئلا يبعد على السامع وجود القافية ، فيقل الالتذاذ بسماعها ، فإن زادت القرائن على اثنتين ، فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين ، وزيادة الثالثة عليهما . وإن زادت الثانية على الأولى يسيرا ، والثالثة على الثانية ، فلا بأس ، لكن لا تكون أكثر من المثل . . . . الخ » أى لا تكون الزيادة ..

ومن عبارته هذه نستنبط أموراً منها :

١ — أنه يدعو إلى قصر الفقرات ، ويعتبره دلالة على تمكن الصناعة وقدرة المنشئ .

٢ — أن أقل ما تتألف منه الفقرة كلمتان . ولكن الزائد على ذلك هو الأكثر ، كما يشاهد فى كتاب الله عز وجل .

٣ — أنه يدعو — عند اختلاف الفقرات المسجوعة فى الطول — إلى أن

تكون الثانية أطول قليلا من الأولى ، وأن تكون الثالثة — إذا وجدت — أطول قليلا من الثانية . ولا تتعدى زيادتها المثل . وينبغى أن تكون فيها زيادة . والأمثلة التى استشهد بها يفهم منها ألا تزيد الثالثة على مثل الأوليين .

٤ — ولا مانع عند وجود فقرة ثالثة ، أن تتساوى الأولى والثانية فى الطول .

ويحتج الحلبى لذلك كله بأن السامع يجد التذاذاً فيه . ولا ريب أن التذاذ السامع ناشئ من زيادة المعانى الناشئة من زيادة الألفاظ . إذ يكون السامع — بعد سماعه أولى السجعات — مشوقا للزيادة ، وعلى استعداد لقبولها . ويبدو أن السامع حينما يسمع فقرة قصيرة ذات رنين خاص يؤثر فى نفسه ، يصبح ذا استعداد نفسى لسماع فقرة أطول منها قليلا ، لما يحدث فى نفسه من المطاوعة حين سماع الأولى ، مما يهيئها للاسترسال مع جرس الفقرة الجديدة ، إلى أبعد مما تلقاه من جرس الأولى ، فكأن الأولى أثارت فيه شوقا إلى الإطالة والزيادة . ومن هنا نفهم مقدار الذوق الموسيقى الذى وهب لهؤلاء النقاد ، وبه تحكموا فى نظام الفقرات المسجوعة . وحجة التذاذ السامع وتشوقه للزيادة ، هى الحجة التى ابتدعها هؤلاء الناقدون أو المقننون ، وهناك حجة أخرى نراها ولكنها خفية ، وهى افتتانهم بأسلوب القرآن الكريم ونظم فواصله التى أتت على نظام مسجوع . فهم يريدون أن يطبعوا الأساليب النثرية ، وما فيها من سجعات بطابع السجع ونظامه فى آى القرآن الكريم . ومما يدل على ذلك ، توخيهم الاستشهاد ، فور هذا التقنين ، بآيات القرآن الكريم . ومن هنا نلحظ أيضاً مدى تأثير الأساليب القرآنية فى أساليب النثر فى تلك العصور . .

ومن الطريف أن يتحدث الشهاب محمود ، بهذه المناسبة ، عن عدد الكلمات فى الفقرات الطوال . ويحدد أقصرها بإحدى عشرة كلمة ، أما غير ذلك فلا ضابط له . وقد بلغ عشرين كلمة فى بعض الفقرات .

ومن أمثلته على اتفاق القرينتين الأوليين ، وطول الثالثة ، على ألا تزيد زيادتها عن مثليهما ، قوله تعالى :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا · لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا » . فالأولى أربع ، والثانية مثلها أربع . والثالثة ثلاث عشرة . على اعتبار القرينة منتهية عند قوله تعالى : ولدا — وذلك ما يفهم من عبارته ·

وسترى أن ابن حجة الحموى قد سجل فى كتابه « خزانة الأدب » هذه القيود بنصها ونصها فى باب « السجع » ، وقد عبر عنها بعبارة الشهاب محمود فى كتابه « حسن التوسل » ناقلا معها أمثلتها وشواهدها بعينها . ولكنه لم يشر إلى نقله . . ولعل ذلك دليل على أن هذه القيود قواعد مقررة مرعية متفق عليها فى الطريقة الإنشائية المتبعة فى ذلك العصر ·

على أننا لا نظن أن كلا الرجلين « الحلبى وابن حجة » — بل والقلقشندى أيضاً — قد اقتفوا فى ذلك كله أثر ضياء الدين بن الأثير فى كتابه « المثل السائر » فقد تكلم فى باب السجع كلاما طويلا ، تناول فيه أنواعه ، وتحدث عن نظام الفقرات ، واستشهد بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث ، وإنشاء الصابى وغيره وإنشائه هو . ويبدو أنهم نقلوا عنه آراءه متأثرين بها ، كما استشهدوا بما استشهد به من الآيات .

ولا تخرج القواعد التى قعدها هنا الشهاب محمود — فى جملتها — عن القواعد التى سجلها ابن الأثير . وفى « المثل السائر » زيادة وتفصيل أكثر . وسنعود إلى بيان ذلك عند الحديث عن ابن حجة مبينين أيضاً تأثر ابن الأثير بمن قبله من البلاغيين .

وأخيراً نلاحظ أن الشهاب محمودا لم يتعرض لأنواع السجع المختلفة — المطرف ، والموازى ، والمشطر ، والمرصع — كما تعرض لها كل من ابن الأثير ، وابن حجة . وسنشير إليها فى مواضع أخرى .

الخامس : أنه عقد فصلا آخر تحت عنوان « القول فى التجنيس » تكلم فيه عن أنواع من الجناس ، كالتام ، والناقص ، والمركب ... الخ .

وقد وقفنا خلال قراءة هذا الفصل ، عند عبارة لها مغزاها ، حيث يقول :

« وإنما يحسن التجنيس إذا قل ، وأتى فى الكلام عفواً ، من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة ، ولا يكون كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

وهذا دليل على أن الرجل لا ينساق مع الزخارف اللفظية ، ولا البهرج الصوتى . وإنما يدعو إلى رعاية المعنى . ولا يقبل على لون بديعى إلا إذا خف وبرئ من الكلف . ولا ريب أنه إنما يكتسب هذه الخفة والبراءة إذا بعدت العبارة عن التعقيد ، وسلمت من التنافر ، وأسفر معناها دون كد أو ملل .

ونعتقد أن هذه النزعة فى فهم الجناس ، سُبق بها الحلبى . فقد قال عبدالقاهر الجرجانى مثلا فى سياق حديثه عن الجناس والسجع معا :

« وأما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميداً . ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا » .

ويقول أيضاً :

« فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا ، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه . وحتى تجده لا تبتغى به بدلا ، ولا تجد عنه حولا . ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه[1] » .

وقد كان الجناس — فى هذا العصر — مثار جدل ونقاش ، وأداة فرقة وانقسام بين النقاد والأدباء . فمنهم من يدعو إليه ويتعصب له . مثل صلاح الدين الصفدى ، الذى ألف فيه كتابه « جنان الجناس » . ومنهم من ينفر عنه ويعتبره محسنا لفظيا — لا معنويا — ولا يقبل عليه إلا إذا كان لتحسين المعنى منه نصيب ، وأخرج مخرجا آخر . وقد سبقت الإشارة إلى شىء من ذلك فى الفصل الأول ، وسنعود إليه مرة أخرى .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٤ ، ٧ .

ومن الفريق الثانى ، الشهاب محمود ، الذى تبدو شروطه فى استعمال الجناس من خلال عبارته السالفة ، فهو يشترط فيه أن يأتى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة . .

وجرى على نمطه ابن حجة الحموى فى « خزانة الأدب » إذ نقل فى باب « الجناس » نص عبارة الشهاب محمود مسندة إليه حيث قال : « والجناس من صور الألفاظ ، وممن وافق على ذلك ، علامة عصره الشهاب محمود . وقد قال : إنما يحسن الجناس إذا قل وأتى فى الكلام عفواً من غير كد ... الخ » .

السادس : نلاحظ على الشهاب محمود — كما نلاحظ على كثير من النقاد والبلاغيين — أن أكثر ما يسوقونه من الأمثلة والشواهد ، من الشعر دون النثر . وكان الأجدر برجل كالشهاب محمود ، وهو يتصدى لوضع قوانين لصناعة الكتابة أن يكثر من أمثلتها . ولكنه فعل كما يفعل البلاغيون من الإكثار من الشواهد الشعرية دون النثرية — ولعله استعاض عن ذلك بما أثبته من النماذج النثرية المتعددة ، التى ساقها فى قسم خاص ، وهو القسم الثالث من كتابه . ونتحدث عنه بعد قليل .

* * *

وبعد ، فمما سبق يتبين أهم ما يشترطه هذا الناقد ، فى الأسلوب ، حتى تحكم صناعته ، ويتلخص ذلك فيما يلى :

١ — رعاية النحو وقواعده ، وهذه مسألة أولية ، ومن شأنها أن تعين على تحديد المعنى ووضوحه .

٢ — سوق بعض من آيات القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، أو شعر العرب وحكمهم وأمثالهم وما إليها على سبيل الاقتباس أو التضمين أو الحل — وله فى الحل لفتات لطيفة نذكرها عند الحديث عن القسم الثالث .

٣ — التلميح ببعض الألفاظ أو العبارات إلى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، أو مغازيه وأخباره وأخبار أصحابه ، أو الحوادث التاريخية والنوادر الأدبية ، أو أبطال القصص والسير والأيام والأدب ونحو ذلك .

٤ — تنويع الألفاظ ، وعدم الاقتصار على معجم لفظى صغير ، تدور مفرداته فى سطور كل مقال . ولا ريب أن ضيق معجم الأديب يؤدى إلى ضعف أسلوبه وعجزه عن أداء كل معانيه وأخيلته .

٥ — الابتكار فى المعنى أو التوليد فيه — على الأقل — وتجنب التكرار وتحاشى السرقة . وتفهم هذا من قوله : « ينبغى ألا يستند الفكر إلى محفوظه » .

٦ — الخبرة بمصطلحات الديوان ، والأحكام السلطانية ، حتى لا تصدر عبارة نابية عن العرف والشرع .

٧ — المطابقة بين الكلام ومقتضى الحال ، حتى تبلغ العبارة كنه المراد . وهذه خصوصية فى الأديب ترجع إلى قوة طبعه ؛ وجودة قريحته واستقامة ذهنه .

٨ — أن تكون السجعات قصيرة ومتوافقة . فإذا اختلفت فلتكن الثانية أطول من الأولى ، والثالثة أطول من الثانية ، على ألا تزيد عن مثل الأولى والثانية ، بأكثر من المثل . وهذا هو مفهوم شواهده من القرآن . ولا بأس أن تتساوى الأوليان عند وجود ثالثة .

٩ — أن يستخدم التجنيس لتحسين المعنى ويتم له ذلك إذا أتى عفواً من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة .

ومن هذا كله يتبين مقدار عناية هذا الناقد بتوجيه الناشئ إلى رعاية المعنى مع حسن إبرازه ، وأنه يسخر لذلك أدوات ووسائل عدة ، البديع واحدة منها .

* * *

وقد لا تروق هذه التوجيهات ، نقاد العصر الحديث ، إذ أن لهم فى الأساليب نظرات أخرى . ولكن ينبغى لنا أن نعترف أن لكل عصر ذوقه ، وأن لكل جيل منطقه . وإذا راعينا أن الثقافة السائدة فى العصر المملوكى كانت ثقافة دينية ، فى أغلب نواحيها ، ويشترك فيها القرآن الكريم وعلومه ، وأن الثقافة الأدبية ، كان من أسمى أغراضها إحياء الأدب القديم . وتقليده واقتفاء أثره كان ضربا من ضروب الإحياء — إذ العصر فى جملته كان عصر إحياء — شعرنا بأن هذا

الناقد وأمثاله كانوا مرآة لعصرهم ، وترجمانا لجيلهم ، وأنه كان أمراً طبعيا أن تتأثر أساليب الأدباء بما تنضح به هذه الألوان الثقافية . وهذا التأثر الذى تأثرت به ، وتقنينه ، ووضعه فى قواعد ومناهج — أو محاولة ذلك — أهم نزعة ، فى رأينا ، ينبغى أن ينزع إليها الفن الصحيح ، إذ الفن الصحيح هو الذى ينعكس عليه ذوق عصره ومنطقه .

* * *

القسم الثالث :

يمتاز هذا القسم بأنه أمثلة تطبيقية ونماذج متعددة ، ورسائل شتى . كلها من إنشاء المؤلف فى أغراض كتابية مختلفة . بعضها مما كتبه فى الديوان ، وبعضها مما كتبه تمرينا لقريحته وتمثيلا للناشئين .

وقد قدم كل نموذج منها ، أو كل مجموعة من نماذجها متحدة فى غرضها ، بتوجيهات لطيفة وتقنينات طريفة ، هى فى صميم ما يعين الناشئ على هذه الصناعة ، وفى صميم ما يلفت الذهن إلى العناية بالمعنى ، ويبصر بطرق مراعاة مقتضيات الأحوال ، حتى تكون الرسالة المنشأة بليغة مستوفاة ، ويكون المقال المدبج وفق المجال ، ويبلغ بهما الكاتب ما يريد .

وقد بدأ ذلك بالكلام عن « الحل » وهو حل « المنثور والمنظوم » . وهو ضرب آخر من ضروب المناهج الكتابية ذات السلطان فى ذلك الحين . وهو دليل على سعة اطلاع المنشئ ، وإحاطته بصنوف الأدب ؛ شعره ونثره .

واستخدام « الحل » بحاجة قصوى إلى لباقة وحنكة ، حتى يستطيع الكاتب . حل الألفاظ ، والانتفاع بمعانيها ، والمباعدة بين متجمعها ، بألفاظ وعبارات ومعان جزئية جديدة ، حتى ينسبك منها جميعا شىء جديد مبتكر . تزيده الألفاظ أو المعانى المحلولة روعة وجمالا ووضوحا ، وتلقى من حوله ظلالا حية نابضة بالكثير من مكملاته وألوانه .

وقد قال المؤلف يشرح طريقة الحل :

« وكيفية الحل أن تتوخى هدم البيت المنظوم وحل فرائده من سلكه . ثم ترتب تلك الفرائد أو ماشابهها ترتيب متمكن ، لم يحصره الوزن ، ولا اضطرته القافية . ويبرزها فى أحسن سلك ، وأجمل قالب وأصح سبك . ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة . ويتخير لها القرائن . وإذا تم المعنى المحلول فى قرينة واحدة فيضم له من حاصل فكره ، أو من ذخيرة حفظه ما يناسبه . . . الخ » .

ونعتقد أن هذه الكيفية متأثرة بما سنه ابن الأثير فى الطريقة الثالثة التى يحل بها الشعر . وقد أشرنا إليها . ولكن الحلبى أوضح حديثاً وأنضج عملا وأدق فنا وأوفى منهجا . وكيفيته هذه ، هى ما يسير عليه بلغاء المنشئين ، إذ أنها تجمع بين معنى الشعر المحلول ، وما تجود به قريحة الكاتب جديداً ، وما يعيه صدره من محفوظه ، وتخرج الشعر مخرجاً جديداً .

ولا يزال هذا النهج الكتابى ، — أو هذا اللون البديعى — مقبولا من الأذواق حتى اليوم . إذ يجمع الحسن من أطرافه . وبذلك يتمكن من القلوب بما يبسط لها من مناسبات خفية ، ومعان مطوية . وبما يبعث إليه الأذهان من من أخيلة لطيفة ، والنفوس من تموجات عنيفة . وبما يحتوى عليه من متفرقات التأم شملها فتعاونت على إبراز صورة فكرية ، أو هزة نفسية .

ثم بين الشهاب محمود أن الحل نوعان : حل ألفاظ ، وحل معان . وقال :

« وإذا أراد الحل بالمعنى ، فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول ، غير قاصرة عنها . فمتى قصرت ، ولو بلفظة واحدة ، فسد ذلك الحل وعد معيباً . وإذا حل باللفظ ، فلا يتصرف بتقديم ولا تأخير ولا تبديل ، إلا مع مراعاة نظام الفصاحة فى ذلك ، واجتناب ما ينقص المعنى ، أو ما يحط رتبته » .

والحل ، قريب الشبه التضمين وبالتلميح . ولكنه يشآهما روعة ودقة وأثراً . وهو أشد منهما احتياجا إلى طبع قوى ، وقريحة جيدة ، وكياسة وسعة حيلة ، حتى تبدو العبارة كلها بمعانيها وألفاظها كأنها جديدة من صميم مبتكرات

الكاتب . وإلا غث ، الحل ، ورث .

ويضرب المؤلف أمثلة عدة منها ما هو من إنشاء ضياء الدين بن الأثير فى وصف عصا على لسان شيخ كبير . وقد تصرف فى محلولاته ، بزيادة فى المعنى . قال :

« وهذه لمبتدأ ضعفى خبر . ولقوس ظهرى وتر . وإذا كان إلقاؤها دليلا على الإقامة ، فإن حملها دليل على السفر » .

والمحلول فى ذلك قول بعضهم : « كأننى قوس رام وهى لى وتر »

وقول الآخر :

« فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر »

* * *

والمؤلف يربأ بالناشئ عن أن يكلف بالحل ، ويشغف به ، لدرجة اللجاج التى كثيراً ما تثنى عن إجادة المعنى ، وتبرز العبارة ثقيلة متكلفة ، فيقول ، وهو فى قوله معلم أديب :

« ولا ينبغى أن تعتمد فى جميع كتابتك على الحل فيتكل خاطرك على ذلك ، ويذهب رونق الطبع السليم ، وتقل مادة الانسجام . بل يكون استعمال ذلك كاستعمال البديع ، إذ أتى عفواً من غير تكلف . ليكون مثل الشاهد على صحة الكلام ، والدال على الاطلاع ، وكالرقم فى الثوب ، والشذرة فى القلادة ، والواسطة فى العقد . إذ لا ينبغى أن تخلى كلامك من نوع من أنواع المحاسن . ويقترب من ذلك نوع يسمى التلميح » .

* * *

طفق المؤلف بعد ذلك يسجل نماذجه . ويقدم كلا منها بتوجيه خاص نافع . ونستخلص هنا هذه التوجيهات لأهميتها فى موضوعنا . أما النماذج فلها مواضع قادمة أخرى .

وقد بدأ توجيهاته بقوله : « ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة

عليه والتمسك به ، إعطاء كل مقام حقه ... الخ ، وفيها يبين بعض الأحوال ومقتضياتها :

ومن توجيهاته ، وهى فى الواقع آداب ديوانية ، ما يلى :

١ — إذا تصدى الكاتب للكتابة عن الملك إلى نوابه وقادة جيشه فى وقت الحرب ، فليتوخ الإيجاز ، والألفاظ البليغة الدالة على القصد ، ولا يهول فى شأن العدو ، ولا يهون من أمره . وسبب ذلك فيما نعتقد — وكما نوه المؤلف أن وقت الحرب ضيق ينبغى أن تصدر فيه التعليمات عاجلة خوف فوات الفرص ، فينبغى فيها الإيجاز والاقتصار على المعانى الضرورية . أما تهويل أمر العدو فيورث الفزع ويثبط العزيمة . أما تهوين أمره فيعقب الإهمال والتراخى عن مناجزته .

٢ — وإذا كتب عن الملك فى أوقات حركات العدو ، إلى أهل الثغور ليعلمهم بحركته ، فليبسط القول فى وصف العزائم وشدة الحمية للدين ، ويصف كثرة الجند ، ويدعو إلى سرعة الحركة ؛ ومعالجة العدو ، ويخيل أسباب النصر . ويوقف بعوائد الله فى الظفر ، ويبسط الآمال ويحث على اليقظة ، ويحض على المحافظة على ما بالأيدى ، ويبرز ذلك فى أبين كلام وأجله وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده عن اللين والرقة : ويبالغ فى الإنابة إلى الله تعالى ، واستنزال نصره والاعتصام فى الصبر ، والاستعانة به على العدو حتى يخذلهم ويزلزل أقدامهم . ولا يوهم ضعفا ولا خلفا ولا خوفا . . إلى غير ذلك .

٣ — وإذا كتب فى التهانى بالفتوح ، فليس إلا بسط الكلام والإطناب فى شكر نعم الله والتبرئ من الحول والقوة إلا به . ووصف ما أعطى من النصرة وذكر ما منح من الثبات ، وتعظيم ما يسر من الفتح . ثم وصف العزم والإقدام والجلد فى المناضحة عن الملك . وإذا اتسع المجال لوصف الواقعة وما جرى فيها من مناجزات وما تم فيها من انتصارات كان ذلك أفضل ، لما يدخله من السرور على قلب المكتوب إليه ، ولما يشفى من غليل نفسه ...

٤ — وإن كان المكتوب إليه متهماً بمهالأة العدو ، كتب إليه بما يدل على التقريع والتهكم ، وإبراز التهديد فى معرض الإخبار .

٥ — ومما يحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب مطلق العنان مخلى بينه وبين فصاحته ، موكولا إلى اطلاعه وبلاغته ، ما يتضمن ذكر أوصاف الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب ، وأنواع الرياضة من الصيد ورمى البندق والنشاب ولعب الكرة . ووصف الحصون والجيوش ...

٦ — ومما يحسن فيه بسط الكلام أيضاً : التقاليد والتواقيع والمناشير ، وما يتعلق بذلك . على أنه ينبغى للكاتب هنا أن يبسط أو يوجز حسب رتب المكتوب لهم وأهميتهم . وكذلك الحال فى الكتب الإخوانية .

* * *

وبعد ، فهذه بعض توجيهات الأديب الناقد ، شهاب الدين محمود الحلبى ، نضيفها إلى ما سبق من تعاليمه وآرائه الكتابية . ويبدو أنها جميعاً مشتقة من معين واحد ، وهى أن لكل مقام مقالا . وسنعود إلى ذكر هذه التوجيهات القيمة حينما نناقش آراء ابن خلدون .

* * *

وإلى هنا نكتفى بما رسمناه لاتجاهاته فى النقد وقواعد الأسلوب ، من خطوط رئيسية . ولنحث الخطو إلى الناقد النابغة ابن حجة الحموى .

الفصل الثانى

تقى الدين بن حجة الحموى[1]

٧٦٧ هـ — ٨٣٧ هـ

هو الكاتب القدير والناقد الخطير والشاعر الكبير ، منشئ الديوان الشريف ، أبو بكر على بن حجة الحموى . ولد فى حماة عام ٧٦٧ هـ — أو ٧٧٧ هـ — وطلب العلم فى بلده ، وأكب على مطالعة الأدب ، وأولع بالنظم والنثر ، ومارسهما وبرز فيهما ، حتى عد فيهما من الأعلام . واعتبره شهاب الدين بن حجر العسقلانى — وهو من هو علما وبصرا بالأدب — أديب عصره .

وتتلمذ ابن حجة ، لكثير من فضلاء عصره ، ومنهم تقى الدين بن الخيثمى ، فقيه حماة وقاضيها . وعاصر طرفا من دولة المماليك البحرية ، وصدرا من الدولة الجركسية . وطوف فى آفاق عدة ، بغية الأدب والعلم ، أو الرزق . فرحل إلى الموصل ودمشق والقاهرة . وعقدت المودة أواصرها بينه وبين كثيرين من أمراء عصره ورؤساء جيله وأدباء زمانه . ومنهم الأمير شيخ المحمودى — الذى صار سلطانا على مصر وعرف بالمؤيد شيخ — وذلك إبان إمارته على بلاد الشام . ومنهم ناصر الدين بن البارزى ، وهو أحد أبناء حماة ، وأحد أفذاذ المنشئين ، ورؤساء دواوين الإنشاء إذ ذاك .

ودار الزمان دورته ولعب مسرحيته . واعتلى الأمير شيخ كرسى السلطنة المصرية ، فاستقدم معه عددا من أصدقائه وخلصائه ببلاد الشام ، ليعاونوه على النهوض بأعباء ملكه الكبير . فكان من جملتهم ، هذان الرجلان الهمامان :

---

(١) ترجمة تقى الدين بن حجة ، فى الضوء اللامع للسخاوى ج ١١ رقم ١٤٤ ... وشذرات الذهب ج ٧ ص ٢١٩ — ومواضع كثيرة من مؤلفاته .

ابن البارزى وابن حجة ، فوكل إلى الأول رياسة ديوان الإنشاء بالقاهرة وإلى الثانى أمر الكتابة فيه . وكانا من قبل هذا يعملان فى ديوان الإنشاء بدمشق .

أخذ ابن حجة يدبج الرسائل الديوانية غير وان ، بين الآن والآن ، عن نظم الشعر فى المدح ،وفى المديح النبوى ، والإخوانيات، والوصف،والألغاز ، والشوق والحنين إلى الديار — إلى حماة مسقط رأسه .

والحق أن ابن حجة كان حركة دائبة الإنتاج كثيرة الثمر . وكان مكبا على جمع الأدب وتدوينه ، فصدرت عنه مؤلفات عظيمة القيمة ، هى جعاب فياضة مليئة بلباب الأدب ومحاضرات الأدباء ، ولفتات النقد وخلجات التاريخ .

ولكتب ابن حجة خصوصيات تميزها وتسمو بها وترفع من شأنها . ومنها تدوينه فيها كثيراً من ثمرات قلمه ونفثات يراعه ، حتى أصبحت بحق ، دواوين لأدبه من شعر ونثر . ومنها تسجيله كثيراً من أخبار معاصريه وأنداده ومراسلاتهم الشعرية والنثرية . فكانت بذلك شاهدا قيما يعين على معرفة أدبهم وسبرغوره وحسن دراسته .

ومن مؤلفاته : خزانة الأدب[1] . وثمرات الأوراق . وتأهيل الغريب . وكشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وقهوة الإنشاء وهى مجموعة مراسلاته . والثمرات الشهية فى الفواكه الحموية . . وهى مجموع أشعاره . وثبوت الحجة على الموصلى والحلى لابن حجة وهو بحث انتقادى . ومجرى السوابق وهو مقالات فى الخيل والسبق ، له ولابن نباتة وغيرهما . وتغريد الصادح . وبروق الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم . — وقد جمع ابن حجة ديوان الشاعرين : برهان الدين القيراطى . وعبد العزيز الأنصارى .

ولا مجال لنا هنا للحديث عن هذه المؤلفات وإيفائها حقها من التعريف

---

(١) خزانة الأدب طبعت أكثر من مرة . والنسخة التى اعتمدنا عليها فى هذا الحديث ، هى الطبعة الأولى التى طبعت فى سنة ١٣٠٤ هـ بالمطبعة الخيرية المنشأة بحوش عطا بجمالية مصر . وتقع فى ٤٦٧ صفحة من القطع الكبير على ورق أصفر، وبهامشها رسائل بديع الزمان الهمذانى ، وشرح عائشة الباعونية على بديعيتها.

وبيان فضل مؤلفها ، وذلك لأننا إنما نعنى هنا بناحية خاصة من نواحى ابن حجة ، وهى نقده . ولعل فيما نسوقه من ذلك غنية عن هذه المؤلفات ، أو إشارة إليها .

ويبدو أن ابن حجة ، نبابه المقام فى مصر . بعد وفاة ملكها المؤيد شيخ ، ووقع بينه وبين بعض أدبائها ما يقع بين الأدباء . فعاد إلى حماة مسقط رأسه الحبيب الذى خلد ذكره فى أشعاره وأشواقه . وتوفى[1] ابن حجة عام ٨٣٧ هـ بها .

* * *

ونرى حقا علينا، ونحن فى مقدمة الحديث عن ابن حجة الناقد ، أن ننصف هذا الرجل . فنقول : إن له «شخصية» بارزة تحسها نابضة قوية فى جميع مؤلفاته . تتجلى فى أسلوبه وغرابة أخيلته وتصوراته وفى تشبيهاته واستعاراته . وتتجلى لك فى ذوقه النقدى، وآرائه فيما ينبغى أن يتبع فى الأساليب الكتابية وغيرها ، وثباته على هذه الآراء وترديدها ، كلما سنحت فرصة . وتتجلى فى تطبيقه هذه الآراء فى أساليبه هو ، تطبيقا أدنى إلى الدقة منه إلى أى شىء آخر . وتتجلى لك فى تعصبه للطريقة الفاضلية والطريقة النباتية . وحرصه على هذا التعصب وتكرار إعلانه ، وبيان أسبابه . وتتجلى لك فى وثوقه بنفسه وأدبه ، وشيوع طربه وإعجابه بثمرات قلمه وبنات فكره . وتتجلى لك فى استقرار هذه الخصائص فى نفسه حتى نضجت على يراعته ، فشاعت فى مؤلفاته ، بل وبين سطورها ، معلنة بكاتبها . إلى غير ذلك من الألوان التى هى سمات للشخصية تحددها وتبرزها وتقرها .

ولعل أهم خصوصية من خصوصياته أنه ناقد . وحقا ، هو كاتب وشاعر ومؤلف ومؤرخ وأديب . ولكنه قبل ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، ناقد ، ركب

---

(١) روى الصابونى فى كتابه « تاريخ حماة » أن ابن حجة دفن فى حماة فى تربة الجسر . وبنى على قبره قبة بقيت جدرانها إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى . فأقام بعض الناس حجارة على لحده ، وحفر عليها أن هذا قبر الغزالى — صاحب الإحياء — والعامة تزوره الآن باسم الغزالى ويجهلون أنه قبر ابن حجة ، وأن الغزالى دفن فى طوس .

حب النقد فى فؤاده. وثبت جبلة بين جبلاته واستقر غريزة فى عداد غرائزه . ترسل نفثاتها بين سطور نظمه وتموجات قلمه ، كلما شام للنقد بارقة تستنديه ، وعارضة تستهديه ، بل تلتمس هذه البوارق التماسا ، وتستأنس هذه العوارض استئناسا . وكثير مما يسوقه من الأمثلة والشواهد ، قديمها وحديثها ، منظومها ومنثورها ، لا يسلم من خفقات لسانه أو وجبات جنانه ، ولو بلفتة طائرة ونقدة عابرة ، يكشف بها عن سر التركيب . وكنه الترتيب . ويضبط الأسلوب متلبسا بجماله متسربلا بجلاله ...

فليس من المبالغة إذن ، ما قلناه من أنه ناقد ذو شخصية . ومثله يطمئن إليه القلب ، ويهتدى بهديه اللب . ويحتكم إليه فيرتجى العدل ، ويقبل حكمه على أنه القول الفصل .

ومثله يثير — بلاريب — قلوب منافسيه من حوله ويحدث ضجة فى حياته أو يعقب رجة بعد وفاته . وهذا هو ما أثاره ابن حجة ، بنفده وأدبه .

وحقا : ترى أن ابن حجة ، تبرز روحه الناقدة ، وثابة متدفقة ، فى كتابه الكبير « خزانة الأدب » ، وهو كتاب خصص للنقد بنوعيه : الأدبى والبلاغى أو هو فى أصله ، للنقد البلاغى ، ولكن تجلت فيه نزعة النقد الأدبى تجليا قوياً فتضاءل أمام ضيائها وجه النقد البلاغى .

أما كتبه الأخرى ، كالثمرات والتأهيل ، فهى فى عامة أمرها ، محاضرات ونوادر أدبية ، أو رسائل نثرية ، أو مجموعات شعرية أو نحو ذلك . فهى أدنى إلى الدواوين منها إلى الكتب ذات النزعات الفكرية والغايات التعليمية ولكنها على الرغم من هذه الصفة البارزة فيها — تتمشى خلالها بين الآن والآن ، نزعة النقد الأصيلة المتغلغلة فى نفس مؤلفها ، أو جامعها ، تلك النزعة التى تتأبى على الخفاء ، وتختفى فيدفعها الإباء .

ومع هذا ، فسنتناول فى هذا المقام كتابه الأول « خزانة الأدب » ونحاول أن نصفه ، وأن نستخلص منه بعض آرائه الناقدة ، وقواعده الأسلوبية . وكلما

سنحت فرصة لعرض شيء من نقداته فى كتبه الأخرى ، أشرنا إليه ، دعما لحديثنا ، وإقراراً لوجهة نظرنا فى هذا الناقد .

على أنه ينبغى لنا أن ننبه على أن هناك فارقاً بين النقد البلاغى والنقد الأدبى . فالنقد الأدبى هو أهم ما يعنينا من الناقد الآن ، إذ فيه تتجلى مناهجه وآراؤه ، ويبدو ذوقه . أما البلاغى فمجموعة من الآراء الذوقية الموروثة ، أصارها البلاغيون قواعد علمية كادت تدرس لذاتها . ولا يعنينا هذا النوع من النقد ، إلا بمقدار أثره فى النقد الأدبى ، ومبلغ اعتماد النقد الأدبى على قواعده .

وابن حجة ناقد ذو ذوق ، يعرض النص ويسلط عليه مجهر نقده وذوقه ويدلى برأيه فيه فى جرأة قد يعدها البعض مبالغة . وهو يتجه تارة إلى الاستحسان وآنا إلى الاستقباح ، وفى أكثر الأحايين يكشف عن أسباب استحسانه أو استقباحه . ولا يهمه فى ذلك ، ولا يضيره أن يخالف المتقدمين أو المعاصرين .

تتجلى لك هذه النزعة منه ، فى كثير من الألوان البلاغية ، عند حديثه عنها فهو يعرضها عليك ، ويسوق التعاريف عنها منقولة عن أساطين علماء البلاغة ويسوق لها الأمثلة التى أثرت عنهم ويعقب على ذلك ، أو يمزجه بالاعتراض عليه ، أو الرضا عنه — وهو لا يرضى فى هدوء ، ولا يغضب فى دعة . بل يثور إذا رضى ويثور إذا غضب معا . يحفزه إلى ثورته ، امتلاء صدره بالأدب واستقرار النزعات النقدية فى ضميره ، مع قوتها ونصوعها . حتى إذا ما صادفت ما ترضى ثارت للامتزاح به ، وإذا صادفت ما تأبى ، ثارت للفرار عنه . . ويدعم ثورته هذه ، بشواهد جديدة ، يعزز بها نزعته ، ويقوى حجته . وكثيراً ما ينساق هو فى إيراد الشواهد إلى حد بعيد المدى . حتى يتخم القارىء ويملأ فجاج نفسه ، فيسلم له — غالبا — بما يذهب إليه .

وكتاب « خزانة الأدب » فيه نقد أدبى ، ونقد بلاغى ، كما نوهنا ، ولسنا هنا فى معرض الحديث عن النقد البلاغى بإيضاح وإسهاب ، وعرض مافيه من

نظريات فى البيان والمعانى والبديع ، إلا ما يبدو لناذا صبغة ذوقية ، لها سيادة بين نقاد العصر وأدبائه .

وبعد ، فنقد ابن حجة غير مقصور على النثر وحده ، أو الشعر وحده ، وإنما هو نقد عام ، يتناول الشعر والنثر معاً . بل ما استشهد به من الشعر ، وما نقده منه ، يربو على ما استشهد به من النثر ، وما نقده منه — لهذا لا نرى بدا من أن نسوق أحيانا شيئا من الشعر ، مما استشهد به ، اضطرارا منا إلى إبراز آرائه وأقوى العناصر وألمع المناهج فى نقده ، فليعذرنا القارئ .

خزانة الأدب وسبب تأليفه والتعريف به :

وبعد : فما كتاب « خزانة الأدب » ؟ ينبغى لنا قبل الحديث عنه ، أن نطوى بساط مائة عام تقريبا ، قبل وفاة ابن حجة الحموى . . إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وبعده بقليل ، لنشهد عصرا كان يعيش فيه : صفى الدين الحلى [١] « ٧٥٠ هـ » ، وابن جابر الأندلسى [٢] « ٧٨٠ هـ » ، وعز الدين الموصلى [٣] « ٧٨٩ هـ » .

فى هذا العصر انبثق فن شعرى جديد ، بزغ نجمه وتألق ضوؤه ، وهو فن « البديعيات » : وكان هؤلاء الشعراء زعماء حلبته ، وفرسان ميدانه — ثم قفى على آثارهم وسار فى غبارهم ، كثير من الشعراء ، ومنهم ابن حجة الحموى .

والقصيدة البديعية ، منظومة يتوخى فيها الناظم ، أن يضمن كل بيت من أبياتها لونا من ألوان البديع — أو أكثر — . وهذه هى السمة الأولى الأصيلة فى كل بديعية .

---

(١) صفى الدين الحلى هو عبد العزيز بن سرايا الطائى أحد نوابغ شعراء العصر وكتابه وشاعر الدولة الأرتقية ، مات سنة ٧٥٠ هـ « الدرر ج ٢ رقم ٢٤٣٠ .

(٢) ابن جابر الأندلسى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على ، طاف فى بلاد المشرق . وكان كفيفاً ومات سنة ٧٨٠ هـ . الدرر ج ٣ رقم ٩٠٠ .

(٣) عز الدين الموصلى هو على بن الحسين بن على من أهل الموصل ، سكن دمشق ومات بها سنة ٧٨٩ هـ . « الدرر ج ٣ رقم ٩٩ » .

وأول من نظم الشعر بهذا القيد ، هو « أمين الدين السليمانى[١] » أحد أدباء مصر ، وتوفى عام ٦٧٠ هـ . غير أن الناظر فى بديعيته التى تقع فى ٣٦ بيتا فى الغزل ، يحكم أن هذا الفن الشعرى الوليد ، كان فى بدئه لا يزال يحبو ، أو كان ذرة تتلمس لنفسها وجودا ، ولما يتفجر ما فى باطنها من حياة .

ثم انتقل ناظمو البديعيات بها إلى رعاية قيود أخرى . فمنهم من نظمها فى مدح الرسول عليه السلام . وعلى روى الميم المكسورة ، ومن وزن البسيط ، على نمط من بردة البوصيرى المشهورة متأثرين بها .

ومنهم من التزم التورية فى كل بيت باسم النوع البديعى الذى يتضمنه . ومنهم من نظمها فى غير مدح الرسول عليه السلام . وعلى روى غير روى الميم المكسورة ، كما أن منهم من لم يلتزم تسمية الأنواع البديعية .

ومهما يكن من شىء ، فبسط الحديث فى موضوع البديعيات ، ليس من نقاط حديثنا ، وإنما نمر به مروراً ، ونمسه مساً رفيقاً بمقدار ما يتطلبه التعريف بخزانة أدب « ابن حجة[٢] » .

ولهذا نشير إلى أن كثيراً من ناظمى البديعيات ، كصفى الدين الحلى ، وابن حجة ، والجلال السيوطى ، وضعوا شروحاً لبديعياتهم . كما عنى غيرهم من الأدباء بوضع شروح أخرى ، لنفس البديعيات . وخزانة الأدب هى شرح ابن حجة على بديعيته .

وشراح البديعيات غالباً لا يتحدثون فى شروحهم عن سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وإنما يتحدثون عن الألوان البلاغية والبديعية التى تتضمنها أبياتهم مقدمة بتعريفها ، مزوده بشواهدها ، ولهذا كانت تلك الشروح كتبا فى البلاغة والبديع .

---

(١) أمين الدين السليمانى . توجد ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٧٢ وبه بديعيته — راجع رسالة « الصبغ البديعى » لأحمد موسى الأستاذ بكلية اللغة العربية ، وبها بحث شامل لطيف عن البديعيات . تتبع حياتها من نشأتها إلى العصر الحاضر ، مع إبراز تطوراتها وألوانها .

(٢) راجع كتاب « المدائح النبوية » للدكتور زكى مبارك ففيه بحث طريف عن البديعيات . وكذلك تاريخ آداب العربية لمحمد بك دياب .

ولم يتعرض فيها للحديث عن السيرة النبوية — فيما أعلم — إلا أبو جعفر الأندلسى فى شرح بديعية العميان ، وهى بديعية ابن جابر .

ومهما قيل فى هذه البديعيات ، من أنها متكلفة ، وأنها ساقطة النظم ، عسرة الأسلوب ، ركيكة التراكيب . فهى — على كل حال — فن شعرى جديد ، ولد وشب وترعرع فى العصر المملوكى ، وشغل أذهان أدباء العربية حقبة من الزمن طويلة ، وأثرى العلم والأدب من ورائه ثروة لا يستهان بها ، وبخاصة من شروح البديعيات .

* * *

ومن ناظمى [١] البديعيات — كما أشرنا — هؤلاء الشعراء الأمجاد : صفى الدين ، والموصلى ، وابن جابر .

نظم صفى الدين بديعيته فى مائة وخمسة وأربعين بيتاً ، والتزم أن تكون من بحر البسيط ، وعلى روى الميم المكسورة ، معارضاً فى ذلك بردة البوصيرى ، وهى مثلها فى مدح الرسول عليه السلام . وقد ضمن كل بيت فيها نوعا — أو أكثر — من أنواع البديع ، وبذلك احتوت على مائة وواحد وخمسين نوعا ، وسماها « الكافية [٢] البديعية فى المدائح النبوية » ومطلعها :

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم واقر السلام على عرب بذى سلم

ولم يلتزم فيها تسمية النوع البديعى . ثم وضع لها شرحاً [٣] سماه « النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية .

ونظم ابن جابر الأندلسى بديعيته ، وهى كذلك شبيهة بالبردة فى الوزن والروى والموضوع ، وهو المديح النبوى ، وضمن كل بيت فيها نوعا بديعياً ، دون أن يسميه كذلك ، ومطلعها :

---

(١) يقول صفى الدين الحلى فى مقدمة بديعيته : إنه مخترع هذا الفن الشعرى . ويذهب بعض الأدباء إلى ذلك . ويذهب بعضهم إلى أن مخترعه هو ابن جابر الأندلسى ، وبعضهم يرجع اختراعها إلى أمين الدين السليمانى . راجع الصبغ البديعى ، والمدائح النبوية .

(٢) فى كتاب « تاريخ آداب العربية » لمحمد بك دياب ، أن اسمها « الكفاية البديعية » .

(٣) شرح الحلى موجز ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٩ بلاغة — وطبع سنة ١٣١٦ بالمطبعة العلمية فى ٧٣ صفحة متوسطة .

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

وقد سميت «الحلة السيرا فى مدح خير الورى». واشتهرت ببديعية العميان، وتحتوى على ١٢٧ بيتاً. ووضع لها أبو جعفر[١] الأندلسى «صديق ابن جابر» شرحاً سماه «طراز الحلة وشفاء العلة».

ونظم عز الدين الموصلى بديعيته معارضة لبديعية الحلى، وهى أيضاً على غرار البردة وزناً وروياً وموضوعاً. غير أنه التزم فيها تسمية النوع البديعى، موريا بكلمة عنه فى البيت الذى يتضمنه. ومطلع بديعيته:

براعة تستهل الدمع فى العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد سماها «الفتح الآلى فى مطارحة الحلى». وعدد أبياتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً. ووضع عز الدين الموصلى لها شرحاً سماه «التوصل بالبديع إلى التوسل بالشفيع»[٢].

* * *

عاش ابن حجة بعد هؤلاء، بنصف قرن ويزيد. فأعجب — ببديعية الحلى والموصلى، وأخذته الحمية الشعرية، والحماسة البديعية، والإباء العلمى، وحفزه ذلك كله إلى أن ينظم على غرارهما، بديعية تعارض بديعيتيهما، وتفوقهما، وأن يضع لها شرحاً يحمل شرحيهما.

وقد دفعه إلى ذلك، أيضاً، صديقه الحميم، ورئيسه فى ديوان الإنشاء، ناصر الدين محمد بن البارزى الحموى. فإنه اطلع — وهو بدمشق — على بديعية الموصلى التى نظمها معارضة لبديعية الحلى. فطلب إلى ابن حجة — وهو شاعر وقته وأديب عصره، كما قال عنه ابن حجر — أن ينظم بديعية يعارضهما بها ويلتزم فيها تسمية النوع البديعى فى البيت الذى يتضمنه. وفى بيان ذلك يقول ابن حجة فى مقدمة شرح بديعيته المسمى «خزانة الأدب»:

---

(١) أبو جعفر الأندلسى صديق ابن جابر، هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعينى الغرناطى المتوفى فى سنة ٧٧٩ هـ. توجد ترجمته فى بغية الوعاة للسيوطى. ومن شرحه لبديعية ابن جابر، نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية. بلاغة ٢٥٧.

(٢) توجد نسخة مخطوطة من شرح الموصلى لبديعية ابن جابر بدار الكتب المصرية بلاغة رقم ٦٠٧.

« هذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم ، على منوال طراز البردة . كان مولانا المقر الأشرف العالى المولوى القاضوى المخدومى الناصرى سيدى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى ، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية ، جمل الله الوجود بوجوده ، هو الذى ثقف لى هذه الصعدة ، وحلب لى ضرعها الحافل ، لحصول هذه الزبدة . وما ذاك إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلى — رحمه الله تعالى — التزم فيها بتسمية النوع البديعى . ووري بها من جنس الغزل . ليتميز بذلك على الشيخ صفى الدين الحلى — تغمده الله تعالى برحمته — لأنه ما التزم فى بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل . غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع . ولا طالت يده لإبهام العقادة ، إلى شىء من إشارات ابن أبى الأصبع . وربما رضى فى الغالب بتسمية النوع ، ولم يعرب عن المسمى . ونثر شمل الألفاظ والمعانى لشدة ما عقده نظما .

فيادارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فاستخار الله مولانا الناصرى المشار إليه ، ورسم لى بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجارى الحلى برقة السحر الحلال ، الذى ينفث فى عقد الأقلام » .

ويتبين من كلام ابن حجة شيئان :

الأول : أنه معجب — ولو إلى حد — ببديعية صفى الدين . غير أن النقص الذى تعانيه ، خلوها من تسمية الأنواع . وقد عبر ابن حجة عن هذه التسمية « بالعبء الثقيل » وهو فى ذلك صادق . !

الثانى : أنه لم يطرب ببديعية الموصلى ، ويبدو أن التزام تسمية النوع ، قد آده ، وكان عقبة دون الإجادة . وهو إلى ذلك ، اكتفى فى بعض أبياته بذكر اسم النوع البديعى ، دون أن يتضمن البيت ، مثلا لهذا النوع . وذلك ضرب من ضروب النقص ، تعانيه بديعية الموصلى أيضاً .

وقد أراد ابن حجة ، أو أراد له صديقه ، أن ينظم بديعيته بعيدة عن هذه العيوب . . . فتكون أبياتها كالسحر الحلال مجاراة للحلى ، ويتضمن كل بيت منها نوعاً بديعياً مع التورية باسمه .

شمر ابن حجة عن ساعد الجد ، وأخذ ينظم قصيدته بيتاً بيتاً . وكلما صاغ واحداً منها ، ذهب به إلى ابن البارزى يعرضه عليه ، فينقده له ويبين ما فيه من ضعف ، ويوازن بينه وبين نظيره من أبيات الحلى . فيعود ابن حجة إلى بيته يصلحه ويهذبه ، ثم يرجع إلى صديقه ، وهكذا حتى يجيزه ، فينتقل إلى بيت سواه ... وفى هذا المعنى يقول ابن حجة :

« فصرت أشيد البيت ، فيرسم لى بهدمه . وخراب البيوت فى هذا البناء صعب على الناس . ويقول : بيت الصفى أصفى مورداً وأنور اقتباس[1] . فأسن كل ماحده الفكر وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقة . فيحكم لى بالسبق وينقلنى إلى غيره ، وقد صار لى فكرة إلى الغايات سباقة . فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلى فى بيوته من الجبال . وجاريت الصفى مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال . » .

* * *

وهذا المجهود الضخم الذى تحمله ابن حجة فى سبيل نظم بديعيته ، يدلنا على مدى ما وصلت إليه هذه الصناعة — صناعة البديعيات — من إجهاد مزاوليها . وأنها — والحق يقال — شىء آخر غير الشعر . ويدلنا أيضاً على اتجاه من اتجاهات النقاد .

وقد سمى ابن حجة بديعيته « تقديم أبى بكر » وجملة أبياتها مائة واثنان وأربعون بيتاً . وتضمنت من أنواع البديع نحو مائة وأربعين نوعاً .

ثم وضع ابن حجة لبديعيته تلك ، شرحا قيما ، سُمى « خزانة الأدب وغاية الأرب » ...

---

(١) هكذا فى الأصل ، لضرورة السجع .

وابن حجة معجب كل الإعجاب ببديعيته . وله العذر فى ذلك ، فهى وليدته . وبنت فكره وفناته . أنفق عليها من نفسه وهذبها ... وكل أب بفتاته معجب .

وقد بدأ إعجابه هذا فى مواضع عدة خلال شرحه ، ومنه قوله فى باب « براعة الاستهلال[1] » .

« وأما براعة بديعيتى ، فإنها ببركة ممدوحها صلى الله عليه وسلم ، نور هذه المطالع . وقبلة هذا الكلام الجامع . فإنى جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء . بالشرط المقرر لكل منهما . وأبرزت تسمية نوعها البديعى فى أحسن قوالب التورية . وشنفت بأقراط غزلها الأسماع . مع حشمة الألفاظ وعذوبتها ، وعدم تجافى جنوبها عن مضاجع الرقة .

وبديعية صفى الدين ، غزلها لا ينكر . غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعى ، مورى به من جنس الغزل . ولو التزمه لتجافت عليه تلك الرقة . وأما الشيخ عز الدين الموصلى ، فإنه لما التزم ذلك . نحت من الجبال بيوتاً . وقد أشرت إلى ذلك فى الخطبة ، بقولى : وهى البديعية التى هدمت بها ما نحته الموصلى فى بيوته من الجبال . وجاريت الصفى مقيداً بتسمية النوع ، وهو من ذلك محلول العقال . وسميتها « تقديم أبى بكر » عالماً أنه لا يسمع من الحلى والموصلى فى هذا التقديم مقال . » .

وأنت تراه يشيد بمنظومته ، ويعلى من قدرها ، فوق منظومتى الحلى والموصلى ، ويتلمس لهما العيوب حتى تخليا الطريق أمام منظومته .

ومن عجيب نقده ، قوله فى العبارة السابقة ، عن الصفى الحلى — بعد أن اعترف برقة غزله — : « لو التزم الحلى تسمية النوع البديعى » لتجافت عليه هذه الرقة ... » وهذا نقد من ابن حجة غريب فى بابه . إنه يستعين بالرجم بالغيب ، على دعم رأيه . . ولكنها عاقبة الخيلاء ! !

وإذا كان قد أعجب ببديعيته ، فإن شرحها وهو « الخزانة » ، أحق بإعجابه وأولى . فهى أوسع شروح البديعيات على الإطلاق — فيما نعلم — وكان من

(١) الخزانة ص ١٣ .

المستطاع أن تكون كتابا فى علوم البلاغة ، ويعرف فيه أنواعها . ويحدد كل نوع ، ويستعين بالتقسيم وتميز كل قسم ، إلى غير ذلك . ويضع كلامه فى عبارة علمية منطقية جافة محدودة الألفاظ مجدبة من خصوبة الأدب . وربما اكتنفتها الغموضة ، وآدها الإبهام . ثم يستشهد على النوع بمثل أو أكثر من الأمثلة التقليدية ، فى غير إطالة ولا شرح ولا استطراد ولا موازنة ، ولا تذوق ، على نمط من السكاكى والقزوينى . — لو فعل ابن حجة ذلك ، اضربنا الذكر صفحا عنه. وعن كتابه هذا ، ولوجدنا فى غيره غنية أى غنية ، ولكانت « خزانته » طبعة جديدة من كتب البلاغة التى تقدمتها ، ولما راعنا منها ما راعنا .

ولكن ، من حسن الحظ أن أراد ابن حجة فيما نعتقد ، أن يعيد للنقد نضارته ، ويرد على البلاغة رواءها ، وأن يجرى فى أعوادها ماء الأدب ، بعد ذلك الجدب والجفاف الذى ابتليت به ، وأن يعيدها مرة أخرى إلى مثل زمان عبد القاهر الجرجانى وغيره ، ممن يفهمون البلاغة فهما أدبياً عماده الذوق ؛ لا فهما ذهنياً عماده المنطق .

فمن حسن الحظ إذن ، أن ابن حجة ندّ عن منهج السكاكى فى طريقة تأليفه ، وإن اصطنعه . وشذ عنه وإن اتبعه ... ذلك أنه كما أخذ بديعيته وسيلة إلى الشرح — لأن الشرح أهم منها — اتخذ المنهج العلمى المأثور ، مطية يعتمد عليها فى الوصول إلى غاياته ، وبلوغ مآربه . وما أجدره أن يكون سباق غايات ، وبلاغ مآرب ... اتخذه أداة لإبراز لفتاته وثقبات ناظره ، وإظهار نقداته وسنحات خاطره . ووسيلة لإظهار ما فى صدره وعرض مذخور محفوظه ونفيس آدابه ، بين موازنات طلية ومفاضلات ممتعة . غير مقتصر على أديب دون أديب ، ولا على عصر دون عصر . لهذا ترى نفسك ، وأنت تقرأ سفره القيم ، جواب أودية وشهاد أندية ، طابت مجانيها وزهت معانيها ، تدنو قطوفها وإن اختلفت ثمراتها .

وهو لا ينى يتبع المثال بنقدة لطيفة أو تعليقة طريفة ، أو توجيه رائع

أو رَدٍّ قاطع . بما يشعرك أنك إزاء أديب ذواقة نقادة ، لا عالم مشغوف بالتقليد والإعادة . على أنه — إلى هذا — ملأ كتابه بأخبار النقد والناقدين القدماء ، ناقلا عنهم أطايب نقداتهم ، وأمثل شواهدهم وأجود أجوبتهم ونوادرهم .

وما عليك إلا أن تجمع تعريفاته البلاغية . ومعها المثل أو المثلان ، ثم تنحيهما جانبا عن بقية الخزانة ، لتبدو لك بقيتها مسرحا وضيئا متألقا ، مليئا بجولات الأديب الذى فاضت صوره بالأدب اللباب . وسنح خاطره بالنقدات العذاب . وفيها ما فيها من حسن اختيار ، وسهولة عرض ، ودقة تتابع ، وجمع للمتفرق المتقارب .

ولم يبالغ صاحب « كشف الظنون » حين أثبت فى كتابه . شهادة طلية ، شهدها ابن حجر العسقلانى يصف بها ابن حجة وخزانته ، إذ قال :[1]

« شرحها شرحا مفيداً . وهو مجموع أدب قل أن يوجد فى غيره . ولعل مقتنيه يستغنى عن غيره من الكتب الأدبية . ولو لم يكن فيه إلا جودة الشواهد لكل نوع من الأنواع ، مع ما امتاز به من الاستكثار من إيراد نوادر العصريين فإن مصطنعه مرتفع عن كلفة العارية . وهذا وحده مقصود لكل حاذق » .

ومن الحق علينا له ، أن نسجل عنايته البالغة بأدباء زمانه . وإذا أردت الدقة ، فبطبقات الأدباء من لدن عصر القاضى الفاضل إلى عصره . أو على الجملة بأدباء العصرين الأيوبى والمملوكى إلى عهده . ولعل منشأ ذلك ولوعه بطريقة القاضى الفاضل وابن سناء الملك ، وابن نباتة المصرى ، وبرهان الدين القيراطى — وهم أئمة الأدب كتابة وشعرا من قبله . فمن حق التابعين لهم ، المعتنقين لمذاهبهم — ومنهم ابن حجة — أن يكون لهم نصيب من خزانة أدبه كبير ، وقسط وفير . وقد خص الشعراء منهم والشعر ، بأوفى حظ وأرحب نصيب . لذلك كانت خزانته مجلى للخفى الطلى من أشعارهم ، وسجلا للضال المنسى من أخبارهم . فضلا عن المغمورين منهم والمنكورين الذين أضفى عليهم وجودا وشهرة .

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ١٩٠ .

على أنه لم يحرم من ضل من الأدباء عن مذاهب هؤلاء الأئمة ، وسلك سبيلا أخرى ، كصلاح الدين الصفدى الذى جن بالجناس جنونا ، واتبع فيه طريقا لم ترق لكثيرين ، ومنهم ابن حجة . لهذا كان هدفا طيبا لحملاته ، ومطاً متعرضاً لخفقاته . وردد ذكره فى الخزانة مرات عدة .

ولا نذهب بعيدا إذا قلنا إن ابن حجة الحموى ، بخزانته هذه ، يعد خاتمة الأدباء الذين انتهى إليهم فن الأدب والنقد إلى عصر النهضة الأدبية الحديثة .

ولقد بان لنا فى سياق ما سبق ، شىء من منهج ابن حجة فى شرحه . وبعض من طريقته التى سلكها فى خزانته . وهى تتلخص فى أنه يعرض أبيات بديعيته تباعا ، وكلما عرض بيتا منها ، نبه على النوع البديعى الذى يتضمنه ، وأورد تعريفا له فيه كثير من الوضوح ، غير مقيد دائماً فى أدائه بعبارات أهل البلاغة . وإذا كانت مذاهب البلاغيين مختلفة فى هذا النوع الذى هو بصدده ، وضح هذا الاختلاف وأدلى برأيه فيه بين الآراء . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن ابن حجة واضح النقل والتأثر بمن تقدمه من البلاغيين ، ومنهم : ابن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، والجرجانى ، والرمانى ، وابن رشيق القيروانى ، وزكى الدين ابن أبى الأصبع ، وغيرهم .

وهو يورد أمثلة للنوع البديعى ، كثيرة العدد ، لشعراء ومنشئين مختلفين ، ومن بينها أمثلة من شعره ونثره . ويمهد لكل مثل ، أو يعقب عليه — غالبا — بكلمة يتضح فيها رأيه فيه ، مبينا وجوه حسنه أو قبحه . هذه هى الطريقة المثلى لشحذ الذوق وتربية الملكة فى الناشئة . — حتى إذا أشبع ذهن القارئ ونفسه عاد إلى بيته فى بديعيته ، وبين هذا النوع البديعى فيه ، مبرزا مزاياه ، وقدرته هو فى نظمه وحسن سبكه . ويمنح نفسه — عادة — شيئاً من الثناء والتقريظ . عارضاً فى خلال هذه الموجة التى يزحم بها القارئ ، البيتين المقابلين لبيته من بديعيتى الحلى والموصلى ، — وربما من بديعية ابن جابر — مبيناً اتضاعهما عن بلوغ منزلة بيته . وقصورهما عن التطلع إلى قصوره !.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن ابن حجة أسهب فى الحديث عن بعض

الأنواع ، وأجاد فى عرضها وسوق أمثلتها المختارة ، أكثر من سواها . ومنها على سبيل المثال — براعة الاستهلال ، والتورية والجناس ، والسجع ، والطباق والإبداع « التضمين » — ومن الأنواع التى أوجز الحديث عنها : ذكر الإرداف ، والتمسهيم والتطريز والتنكيت .

وقبل أن نعرض عليك شيئاً من آراء ابن حجة « وأمثلة من نقده ، وجانباً من جوانب مذهبه فى أسلوب الشعر والنثر ، نشير إلى أن علوم البلاغة فى منشئها ، كانت ممتزجة بعضها ببعض إلى حد بعيد . بل كانت ممتزجة بغيرها من العلوم . ولما تتضح معالمها وتبرز أوضاحها . كانت وليدة تحبو فى مهدها ، وطفلة تدرج نحو رشدها . وفطن ابن المعتز وقدامة بن جعفر إلى ألوان من البديع ، لم تفترق عن أى لون من ألوان البلاغة ، فى أنها كانت أدوات لإبراز المعانى وتوضيحها وتقويتها ، وإبلاغها حد التأثير . وظلت ألوان البلاغة على هذا الحال — فى جملتها — من الامتزاج وعدم التفرقة حتى جاء السكاكى وألف كتابه « مفتاح العلوم » ، وقصر فيه البلاغة على علمى المعانى والبيان ، واعتبر البديع مكملا لهما يعينهما على تحسين الكلام . وبذلك بدأ البديع يستقل عن زميليه ... وأخذ — فى عرف علماء البلاغة لا الأدباء — يعتبر شيئاً آخر غيرهما . وقفى الخطيب القزوينى على أثره . فأتم فصل البديع عن زميليه ، وجعله ذيلا لهما ، وعرفه فى كتابيه « التلخيص والإيضاح » بأنه « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة » .

والملاحظ أن أغلب أصحاب البديعات وشراحها ، قد ردوا للبديع اعتباره؛ بل أطغوه على زميليه علمى المعانى والبيان ، حتى انطويا تحت لوائه ، وأصبح مرادفا للبلاغة فى نظرهم . وكأنما هذا رد فعل فى نفوسهم لما أصاب البديع على يد علماء البلاغة من تهوين . إذ البديع — كما يرونه — مزاج أدبهم وقوام فنهم ، وروح شعرهم ونثرهم . حتى دفعهم حبه وحب الافتنان فيه إلى اختراع البديعيات التى هى بين الشعر بمنزلة المقامات بين النثر . فلا عجب أن لفوا ألوان البلاغة كلها فى طيلسان البديع .

ويقول صفى الدين الحلى فى مقدمة بديعيته ما مؤداه :

« إن موجب نظمها أنه أراد أن يؤلف كتابا يحيط بجل أنواع البديع ، فعرت له علة طالت مدتها واشتدت شدتها ، فاتفق أنه رأى فى منامه رسالة من النبى صلى الله عليه وسلم ، يتقاضاه المدح ويعده البرء من سقمه . فعدل عن تأليف ذلك الكتاب ، إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع وتتطرز بمدح مجده الرفيع ، فنظم قصيدة عدتها مائة وخمسة وأربعون بيتا فى بحر البسيط ، تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن البديع . . . الخ » .

فأنت تراه يعتبر جميع الأنواع البلاغية التى وردت فى بديعيته ، من أنواع البديع ، ولا ريب أن فيها ألوانا من المعانى والبيان .

وعلى هذا الغرار كان ابن حجة فى بديعيته وشرحها . فهو ممن ردوا على البديع اعتباره ، وأجروا فى أعواده مياه حياة جديدة حافلة . ولا سيما بهذا الشرح الكبير ، والخزانة الواسعة المليئة .

ويبدو أن الحلى وابن حجة ، ومن يذهب مذهبهما فى ذلك ، فهموا البلاغة فهما مرادفا لما فهموه فى البديع . إذ هما وسيلة من وسائل إظار المعانى وأدائها فى صورة واضحة دالة رائعة مناسبة للمقام .

ولا يطعن فى هذا ما بدا من ابن حجة ومن غيره من أصحاب البديعيات ، من تكلف شديد فى نظمها ، ومن تحيل شاق فى سوق البديع وألوانه فى بيوتها . فإننا — فى هذا المقام — ننصرف عن البديعيات إلى شروحها .

ولا ينقض هذا أيضاً ما ذكره ابن حجة فى تعريف البلاغة[1] حيث قال :

« إن المراد من علم الإنشاء ، البلاغة فى المقاصد . والبلاغة هى أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده مع إيجاز بلا إخلال ، وإطالة من غير إملال » .

ولا ينقضه أيضاً ماقاله عن البديع[2] فى سياق حديثه عن وجاهة الاستشهاد بكلام المولدين ، حيث قال :

---

(١) الخزانة ص ٤٣٤ فى سياق باب السجع .

(٢) الخزانة ص ٥ باب براعة الاستهلال .

« إن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد . وهنا بحث لطيف . وهو أن الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ، ليس فيه نقض . لأن البديع أحد علوم الأدب الستة . وذلك أنك إذا نظرت فى الكلام العربى ، إما أن تبحث عن المعنى الذى وضع له اللفظ ، وهو علم اللغة . وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه ، وهو علم التصريف . وإما أن تبحث عن المعنى الذى يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم ، وهو علم العربية . وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوى ، وهو علم المعانى . وإما أن تبحث عن طرق دلالة الكلام ، إيضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية ، وهو علم البيان . وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام ، وهو علم البديع .

فالعلوم الثلاثة الأول ، يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثرا . لأن المعتبر فيها ضبط ألفاظهم . والعلوم الثلاثة الأخيرة ، يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم ، لأنها راجعة إلى المعانى ، ولا فرق فى ذلك بين العرب وغيرهم . إذا كان الرجوع إلى العقل » .

فأنت تراه فى عبارته السابقة — وقد انساق مساق العلماء فى التقسيم والمفاضلة ، والتعريف ، والحد — قد رضخ للكثير المتواضع عليه بين متأخرى البلاغيين . ففرق بين البديع وزميليه . وبين أن لكل منها وجهة هو موليها . ولكنك إذا طالعت خزانته وانساب ذهنك وذوقك مع انسياب سطورها ، تبدى لك صدق ما قلناه ، من أن ابن حجة — على غرار أهل البديعيات — يخضع جنود البلاغة تحت راية البديع ، ويحشدها حشداً فى رحابه . وعلى الأقل يعتبر ألوان البديع ، ألواناً بلاغية تساق كما يساق غيرها لرعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، لا بعدهما . أو ليس مما يؤيد ذلك تمام التأبيد قوله عن الاستعارة .

« ليس فى أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت فى مواقعها »[٣]

---

(٣) الخزانة ص ٤٧ باب الاستعارة .

وبعد ، فخزانة الأدب معرض رائع صريح لابن حجة الناقد . تحدث فيها عن نحو مائة وخمسين لوناً بلاغياً أو بديعياً ، حديث الأديب الذواقة ، لا العالم المحدود . وتكأته فى ذلك ، أبيات بديعيته . وهدف موازنته أبيات بديعتى الحلى والموصلى ، وأحيانا بديعية ابن جابر .

وقد أشرنا إلى منهجه فى العرض ، فهو يعرف اللون البلاغى مبيناً الآراء المختلفة فيه ، مصرحاً برأيه الشخصى داعماً بالأمثلة والشواهد ، معقباً أو محللا أو معللا فى كثير من الأحيان .

وإليك سطوراً مما استهل به كلامه عن « الاستعارة » على سبيل المثال ، قال : « الاستعارة عندهم أفضل من المجاز . وهى أخص منه . إذ قصد المبالغة شرط فى الاستعارة دون المجاز ، وموقعها فى الأذواق السليمة أبلغ . وليس فى أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت مواقعها .

وللناس فيها اختلاف كثير . وأما أصحاب المعانى والبيان ، فإنهم أطلقوا فيها أعنة أقلامهم . وجالوا بها فى ميادين البحوث . وليس الغرض هنا إلا نفس لاستطراد إلى ما وقع منها من المحاسن نظما ونثراً ، بعد تقريبها إلى الأذهان بحدود يزول بها الالتباس .

حد « الرمانى » الاستعارة فقال : « هى تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل » .

وذكر الخفاجى كلام الرمانى ، وقال : « تفسير هذه الجملة ، قوله عز وجل : واشتعل الرأس شيبا » استعارة لأن الاشتعال للنار ، ولم يوضع فى أصل اللغة للشيب . فلما نقل إليه بأن المعنى لما اكتسبه من التشبيه . لأن الشيب لما كان يأخذ من الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التى تسرى فى الخشب حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة . فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة فى الوضع ، للبيان » .

واستطرد ابن حجة فى عبارته حتى قال :

« وقال ابن أبى الإصبع فى « تحرير التحبير » هى نقل اسم الراجح إلى

المرجوح بطلب المبالغة فى التشبيه وحسن البيان . فإنك إذا قلت : « زيد أسد » فقد نقلت اسم الأسد لزيد . لكن الأسد راجح فى الجراءة ، وزيد مرجوح . وقد بالغت فى تشبيه زيد بالأسد وأحسنت البيان » .

ثم عقب ابن حجة على ذلك بقوله :

« ولا تحسن الاستعارة إلا إذا كان التشبيه مقررا . وكلما زاد التشبيه خفاء ، زادت الاستعارة حسنا . وما أحسن قول ذى الرمة هنا :

أقامت بها حتى ذوى العود فى الثرى وكف الثريا فى ملاءته الفجر

فاستعار للفجر ملاءته . وأخرج لفظه مخرج التشبيه . وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه الاستعارة . فإن ظهور الأنوار من المشرق من أشعة الشمس قليلا قليلا ، بينه وبين إخراج النفس مشابهة شديدة القرب . ومن هذا النور استضاء الحريرى فى مقاماته بقوله : « إلى أن عطس أنف الصباح » .

وقد تقدم أن بعد الاستعارة يبعد من القلوب ، عند أهل الذوق . كقول أبى نواس — مع يقظته .

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

فأى شىء أبعد استعارة من صوت المال؟ وكيف يصيح ويبح من الشكوى؟ ومثله قول بشار .

وحدت رقاب الوصل أسياف هجرنا وقدت لرجل البين نعلين من خدى

* * *

ونلاحظ أن ابن حجة اكتفى فى الاستعارة ، بالحديث العام عنها ، دون العناية بالدخول فى تفصيلاتها وبيان أقسامها ، وميزات كل قسم ، إلى غير ذلك . غير أنه أجاد فى عرض النماذج وفى التعليق عليها ، مع حسن اختيارها .

* * *

وبعد ، فالخزانة معرض حافل — كما أشرنا — ولن نستطيع فى مقام كمقامنا هذا ، أن نستعرضه كله لسعة مداه وبعد أفقه . وسنكتفى بطوفة يسيرة ،

تناسب هذا البحث، واقفين عند آراء ابن حجة فى أهم مظاهر الأسلوب وصفاته. وحسبنا أن نستطيع استخلاص جملة منها، تكوّن مذهبه فى النقد ومنهجه فى الإنشاء. ولم نعن عناية كبيرة بما يختص منها بالشعر، لضعف صلته بالنثر. ولهذا نلم به إلماما.

بعض آراء ابن حجة:

ينبغى لنا أن نستهل حديثنا هنا، بالتنبيه على أن أول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة خزانة الأدب وغيرها من مؤلفات ابن حجة ومنشآته، أن البديع وألوانه، فى جملتها قد استهوت لبه، وفتنت قلبه، وملكت عليه عنان قلمه، وزمام لسانه، وأصبحت مزاج ذوقه وقوام ملكته. وذلك بتأثير النشأة والبيئة والثقافة الموروثة، والاتجاه الأدبى العام الموجه استطرادا بفعل الاتجاهات الأدبية التى سبقته فى أجيال متقدمة، عاش فيها آباء البديع وحاضنوه وقوّمته وعشاقه، الذين جهدوا فى مده بأسباب الحياة علما وعملا.

على أن جميع ما كان يحيط بعصر ابن حجة، كان يدعو صارخا إلى رعاية الزخرف فى القول، والبهرج فى اللفظ، وإلى إرسال العبارات محلاة مزدانة لتتجانس الأساليب بزخارفها وبهارجها، مع زخارف بيئتها وبهارج عصرها.

وكانت الثقافة دينية فى جملتها، فلم يعجز أدباء البديع عن أن يجدوا نماذج لاحد لها فى القرآن الكريم وآياته المتعددة النظم، يدعمون بها ألوانهم ويجلونها. بل نعتقد أن هذا النظم المتعدد المسالك كان فى مقدمة ضروب الوحى التى وجهت الأدباء والنقاد إلى هذه النزعات البديعية. على أن هذا التوجيه القرآنى، ليس وليد العصر المملوكى، وإنما ولد قبله بزمن طويل.

لهذا ترى أن النهج الغالب على ابن حجة هو النهج البديعى فى جملته، بل هو متعصب له، داع إليه، ممجد لزعمائه السابقين ناشر لآياتهم، مقرظ لنفثات أقلامهم. وأخصهم لدى ابن حجة: القاضى الفاضل وجمال الدين بن نباتة المصرى، ومن لف لفهما من أدباء البديع. وذلك لتوافق منهجه مع منهجهما فى الشعر والنثر. وكثيراً ما كال لهما المديح كيلا، ونعتهما بأحسن ما يستحقان من الأوصاف.

ومما قال عن القاضي الفاضل : « قاضي هذه الصناعة وفاضلها . والمتأخر الذي لم يتقدم عليه بغير الزمان أوائلها[1] » .

ومما قال عن جمال الدين بن نباتة ، وقد نوه بقصيدته البارعة التي يهنئ بها الأفضل سلطان حماة سلطنته ويعزيه أيضاً في موت أبيه ، والتي مطلعها :

هناء محاذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

قال : إنها من عجائب الدهر ، فإنه جمع فيها بين نقيضين : المدح والرثاء ، في كل بيت . . »

ثم قال : « سبحان المانح . والله من لا يتعلم الأدب من هنا ؛ فهو من المحجوبين عن إدراكه »

وأمثال هذه الأقوال في خزانته كثيرة .

نرى من هذا وذاك أن نزعة البديع هي الصبغة الغالبة التي لونت منهج ابن حجة . ونحاول فيما يلي بيان شيء من تفصيلاتها وخصوصياتها فنقول :

رأيه في براعة الاستهلال :

يرى ابن حجة — كما يرى المتقدمون من أهل البديع — أن الكلام ينبغي أن يكون مطلعه واضح المعاني رقيق الألفاظ ، سهلا بعيداً عن الخشونة والغموض مستقلا في معناه عما بعده . وهذا هو ما يسمى براعة الاستهلال ؛ أو حسن الابتداء .

ويفرق بعضهم بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء ؛ فيعتبرها فرعا منه ويشترط فيها — أي في براعة الاستهلال — أن تتضمن « إشارة » تدل على موضوع الكلام ومضمونه .

ويكون حسن الابتداء ، أو براعة الاستهلال ، في الشعر والنثر على السواء . وينبغي للمتكلم أن يراعي حينئذ المقام الذي يلقي كلامه فيه . وما في هذا المقام من مناسبات وملابسات ، حتى لا تند عباراته عن مقتضياتها .

---

(١) الخزانة : باب براعة الاستهلال . ص ٥

وإذ كان الكلام شعراً ، ينبغى ألا يتفاوت قسما مطلعه فيما يتضمنانه من المعانى . وفى ذلك يقول ابن حجة :

« اعلم أنه اتفق علماء البديع ، على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة المعانى واضحة فى استهلالها ، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة ، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصا عند السماع ، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن ، ومطلعها مع اجتناب الحشو ليس له تعلق بما بعده .

وشرطوا أن يجتهد الناظم فى تناسب قسميه ، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيا من شطره الثانى .

وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال ، حسن الابتداء . وفى هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع . وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشىء من حسن الابتداء — وأورد فى هذا الباب قول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

قال زكى الدين بن أبى الأصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار . فإنى أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرئ القيس حيث قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فرأى ابتداء امرىء القيس على تقدمه وكثرة معانيه ، متفاوت القسمين جداً . لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعانى . وليس فى الشطر الثانى شىء من ذلك . وعلى هذا التقدير ، مطلع النابغة أفضل من جهة ملاءمة ألفاظه وتناسب قسميه . وإن كان مطلع امرئ القيس أكثر معانى . وماعظم ابتداء امرىء القيس فى النفوس إلا الاقتصار على سماع صدر البيت . فإنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت . وإذا تأمل الناقد البيت بكماله ظهر له تفاوت القسمين .

وقال — أى ابن أبى الأصبع — إذا وصلت إلى قول البحترى من هذا الباب ، وصلت إلى غاية لا تدرك وهو قوله :

بودى لو يهوى العذول ويعشق ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق »

ثم قال ابن حجة ، بعد أن أورد أمثلة وشواهد لا عدد لها ، مع التعقيب على بعضها : «وقد اتفق علماء البديع على أن عدم تناسب القسمين نقص فى حسن الابتداء » .

ثم قال بعد عدة شواهد :

« وكذلك من مطلع الشيخ صفى الدين الحلى فى قصيدته الجيمية ، التى هى من جملة القصائد الأرتقيات التى امتدح بها الملك المنصور صاحب ماردين :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج فعطرت سائر الأرجاء بالأرج

فالشطر الثانى ليس من جنس الشطر الأول . فإن الشطر الأول فى الطريق الغرامية ليس له مثيل ، ومن أنكر هذا النقد ينظر فى مطلع الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض ، قدس الله سره ، فإنه فى هذا الباب طرفة . وهو :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج »

ثم قال أيضاً :

« وبالنسبة إلى حسن الابتداءات : مطلع الشيخ برهان الدين القيراطى ، مع حسنه وبهجته ، فيه نقص . وهو :

قسما بوردة خدها ونباتها وبآسها المخضل فى جنباتها

فإنه لم يأت بجواب القسم ، ولا ما يحسن السكوت على مطلعه ، ولا تتم الفائدة إلابه . ومشايخ البديع قرروا ألايكون المطلع متعلقاً بما بعده من حسن الابتداء .. » الخ . . .

وقال :

« وقد فرع المتأخرون منه — يعنى حسن الابتداء — براعة الاستهلال فى النظم والنثر ، وفيها زيادة على حسن الابتداء . فإنهم شرطوا فى براعة الاستهلال أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بُنيت عليه ، مشعراً بغرض

الناظم من غير تصريح ، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها فى الذوق السليم . ويستدل بها على قصده ، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو . وكذلك فى النثر ، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ، كان من فرسان هذا الميدان . وإن لم يحصل له براعة الاستهلال ، فليجتهد فى سلوك ما يقوله فى حسن الابتداء .

وما سمى هذا النوع براعة الاستهلال إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به . ورفع الصوت فى اللغة هو الاستهلال . يقال استهل المولود صارخاً إذا رفع صوته عند الولادة . . » الخ .

ثم تكلم عن براعة الاستهلال فى النثر . فقال :

« وأما عبارات النثر ، فإنها مثلها . إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة ، أو صدر الكتاب المصنف ، دالة على غرض المنشئ ، وإلا فليست براعة استهلال .

وقد رأيت أغلب البديعيين قد اكتفوا عند استشهادهم على براعة الاستهلال فى النثر ، بقول الصاحب عمرو بن مسعدة ، كاتب المأمون . فإنه امتحن أن يكتب للخليفة يخبره ، أن بقرة ولدت عجلا ، وجهه كوجه الإنسان . فكتب : « الحمد لله الذى خلق الأنام فى بطون الأنعام » .

ورأيت الشيخ صفى الدين فى شرح بديعيته ، قد ألقى عند الاستشهاد بها عصا التسيار ، واحتجبت عنه فى هذا الأفق ، الشموس والأقمار . أين هو من علو مقام القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وقد كتب عن السلطان الملك الظاهر ، إلى الأمير سنقر الفارقانى ، جوابا عن مطالعته بفتح سوس من بلاد السودان . واستهل بقوله :

«وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة» . الله أكبر ، إن من البلاغة لسحراً . والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب ، اتفق لناثر . ولا هلال كاتب المأمون فى هذا الاستهلال بزاهر . وهذا المثال الشريف ليس له مثال ، ومنه :

« صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى تثنى على عزائمه التى دلت على كل أمر رشيد . وأتت على كل جبار عنيد . وحكمت بعدل السيف فى كل عبد سوء وما ربك بظلام للعبيد » .

وأخذ ابن حجة يورد أمثلة لبراعة الاستهلال فى النثر ، معقباً عليها . ونقتطف منها شيئاً من إنشاء العصر المملوكى :

قال ابن حجة ما مؤداه :

« وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى « بخبز الشعير ، فإنها خاص الخاص[1] » .

وقد استهل خطبته بهذه الآية القرآنية الشريفة : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » .

وهو استهلال بارع حقاً . فمع الاقتباس وعدم تغيير شىء من لفظ الآية ، تحولت للمناسبة إلى معان مستفادة منها . « فدخل » تشير إلى سرقة الصفدى منه . و « بيتى » تشير إلى البيت من الشعر . . وطلب المغفرة يشعر بعظم الذنب . والآية فيها معنى التهكم والسخرية هنا . وفى هذا كله مايشعر بموضوع الكتاب .

وقد علمنا من قبل ، أن كتاب « خبز الشعير » ألفه ابن نباتة ليبين فيه سرقات الصفدى من شعره .

ومن استهلالات فخر الدين بن مكانس البارعة ، قوله فى مطلع رسالة بعث بها إلى صديقه زين الدين العجمى أحد كتاب ديوان الإنشاء ، يتبرأ فيها من وشاية ويؤكد له وفاءه . — وكان قد وشى بينهما عبد الله القيروانى الضرير — أحد الوافدين من الأندلس ، ومن متعاطى الشعر — فقال فخر الدين فى مطلع رسالته : « ليس على الأعمى حرج » . وقد عقب ابن حجة عليها بقوله : « إنه يستغنى بهذه البراعة عن الرسالة » .

---

(١) هذا التعبير كنا نسمعه فى أفواه العوام إلى عهد قريب ، ويريدون به أنقى أنواع الخبز . فلعله كان يستعمل بنفس المعنى فى أفواه العامة أيام ابن حجة ، وعلى هذا يكون هو فى استعماله بارعا فى استهلاله ، لمناسبة المعنى لخبز الشعير ...

ومن استهلالات ابن نباتة فى رسالة السيف والقلم ، قوله على لسان القلم لما انتصب مفاخراً السيف : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون » . واستهل بعده أيضاً بقوله : « الحمد لله الذى علم بالقلم وشرفه بالقسم » .

وبراعة استهلال السيف قوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره بالغيب ، إن الله لقوى عزيز » . واستهل بعده بقوله : « الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . وشرع حدها فى ذوى العصيان فأغصتهم بماء الحتوف » .

وقد عقب ابن حجة على استهلالات ابن نباتة بقوله :

« وما أظن أن أحداً من المتقدمين نسج على هذا المنوال . ولا نفث فى عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال » .

وقد حمل ابن حجة على بعض الاستهلالات ، لأنها لم تف بالشروط المقررة للبراعة . أو لأنها لم تناسب المقام الذى ألقيت فيه . ومن ذلك خطبة الخطيب المشهور عبد الرحيم بن نباتة جد جمال الدين الشاعر — وكان يعيش فى زمن سيف الدولة الحمدانى . فإنه استهل خطبته فى ذكرى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « الحمد لله المنتقم الجبار ممن خالفه . المهلك من آسفه » ! — قال ابن حجة : « وأما براعة خطيب الخطباء أبى يحيى عبدالرحيم بن نباتة الفارقى فإنها شغلت أفكارى مدة . ولم يسعنى غير السكوت والإحجام عنها » . وقال : « ولقد اعتذر عنها جماعة من أكابر العلماء » . . الخ .

* * *

هذه الأمثلة قل من كثر ، مما أورده ابن حجة شاهداً على براعة الاستهلال . وقد بدت شروطها التى ينبغى للأديب توخيها فيها . كما بدا أيضاً ذوق ابن حجة فى حسن اختيار أمثلتها ، ودقته فى التعقيب عليها .

وبراعة الاستهلال — فى الحق — لون معنوى دقيق ، يدل على ذوق أدبى

أصيل . وهى تشبه عنوان المقال إلى حد . وإن أنسب ما يفتتح به الأديب مقاله ، عبارات تتسق وموضوع المقال ، وتشير بمعانيها إلى متضمناته . وتناسب ألفاظها مراميه ، لتكون بذلك مفتتحاً حسناً يمهد لما يأتى بعده ، ويعبد الطريق للوصول إليه والارتباط به ، فى غير كلفة ولا مشقة . والقارىء مثلا يحب أن يستشف غيب ما يقرأ من مطلعه ، ويستوحى مكنون معانيه وآتى صوره . والمطلع ببراعته يجذبه إلى ما بعده به ، ويشهيه إليه ، ويوثق به صلته . والمطلع — كيفما كان — يقر فى نفس قارئه معانيا ما ، وتصورات ما ، فيتوقع أن يكون ما بعده على مثال منه . وفيه توضيح لما اكتنز فيه . فإذا وافت المعانى بعد المطلع بما يوافق معناه · اطمأنت نفسه لدقة فراسته وصدق حدسه . ولتلاقى المعانى المتجانسة فى نفس القارئ رضا ، يعينه على حسن قبولها والانتفاع بها . أما تنافرها فله رجع فى نفسه سيء ، وصدى يترك فيها قلقاً ونفوراً . وهكذا ترى أن براعة الاستهلال محسن معنوى تتطلبه الحال ، فهو من البلاغة فى الصميم .

* * *

رأيه فى الجناس :

الجناس توافق لفظين فى حروفهما ، مع اختلاف فى المعنى . وهو أنواع كثيرة ابتكرها أو فطن إليها أدباء البديع . ومنها نحو اثنى عشر نوعا ، تعرض ابن حجة فى خزانته لتعريفها وتوضيحها وبيان الفوارق بينها ، مع التمثيل بالشواهد المختلفة لكل منها . ومنها الجناس المركب ، والمطلق ، والملفق .. إلخ .

ولسنا بصدد الحديث عنها ولا عن تعريفها والتمثيل لها . ولكننا نستجلى رأى ابن حجة فى الجناس بعامة . ولا سيما أن الجناس كان ولا يزال من أهم الظواهر الأسلوبية ·

وقد دل ابن حجة برأيه فيه على أنه ذو منهج وذو ذوق . فقد رفضه وسخط عليه . ذلك لأن الجناس محسن لفظى ، لا صلة له بتحسين المعنى فى قليل ولا كثير . إذ كل لفظة من اللفظتين لها معناها الخاص ، ولا تبعث فى نفس

السامع أكثر من التفكير فى معناها فحسب . فليس لتكرار الصوت فى الجناس ذيول ولا توابع ولا ظلال ولا معان هامشية ، تطن فى النفس حين تطن فى الأذن . فضلا عن أن هذا الطنين الصوتى قد يشغل السامع ويلهيه عن الفطنة السريعة إلى المعنى . فقصارى الجناس أنه محسن لفظى ، كما ذكرنا .

وابن حجة إنما يسعى وراء المحسنات المعنوية التى تزيد المعنى قوة ووضوحا وتأثيراً ، وتكسبه ظلالا وحواشى . لذلك لا يستحسن الجناس إلا فى حالتين . الأولى : أن يأتى عفوا من غير كد ولا استكراه . . وذلك هو رأى الشهاب محمود الحلبى ، وقد سبق لنا التنويه به . الثانية : إذا أخرج مخرج التورية . وذلك باستعمال لفظ واحد ، يُنطق باعتبار فيكون له معنى ، وينطق باعتبار فيكون له معنى آخر ، ويورى بأحد المعنيين عن الآخر . فيجتمع فى اللفظ حينذاك التورية والجناس ؛ ويخلص الجناس من التكرار الصوتى ، وما يتبعه من التعقيد ، وترفعه التورية إلى مستوى معنوى يضفى عليه قبولا .

وقد بدأ ابن حجة حديثه عن الجناس بقوله :

« وأما الجناس فإنه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب . وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة . كقول القائل — وأستحى أن أقول إنه أبو الطيب :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل »

ثم مثل للجناس أيضا ببيتين ثانيهما :

وبنار أسما وهى أسمى رتبة قد احترقت وريقها يتبادر

وقال عنه : « ففى طلعة شمس التورية هما ما يغنى عن النظر إلى زحل الجناس » .

ثم قال : « والجناس من صور الألفاظ . وممن وافق على ذلك ، علامة عصره الشهاب محمود . وقال : إنما يحسن الجناس إذا قل وأتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ، ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة . ولا يكون كقول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول »

ثم قال : « ولا بأس فى مطالع القصائد إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية . فإنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع ، كما قرره مشايخه ، كالتورية والاستخدام والاستعارة ، والتشبيه . وما قارب ذلك من أنواع البديع .

وحكى عن ابن جنى أن الأصمعى كان يدفع قول العامة إذا قالوا : « هذا يجانس هذا » إذا كان من شكله . ويقول : ليس بعربى خالص .

وقال ابن رشيق صاحب العمدة : « هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة . ومما لا يشك فى تكلفه . وقد كثر منه هؤلاء السافة المتعقبون فى نظمهم ونثرهم حتى برد ورك » — ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى ، التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ . وإذ خلت بيوت الألفاظ من سكان المعانى تنزلت منزلة الأطلال البالية » .

وكان صلاح الدين الصفدى مولعا كل الولوع بالجناس . وقد ألف بسببه كتابه « جنان الجناس » ، فدافع عنه وأورد منه أمثلة كثيرة من نظمه . ولما رآه جمال الدين بن نباته — وهو لا يعجب بالجناس — قرأه « جنان الخناس » ، بالتصحيف . وجرى بين الأديبين بسبب ذلك ، ما يطول شرحه ، كما يقول ابن حجة . . .

وقد حمل ابن حجة على الصفدى حملة شعواء بسبب جنونه بالجناس ، ومخالفته فى الولوع به ، زعماء الأدب فقال عنه :

« وكان الشيخ صلاح الدين الصفدى يستسمن ورمه ، ويظنه شحما . فيشبع أفكاره منه ، ويملأ بطون دفاتره . ويأتى منه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور . كقوله — غفر الله له :

ونم فى أمان بالحبيب ولا تخف لقائط واش فى لقاء طواشى » . . . الخ

وقال بعد أن أورد من أبيات الصفدى أمثلة عدة ، ومنها :

ومر على غيرى سقام وصحة ولم يرقان مثل ذى يرقان

« ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكى تحت هذا البيت ، والذى قبله : « وهو الضعيف باليرقان . وإن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين . . . » .

ثم قال :

« غير أن هنا بحثاً لطيفاً . وهو أنه قد تقرر أن ركنى الجناس يتفقان فى اللفظ ويختلفان فى المعنى . لأنه نوع لفظى لا معنوى . وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع . والتورية من أعز أنواعه ، وأعلاها رتبة . فإذا جعلت الجناس تورية ، انحصر المعنيان فى ركن واحد ، وخلصت من عقادة الجناس ، وحركت الأذواق ، وأبهجت خاطر السامع بما أتحفته من بديع تركيبها ، وتأهيله بغريبها . » .

ثم أخذ يسرد الأمثلة على جناس التورية موازناً مرجحاً كعادته . ومن أمثلته :

قول بدر الدين الدمامينى فى مدح ابن حجر العسقلانى من بيتين :

وكم مشكلات فى البيان بفهمه تبينها من غير عجب ومازها « وما زها »

فأجابه ابن حجر ، ببيتين منهما :

يسائل أن ينهى عن الجود نفسه وها هو قد برالعفاة وما نها « ما نهى »

وأورد أمثلة نثرية من جناس التورية ، كتبها بدر الدين الدمامينى — من أدباء العصر — فى تقريظ لبعض أهل الأدب على مصنف سافل ، لم يقع من ذوقه موقع القبول . والتزم فى هذا التقريظ ، الإبهام ، من أوله إلى آخره . فمما قاله بعد أن قرظه ابن حجة على الطريقة نفسها :

« لقد كنت أرتجى بابا أدخل منه إلى التقريظ ، ففتح لى المقر التقوى بابا مرتجى . ونهج الطريق إلى المدح ، فاقتفيت آثاره ، واهتديت حين رأيت منهجا » . « مرتجا . ومن هجا »[1] .

---

(١) أشرنا إلى تقريظ الدمامينى المذكور ، فى باب الوصف . فصل التقاريظ والأهاجى .

وكتب الدماميني أيضاً تقريظاً على بديعية ابن حجة « فمنه » :

« كتبت وأسياف الخطوب ليس لها إلا الجوانح أغماد . والزمن قد كاد في سهام أوتاره المصيبة ، ورماني بعد أن كاد » . « أنكاد » .

ثم قال ابن حجة أيضاً مردداً رأيه في جناس التورية :

« قد تقدم قولي إن جميع من نهلت من شرابهم الصافي لم يرضوا بالجناس التام ، إذا أمكن استدراك التورية من ركنيه ، لعلمهم بعلو رتبتها عنه ، والتفات الأذواق الصحيحة السليمة إلى حسن موقعها . وإذا راجعت النظر في كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناسا تاما » .

وبعد أن أورد أمثلة عدة ، عاد فقال :

« ولم أستطرد إلى هذا إلا لتأييد قولي إن جميع من نسجت على منوالهم ، لم يرضوا بالجناس التام ، إذا أمكنت التورية التامة . وصبح الفرق بينهما — بحمد الله — ظاهر . وبدر مثاله في ليالي السطور سافر .. — انتهى ما أوردته من محاسن التورية التامة ، ووجوب تقديمها على الجناس التام . إذا كان عند الناظم يقظة ، وكان ممن يميل إلى هذا المذهب » .

نكتفي بهذا القدر بيانا لرأي ابن حجة في الجناس بعامة ، دون نظر إلى آرائه الجزئية في أنواعه . وهو — كما أشرنا — يدل على ذوق لابن حجة ، وحسن تذوق ، وبصر بوجوه إبراز المعاني وتحسينها .

* * *

رأيه في السجع :

السجع هو توافق الفقرتين في الحرف الأخير من كل منهما . وهو ظاهرة أسلوبية لم تخل منها الأساليب العربية في عصر من العصور . وإذا قلنا إنه لا يوجد منشئ خلا إنشاؤه من السجع ، لم نكن مبالغين . وكما يعرض للنثر ، يعرض للشعر في حاشية البيت .

والسجع ، وإن كان محسنا لفظيا ، يكسب العبارة بجرسه قوة ، ويزيد المعنى بموسيقاه استقراراً في النفس ، وتأثيراً فيها . كما يعين على حفظ النص وترديده على الألسنة ، واستذكاره . والسجع في النثر ، كالقافية في الشعر ، من أسباب بقائه وذيوعه .

وقد عقد ابن حجة فصلا محمودا فى خزانته ، قال فى مطلعه :

« السجع مأخوذ من سجع الحمام . واختلف فيه : هل يقال فى فواصل القرآن : أسجاع ، أولا ؟ فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه . والذى منع تمسك بقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته » . فقال : قد سماه فواصل ، فليس لنا أن نتجاوز ذلك .

والسجع ينقسم أربعة أقسام : المطرف والمتوازى ، والمشطر والمرصع » .

ثم أخذ يعرف كل قسم ويضرب له الأمثال .

ثم أخذ يبين نظام الفقرات المسجوعة ، على نسق ما رأينا لدى الشهاب محمود الحلبى — وهذا فى نظرنا ذو أهمية ، لما يدل عليه من اتفاق أدباء العصر ونقاده على نظام السجع .

وملخص ماذهب إليه :

١ — أن قصر الفقرات يدل على قوة المنشئ . وأقل ما يكون من كلمتين كقوله تعالى : « يأيها المدثر ، قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر » . وأمثال ذلك فى القرآن الكريم كثيرة .

٢ — ولكن الزائد على ذلك — أى على كلمتين — هو الأكثر . وذلك كما قالوا — لأن السامع يلتذ أكثر بما زاد ، لتشوقه إلى ما ورد منه متزايداً على سمعه . وكان بديع الزمان يكثر من ذلك ، كقوله : « كميت نهد . كأن راكبه فى مهد . يلطم الأرض بزبر . وينزل من السماء بخبر » .

٣ — وإذا زادت القرائن — الفقرات — على اثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين . وإن زادت الثانية على الأولى زيادة يسيرة . وزادت الثالثة على الثانية كذلك ، فلا بأس . بشرط ألا تكون الزيادة أكثر من المثل . ومع هذا فلابد من الزيادة فى آخر القرائن . ومثال ذلك قول الله تعالى :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » .

وأورد أمثلة أخرى من القرآن الكريم لكل حالة .

٤ — ومن قواعد الإنشاء ، أن تكون كل فاصلة مخالفة لنظيرتها فى المعنى ، لأن اللفظ إذا كان من القرينة بمعنى نظيره من الأخرى ، كان معيبا .

ومثال المعيب ، قول الصاحب بن عباد يصف منهزمين : « طاروا واقين بظهورهم صدورهم . وبأصلابهم نحورهم » . فالظهور بمعنى الأصلاب ، والصدور بمعنى النحور .

ومثاله أيضا قول أبى إسحق الصابى : « يسافر رأيه وهو لا يبرح . ويسير وهو ثاو لا ينزح » . ويبرح وينزح بمعنى واحد . وكذلك يسافر ويسير .

٥ — ومن الملحوظات التى سجلها ابن حجة بهذه المناسبة ، أن الأسجاع تبيح للأديب بعض الضرورات . وذلك كالوقوف بالسكون على آخر القرينة ، لتتم السجعة . ولولا الوقوف لما تمت فى بعض الأحوال . وكتغيير لفظة الفاصلة لتوافق أختها عند الازدواج . ومنه قوله عليه السلام : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » ، والأصل : موزورات بالواو — ومنه قوله عليه السلام : « أعيذه من الهامة والسامة . ومن كل عين لامة » . والأصل : عين ملمة لأنه من ألم . ولكنه لأجل الموافقة قيل : لامة . .

هذه هى القواعد التى سجلها ابن حجة عن نظام السجع ، وزودها بجملة صالحة من إنشائه وإنشاء غيره تمثيلا له .

ولنا عليه جملة ملاحظات ، منها :

١ — أننا قد بينا رأى الشهاب محمود الحلبى فيما سبق ، فى السجع ونظامه وفقراته . والأوضاع التى أقرها ابن حجة هنا ، لا تفترق عن أوضاع الحلبى فى شىء — فى جملتها — فابن حجة متأثر فى ذلك به . .

٢ — على أننا نرى أنهما معا متأثران بمن سبقهما ، وليس هذا النظام جديدا مبتدعا منهما . ونستطيع القول إنهما نقلا هذا النظام — المتبع — عن ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل الثائر . وتتلخص الأوضاع التى سجلها فيه ، فيما سجلاه .

حتى الأمثله القرآنية وغيرها ، مما أورده ابن الأثير ، نقلاها أيضا واستشهدا بها ولم يشيرا إلى ذلك .

ويبدو لنا أن ابن الأثير نفسه فى آرائه فى السجع ونظام فقراته ، متأثر بمن تقدمه من البلاغيين ، ولا سيما أبو هلال العسكرى « ٣٩٥ هـ » وابن سنان الخفاجى « ٤٦٦ هـ » وعبد القاهر الجرجانى « ٤٧١ هـ » .

فهناك مثلا ، إجماع منهم على أن السجع المقبول هو الذى لا تكلف فيه . ويرفع عنه هذا التكلف إذا طلبه المعنى . وفى ذلك يقول الجرجانى : « فإنك لا تجد تجنيساً مقبولا ولا سجعاً حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه[١] » .

وابن سنان يعتبر أن السجع منه ما يحمد ومنه ما يستكره . ولولا أن منه ما يحمد ما ورد فى القرآن والحديث وكلام الفصحاء[٢] .

ويقول أبو هلال : إن السجع المذموم هو المتكلف الذى يشبه سجع الكهان[٣] .

هذا ، وقد تحدث كل من أبى هلال وابن سنان حديثاً هينا مجملا عن تساوى الفقرات واختلافها فى عدد مفرداتها . واستحسن أبو هلال تساوى المقادير ، وذلك لأن أبا هلال يستطيب الازدواج . والتساوى يعين عليه . وهو يستريح إلى الازدواج والتوازن بين السجعتين . ولكن لا مانع لديه من قصر الثانية عن الأولى .

وابن سنان يستحسن أيضاً تساوى المقادير ، أو إطالة الفقرة الثانية عن الأولى . والعكس عنده قبيح ، وهو قصر الثانية عن الأولى . وقد رد عليه القلقشندى بأنه ورد فى القرآن ، وذكر الآيتين :

---

(١) راجع أسرار البلاغة ص ٧ .

(٢) راجع سر الفصاحة لابن سنان .

(٣) راجع الصناعتين طبع استامبول على نفقة الخانجى — باب السجع .

« وإذ يريكهم الله فى منامك قليلا . . . الخ » فالأولى ٢٠ كلمة والثانية ١٩ فقط .

وإنما نذكر هذا كله لنبين أن الفكرة فى التساوى أو عدمه ، موجودة قبل ابن الاثير ، ولكنه فصلها ووفى الحديث عنها أكثر ممن سبقه . ثم جاء الحلبى وابن حجة والقلقشندى وزادوها تفصيلا ودعما .

وابن الأثير كذلك متأثر بأبى هلال وابن سنان فى اعتقاد وجود السجع فى القرآن ، وقد تعصب لذلك تعصبا بارزا . وله حججه وبراهينه ، ومن بينها أن القرآن والحديث راعيا نظام السجع والتوازن فى بعض الآيات ، والآيات التى أوردناها إنما نقلها عن ابن سنان وأبى هلال .

٣ — وقد زاد ابن حجة فى شروطه عما رسم الحلبى ، شرطا هاما ، وهو ضرورة مخالفة كل فاصلة لزميلتها فى المعنى . وهذا الشرط منقول نصا عن ابن الأثير . وقد نبه ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » عند ذكر هذا الشرط « فى باب السجع » على أنه من ابتكاره . وقال فى ذلك ما نصه :

« واعلم أن للسجع سرا هو خلاصته المطلوبة . فإن عرى الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلا . وهذا شىء لم ينبه عليه أحد غيرى . وسأبينه ههنا . وأقول فيه قولا هو أبين مما تقدم . وأمثل لك مثالا إذا حذوته أمنت الطاعن والعائب . وقيل فى كلامك : ليبلغ الشاهد الغائب .

والذى أقوله فى ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها . فإن كان المعنى فيهما سواء ، فذلك هو التطويل بعينه ، لأن التطويل إنما هو للدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها . وإذا وردت سجعتان تدلان على معنى واحد ، كانت إحداهما كافية فى الدلالة عليه . وجل كلام الناس المسجوع جار عليه . وإذا تاملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابى وابن العميد وابن عباد ، وفلان وفلان ، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك . والأقل منه على ما أشرت إليه . . . إلخ » .

ثم قال ابن الأثير :

« فالكلام المسجوع إذن ، يحتاج إلى أربع شرائط :

الأولى : اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذى أشرت إليه فيما تقدم .

الثانية : اختيار التركيب على الوجه الذى أشرت إليه أيضا فيما تقدم .

الثالثة : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى لا المعنى تابعا للفظ[1] .

الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها . فهذه أربع شرائط لا بد منها . » .

٤ — نلاحظ أن ابن حجة لم يتحمس فى حديثه عن السجع حماسته التقليدية ، فكان هادئا على غير عادته . ولا ندرى سبباً جوهريا لذلك . فالسجع فى رأيه محسن لفظى — ما فى ذلك ريب — وابن حجة يتأبى دائما على المحسنات اللفظية . فكان من المرتقب أن يحمل على السجع والساجعين . كما حمل على الجناس والمجانسين ، مالم يأت شىء منه دون كدولا استكراه . . . وفى الوقت نفسه لم يحبذ السجع ولم يدع إليه ولم يجده إلا فى كلمة عابرة ، وهى قوله : « أن التسجيع هو عبارة عن علم الإنشاء » .

وابن حجة بذلك ، يقف موقفا وسطا — فى رأينا — والسجع له أعوان وأعداء معا . وقد نوه ابن الأثير بذلك فى مطلع حديثه عن السجع ، فقال :

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة . ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به » . وقد احتج عليهم بأنه جاء فى القرآن الكريم .

أما ابن الأثير فهو متحمس للسجع كل الحماسة ، يرفعه إلى أعلى مقام ، إذا استوفى شروطه التى اشترطها فيه .

٥ — ولعل حماسة ابن الأثير للسجع وتعصبه له ، ناشئان عن اعتقاده أن السجع ورد فى القرآن الكريم . وقد فر ابن حجة فراراً واضحا من مناقشة هذه المسألة ، ووقف فيها على الحياد ، أو كاد .

---

(١) كأن ابن الأثير يتخلص بهذا الشرط مما يقوله من اعتبار فواصل القرآن سجعات .

أما ابن الأثير ، فأثار الجدل فيها ، وذهب إلى أن السجع أعلى درجات الكلام ، إذا تهيأ للكاتب أن يأتى به محمولا على الطبع غير متكلف ، تنقاد فيه ألفاظه وقرائنه للمعانى . فلا تأتى لفظة مستكرهة ، فيها زيادة معنى ، أو نقص عما يريده الكاتب . وبذلك تصل حد الإعجاز .

وإذن ينبغى أن يكون الكلام المعجز سجعا غير متكلف على هذا النمط المرسوم ومن هنا اعتقد ابن الأثير أن فى القرآن سجعا ، واعتقد غيره أنه فواصل.

وقد يحتج على ابن الأثير بأن فى القرآن آيات غير مسجوعة . فلماذا لم تكن مسجوعة ليتم له إعجازه ؟ وابن الأثير لم يفته هذا الاعتراض . ورد عليه بأن وجود آيات فى القرآن غير مسجوعة — وهى مع هذا بليغة وواضحة الدلالة — برهان جديد على إعجازه ؛ فإن الإتيان بكلام غير مسجوع ، وهو مع ذلك فى الذروة من البيان ، ذلك هو الإعجاز . . .

ومهما يكن من أمر ابن الأثير ، فإنه يبدو لنا أن هناك مسألة عزبت عن ذهنه ، وهى أن الملحوظ فى السجع أنه مقصود أن يجىء هكذا سجعا ، منقادا للمعنى أو غير منقاد . والقرآن الكريم منزه عن أن يقصد فيه إلى السجع . وإنما روعى فيه أمر واحد ، وهو أن يكون — كما سبقت إليه الإشارة — فى مجموعه وتفصيله ، وصراحته وتأويله ، ولفظه ونظمه ، وحروفه وفواصله ، بما يدل كل ذلك عليه من المعانى ، مطابقا لمقتضى الحال . ومرة يقتضى الحال سجعا وطولا فى الفقرات ، أو لا يقتضى . وهو فى كل أولئك قد بلغ الذروة من البلاغة ، وحد الإعجاز .

وقد فر ابن حجة من مناقشة هذه المسألة غير أننا ضبطنا عليه كلمة فى سياق حديثه عن السجع . فقال ما مؤداه مبينا مزاياه :

« إن السجع مبنى على التغيير ، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها . فيجوز فيها حالة الازدواج مالا يجوز فيها حالة الانفراد . فمن ذلك الإمالة ، وحذف المفعول ، وصرف مالا ينصرف . . . إلخ » . .

ثم ساق أمثلة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « ما ودعك ربك وما قلى » . وقال بالنص : « الأصل وما قلاك، حذفت الكاف لتوافق الفواصل » .

فهل نفهم من ذلك أن ابن حجة يعتبر فواصل القرآن سجعا ، كما اعتبرها ابن الأثير ؟ وهل حذف المفعول به حقاً للتوافق ، وللتأثير بهذا التوافق ؟ هذه مسألة تحتاج إلى مناقشة . أما نحن فنعتقد أن القرآن الكريم لا يتجه إلى مراعاة التوافق الصوتى بين الفاصلتين ، قبل رعاية المطابقة ، ونعتقد أن حذف المفعول هنا لأنه فضلة ودل عليه دليل . وحذفه من اللفظ، لا يحذفه من المعنى ، وفى حذفه إيجاز ، وهو أبلغ ، إذا لم يكن فى الذكر فائدة .

هذا على أننا نشعر مما سبق أن الشهاب محمودا وابن حجة الحموى بلغا بموقفهما من السجع مبلغا محمودا ، فلم يتعصبا له كل هذا التعصب الذى بدا من ابن الأثير وأضرابه . لأن السجع — فى الحق — مزلق من المزالق التى لا تؤتمن . وذلك أن الأذواق فيه لابد مختلفة . ومترددة بين الحكم بأن توافق الفاصلتين من باب التوافق الصوتى فحسب ، أو روعيت فيه المطابقة فجاء توافقا ، فكان غير متكلف ولا مستكره . . . الخ .

ولا يضير الرجلين ما تأثرا به ، أو ما نقلاه عن ابن الأثير أو عن غيره . فطبعى أن يتأثر الأديب أو العالم بمن قبله . ولا يهمنا فى هذا المقام إلا أنهما يقرران أوضاع الأسلوب المرعية إلى عهدهما ، ويسجلان ظواهرها ويؤيدانها بالأمثلة الكثيرة من إنشائهما وإنشاء معاصريهما ، وهذا هو مانريده منهما .

وإذا كان الشهاب محمود قد تلقى عن بعض الأدباء والعلماء السابقين شيئاً من الذوق الفنى والقاعدة العلمية ، فإننا نعتقد أنه أضاف إليهما شيئاً آخر من عنده على ضوء مناهج عصره — فلما جاء ابن حجة ، وهو بعد الشهاب بنحو مائة عام ، كانت تلك المناهج الفنية والقواعد العلمية قد تركزت وثبتت أصباغها ، ولونت الإنشاء تلوينا زاهيا أشرقت أضواؤه فى خزانة ابن حجة ، الذى كان لسانا وميزانا للنقد فى ذلك الحين .

هذا ، وقد ردد ابن حجة فى كتابه « ثمرات الأوراق » ما قاله فى الخزانة عن السجع ونظام فقراته .

وقبل أن نترك هذا المقام نلفت النظر إلى ملحوظة لحظناها، وهى إحساسنا بمدى تأثير الأسلوب القرآنى فى نفوس البلغاء، فإن كثيراً من قواعدهم الذوقية التى انتهوا إليها — وأوضحها هنا نظام السجع وفقراته — استوحوها من خصائص أسلوب القرآن. وتبدو هذه الظاهرة بدوا قويا فى باب السجع الذى عقده ابن الأثير فى المثل السائر.

كما نلاحظ أنهم فى كل قاعدة قعدوها، يقدمون بين يديها أمثلة قرآنية فى أول الأمر غالبا — وذلك لدعمها. ومن العجيب أن تجد ابن الأثير مثلا يحدد لك عدد كلمات القرينة الثالثة فى السجع، بكذا من الكلمات. ويحدد نسبة عدد كلمات القرينتين الأوليين، وهكذا، مستشهدا على ذلك التحديد بآيات من القرآن الكريم.

وعلى نمط منه سار شهاب الدين الحلبى. — ذلك وغيره دليل على تأثر الأدباء، ومدى تأثرهم بأساليب القرآن الكريم.

* * *

رأيه فى التورية:

التورية — كما عرفها ابن حجة فى كتابه هى أن يذكر المتكلم لفظا مفرداً له معنيان حقيقيان، أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية. فيريد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب، وليس كذلك. ولأجل هذا سمى هذا النوع إيهاما.

ومثل ذلك قول أبى العلاء:

وحرف كنون تحت راء ولم يكن بدال يؤم الرسم غيره النقط

فالسامع يتوهم أن المراد بالنون والراء والدال حروف هجاء. ولا سيما أنه أتبعها بالرسم والنقط. وهذا هو المعنى القريب الموري به عن معانيها البعيدة، وهى أن المراد بالحرف: الناقة. وقد شبهها بالنون لتقويسها وضمورها. وراء اسم فاعل من رأى، إذا ضرب الرئة. ودال اسم فاعل من دلا يدلو: إذا رفق فى السير. والرسم: أثر الدار. والنقط: المطر.

وقدعقب ابن حجة على هذا البيت بقوله ٠ « قال حذاق الأدب : تراكيب التورية فى هذا البيت بالنسبة إلى ديباجة المتأخرين وطلاوة ألفاظهم وزخارف بيوتهم ، تستحق قول القائل :

وما مثله إلا كفارغ حمص خلى من المعنى ولكن يفرقع .

والحق أن ابن حجة متعصب للتورية كل التعصب ، متحمس لها كل الحماسة ، يمجدها تمجيداً منقطع النظير ، ويعتبرها فى أعلى مراتب الأدب ، ولا يباريه فى حماسته هذه ، إلا حماسة ابن الأثير وتعصبه للسجع .

والتورية — فى نظرنا — جديرة بذلك التعصب وتلك الحماسة من ابن حجة — وهو أديب عصره — وحرية بأن يسمو بها إلى أعلى مراتب الأدب . وذلك إذا أخرجت مخرجاً حسناً ، وكانت ذات لباقة وكياسة ، فإنها تكون حينئذ خفيفة المئونة قريبة إلى القلب ، تحمل الذهن على تصورات وأخيلة متعددة ، وانتقالات معنوية شتى . ومن هنا ترى أنها من دعائم الأدب . والأديب فى حاجة كبرى إلى بضاعة لغوية ، وإلى رفاهة حس ، ولطافة نفس ، ورقة شعور ، ودقة تصور ، وخاطر مطبوع ، حتى يجود بالتورية مزدهرة الأضواء مشرقة الوجه لا يشوبها كلف ، ولا يثقلها تعسف .

ونحن من الذين يتعصبون للتورية ، وينعون على أدباء العصر الحديث انصرافهم عنها ، لا لأنها فن رفيع من فنون الأدب فحسب ، بل لأنها طابع من طوابع الذوق المصرى ، ومسلك من مسالك الأساليب الشعبية فى بلادنا ، استقر بين طبقات الشعب حبها ، وتمكن من القلوب والأذهان والألسنة ، فجرت عليها فى شتى المناسبات ، واستقر حبها منذ أزمنة بعيدة . فلما تمصر الأدب العربى فى الأمصار المختلفة ، وظهر منه أدب مصرى فى مصر ، نضح عليه الذوق المصرى العام ، فظهرت خصائصه فى أدب أدبائه كتابه وشعرائه . وفى مقدمة هذه الخصائص : التورية ، التى أصبحت منذ ذلك الحين من أبرز خصائص الأسلوب المصرى . وكان أدباؤه بانصراف عنايتهم إليها ، مرآة صقيلة له

صافية استجابت لصوره النفسية ، فأبرزتها واضحة قوية . فكان أدباء الشعب — لذلك — من الشعب وإلى الشعب . . !

أما الآن فكثير من أدباء الشعب ، فى واد ، وأسلوب الشعب فى واد . . . واعتقادنا أن من أهم الأسباب التى دعت إلى ذلك ، ابتعاد أدباء الشعب عن صقل أساليبهم بصقاله ، وعن إبراز خصائصه الأسلوبية فى خلال أساليبهم . والشعب لا يزال حتى اليوم ينهج فى أساليبه ، أساليبه التقليدية القديمة بما فيها من ظواهر وصفات .

والذى نحب أن نسجله هنا عن ابن حجة ، أنه فى تعصبه وحماسته للتورية كان مصرياً صميما أو شامياً صميما — لاتفاق أساليب الأدباء فى مصر والشام ، وهذه النزعة من ابن حجة هى التى تروعنا وتملؤنا إعجاباً به ، وتدفعنا إلى تقديره .

* * *

والتورية من أبرز مسالك الأسلوب المصرى — كما أشرنا — وقد تكون هناك شعوب ، أو أجيال كلفت بالتورية . وقد تكون التورية بدرت فى أدب أمة أخرى ، أو فى أدب فرد منها . غير أننا نظن — إن لم نعتقد — أنها لم تبرز أو تستقر فى أدب أمة ، ولا فى أدب فرد من أمة ، كما برزت واستقرت فى أدب الأمة المصرية ، وفى أدب أفراد كثيرين من أدبائها ، منشئين وشعراء وزجالين ، وعامة وخاصة .

وقد أرخ ابن حجة للتورية ، وهو صادق فى تاريخه ، إذ قال :

« هذا النوع — أعنى التورية — ما تنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الكتاب . ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب ، إلى أن دخلوا إليه من باب التورية . فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة . وسحرها ينفث فى القلوب ويفتح بها أبواب عطف ومحبة . وما أبرز شمها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول . ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول . ومما يؤيد قولى هذا . قول الشيخ صلاح الدين الصفدى رحمه الله تعالى فى ديباجة كتابه المسمى « بفض الختام عن التورية والاستخدام » :

« ومن البديع ماهو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع. وهو نوع التورية والاستخدام . فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامى المرام .

نوع يشق على الغبى وجوده من أى باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارع . ولا يقرع بابه قارع . إلا من تنحو البلاغة نحوه فى الخطاب . وتجرى ريحها بأمره رخاء حيث أصاب » .

وقال الزمخشرى ، وهو حجة فى هذا العلم :

« ولا نرى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب . ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام صحابته رضى الله عنهم أجمعين .

فمن ذلك قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، لأن الاستواء على معنيين أحدهما : الاستقرار فى المكان ، وهو المعنى القريب المورى به ، الذى هو غير مقصود . لأن الحق تعالى وتقدس منزه عن ذلك . والثانى : الاستيلاء والملك ، وهو المعنى البعيد المقصود ، الذى ورى عنه بالقريب المذكور » .

انتهى كلام ابن حجة .

ولنا استدراك موجز على كلام الزمخشرى . فإنه كان من المعتزلة ، والمعتزلة مؤولة ، لا تفسر القرآن بظاهر ألفاظه ، بل تذهب فى كثير من آياته إلى مجازياتها أو توارياتها أو نحو ذلك ، مما ينقلها عن معانيها الظاهرة . ولهذا احتفل الزمخشرى بالتورية وما إليها . ومن هنا ترى أن استشهاده بالآية على التورية ، صحيح وصائب جريا مع التأويل . ولكن غير المؤولة لا تذهب هذا المذهب ، وتقول بظاهر الآية ، وهو أن الاستواء المقصود من الآية هو الاستواء والتمكن والجلوس — كما يفهم من اللغة — ولكن ما كيفيته وما طريقته ؟ هذا موضوع تفترق عنده مذاهب . وهو بعيد عن موضوع بحثنا[1] .

---

(١) عادا ابن حجة إلى ذكر هذه الآية الكريمة فى باب التورية ص ٣٥١ مستشهدا بها على الاستعارة المجردة وذهب مذهبه فى تأويلها . .

هذا ، وقد رأينا الخطيب القزوينى يستشهد بالآية نفسها على التورية المجردة ، وذلك فى كتاب « الإيضاح » . على أن تأويل الزمخشرى للاستواء — إذا ذهبنا معه — قد يعتبر من باب الكناية — لا التورية — فالملك والاستيلاء نتيجة ولازم للاستقرار والجلوس .

وهذا يسوقنا إلى أن نلفت النظر إلى بحث لطيف ، من المستطاع أن ينظر الأدباء فيه ، وهو الحديث عن التورية وحياتها فى الأدب العربى كله ، وصلتها بعلم الكلام ، وألوان البلاغة الأخرى كالمجاز والاستعارة والكناية والإبهام والتوجيه والألغاز والتلميح ، ونحو ذلك .

* * *

وقد قال ابن حجة معرفا بالتورية مبينا تألقها فى عصره ، منوها بمن طلعت شموسها من آفاق أيديهم ، فقال :

« التورية يقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير . والتورية أولى فى التسمية لقربها من مطابقة المسمى ، لأنها مصدر وريت الخبر تورية ، إذا سترته وأظهرت غيره . كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر » .

هذا . وقد أخذ ابن حجة يورد أمثلة للتورية من أشعار شعراء مختلفين . ثم قال منوها بأدبائها :

« وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية واطلعوا شموسها . ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كئوسها . وقيل : إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره . وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره . فإنه — رحمه الله تعالى — كشف بعد طول التحجب ستر حجابها . وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها .

وممن شرب من سلافة عصره . وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره : القاضى السعيد بن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها . ومتمسكين بطيب أنفاسها . إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها .

والواسطة فى عقد جمانها . كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار ، والنصير الحمامى ، وناصر الدين حسن بن النقيب ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضى محيي الدين بن عبد الظاهر .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه المسمى « بفض الختام عن التورية والاستخدام » : «وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأزر نصرهم . ولان فى هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم . كل ناظم تود الشعرى لو كانت له شعرا . ويتمنى الصبح لوكان له طرسا والغسق مدادا ، والنثرة نثرا . ما جلا من بنات فكره خودا إلا شاب لحسنها الوليد . وسيرها فى الآفاق وبين يديها من النجوم جوار ، ومن الشعراء عبيد . كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة ، والأمير مجير الدين بن تميم ، وبدر الدين يوسف ابن لؤلؤ الذهبي ، ومحي الدين بن قرناص الحموى ، وشمس الدين محمد بن العفيف ، وسيف الدين بن المشد .

وقال الشيخ صلاح الدين فى أواخر ديباجة كتابه المذكور : « ومع هؤلاء جماعة يحضرنى ذكرهم عند شعرهم . ويعز علىّ إذ لم أرهم على تكاثرهم لفوات عصرهم» .

وتلطف بقوله بعد ذلك : « لا تقل أيها الواقف على هذا التأليف : لقد أفرطت فى التعصب لأهل مصر والشام ، على من دونهم من الأنام . وهذا باطل ودعوى عدوان وحمية لأوطانك وما جاورها من البلدان . » فالجواب : أن الكلام فى التورية لا غير . ومن هنا تنقطع المادة فى السير — ومن ادعى أنه يأتى بدليل وبرهان . فالمقياس بيننا والشقراء والميدان ... » . اهـ .

هذا ، والشعراء الذين ذكرهم الصفدى من خيرة أدباء مصر والشام فى زمن المماليك .

ثم قال ابن حجة مبينا منزلة التورية من البلاغة ، ومنزلة أدباء مصر بين أدباء التورية :

« قد تقدم وتقرر أن التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان من العين . وسموها فى البلاغة سمو الذهب على العين . وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة وأفكارهم لا تقصد مظانها ، وإن كانت سليمة صحيحة . لكنها ربما وقعت لهم عفوا من غير مرام . فنقول إنها رمية من غير رام .

وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم ، نور مشكاتها . والمتفكهون فى أدواح الأدب بثمراتها . فإذا جليت عرائس أفكارهم على اختلاف أنواع التورية لا يمل المتأمل اللهم إلا أن يكون سيف ذهنه كليلا ، فيقول إنه من هذا الفن متنصل . فإن هذه العرائس لم تبرز لمتأمل إلا من خدور هذا الكتاب . وإذا طلبها من غيره توارت عنه بالحجاب . فإذا سرح المتأمل طرفه وأمسى فى كل واد من محاسنها يهيم . وتنوعت حلاوات أنواعها لذوقه السليم ، جردت سيف العزم ، وأقمت لكل نوع حدا . ونظمت له من أنواع التورية وأقسامها فى سلك هذا النوع عقدا .. » .

وتتضح من كلامه هذا حقائق ، منها : أن التورية لم يفطن المتقدمون لمحاسنها فطنة هؤلاء المتأخرين ، وأنها وقعت فى كلامهم عفوا ولماما . وأن القاضى الفاضل أول من رفع علمها للأدباء ، واتبعه فيها من بعده ، وأنها عند هؤلاء فى مرتبة سامية من مراتب البلاغة ، وأن .. « خزانة الأدب » هى التى أبرزت جمال هذا النوع بما ساقته من الأمثلة الكثيرة .. — على أن بين كتب التورية كتاب الصفدى : « فض الختام » وكتاب ابن حجة « كشف اللثام » ، كما أن له فصلا لطيفاً فى كتابه « تأهيل الغريب[1] » بعنوان « غزل التورية » أورد فيه أمثالا عدة . ويشوب هذه الفصول ، تكرار بعض الأمثلة بينها .

* * *

ثم أخذ ابن حجة بعد ذلك ، يشير إلى أنواع التورية ، ويضرب لها

---

(١) تأهيل الغريب : مجموعة طريفة جداً من المختارات الشعرية . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . وطبع منه نحو سدسه ذيلا لثمرات الأوراق .

الأمثال . ولكنه لم يستوف حديثه عن أقسامها إلا بعد أن أفرغ جعبته من أمثالها ، وبلغ بذلك خاتمة الباب . ويعتبر هذا الباب وحده ديوانا للتورية .

وقد عنى بهذا الباب عناية ملموسة ، كما عنى بذكر المتفوقين فيه ، السابقين فى ميدانه ، وذكر المتقاعدين عنه ، المقصرين عن بلوغ مداه . وكلهم من شعراء العصر المملوكى وأدبائه .

وقد ردد ابن حجة فى باب التورية ، ذكر القاضى الفاضل ، أكثر من مرة ، مشيراً إلى أنه هو الذى سن سنتها ورفع علمها للأدباء . واتبعه من بعده وسار تحت رايته ، ابن سناء الملك وغيره من شعراء العصر الأيوبى ، وصدر العصر المملوكى . حتى تلقى رايتها الأديب البارع جمال الدين بن نباتة المصرى . فحملها وجدد عهدها ، وعبد طريقها ، وصار بذلك زعيما ثانياً لهذه الطريقة .

وسجل كثيراً من أسماء أدباء التورية فى الحلبتين — على نحو ما مر — كما نوه بينهم باسم علاء الدين الوداعى الذى يعتبر من زعمائها .

وأشار فى سياق حديثه إلى بعض أدباء العصر ، ممن لم يرزقوا حب التورية ولا استطاعتها أقلامهم . ومنهم : صفى الدين الحلى . قال عنه ابن حجة : « إنه كان أجنبياً عن التورية » ، ولهذا لم ينظمه فى سلك القوم الذين مشوا فى ميدانها تحت العلم الفاضلى والعلم النباتى ، وكانت غاية الحلى أنه رضى بالشعر الساذج المنسجم ، وأنه تعرض للتورية فى بعض المواضع ، ولكن سبكها فى غير قالبها ، لأنها لم تكن فى طباعه .

ومنهم : الشهاب محمود الحلبى ، فقد ذكر ابن حجة أن التورية كانت غير مذهبه ، وأن وقوعها فى نظمه ونثره كان من النوادر .

ومنهم : الشهاب بن فضل الله العمرى . تمذهب بها ولكنه لم يستطع التفقه فى المذهب — ومثله بدر الدين بن حبيب الحلبى .

هذا وقد نوهنا بهؤلاء الشعراء لأن أكثرهم — إن لم يكن جميعهم — كانوا أيضاً منشئين ، وينهجون نفس النهج فى نثرهم .

* * *

ويبدو لنا مما تقدم ، أن التورية استأثرت بجزء غير قليل من أدب العصر المملوكى . وكان ميدانها مراح تسابق لأدبائه ، ومجال تجديد وتوليد لكتابه وشعرائه . حتى أدى تنافسهم وتلهفهم على نظمها إلى التهاوى نحو السرقات الشعرية . ومن ذلك سرقات ابن نباتة من الوداعى ، وسرقات الصفدى من ابن نباتة .

ونقتطف لك — بعد ذلك — أمثلة نثرية — مما استشهد به ابن حجة فى باب التورية ، من كلام أدباء العصر المملوكى . فمن ذلك :

من توريات ابن حجة بذكر استجازة الصفدى لابن نباتة وإجازة ابن نباتة له ، قال عن الصفدى : « وقف على باب الشيخ وقوف فقير يسأل الإجازة . وطال وقوفه على هذا الباب العالى إلى أن حصل له الفتوح وأجازه » .

ومن استجازة الصفدى لابن نباتة قوله :

« الحمد لله على نعمائه . المسئول من إحسان سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة رحلة أهل الأدب . قبلة ذوى التحصين فى التحصيل والدأب . . . . »

ثم قال يصفه : « فأمسى وله النسيب الذى يضحك من العباس فى رقته . ويقيم صريع الغوانى إلى مقته بعدمقته . والغزل الذى يشيب له فؤاد الوليد . ويسترق الحر من كلام عبيد . . . » إلخ . وفى الكلمات : العباس وصريع الغوانى والوليد وعبيد ، توريات وفيها تلميح أيضا .

وقد رد عليه الجمال بن نباتة مجيزا له ، ومن كلامه موريا قوله :

« ولكن نقول : الأكابر والأولياء تبذل من الأجوبة جهدها ، وتنفق ما عندها . وتجرد الأماثل سيوف المنطق ولا تتعدى الأتباع من الطاعة حدها . ولما كنت أيها الراقم برود هذا الاستدعاء ببنانه والمنشئ روض هذا السؤال بآثار السحب من بيانه . والسائل الذى بهرت الأفكار فضائله . وسحرت أرباب العقول عقائله . وأقام المسئول مقاماً ليس من أهله ، فليتق الله سائله .

فريد فن الأدب الذى لا يبارى . وبحره الذى لا يهدى غائص قلبه الدر إلا كبارا . . الخ » . وفى الحد والسائل توريتان .

وقبل أن نترك هذا الباب نشير إلى شيئين .

الأول : ما سبق بيانه عند الحديث عن الجناس ، وأن ابن حجة يرى فيه تكلفا وعقادة مالم يأت دون كد ولا استكراه . . . الخ » . — وأنه يرى أن الجناس لو أخرج مخرج التورية لسمت به وحولته إلى محسن معنوى ، وخلصته من عقادته .

الثانى : أننا قرأنا كتاب ابن حجة « كشف اللثام » فلم نجد به جديدا يزيد عما جاء بخزانته . على أننا سنشير إليه فى باب الخصائص .

* * *

رأيه فى الاقتباس :

هذا الضرب البديعى عرض آخر من أعراض الأسلوب ، اشتدت العناية به فى العصر المملوكى . وبدا بدوا بارزا فى كلام الأدباء شعرا ونثرا ، وندر أن خلت قصيدة أو مقالة أو رسالة أو نحو ذلك من اقتباس .

وقد عرفه ابن حجة فقال :

« الاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية ، أو آية من آيات كتاب الله خاصة . هذا هو الإجماع .

والاقتباس من القرآن على ثلاثة أقسام : مقبول ومباح ومردود .

فالأول : ماكان فى الخطب والمواعظ والعهود ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك .

والثانى : ماكان فى الغزل والرسائل والقصص .

والثالث : على ضربين :

أحدهما : ما نسبه الله تعالى إلى نفسه . ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه . كما قيل عن أحد بنى مروان إنه وقع على مطالعة فيها شكاية من عماله : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » .

والآخر : تضمين آية كريمة فى معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك » .

ثم أخذ ابن حجة يوضح كلامه بأمثلة متنوعة على عادته .

وفى سياق استشهاداته ، بين أن الاقتباس ، منه نوع لا يخرج به المقتبس عن معناه . ونوع يتصرف فيه نوع تصرف .

كما بين أن بعضهم يعتبر تضمين الأحاديث النبوية اقتباساً واستخدام بعض المصطلحات من منطق أو نحو أو غيرهما ، اقتباساً أيضاً . وأشار إلى أن بعض العلماء يقصر الاقتباس على النثر فى الخطبة أو الرسالة مثلا ، ونظيره فى الشعر يسمى تضميناً .

ثم أورد ابن حجة أمثلة شعرية ونثرية . ومنها من النثر المملوكى :

ما كتبه زين الدين بن الوردى عن نفسه وعن أخيه يوسف موصياً ، ومنه :

« إذا عنى الصاحب بالأخ رفقاً وإحساناً . تلونا « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا » والله يعلينا بعلوك . ويبلغنا مرجونا ببلوغ مرجوك . حتى يقول أولاد الصاحب عنا « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا » .

وما كتبه برهان الدين القيراطى إلى جمال الدين بن نباتة ، ومنه :

« يقبل الأرض التى سقت السماء نباتها وعمر الله بمعانى الحسن أبياتها » . ومنها يمدحه : فلا غرو أن فضح بديع الزمان بلفظه البديع . وازدهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . وخجلت صفحة الخد المنمنمة بطراز العذار المرقوم . وقالت الكشوس حين شبهت فى إمالة الأعطاف بألفاظه : « وما منا إلا له مقام معلوم » .

هذا . ونلاحظ أن ابن حجة لم يتحدث فى هذا الباب ، عن حل آيات القرآن ، على نسق ما تحدث به ابن الأثير والشهاب الحلبى .

* * *

وبعد :

فيطول بنا مقام القول إذا سرنا مع ابن حجة فى شتى نواحى خزانته ، لكى نستخرج منها كل آرائه مفصلة . وما إلى هذا قصدنا ، وإنما أردنا أن ننوه بأبرز الدعائم الأسلوبية ظهوراً فى أساليب عصره . فحسبنا إذن ما بيناه منها .

على أنه ينبغى لنا أن نضم إليها ، أنواعاً أخرى ، كانت كثيرة الدوران فى الأساليب حينذاك ، وحظيت من ابن حجة بعناية . فمنها :

الطباق : وهو الجمع بين الضدين فى كلام . ومثله : الإيراد والإصدار . والليل والنهار . ومنه طباق السلب وطباق الإيجاب .

المقابلة : وهى ذكر شيئين أو أكثر ، ثم ذكر ما يناسب كلا . وقد يكون هذان الشيئان متضادين أو غير متضادين .

الاستخدام : هو إطلاق لفظ مشترك بين معنيين . فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ، ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الثانى . أو تعيد عليه ضميرين ، تريد بأحدهما أحد المعنيين ، وبالآخر المعنى الآخر .

وهذا هو رأى صاحب الإيضاح ، واتبعه فيه أصحاب البديعيات .

وقيل : هو إطلاق لفظ مشترك بين معنيين . ثم تأتى بلفظين يرشح أحدهما أحد المعنيين ، ويرشح الآخر المعنى الآخر . — واللفظان قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك ، أو متقدمين ، أو أحدهما قبله . والثانى بعده . وهذا رأى بدر الدين بن مالك .

والفرق بين الاستخدام والتورية ، أن المقصود فيه استخدام المعنيين . أما فى التورية فيراد منها معناها البعيد .

ومن الأمثلة على الاستخدام ، بالمذهب الأول فى قول جمال الدين بن نباتة :

إذا لم تفض عينى العقيق فلا رأت منازله بالقرب تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتى فلا عادها عيش بمغناه أخضر

ومثاله بالمذهب الثانى ، قوله تعالى : « لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت » فإن لفظة « كتاب » بمعنى « أمد » وبمعنى « صحيفة مكتوبة » . وتجاذبتها قرينتان : الأولى « أجل » فرشحت المعنى الأول . والثانية « يمحو ويثبت » فرشحت المعنى الثانى .

وبمناسبة الاستخدام نعيد لفت النظر إلى كتاب ابن حجة « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » . وأننا لم نظفر فيه بجديد ، يزيد على ما دونه فى الخزانة ، فى باب الاستخدام .

الإيداع أو التضمين [1] : وقد فرق ابن حجة بينهما ، بعدما قال : « هذا النوع — أعنى الإيداع — يغلب عليه التضمين ، والتضمين غيره ، فإنه معدود من العيوب . والعيب المسمى بالتضمين ، هو أن يكون البيت متوقفاً فى معناه على البيت الذى بعده . كقول النابغة :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إنى
شهدت لهم مواطن صادقات أنبئهم بود الصدر منى [2]

ثم عرف ابن حجة « الإيداع » ، فقال : « الإيداع الذى نحن بصدده هو أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره ، أو نصف بيت ، أو ربع بيت ، بعد أن يوطئ له توطئة تناسبه بروابط متلائمة بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له .

وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض الناظم الأول .

ويجوز عكس البيت المضمن بأن يجعل عجزه صدراً ، أو صدره عجزاً . وقد تحذف صدور قصيدة بكمالها ، وينظم لها المودع صدوراً لغرض اختاره ، وبالعكس .

وقد أسهب ابن حجة فى سوق أمثلة الإيداع ، وكان يطلق عليه أحياناً ، فى خلال الأمثلة ، لفظ « التضمين » ومن أمثلته : قول الصفدى يعاتب ابن نباتة :

---

(١) الخزانة ص ٣٧٧ .

(٢) ممن ذكر هذين البيتين ، ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ج ٤ باب عيون القوافى وسماه المضمن .

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى كجلمود صخر حطه السيل من عل

فأجابه ابن نباتة قائلا :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبـــاً أفاطم مهـــلا بعض هذا التدلل

وقد سارت قصيدة كل من الشاعرين على هذا النمط . بتضمين أعجاز معلقة أمرىء القيس ، مع صرف غرضها إلى غرض آخر .

ونلاحظ هنا أن « التضمين » أو « الإيداع » كما سماه ابن حجة ، كان من أهم الألوان البديعية دورانا فى ألسنة الأدباء . ومع ذلك فقد أهمل ابن حجة أن يورد منه نماذج نثرية . ويبدو من مطلع حديثه عنه : أنه يقصره على الشعر دون النثر ، وأنه يعتبر « التضمين » فى النثر ضربا من « الاقتباس » . ولكنه لم يصرح بذلك فى باب الاقتباس ، بل قال هناك فقط ما نصه : « إن الاقتباس مقصور على القرآن والحديث فى النثر . وأما فى النظم فهو عبارة عن عقد وتضمين » . وهى عبارة — كما ترى — يحيط بها الإبهام .

الإبهام : هو أن يقول المتكلم كلاما مبهماً يحتمل معنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر ، ولا يأتى فى كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ، بل يقصد إبهام الأمر فيهما . والإبهام مختص بالفنون كالمديح والهجاء . ولكن لا يفهم من ألفاظه مدح ولا هجاء ، بل يكون لفظه صالحاً للأمرين . ومثاله المشهور ، وهو من الشعر العباسى :

خاط لى عمرو قباء ليت عينيه سواء

ومثاله من النثر : ما كتبه ابن حجة تقريظاً على كتاب صنفه « شمس الدين محمد بن ناهض القفاعى » مشتملا على سيرة ملكهم المؤيد شيخ ، وفيه نظم ونثر . وكان ابن ناهض المذكور ليس له إلمام بتعاطى الأدب فى مبادىء عمره . وسأل ابن حجة هذا التقريظ ، فكتب — وكله إبهام :

« وقفت على قواعد الأدب من هذه السيرة الناهضية . فوجدت مطرب لحنها قد أعرب عن التنكيت لأهل النكت الأدبية ، ونويت معها سلوك الأدب

لاحتشامها بالصفات المؤيدية . فإنها ما قوبلت بأدب إلا تقوت بسلطانها ، ولاجارتها سيرة مطولة ، إلا كانت قاصرة عن الجرى فى ميدانها . ولا ذكرت التواريخ المقدمة معها إلا تأخرت وكبت خلفها . ولا ناظرها ذو قصص إلا ثقل عليه أمرها ، ونظر إلى قصصه فاستخفها . . . الخ » .

التوجيه : يعتبره بعضهم أنه هو الإبهام الذى يحتمل معنيين متضادين . وهذا هو مذهب ابن أبى الأصبع ، والمتأخرون يعرفونه بأن يوجه المتكلم بعض كلامه — أو جملته — إلى أسماء متلائمة اصطلاحا من أسماء الأعلام أو قواعد العلوم ، أو غير ذلك مما يتشعب له من الفنون ، توجيها مطابقا لمعنى اللفظ الثانى ، من غير اشتراك حقيقى — بخلاف التورية .

ومنه ما كتبه ابن حجة فى توقيع بتعيين أحد كتاب السر ، فورى بمصطلحات البديع والإنشاء ، للمناسبة . فمنه قوله :

« وبعد فمنهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب مورده . لتصير عقود إنشائنا بجواهر منثوره منضدة . وتطلع كل براعة باستهلالها فى أشرف المطالع . وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتنزه الناظر والسامع » . . . الخ

* * *

نكتفى ببيان هذه الأنواع ، ونضيف إليها ألوانا أخرى من البيان . وهى التشبيه والمجاز وحسن الاستعارة — كما سماها ابن حجة — فهذه الأنواع البيانية — وإن كانت واسعة السلطان عالية الجاه فى الأساليب العربية ، من قديم الزمان ، ومختلف العصور — قد كان لها سلطان وجاه عظيم فى الأساليب المملوكية .

وحقاً لم يتحمس ابن حجة كل التحمس — كعادته — وهو بصدد الحديث عن هذه الأنواع البيانية . ولعل ذلك بسبب أنها ليست ذات سيطرة جديدة ، طارئة على أساليب عصره .

ولسنا هنا بصدد الحديث الجامع عن الألوان البديعية ، وتتبعها كلها فى

أساليب المنشئين فى العصر المملوكى . ولكننا أحببنا أن نبرز أمام القارئ ، بعض هذه الألوان ، مما كان له سيطرة على تلك الأساليب حسبما رأى ابن حجة فى خزانته — وسنرى عما قريب مصداق نظره — ومما كان له ميزانا أو قاعدة من قواعد النقد الفنى فى عصره .

وأهم تلك الأنواع — على ما نوهنا :

براعة الاستهلال ، والجناس والسجع ونظام فقراته . والتورية . والاقتباس والطباق . والمقابلة . والاستخدام . والإبهام . والتوجيه . والإيداع . أو التضمين . والتشبيه . والمجاز . وحسن الاستعارة ، وخاصة الاستعارة المرشحة ، إذ قال عنها ابن حجة . « ليس فوق رتبتها فى البديع رتبة » .

وهناك ألوان أخرى كثيرة ، استحسنها ابن حجة . ولكن يبدو أنها لم تكن ذات سيطرة ضخمة على الأساليب . فهى أصباغ قليلة الظهور . ومنها على سبيل المثال : « الهزل الذى يراد به الجد » .

وهناك ألوان أخرى استهجنها ابن حجة وقبحها وحمل عليها ، وبين أنه لم يلتزمها فى بديعيته إلا من باب المعارضة فحسب ، لأن المعارضة ملزمة بذلك . ومنها — على سبيل المثال أيضاً :

المراجعة : وهى أن يحكى المتكلم مراجعة فى القول ، ومحاورة فى الحديث بينه وبين غيره بأوجز عبارة وأرشق سبك وألطف معنى وأسهل لفظ . إما فى بيت أو أبيات . وقال عنها ابن حجة إنها ليس تحتها كبير أمر : وقد عجب كيف راق لابن أبى الأصبع اختراعها ، وقرنها إلى ما اخترع من ألوان بديعية مثل : التهكم والافتنان والتدبيج والهجاء فى معرض المدح ، والاشتراك . والإلغاز ، والنزاهة — ولسنا مع ابن حجة فى استهجان المراجعة .

وعلى هذا النمط تكلم مستهجنا ، عند تشابه الأطراف والتفويف وعتاب المرء نفسه والقسم ، وغير ذلك .

وهناك ألوان بديعية خاصة بالشعر دون النثر ، ومنها : الاستطراد والتخيير وإرسال المثل والتشريع والاكتفاء والاطراد . . إلى غير ذلك . هذه الألوان

ضربنا الذكر صفحاً عنها لأن الكلام عنها ليس من صميم بحثنا ، ولم ننوه بشيء منها فى هذا البحث إلا نادراً .

* * *

ونختتم هذا الفصل بأن ندعمه بعرض مناهج أخرى لابن حجة فى النقد ، يتجلى فيها ذوقه السليم ، وطبعه القويم ، بعيدة عن خضم البلاغة وقواعدها ؛ سارية مع تيار الأدب العذب اللطيف . ومن ذلك قوله فى باب التشبيه[1] :

« ومن قول ابن المعتز فى وصف الهلال :

وجاءنى فى قميص الليل مستتراً يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر

هذا التشبيه ، ذكروا أنه من مخترعات ابن المعتز . ولكن زاده القاضى الفاضل بهجة . ونقله من الأعلى إلى الأدنى . فإن رتبة الهلال وعلوها فى التشبيه على قلامة الظفر ، ما برحت مقررة فى الخواطر . إلى أن نقله القاضى الفاضل بطريق بديعية ، اقتضتها الحال ، وهى قوله مبالغا فى وصف قلعة بجم بالعلو : « وأما قلعة نجم فهى نجم فى سحاب . وعقاب فى عقاب . وهامة لها الغمامة عمامة . وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » . فخضاب الأصيل لهذه الأنملة حسن أن يكون الهلال لها قلامة . وهذه غاية فاضلية لا تدرك ... الخ » .

ومن ذلك قوله أيضاً فى باب التشبيه :

« ذكرت هنا من التشابيه التى هى غير بليغة ، قول الشيخ صلاح الدين الصفدى ، فى تشبيه القمر فى خلال الأغصان لما انثنت :

كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التم فى غيهبه
بنت مليك خلف شباكها تفرجت منه على موكبه

وقد أورد عليه علامة عصرنا القاضى بدر الدين الدمامينى — فسح الله تعالى فى أجله — فى كتابه المسمى : « نزول الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » ، نقداً كشف به القناع عن عدم بلاغة هذا التشبيه . فإن الشيخ بدر الدين المشار إليه قال — وقوله صحيح :

---

(١) الخزانة باب التشبيه ص ١٧٣ .

« إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين تشبيه الأغصان فى حالة انثنائها أمام البدر فى الدجى ، ببنت مليك تطل من شباكها للنظر فى موكب أبيها . وذلك عن مظان التشبيه بمعزل . ومقصوده أن البدر فى حالة ظهوره من خلال الأغصان المنثنية على الصفة المذكورة ، يشبه بنت مليك على تلك الحالة . تمثيلا للهيئة الاجتماعية . لكن اللفظ لا يساعد على ذلك المطلوب . فإنه جعل الأغصان مبتدأ وأخبر عنه بقوله : « بنت مليك » ... فلم يتم له المراد . على أن مقطوع الشيخ صلاح الدين مع ما فيه من عدم بلاغة التشبيه مأخوذ من قول « محيي الدين بن قرناص الحموى » :

وحديقة غناء ينتظم الندى بفروعها كالدر فى الأسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها مثل المليح يطل من شباك

* * *

الخلاصة :

إلى هنا نستطيع أن نستخلص جملة أمور منها :

أولا : أن ابن حجة ناقد ذو ذوق . وأنه وإن اعتمد فى كتابه : « خزانة الأدب » على النقد البلاغى ، لم يتقيد به . وأنه مزج بين كثير من قواعد النقد البلاغى واتجاهات النقد الذوقى ، متأثرا فى ذلك باتجاهات معاصريه . وبذلك أبرز الذوق الأدبى العام الذى ينتظم أدباء عصره .

ثانيا : أنه أبرز هذا الذوق ، أكثر مما أبرزه الشهاب الحلبى . وهذا يدل على أن الشهاب الحلبى — وهو من أهل المائة الأولى من العصر المملوكى — تلقى ، بحكم ، الثقافة الموروثة ، فامتزجت فى نفسه بثقافة عصره . فكان لهما معاً أثر فى توجيه ذوقه الأدبى ، الذى هو — فى جملته — صدى لذوق عصره.

أما ابن حجة — وهو من أهل المائة الثانية من العصر المملوكى — فقد استقرت هاتان الثقافتان فى نفسه ، وكان الذوق الأدبى للعصر قد تركز ، وأخذ وضعاً معينا ، فنضج بذلك ذوق ابن حجة الفنى على أساس من منهج عصره ، فكان صدى له .

وبالموازنة بين الرجلين ، نرى أن ابن حجة أكثر تمثيلا لذوق العصر المملوكى واتجاهه الأدبى ، من الحلبى . وهذه نتيجة زمنية أحدثها بعد ما بين

زمنيهما . وتأخر ابن حجة عن الحلبي فى الزمن . فالفترة التى عاش فيها الحلبي كانت — فى جملتها — فترة انتقال وإنشاء . والفترة التى عاش فيها من بعده ابن حجة ، كانت فترة استقرار وتركز وإرساء . وقد اتفق الرجلان فى أمور وافترقا فى أمور . ولعل من أبرز ما افترقا فيه : التورية . فالحلبي لم يحتفل بها — لا فى كتابه ولا فى إنشائه — احتفال ابن حجة بها . وذلك لأنها فى جيل ابن حجة ، أو بعد جيل الحلبي ، أو على يد جمال الدين بن نباتة « ٧٦٨ هـ » قد استقرت دعائمها ، وأصبحت من أهم أصباغ الأدب . — ومثلها الجناس ، فإن الحلبي لم يقف عنده وقفة طويلة كما وقف ابن حجة ، ولم يشر إلى إخراجه مخرج التورية حتى ترفع عنه العقادة ، ويصبح محسنا معنويا . إلى غير ذلك . — هذا وقد صرح ابن حجة بأن الشهاب الحلبي لم يكن يحفل بالتورية .

ثالثاً : أنه لم يقتصر فى نقده على أدباء عصره ، بل تناول غيرهم . وأنه لم يقتصر على نقداته المبتكرة ، بل أضاف إليها من نقدات غيره — معاصرين ومتقدمين — ليدعم بذلك نقداته وهذا مسلك فى النقد قويم . وأنه ارتضى من دعائم الأسلوب ألواناً هى أزهى ألوانه فى عصره . كما استقبح ألواناً أخرى ، كما لم يتحمس لبعض الألوان . وهذا يطابق الاتجاه الأدبى العام فى عصره ، فهو لذلك يمثله . ولا عبرة بالشواذ كالصفدى . لأنه ذو اتجاه خاص — وهذه الألوان التى تحدث عنها ابن حجة منها ما يختص بالشعر ، وما يختص بالنثر ، وماهو مشترك بينهما . ولم نعر القسم الأول اهتماماً كبيراً فى بحثنا هذا لضعف علاقته بموضوعه .

رابعاً : أن ابن حجة — كأى إنسان آخر — له حسنات وله عيوب . ومن عيوبه : تكرار أمثلته فى كتبه المتعددة ، وزهوه الشديد بنفسه وبنتاج قلمه ، ونقله من المتقدمين — كالشهاب محمود — بدون إشارة إلى ذلك . وهذا قليل لا كثير ولا مطرد . وأنه قاس فى حملته على من يخالف مذهبه كالصفدى والحلى . فقد نعتهما بمالا يرضاه منه أديب .

وعلى كل حال ، فهذه هنات ، لا يخلو الأدباء من أمثالها ، وكلها يغتفر

لابن حجة ، إلا الهنة الأخيرة . وياحبذا لو كان قد تخلى عنها ولعل فى جهوده الأدبية ما يشفع فيها .

خامساً : أن أسلوب ابن حجة فى كتابه « الخزانة » أسلوب غير مقيد ، لم يثقله كلف البديع ولم يتأنق فيه كاتبه ، كما اعتاد أن يتأنق فى كتابة رسائله مثلا ، هذا مع استثناء ما أورده من أمثلة ، وشواهد ، سواء أكانت من إنشائه أم من إنشاء غيره ، فإننا هنا نصف أسلوبه الخاص بشرح البديعية وما تخلله من نقدات وتعريفات .

هذا ، غير أنه ينطلق فى بعض الأحيان فى رسن من أرسان البديع ، وسرعان ما يعرج ثانيا على طلاقته ويجنح إلى حريته .

ويمزج نقداته فى أحيان كثيرة بعبارات فيها تهويل ومبالغة ، أو مباهاة وفخر ، أو تجن وقدح . وهو إلى ذلك ، كثير النقل من غيره ، سواء أكان ذلك فى صميم النقد أو فى تعريفات أنواع البديع ، يعرض ذلك فى وضوح وإشارة إلى من ينقل عنهم

وهو فى استشهاداته ذو ذوق حسن ، يقع خاطره على الرائع السائغ ، ويلذ له الاستطراد فى استشهاده إذا وجد بين الشواهد ما يغريه به . ولهذا أصبح كتابه سجلا حافلا بشواهد الأدب والبديع ممارق وراق . ودل بذلك على سعة اطلاعه وشامل إحاطته .

وحسبنا هذا البيان عن ابن حجة ولننتقل بالقارىء الكريم إلى أديب آخر له لون جديد من ألوان النقد . يخالف به الحلبى وابن حجة فى جملة مذهبهما ويخالف العصر . والحديث عنه — بلا ريب — يلقى ضوءا جديداً على النثر المملوكى يتضح منه اتجاهاته ومناهجه . وسنناقش هذا الأديب الكبير ، مناقشة يتضح منها رأينا فى الأساليب النثرية . — وهذا الأديب هو « ابن خلدون » .

الفصل الثالث

ولى الدين بن خلدون[1]

٧٣٢ هـ — ٨٠٨ هـ

هذا ناقد من لون جديد . نعرض له الآن ، لاتجاهه فى نقده وجهة خالفت إجماع عصره ، فلم يكن لنا بد من أن نعرج عليه تعريجة عجلى ، نطلع منها على كنه اتجاهه ونقده . ونناقشه ، ونوازن بينه وبين غيره .

وإليك تعريفاً به وجيزاً :

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون التونسى المالكى ، المؤرخ الفيلسوف ، والأديب البارع والمنشئ والشاعر والمؤلف . المشهور بابن خلدون . الذى شرق صيته وغرب ، صاحب المقدمة المشهورة فى فلسفة التاريخ ونشوء العمران .

ولد فى تونس عام ٧٣٢ هـ من أسرة عربية الأصل ، يمنية . اشتهر بعض أفرادها بالعلم والأدب والسياسة . ولما شب تعلم وتفقه ومارس الأدب وعالج الكتابة والشعر . ثم تقلب فى وظائف دول مختلفة فى بلاد المغرب والأندلس . وبلغ بسعة علمه ورجاحة عقله وحسن ذكائه وقوة عارضته وفراهة أدبه ، وإقباله على المغامرة فى سبيل المجد والجاه ، مبلغاً حسناً لدى الملوك والرؤساء . حتى استكفوه فى بعض مهامهم وشئون دولهم العليا ، ومنها كتابة السر وإنشاء الرسائل .

ولما نبا به المقام فى بلاد المغرب أقبل أخيراً على مصر . وتوطنها نحو ثلاث وعشرين سنة ، حظى فيها لدن سلاطينها ورؤسائها . وولى قضاء المالكية بها

---

(١) توجد ترجمة ابن خلدون فى الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٣٨٧ .

أكثر من مرة. وزاول التدريس بالجامع الأزهر. وما زال، حتى قبض ودفن بمصر عام ٨٠٨ هـ. لهذا نعتبره أحد رجالها.

وأجل آثاره مقدمة كتاب تاريخه «العبر»، فى أخبار العرب والعجم والبربر. وقد أودع فى هذه المقدمة خلاصة ذهنه وعصارة عقله، وابتدع فيها قوانين العمران.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن فلسفته العمرانية، ولا بسطها ولا نقدها، ولا بيان مبلغ ما فيها من صواب وصدق، أو باطل وزيف. وإنما تهمنا هنا نزعته الأدبية، ونظرته إلى أساليب معاصريه.

كان ابن خلدون أديباً ممتازاً، وشاعراً جيد الديباجة، ومنشئاً بارع الإنشاء، عالج الكتابة فى الدواوين الرسمية، وخارج الدواوين. فكتب الرسائل السلطانية، وكتب الرسائل الإخوانية.

ولكن كان — بجانب ذلك أو قبل ذلك — صاحب ذهن وقاد، وقريحة نفاذة جبارة، تميز بين الخبيث والطيب، وتفرق بين الغث والسمين. وتتغلغل بين الأغوار فتسبرها، وتتجاوز حدود السطحية إلى الأعماق فتختبرها وتظهرها، ولا ينى يتناول الأشياء بعقله وحصافته، فيتألف دقائقها، ويتعرف حقائقها، حتى يصل من وراء ذلك، إلى ميز الحق من الباطل، وفصل الأصيل عن البهرج الزائف.

إلا أن ذهنه كان ذهن فيلسوف يعيش بعقله أكثر مما يعيش بقلبه، ويحيا بمنطقه أكثر مما يحيا بعاطفته. وبهذا استطاع أن يفتح أمام ناظريه كتاب الكون وسفر الحياة. فقلب فى صفحاته ما شاء. حتى بلغ من معرفة أسرارها مبلغاً محموداً، فطفق يكتب قوانين الحياة وشرائع العمران.

كان ابن خلدون بذلك أرحب أفقا من معاصريه، وأبعد تطلعا. وأعمق خبرة، وأشمل نظرة. كان فى مستوى عقلى فوق مستواهم. لهذا كانت أحكامه الأدبية — أو بعضها على الأقل — أدنى إلى المثالية، وأبعد عن الواقعية.

ولعل من المناسب أن نصف أسلوب ابن خلدون فى تاريخه ، وفى مقدمته وفى رسائله ، وصفا موجزا ، نقدم به بين يدى الكلام عن نقده لأسلوب معاصريه ، وحملته الشعواء عليهم ، مشيرين قبل كل شيء إلى أن الأسلوب البديعى المسجوع ، كان إلى عهده صاحب السيطرة على أساليب الأدباء فى المشرق والمغرب معا ، لا فى مصر والشام وحدهما ، مع فوارق واختلافات . ليس هنا محل الإفصاح عنها . أما أسلوب ابن خلدون فيتجلى فيما يلى :

أسلوبه فى كتاب تاريخه :

عدل فيه عن السجع والمحسنات إلى توخى الاسترسال والقص ، وسرد الحوادث ووصف الوقائع ، وتدوين أخبار الدول والحروب ، فى عبارات هينة سهلة لا كلفة فيها ولا أناقة ، هى قريبة الشبه بأساليب أكثر المؤرخين فى تلك العصور . وقد كانوا فى أغلب أمرهم ، لا يبالون بأية عبارة يلقون بها أخبارهم ، حتى انحط بعضهم إلى مستوى العامية .

هذا ، وقد راعى تسجيل حوادث كل دولة فى فصول على حدة . مع افتتاحها بعبارات موجزة فى بيان أسباب نشوئها .

أسلوبه فى المقدمة :

سار فيه على نسق أسلوبه فى بقية كتاب تاريخه . ونعنى بالمقدمة ، الجزء الأول من « العبر » ، وهى التى ملأها فصولا فى نشوء العمران ، وفى تاريخ العلوم والآداب والصناعات . وغير ذلك .

وقد برئ أسلوبه فيها من المحسنات البديعية ، والقيود اللفظية . وأمعن فى الاسترسال . ولم يراع إلا مقتضى الحال — وفق فهمه ومناسبات كلامه — لذلك برز أسلوبه بليغاً سهلا أخاذا . كأنه الحديث المبثوث فى غير كلفة تئوده ، ولا زينة تثقل خطوه . ولم يتوخ فيه إلا الرغبة فى الإيضاح والبيان ، وإبراز المعانى .

ولابن خلدون فى هذه المقدمة خصوصية ، وهى الحنكة الأسلوبية فى حسن

إبراز المعانى الدقيقة بألفاظ. وجمل غاية فى الدقة والكياسة والدلالة . وهذا هو الوصف الشائع فى أسلوب مقدمته مع السهولة والعذوبة فى اللفظ والتركيب .

وقد كانت المقدمة بأساليبها أستاذا للكتاب والصحافيين فى العصر الحديث ، طوعت لهم أساليب اللغة وأخضعتها بين أيديهم ، وألانتهالهم بما ضربته من نماذج قوية فى التعبير عن أدق المعانى الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والصناعية . فكان لها أثر لا ينكر فى توجيه الأسلوب الحديث ، وعدول كتاب عصرنا عن الأسلوب البديعى ، وهجر السجع ونظام الفقرات وما إلى ذلك .

ولم يسمح ابن خلدون لأسلوب مقدمته — على الرغم من سهولته ودنوه — بالالتياث بألفاظ العامة والسوقة المبتذلة والملحونة ، والدخيلة إلا قليلا .

ولا يخلو — مع ذلك — من هنات ومآخذ . مثل جعل الخبر أوجواب الشرط استثناء . وكإدخال الباء على غير المتروك فى أفعال الاستبدال . وكالاستطراد بين جزأى العبارة . وكإطالة بعض العبارات إطالة قد يضل المعنى فى ثناياه . وكالنزوع نحو الأقيسة والموازنات أحيانا ، إلى غير ذلك[1] . . .

أسلوبه فى خطبة كتابه وفى رسائله :

ومن العجيب أن يحمل ابن خلدون على كتاب عصره ملتزمى القيود البديعية ، ثم يأبى إلا أن يسجع فى عنوان كتابه وفى خطبته . فقد بدا فيهما معا تكلف منه شديد فى صوغ عباراتهما . وعنوان كتابه أطول عنوان مسجوع . كما التزم السجع فى الخطبة وأطال فى قرائنها المسجوعة طولا مملا . حتى استغرقت إحدى سجعاته — مثلا — نحو عشر قرائن .

أما رسائله الإخوانية فقد خضع فى أسلوبها لمنهج عصره — مع أنه فيها حر وبمنجى من الخضوع لربقة البديع ، وليس مقيداً فيها بديوان ولا سلطان . ومع هذا لجت فى بحر البديع ، وطاوعت تياراته . ولعل سبب ذلك أنه لم يكن

---

(١) راجع ترجمة ابن خلدون للأستاذ الإسكندرى — رحمه الله — فى جملة مذكراته لطلاب دار العلوم .

لنفسه يكتبها ، وإنما لإخوانه ومناظريه ، وهم جلة أدباء عصره . مثل لسان الدين ابن الخطيب ، ممن ينهجون منهج العصر فى سلوك البديع . فكان هذا حالا اقتضى مجاراتهم فى هذا الأسلوب . . .

أما رسائله السلطانية ، فيبدو لنا أنه فى مطالع حياته الديوانية نهج نهج كتاب عصره من اصطناع البديع ، وتحرى السجع . إذ كانت طريقة القاضى الفاضل قد غربت بعد ما شرقت ، وكان لها أثر فى كتابة منشئ المغرب .

غير أن ابن خلدون لم يلبث ناهجا هذا النهج طويلا ، بل ربأ بنفسه عن نير التقليد ، وأزاح عن كاهله ربقته ، ونادته سجيته وسليقته إلى أن يزاول الترسل ، وينطلق فيه بدون قيد ، ليعيد بذلك سنة الكتاب البلغاء الأوائل . وقد قال فى ذلك عن نفسه عندما استخدمه السلطان أبو سالم المرينى سلطان فاس ، فى كتابة سره وإنشاء رسائله ، ما نصه :

« واستعملنى فى كتابة سره . والترسل عنه ولإنشاء مخاطباته . وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضعف انتحالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عندهم من أهل هذه الصناعة » .

* * *

وقبل أن نعرض لرأيه فى أسلوب معاصريه . نسجل مثلين من كتابته : أحدهما مرسل ، والثانى مسجوع . لنتبين مقدار الفارق بينهما ، ولنرى أنه حينما ترسل ، وبخاصة فى مقدمته وتاريخه ، كان عالماً قبل أن يكون أديبا . وأنه حينما سجع وكتب رسائله الخاصة ، كان أديباً معاصراً قبل أن يكون عالما .

فمن ترسله ، ما كتبه فى مقدمته ، عن نكبة البرامكة ، قال :

« وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية . حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه . فغلبوه على أمره . وشاركوه فى سلطانه . ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه . فعظمت

آثارهم ، وغمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، الخ...

ومن سجعه ، ما كتبه من رسالة إلى لسان الدين بن الخطيب ، قال :

« سيدى مجدا وعلوا . وواحدى ذخرا ومرجوا . ومحل والدى برا وحنوا . ما زال الشوق منذ نأت بى وبك الدار ، واستحكم بيننا البعاد ، يرعى سمعى أبناءك ، ويخيل لى من أيدى الرياح تناول رسائلك . حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع . وعهد غير مضاع . وود ذى أجناس وأنواع . » الخ . . .

* * *

رأيه فى أسلوب معاصريه :

ومن كتابته المرسلة ، ذلك الفصل الذى كتبه فى مقدمته تحت عنوان : « فصل فى انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر » ، وحمل فيه حملة شعواء على المتأخرين من الأدباء ، ولا سيما أدباء المشرق لعهده ، لما اتجهوا بأساليب نثرهم وشعرهم نحو السجع والحلية ، وعدم مطابقة ذلك لمقتضى الحال ، ومنافاته للبلاغة ، قال :

« واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون — يعنى فنون الشعر والنثر — أساليب تختص به عند أهله ، ولا تصلح للفن الآخر ، ولا تستعمل فيه . مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب ، والدعاء المختص بالمخاطبات ، وأمثال ذلك .

وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ، من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض . وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، لم يفترقا إلا فى الوزن .

واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه . وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه . وخصوصاً أهل المشرق . وصارت المخاطبات السلطانية ، لهذا العهد ، عند الكتاب الغفل ، جارية

على هذا الأسلوب الذى أشرنا إليه . وهو غير صواب من جهة البلاغة ، لما يلاحظ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، من أحوال المخاطب والمخاطب .

وهذا الفن المنثور المقفى ، أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر . فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية . وخلط الجد بالهزل . والإطناب فى الأوصاف ، وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات . حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك فى الخطاب . والتزام التقفية أيضا ، من اللوذعة والتزيين . وجلال الملك والسلطان ، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ، ينافى ذلك ويباينه .

والمحمود فى المخاطبات السلطانية ، الترسل . وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع ، إلا فى الأقل النادر ، وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له . ثم إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فإن المقامات مختلفة . ولكل مقام أسلوب يخصه ، من إطناب أو إيجاز أو حذف ، أو إثبات ، أو تصريح ، أو إشارة ، أو كناية واستعارة .

وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر ، فمذموم . وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال . فعجزوا عن الكلام المرسل ، لبعد أمده فى البلاغة ، وانفساح خطوه فيه . ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك .

وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه فى سائر أنحاء كلامهم ، كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب فى الكلمات والتصريف ، إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس .

فتأمل ذلك بما قدمناه لك ، تقف على صحة ماذكرناه . والله الموفق للصواب بمنه وكرمه ، والله تعالى أعلم » .

* * *

مناقشة هذا الرأى :

نحب أن نقف طويلا عند عبارات ابن خلدون ، نتأمل محتوياتها ، ونتدبر معانيها ومراميها ، وخاصة لأن ابن خلدون أديب ممتاز ، وفيلسوف اجتماعى مبتكر ، راع الإنسانية — ولا يزال يروعها — بما قدم لها من عصارة فكره النافذ ، وخلاصة ذهنه الوقاد . فمثله ذو أثر بارز فى لفت العقول ، وتنبيه النفوس ، وتوجيه الأفكار .

ولا نشك فى أن لإذاعة مؤلفاته فى عصرنا الحديث ، أثراً قوياً فى أدبائه. وفى توجيه أذهانهم نحو كثير من القضايا الأدبية ، وفى إقرار هذه القضايا — أو بعضها — فى نفوسهم : حتى احتلت منها محل الثقة والتصديق المطلق ، وقوبلت منهم بالرضا والتسليم التام .

ومن أهم مميزات ابن خلدون أنه حينما يلقى قضية ، أو يسجل ظاهرة ، يدعمها بأدلتها وبراهينها . وهذا مما يعاون معاونة كبرى على تصديقها والتسليم بها. كما أنه — فى الوقت نفسه — قد يثير شكا فيها ويدعو إلى مناقشتها ، فلعلها عند الفحص الدقيق لا تثبت ، وعند التمحيص العميق تتزلزل فتخلخل ، فتنهار وتهوى ... وكثيراً ما فند الأدباء أشياء من آرائه ، وكشفوا عن زيفها وخطئها .

ولا تتجنى على ابن خلدون ، كما تجنى هو على أدباء معاصريه . . . وحاشا أن نرميه بشىء كما رماهم . فله فى نفوسنا مكانة ، وفى قلوبنا محلة ، وفى ألسنتنا تجلة . وإنما نحب أن ننصف أدباء عصره من ربقة حكمه ، ونطلق سراحهم من أغلال قيده ، وبخاصة أدباء المشرق ، أدباء مصر والشام لعهده . ممن رماهم بأنهم غفل ، وبأنهم أعاجم ، وبأنهم عاجزون عن المطابقة بين كلامهم ومقتضى الحال ... وبذلك أخرجهم من عداد البلغاء ، وطردهم من قائمة الأدباء . غير مستثن ولا مستدرك . . .

نحب أن نناقش هنا عباراته وأحكامه وبراهينه ، عبارة عبارة ، وحكما حكما وبرهانا برهانا ، فى هدوء وتؤدة يناسبان جلاله ووقاره .. فنقول :

أولا :

يقول ابن خلدون إن المتأخرين استعملوا أساليب الشعر فى المنثور . ثم بين أن مراده من تلك الأساليب كثره المسجوع والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدى الأغراض .

إذا كان المراد بأساليب الشعر ، ما فيه من أخيلة لطيفة وتصورات ذهنية طريفة ، فالأساليب النثرية ملأى من قديم الزمان بهذه الأخيلة والتصورات . وهى أهم خصوصية يمتاز بها الأسلوب الأدبى التصويرى . وهذا النوع من النثر ، هو والشعر صنوان من قديم الزمان . والقرآن الكريم نفسه والأحاديث النبوية فياضان بألوان شتى من هذه الأساليب . وإن كان الخيال الشعرى فى القرآن الكريم هو منزع من منازع الحقيقة . وبهذا يفترق القرآن عن غيره من أساليب البشر . وتبدو الأخيلة الشعرية القرآنية ، بخاصة فى قصصه وأوصافه .

إلا أن ابن خلدون قد قصر هذه الأساليب على السجع والتزم التقفية ، وتقديم النسيب والسجع . والتزام التقفية ليس أمراً جديداً دخل على أساليب المتأخرين . بل هو عارض قديم صحب الأسلوب النثرى منذ الجاهلية . وهذه خطب خطبائها ، وعظات وعاظها ، وسجعات كهانها ، شاهدة بذلك . فهل كل ذلك كلام غير بليغ ؟ .

وقد اطرد هذا المنهج الأسلوبى . بين قلة وكثرة ، فى شتى العصور . فلعل الجديد فى نظر ابن خلدون هو « الالتزام » فى التقفية . وهذه خصوصية لا يستحق الملتزمون ، لأجلها أن يسقطوا من عداد الأدباء .

ولقد كان قس بن ساعدة ، وأكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة وعلقمة ابن علاثة ، وغيرهم يسجعون ويلتزمون التقفية فى أحايين كثيرة ، ولم يجرؤ أحد على إسقاطهم ونفيهم من عداد البلغاء . فهل كان سجعهم وحدهم مطابقاً لمقتضى الحال . أما سجع المتأخرين فلا مطابقة فيه ؟

وقد نعى ابن خلدون على المتأخرين استعمال هذه الأساليب فى الرسائل

السلطانية ، مع أن استعمالها فى الرسائل المذكورة ليس دخيلا عليها فى عصره . بل هو اطراد للمتبع فيها منذ زمن بعيد . بل لا نبعد عن الحق إذا قلنا إنه مطرد منذ عهد عبد الحميد الكاتب ، إمام صناعة إنشاء الرسائل . ولابن المقفع وغيره من كتاب العباسيين رسائل مسجوعة مزودة بالأخيلة الشعرية . وليس أمر هذه الأساليب مقصوراً عندهم على الرسائل السلطانية ، بل تعداها إلى غيرها من الإخوانيات والخلقيات ونحوها .

ثانيا :

ووصف ابن خلدون كتاب المشرق لعهده ، بالغفل[1] ، أى النكرات ، وإذا رجعنا إلى الزمن الذى عاش فيه ابن خلدون ، وهو بين سنتى ٧٣٢ هـ ، ٨٠٨ هـ ، وجدنا كتاب السر ورؤساء الإنشاء وكتابه ، فى البلاد المصرية والشامية ، من بينهم من نرى أنه من المجازفة والجرأة أن نرميهم بالغفلة الذهنية والضعف الثقافى حتى يصح أن يكونوا غفلا أو نكرات . بل منهم من هو فى مقدمة المشهورين المعترف بفضلهم ، الخالدة آثارهم . ومنهم : علاء الدين بن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٦٩ هـ ، وقد ولى كتابة السر بمصر نحو ثلاثين عاماً ، ومدحه جمال الدين بن نباتة ، مدائح شتى . ومنهم أخوه المنشئ المشهور شهاب الدين ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وقد تقلب فى مناصب الإنشاء بمصر والشام زمناً ، ومن مصنفاته : مسالك الأبصار ، وهو موسوعة أدبية وعلمية حافلة عظيمة القيمة ، وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » الذى أوضح فيه الأساليب الديوانية لعهده — ومنهم بدر الدين محمود بن الكلستانى المتوفى عام ٨٠١ هـ وقد قال عنه البدر العينى : « كان فاضلا ذكياً فصيحاً بالعربى والفارسى

---

(١) الغفل : جاء فى القاموس ماملخصه : الغفل بالضم من لا يرجى خيره ، ولا يخشى شره ، ومالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ، ومالا عمارة فيه من الأرضين ، وما لا سمة عليه من الدواب ، وما لا نصيب له ولا غرم عليه من القداح . ومن لا حسب له . والشعر المجهول قائله . والشاعر المجهول .

والتركى ، هذا إلى اشتغاله بالتدريس فى عدة مدارس[1] وكاد — وهو رئيس الديوان — أن يغير مصطلحاته ويعود بأساليبه إلى النهج العربى الأول .

وإذا خرجنا بعيداً عن محيط الدواوين الإنشائية وكتابة السر ، فى نفس الفترة وجدنا أدباء ممتازين قد دبجوا ضروب الرسائل الرائعة على نمطهم البديعى ، وصنفوا شتى المؤلفات الأدبية وغيرها . ومن المجازفة أيضاً أن نتهمهم بالضعف الثقافى والضعة الذهنية وضيق الأفق العلمى والأدبى .. ومنهم : الأديب الشاعر الكاتب جمال الدين بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ . الذى فضلا عن شعره الرائع البديع ، دبج الرسائل والموازنات والمقالات وألف « سرح العيون فى رسالة ابن زيدون » وله غير ذلك . ومنهم « زين الدين بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ الأديب الشاعر الكاتب الفقيه الذى ناب فى الحكم ، وألف « تتمة المختصر فى تاريخ البشر » وكتب الإخوانيات والمقامات والإجازات . ومنهم صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، الشاعر الأديب المؤرخ صاحب « الوافى بالوفيات » و « نكت الهميان » و « الشعور بالعور » إلى غير ذلك .

ونحن هنا أشرنا إلى الأدباء الأدنين . الذين عاشوا فى فترة حياة ابن خلدون ، وهم أدباء القرن الثامن الهجرى ، أو أدباء النصف الثانى منه . والعجيب أن القرن المذكور امتلأ بأدباء ممتازين ، هم زينة مجد فى جيد مصر ، وقلادة فخر تحلى عنقها .

فإذا نحن رجعنا خطوة أو خطوتين قبل ميلاد ابن خلدون ، وجدنا بعض هؤلاء « المتأخرين » الذين قد ينسحب عليهم حكمه ، من أدباء العصر الأيوبى كالفاضل والعماد الأصبهانى والبهاء زهير — ومن أدباء صدر العصر المملوكى كمحيى الدين بن عبد الظاهر ، وتاج الدين بن الأثير ، وابنه علاء الدين بن الأثير والشهاب محمود الحلبى . وكلهم من زعماء المنهج البديعى . فهل أمثال هؤلاء غفل ومناكير ؟

---

(١) ترجمته فى الضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٥٤ .

ثالثا :

وأهم مأخذ أو مطعن وجهه ابن خلدون إلى هؤلاء البلغاء الأعلام ، أن كلامهم وأسجاعهم وتقفيتهم غير بليغة ، لأنها ليست مطابقة لمقتضى الحال من المخاطب والمخاطب . . .

وعدم المطابقة مسألة فيها نظر . . لأن الأحوال التى ينبغى بها أن يطابق الكلام مقتضياتها حتى يكون بليغاً ، لا يمكن تحديدها على وجه من الدقة والضبط ، ولن يستطيع أحد أن يدعى القدرة على تحديدها حتى يقد الكلام على وفقها . إلا الله سبحانه وتعالى ، الخبير بالسرائر والعليم بجميع الأحوال . . . ولهذا جاء قرآنه الكريم بليغاً ؛ لأنه مطابق فى مجموعه وتفصيله ، وشتى أساليبه وتراكيبه ، بمنطوقه ومفهومه ، وصريحه ومؤوله ، لمقتضيات الأحوال .

وقصارى الأحوال الكلامية ، أن مرجعها إلى المتكلم وحده - صاحب الكلام الذى يصوغه ويؤلف بين أجزائه — فهو الذى يزن فى أغوار نفسه ودخائل ذهنه أحوال خطابه وجميع ملابساته ، ثم يجرى الكلام وفقها مطابقاً لمقتضياتها.

وليس معنى ذلك أن كل كلام يصبح بليغاً . . ولكننا نعنى أن الناقد كثيراً ما تند عن ذهنه اللبيب ، وتغيب عن خاطره الثاقب ، أحوال كثيرة راعاها المتكلم فى خطابه ، غفل هو عنها ، فأخذ المتكلم بها . فجاء لذلك نقده فجاً مبتسراً .

وبعد . فهل استخدام الأساليب الشعرية والسجعات اللطيفة ، والتقفيات، بل وشتى ألوان البديع وزخارفه بما فى ذلك خلط الجد بالهزل ، والإطناب فى الأوصاف ، وكثرة التشبيهات والاستعارات ، وضرب الأمثال . . . يخرج الكلام عن مطابقته لمقتضى الحال . . . ؟ حيث لا تدعو إلى ذلك كله ضرورة؟ لأن جلال الملك والسلطان ينافى ذلك ويباينه ؟

ومن قال إن أحوال الملك والسلطان ، واحدة فى كل عصر ، وفى كل مصر وفى كل مناسبة ... وجامدة لا يعتريها تحول ولا تغيير . حتى يصح أن تتبع فيها

أساليب خاصة لا يسجع فيها ، ولا يخلط فيها بين جد وهزل ، ولا يطنب فيها فى الأوصاف والألقاب ؟ !!.

إن أحوال الملك والسلطان تتقلب بين الوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والراحة والقلق ، واليسر والعسر ، والقوة والضعف ، والحزم والمصانعة ، والحلم والغضب ، والمناجزة والتراخى ، إلى غير ذلك .

ولكل حال ملابسات وظروف تستدعى الإيجاز حينا والإطناب حينا ، والتلميح تارة والتصريح تارة والإبهام مرة ، والتفصيل مرة . وهكذا . فهى أحوال متعددة ومتشابكة لا تقف عند حد . حتى تراعى فيها أساليب بعينها تلتئم وجلال الملك والسلطان ، فتنأى عن السجع والتقفية والإطناب فى الأوصاف .. الخ

ثم لماذا لا تكون الرسائل السلطانية مسرحا للأخيلة الشعرية والسجعات اللطيفة ، والإطناب فى الوصف ، ونحوها من بدائع البديع ؟ وهى أهم وسائل التأثير ، وأروع ما يكسب الأسلوب صولة وجاها عند مستمعيه ، مادام المقصود من هذه الرسائل ، لا مجرد التبليغ وإيضاح الحقائق — ولكنه التأثير فى السامعين ، سواء أكانوا رعية يخاطبهم السلطان ، أم أصدقاء يهدى إليهم أو يوثق معهم روابط الود . أو أعداء خارجين يهددهم وينذرهم ويستدرجهم إلى الخضوع له وطاعته ، أو عمالا ينصح لهم ويرشدهم ويوصيهم . أو غير ذلك .

كل هذه أمور وملابسات وأحوال يحلو فيها الإطناب ، ويعذب السجع وتلذ التقفية .. لأنها من أدوات التأثير — كما أشرنا — ونحن لا نقول إنها ضربة لازب وفريضة ينبغى أداؤها . ولكننا نقول إن هذه المخاطبات مسرح لا يتنافى مع هذه الوسائل والأعراض ، وإن لم يتطلبها أحيانا أو يدع إليها .

نريد أن نقول إن المعنى — وحده وفى حد ذاته — ليس كل المراد من إلقاء الكلام ، وتأليف الألفاظ ، فلا يكفى أن نلقيه إلى السامع ليتأثر به . وإنما يتأثر السامع بطريقة الإلقاء ، وبالثوب اللفظى الذى يلبسه هذا المعنى .

فالرغبة فى التأثير حال من الأحوال . لها مقتضياتها التى ينبغى رعايتها

ومطابقة الكلام لها . ومن هنا يتبين فضل السجعات والتقفيات والإطناب فى الأوصاف والخيال الشعرى . . الخ ، لأنها أدوات لهذا التأثير ، ولأنها صاحبة الفضل فى إبراز المعنى مزدانا محلى ، قويا فى جلاله وكماله ، وبين حواشيه وظلاله .

وقد عودنا كتاب الرسائل — منذ القديم إلى عصر ابن خلدون — رعاية السجع والتقفية والإطناب فى الوصف والخيال الشعرى ، إلى غير ذلك ، فى كتابة رسائلهم . فكانوا بذلك مطابقين بين كلامهم ومقتضى الحال .

لقد كانت هذه الرسائل — أو شىء منها — تلقى فى الحفلات أو تتلى فى المساجد ، أو تقرأ على الجماهير ، أو تذاع فيهم ، فهل ينبغى أن تخاطب الجماهير بوجازة يسيرة خالية من سجع أو تقفية أو وصف ؟ وما كان يكون مدى استجابة الجماهير لها ، وتأثرهم بها ؟ ولاسيما الجماهير فى مصر ؟ .

إننا — اليوم — نعيب بعض الرسائل الرسمية ، لجفاف عباراتها وخشونة فقراتها ، وسبكها فى قوالب أدنى إلى قوالب القانون والجندية ، منها إلى الأسلوب الأدبى اللطيف الأخاذ ، الذى تجرى فى أعواده مياه الخيال ، وتتبدى فى صفحته الصور الشعرية اللامعة ، وتتوافق فيه الفقار ، وتتناغم السجعات ، وتتلاحق الأوصاف ، حتى تظهر المعانى فى ثوب قشيب ، وبزة حسنة تزيده ملاحة وصباحة وقسامة ووسامة ، وحلاوة وطلاوة ، وتضمن له رضا وقبولا ، ونود — أو أود — لو عاودها اليوم جميعاً ما كان لها فى سابق العصور ، من ينع ونضارة ، ورقة ولطف ، وكيس وظرف . أو لا ترى معى بعض رسائلنا الرسمية التى تجرى على نمط من أنماط البديع ، وتتهادى فيها السجعات وتتماوج الأوصاف ، وتخطر الاستعارات ، تحظى من الجمهور بنصيب غير منكور من رضاه وقبوله ؟ ولا يفتأ يردد فقراتها ويتلو عباراتها بين الآن والآن ؟ .

إذن فلم نعيب هؤلاء الأسلاف ، لهذا النزوع الأدبى الجميل الذى تحلت به رسائلهم ، وتجلت آيانه فى إنشائياتهم ، مع أن الدواعى إلى انتهاجه ، فى عصرهم أكثر منها فى عصرنا الحديث ؟

ها هوذا هولاكو ملك التتار الذى أرسل إلى سلطان مصر المظفر قطز ، رسالته المشهورة ، يهدده فيها ويتوعده ، أن يستسلم له ويسلم ، ويفتح له ثغور البلاد المصرية ، يدخل إليها محتلا مستعمراً . فماذا دعته الحال أن يكتب فيها ؟ لقد أطال وأطنب ، وفصل وأسهب ، وحشد إليها صنوف المبالغات والتهويلات وألوان الوعيد والتهديد . وكأنه أسقط السماء على الأرض ، وأثار البحار فطغى طوفانها . وأهاج البراكين فاتقدت نيرانها .. كل ذلك ليلقى الرعب فى القلوب ، ويوقع الفزع فى النفوس . وفعلا كان لها أثرها الشديد ورجعها البعيد ، فتفرق الأمراء وخشى الرؤساء ، لولا رباطة جأش من سلطانهم ، وشجاعة قلب ، وقوة نفس ، وكمال إيمان بالله وبالوطن ، وثقة لا تحد فى أنه سينصر دينه — ولينصرن الله من ينصره .

وقد اشتبك القرنان فى ملحمة « عين جالوت » ثم « بيسان » وكر الجيش المصرى — بفضل ثبات سلطانه — على أعدائه كرة زلزلت أقدامهم وزعزعت ثباتهم ، فأسلموا للفرار بعد إثخان فيهم شديد . وبهذا تحول تيار التتار عن مصر نهائياً منذ سنة ٦٥٨ هـ .

فماذا قال هولاكو فى رسالته ؟ .. قال[1] :

« من ملك الملوك شرقا وغربا . القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز . الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم . يتنعمون بأنعامه — ويقتلون من كان بسلطانه . بعد ذلك يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال . أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه . وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر . وعن عزمنا مزدجر . فاتعظوا بغيركم . وأسلموا إلينا أمركم . قبل أن ينكشف الغطا ، فتندموا ويعود عليكم الخطا . فنحن ما نرحم من بكى . ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا

---

(١) راجع سلوك المقريزى حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

البلاد . وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب . وعلينا الطلب . . الخ » .

لاندرى ، لم لا تكون المخاطبات السلطانية مسرحا للأخيلة الشعرية والسجعات والأوصاف والمبالغات وما إليها : ألأنها مخاطبات سلاطين فحسب؟ ولأن للسلاطين جلالا يتنافى معها ؟ .

ومتى كانت حياة السلاطين كلها جدا لا هزل فيه ، وصراحة لا لطف فيها ، وغضبا لا حلم فيه ، وقسوة لا عطف فيها ، وعبوساً لا تبسط فيه ؟

إذا كان الأمر كذلك ينبغى أن تراعى فى مخاطباتهم — الصادرة على ألسنتهم — الوجازة والتلميح والإشارة لا غير . . حتى ليتحول الخطاب إلى حركات بنان وذبذبة لسان . . وتلك لعمرى أحاديث الخرس لا الفصحاء ، وكلام الأعياء لا البلغاء .

إن حياة السلاطين والرؤساء ، حياتهم العامة والخاصة ، مسرح واسع الأطراف للتموجات النفسية على اختلاف مستوياتها ، ولا تكاد تصلح للتعبير عنها غير هذه الأساليب الشعرية . . وهى فى هذا الموطن أصدق من غيرها .

انظر معى إلى مواكب السلاطين واحتفالاتهم ووفاداتهم واستقبالاتهم ، وتعطفاتهم ، ولقائهم للناس ولقاء الناس لهم ، محبين وأدعياء ، وكارهين وأصفياء ، ألا ترى معى أنها يسودها غالباً ملق ودهان وزخرف وبهرج ؟!!.

ثم انظر إلى صلاتهم المختلفة تر أن بطاناتهم وحواشيهم يعيشون معهم على الطمع والرجاء ، أو الريبة والخوف . ولهم مثل هذه الحالة فى معاملة بطاناتهم وحواشيهم . . ألا ترى معى أنها حياة نفسية وعاطفية تحتاج إلى الأساليب الشعرية لتسكب فيها نتاج انفعالاتها وزائد طاقاتها ؟

ثم انظر معى إلى صلاتهم المختلفة بسلاطين الخارج مثلا ؛ فهى إما صلات محبة وولاء ، أو كراهة وعداء ، وفى الحالة الأولى تحلو فى الخطاب أخيلة الشعر الجميلة الفياضة بالإشراق والأشواق ، وعلائم الوفاق ، تنبث فيها أضواء الصفاء ،

وتنبعث أصداء الولاء — وفى الحالة الثانية تحلو الأخيلة الشعرية أيضا ، بما يضى فيه الليل ويظلم النهار ، وتفزع شياطين العذاب ، وتثور جن المنايا ، وما إلى ذلك من مبالغات وتهاويل . .

ينبغى إذن — ونحن لا نستطيع أن نستعرض هنا كل أحوال السلاطين وملابسات حياتهم — أن تكون المخاطبات الصادرة عنهم صورة لواقع هذه الحياة ، وصدى لما يتردد فى جوانبها ، وما تنفعل به النفوس المتصلة بها ، وإلا كانت كاذبة مزيفة بعيدة عن الصواب ، مجانبة للحق . . .

ولا ننكر أن الأحوال قد تقتضى أحياناً الإيجاز والجد وإيضاح الحقيقة سافرة دون تجوز أو مبالغة ، ولكن ذلك قليل بالنسبة إلى غيره . وقد شهد بعض العصور جملة من الرسائل الموجزة والتواقيع — كالعصر العباسى — ولكن أين هى بجوار رسائله المطولة ذات الخيال الشعرى والإطناب الوصفى وما إليهما .. ؟

رابعا :

يقول ابن خلدون : إن المحمود فى المخاطبات السلطانية « الترسل » ! وهذه دعوى فى حاجة قصوى إلى دليل . لئن كان الدليل ذوقياً . لقد بينا فيما سبق أن المخاطبات السلطانية ينبغى أن تكون مسرحاً للأخيلة الشعرية ، ومن ثم للسجعات والتقفيات والإطناب فى الوصف ، والمبالغات ..

وإن كان الدليل واقعياً ، فإن تاريخ الرسائل السلطانية فى قرابة ألف عام يدل على أنها كانت مسرحاً لهذه الظواهر الأسلوبية .

نقول ذلك لأن ابن خلدون يطابق بين الأسلوب الشعرى وأسلوب الترسل والذى نفهمه ونتذوقه أن أسلوب الترسل واسع المدى أيضاً ، فسيح الأرجاء لهذه الظواهر إذا استثنينا السجع منها . ولا يفترق — فى رأينا — أسلوب الترسل عن الأسلوب البديعى ، إلا فى السجع والتقفية . وهذه خصوصية واهنة

نستطيع غض الطرف عنها . . إذا لم نرد أن نعترف لها بفضيلة ، وهى لا تستحق كل هذا النعى على أدباء البديع لأنهم هجروا الترسل . . .

انظر إلى عبد الحميد الكاتب — وهو إمام المترسلين — يقول فى رسالته المشهورة التى كتبها وهو منهزم مع مروان بن محمد آخر ملوك الدولة الأموية ، يصف تقلبات الدنيا :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور . فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا لها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحلبناها . ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مولية . فملح عذبها ، وخش لينها . فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان . فالدار نازحة ، والطير بارحة . . الخ » .

بل انظر إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، من قبل عبد الحميد — حينما خاطب أهل العراق قائلا :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى » .

بل انظر إلى سيدنا عثمان بن عفان ، من قبلهما ، حينما أرسل إلى سيدنا على يستنجده فقال :

« أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه ، ولم يغلبك مثل مغلب . فأقبل إلى صديقاً كنت أو عدواً .

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولمـــا أمزق »

هذه كلمات « رسمية » قالها « حكام » لهم مكانتهم فى الدولة . أحدهم خليفة والثانى وال عظيم ، والثالث وزير كبير . وألقوا كلماتهم فى مناسبات « رسمية » ، لأنها مناسبات عامة تتصل بالدولة فى صميمها . وترى الازدواج وشيئاً من السجع ، وكثيراً من الخيال الشعرى واستعمال التشبيهات والاستعارات والكنايات ، والترادف ، وغير ذلك بادياً فيها ، مع أنها أمثلة رائعة من النثر المرسل .

فليدلنا ابن خلدون على أمثلة من النثر المرسل ، خلت من العبارات الشعرية ومن المبالغات البديعية ، ومن الإطناب والترادف فى الأوصاف . بل وخلت من السجع والتقفية جملة . . وهيهات أن يستطيع ، إلا إذا أشار إلى بعض التوقيعات . . . وهذه المسالك الكلامية من أهم دعائم الأساليب الأدبية .

ويقول ابن خلدون : إن المقامات مختلفة . ولكل مقام أسلوب يخصه من إيجاز أو إطناب أو حذف . . . الخ وهذا صحيح . وليس هناك — فى رأينا — أنسب من المخاطبات السلطانية للإطناب والترادف والأوصاف والخيال الشعرى . ومنطق العصور الماضية يؤيد ذلك ويزكيه . والواقع أكبر شاهد وأصدق دليل .

وقد يكون هناك من المناسبات السلطانية ما يستدعى فى الخطاب عنه ، الإيجاز دون الإطناب مثلا ، والبعد عن التجوز والمبالغات . ولكن ما هى هذه المناسبات التى تستدعى الإيجاز ؟ وما المناسبات التى تستدعى الإطناب ؟ هذا ما لم يبينه لنا ابن خلدون . ولو بينه لكان مثار خلاف بيننا وبينه . وذلك لأن العقول تختلف — بلا ريب — فى تحديد الأحوال المناسبة التى ينبغى رعاية مطابقتها فى الكلام .

ولعل من المناسب هنا أن نلفت النظر إلى ما سبق تسجيله عن الشهاب محمود الحلبى فى كتابه المتواضع « حسن التوسل ، إلى صناعة الترسل » . عندما أخذ يقنن للأساليب الإنشائية فى الرسائل الديوانية ، ومنه يتبين لنا حسن بصره بأمور عصره ، وسعة حيله بملابسات جيله ، وقد بسط لنا نماذج متعددة ، وشرح لنا مناسباتها وملابساتها ، وحدد لنا أحوالها ، وبين ما تقتضيه هذه الأحوال ، من ضروب القول وأوجه البيان . . .

وقد نختلف مع الحلبى فى تقدير الحال . ولكنه — على كل حال — قد بين بما بسطه أنه أوسع صدراً من ابن خلدون ، وأبعد إلماما لمقتضيات عصره منه . وأنه دار فى أفق البلاغة ووعى مناسباتها على مدى أرحب من مداه .

قال الحلبى ما مؤداه :

« ومما يتعين على الكاتب استعماله ، والمحافظة عليه ، والتمسك به . إعطاء

كل مقام حقه » . وهو يريد بالكاتب كاتب الديوان المتصدى لإنشاء الرسائل ، ثم غيره من الكتاب .

ثم أخذ الحلبي يبين بعض المقامات وأحوالها وما يناسبها من الأساليب ، فتحدث عن أوقات الحروب . وقال : يناسبها الإيجاز . وتحدث عن حركات العدو ، وقال : يناسبها الإطناب والبسط . وتحدث عن التهانى بالفتوح ، وقال : يناسبها الإطناب والمبالغة — وهكذا تناول الحلبي ضروباً من المقامات مبينا ما يناسب كلا منها من الأساليب ، مع التعليل لذلك . ثم ساق لكل منها أمثلة من إنشائه . وقد نوهنا بذلك كله فى أخريات حديثنا عن الحلبي فى الفصل الثانى .

فأين من هذا البسط ضيق المقام وقرب المدى الذى يدعو إليه ابن خلدون ؟ وليس عجيبا أن يبدو ابن خلدون غريبا بين معاصريه ، حينما انتهج النهج المرسل ونأى بجانبه عن البديع . وكتب الرسائل السلطانية بهذا المنهاج . وقد اعترف هو بذلك على نفسه حيث قال : « وانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم أهل هذه الصناعة » .

خامسا :

ويعلل ابن خلدون انتشار الخيال الشعرى فى عصره ، باستيلاء العجمة على ألسنة أهل العصر . وهذه عبارة قاصرة عن تحديد معناها ، وتكتنفها غموضة .

فمن هم أهل العصر الذين استولت العجمة على ألسنتهم ، فعجزوا عن إعطاء الكلام حقه من مطابقة الحال ؟ هل هم عامة الشعب ؟ وما لهؤلاء وإنشاء الرسائل السلطانية ؟!! أم هم السلاطين والأمراء ؟ حقا كان هؤلاء أعاجم . ففى عصر بنى أيوب كانوا من الأكراد . وفى عصر المماليك كانوا من الأتراك أو الجراكسة ، ولكنهم لم يلوا إنشاء الرسائل بأنفسهم ، بل وكلوا أمرها إلى كتاب سرهم ، ورؤساء دواوين إنشائهم .

لم يبق إذن ، غير الأدباء والمنشئين أنفسهم . من رؤساء الديوان وكبار

كتابه ، وكتاب السر . وهؤلاء لم يكونوا أعاجم ، بل كانوا من صميم الشعب ، ومن طائفة المتعممين . . . وإذا اعتبرناهم أعاجم بالنشأة والبيئة ، فإن الثقافة قد عادت فعربتهم كما عربت ابن خلدون نفسه ، وكما عربت أدباء عصرنا الحاضر . . . ! وليس فى مقدور منصف حريص على العدل أن يتهمهم بعد ذلك بالعجمة ، وهذه آثار أقلامهم ونفثات سحرهم شعراً ونثراً ماثلة ، وشاهدة لهم بطول الباع فى لغة العرب ومتنها وأدبها وتاريخها وفهم أسرار بيانها ، والخبرة بأدبائها .

وبعد ! أفلا ترى معى قصور عبارة ابن خلدون عن تحديد معناها بالضبط . وهب هؤلاء الكتاب أعاجم ، أفيعجز الأعجمى دائماً عن إيفاء كلامه حقه من المطابقة لمقتضى الحال ، إذا تعلم لغة جديدة غير لغته ؟ .

إن كثيراً من الأعاجم قد تلقوا لغة العرب تلقينا أو تقليداً ، ثم برعوا فيها وشاركوا أهلها حسن بيانهم ونزاهة بلاغتهم ، بل وصار لها منهم أئمة يوثق بهم ويحتج بأدبهم . وها هو ذا ابن المقفع وسهل بن هارون ، ثم الجاحظ — على رأى من يقول بأعجميته .

ثم إننا لنرى كثيرا من أبناء مصر والهند والشام وغيرهم الآن قد أتقنوا لغة أو أكثر ، من لغات أوربا ، ثم أحسنوا النطق بها ، وكتبوا بها ، وألفوا ونقلوا وخطبوا ، إلى غير ذلك من ضروب القول والحديث ، وكانوا كأفراد من أهل هذه اللغات ، حسن بيان ولباقة حديث ومطابقة حال . فلم يقل أحد إنهم أعاجم بالنسبة إلى تلك اللغات ، وإن هذه العجمة أصيلة فيهم لدرجة أنها تعوقهم عن أن يكونوا بلغاء .

فليست هناك إذن ، عجمة أصيلة فى النفس تمنعها من حسن البيان . وإن قضية العجمة ورمى الناس بها مسألة تحتاج إلى نظر جديد ومعاودة ...

وما دامت العجمة — التى هى بمعنى عدم المقدرة على اللغة وبيانها ، مقدرة سلقية — يستطاع التغلب عليها بالثقافة والدأب والمزاولة وممارسة البيان

ومعالجة البلاغة ، فلن تكون إذن نقيصة نرمى بها إنساناً إلا إذا تمكنت منه ، ولم يتفصح بثقافة ، ولم يتوقح بفقه ، ولم يأخذ من اللغة والأدب بنصيب .

من هذا نرى أنه من المجازفة والجرأة أن نرمى أدباء العصر المملوكى بالعجمة ، وبالعجمة التى تقف بهم حائلا دون مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

سادسا :

ويرمى ابن خلدون أولئك الأدباء الغفل المصابين بالعجمة ، بالعجز عن الكلام المرسل . وهذه قضية لاسند لها ولا دليل عليها . فهل زاولوه فعجزوا عنه وثبت هذا العجز ؟

إننا نعتقد أن الكلام المقيد أثقل على القلم ، وأشد إعجازاً للسان من الكلام المرسل ، وأن الكلام المرسل أطوع لهما وأيسر عليهما .

وحقاً ! قيل قديماً : «إن البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل يظن أنه يحسن مثلها» وذلك لسهولتها ووضوحها وحسن دلالتها وقربها من أفهام العامة ، مع سموها عن مبتذلاتهم اللفظية .

هذا حسن ! ولكننا هنا فى معرض الحديث عن البلغاء والموازنة بين كتاب يترسلون وكتاب يتقيدون بالبديع ، وحسبك من البديع قيوده . ومن الترسل حرية تطلق النفس على سجيتها ، أى نفس البليغ ، فتجرى وفق مرادها وهواها . والترسل ليس مظنة للعثور ، كالأساليب البديعية . وإذن من يستطيع إخضاع البديع بقيوده لسلطان قلمه لا يعجزه الترسل .

سابعا :

ويرميهم بالإخلال بقواعد اللغة والنحو والصرف وما شابهه ، فى سبيل المجانسة والتسجيع ونحوهما . وقد ظهر ذلك منهم شعرا ونثرا .

وهذا حق لامرية فيه . وقد تفكه الأديب جمال الدين بن نباتة ، فلحن عمداً فى قوله :

هات كأسى وإن لحنت من السكر فلا تلحنى إذا قلت هاته[1]

على أن هذا ضعف لا نرتاب فيه ، وندعو إلى نبذه . ولكن كم للأديب من سقطات ، وكم للشاعر من ضرورات . والمتنبي على جلالة قدره ، كان يخرج عن الموازين الصرفية . وفى شعر أبى العلاء ضرورات .

ومن المناسب أو الطريف هنا أن نروى ما قاله ابن حجة الحموى ، فى باب « السجع » — وسبق لنا الإشارة إليه — وانظر إلى اتجاهه . قال ما ملخصه :

« ومن فوائد الإنشاء التى يطول بها باع المنشىء ، أن السجع مبنى على الوقف ، وكلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفاً عليها . لأن الغرض أن يجانس المنشىء بين القرائن ويزاوج ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف ، إذ لو ظهر الإعراب ، لفات ذلك الغرض ، وضاق ذلك المجال على قاصده . ألا ترى أنهم لو بينوا الإعراب فى مثل قولك : « ما أبعد ما فات . وما أقرب ما هو آت . » للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة ، والثانية مكسورة منونة ، فيفوت غرض الاتفاق .

ومن ذلك أن السجع مبنى على التغيير ، فيجوز أن تغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها ، فيجوز فيها حالة الازدواج ما لا يجوز فيها حالة الانفراد . كالإمالة وحذف المفعول به ، وصرف ما لا ينصرف ، وغير ذلك من التغييرات » .

ونحن نرى أن مثل هذا الإخلال بقواعد اللغة ، لا يغير من المعنى شيئاً . وليس معنى ذلك أننا نبيحه على طول الخط ، ولكننا نعتبره كالضرورات الشعرية التى أجازها العروضيون للشعراء . فلماذا نحسبها على الكتاب ؟ ولا سيما إذا أقررنا ما ورد من أشباهها فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

فقد أثبت ابن حجة بعض هذه الأشباه فى خلال كلمته السابقة ، ومنها :

فى الإمالة :

قال : « فقد يكون فى الفواصل ما هو من ذوات الياء ، وما هو من ذوات

---

(١) هذا البيت من قصيدة لابن نباتة يرد بها على عتاب للصفى الحلى . والقصيدة تائية وتاؤها مفتوحة أولها : من لصب أدنى العباد وفاته . . . الخ

الواو ، فتمال التى هى من ذوات الواو وتكتب بالياء حملا على ما هو من ذوات الياء ، لأجل الموافقة . نحو قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجا » . أميلت « والضحى » حملا على ما هو من ذوات الياء ، لأجل الموافقة » .

فى حذف المفعول :

نحو قوله تعالى « ما ودعك ربك وما قلى » الأصل « وما قلاك » حذفت الكاف ، لتوافق الفواصل :

فى صرف مالا ينصرف :

« نحو قوله تعالى « قواريرا قواريرا » صرفه بعض القراء السبعة ليوافق فواصل السورة الكريمة .

ثم قال ابن حجة ما نصه :

« ولو تتبع المتأمل ذلك فى الكتاب العزيز لوجده كثيراً » .

ثم أورد عدة أمثلة من الحديث النبوى الشريف ، منها قوله عليه السلام :

١ — « أعيذه من الهامة والسامة ، ومن كل عين لامة » . والأصل : « عين ملمة » لأنه من ألم . ولكنه لأجل الموافقة ، قيل : لامة .

٢ — وقوله عليه السلام : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . الأصل : موزورات » بالواو ، لأنه من الوزر . ولكن ليوافق مأجورات .

٣ — وقوله عليه السلام : « دعوا الحبشة ما ودعوكم ، واتركوا الترك ماتركوكم » . الأصل : ماوادعوكم ولكن حذفت الألف ليحصل الاتفاق مع تركوكم .

ثم قال ابن حجة : « وسمعت أن بعض علماء الإنشاء صنع مؤلفا فى أحكام الفواصل » .

فما رأى ابن خلدون فى هذه الأمثلة ؟ هبه خرجها تخريجا آخر ، وزيف ما وجهها ابن حجة إلى الاستشهاد به ، فهل لا تباح أمثالها للكتاب ؟ وهل لا تباح أمثالها لهم وهم فى معرض السجع ؟ وهل لا تباح لهم على أنها ضرورة كضرورات

الشعر؟ وهل لا تباح لهم، ولو لم يفسد بها المعنى؟ ثم هل هى من الكثرة فى إنشائياتهم بالدرجة التى تسترعى الذهن، وتسقط الإنشاء به. وتحمل على المؤاخذة..؟ هذه وغيرها أسئلة تنتظر الجواب!

وبعد:

فما ناقشنا ابن خلدون هذه المناقشة دفاعا عن البديع، فالبديع يدافع عن نفسه بنفسه! ولا لبيان رأينا فيه. فإن البديع ليس مجالا لبيان الرأى إذا علمنا أنه كاللغة — ظاهرة من ظواهر الاجتماع.

ولكننا ناقشناه لأننا نعتقد أن رأيه فى أدباء عصره، ولا سيما أدباء مصر والشام — المشرق — سرى مسرى الكهرباء فى أذهان أدباء العصر الحديث ومؤرخى الأدب فيه. واستقر فى نفوسهم استقرار العقيدة الراسخة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وقد قال أستاذى المغفور له أحمد الإسكندرى مانصه عند كلامه على مقدمة ابن خلدون:

— «لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها، فى وقت أظهر منه فى العصر الحاضر. فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية، فى تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية، هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية العربية، والسياسية، من كتاب العربية، فى مصر والشام وتونس، وخاصة من ألف منهم فى مثل موضوعاته أو كتب فى الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب. ولأنه أرحب أسلوب علمى أدبى للنقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية، المحافظين على أصل المعنى، فهى الأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة». الخ[1]

ولا ريب فى أن أدباء هذه النهضة، تأثروا — إلى جانب ما تأثروا به —

---

١ — مذكرات للأستاذ الإسكندرى فى الأدب العباسى وأدب العصر التركى وبينها ترجمة ضافية لابن خلدون.

بآراء ابن خلدون ، ومنها آراؤه فى نثر معاصريه . فكان لذلك أثر مضاعف جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة ، ويرمون أدبهم بالضعف والانحطاط ويتأبون على دراسته . وإذا أخذوا فى دراسته . أخذوا وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم فيدرسونها وبعقولهم لوثة من هذه الآراء . وبدهى أن تأتى النتيجة وفق مقدماتها ، والأحكام رهن مقوماتها .

ومما عاون على الوصول إلى هذا الحكم انحطاط الأدب حقا فى العصر العثمانى ، نتيجة لإهمال الشعب وإقفال دور التعليم وضآلة الثقافة ، وانقطاع الشعب عن غيره من الشعوب الأخرى ، إلى غير ذلك .

وهناك إجماع أو شبه إجماع من نقاد عصرنا ، على أن الأسلوب البديعى كان جناية على اللغة ، وكان جناية على المعانى ، وكان جناية على الأفكار . وحال دون تقدم الفكر ورقى الأدب . . الخ

وأعتقد أن هذه النزعة منهم ، أثر من آثار ابن خلدون فيهم . فهو الذى سفه أدباء عصره وأتباع البديع . ونعى عليهم انتهاجهم هذا النهج الذى يتنافى مع الأصول البلاغية ويخرج الكلام عن مطابقته لمقتضى الحال .

واتهام هذا الأسلوب بأنه آد العقول والأفكار ، وآد المعانى ، وجنى على الأدب ، اتهام مبالغ فيه لأسلوب أدبى ساد فى الدول العربية والإسلامية زهاء ألف سنة . وأدى لها حاجتها صادقا .

ونعود إلى القول إن الأساليب ظاهرة اجتماعية تتأثر بأحوال الاجتماع . فمنذ أواسط العصر العباسى طغت على الدولة العربية عناصر أعجمية متنافسة متشاكسة فى كل ناحية تقريباً ، وخضعت الشعوب العربية لألوان من المدنيات والحضارات . وتعقدت فى ربوعها مقومات الحياة . وتوارت تلك النزعات العربية القديمة التى صقلتها البادية بصقالها وثقفتها الصحراء بما فى جنباتها من الحريات النفسية المتعددة التى تدفع النفس إلى الشجاعة دفعاً ، وتوحى إلى

اللسان بألوان الصراحة التى لارياء فيها ولادهان . وكانت نتيجتها هذا الترسل فى الأسلوب وتدفق المعانى أرسالا فى أى ثوب لفظى دون تكلف أو تعسف . حتى إذا تعقدت هذه الحياة ، وتشابكت أطرافها ، وعجت نواحيها بمطالب النفس ؛ رسفت هذه النفس تحت ألوان من الاستعباد : استعباد الآمال الواسعة ، واستعباد الرجاء فى الرؤساء وأشباه الرؤساء ، واستعباد الخوف من بطش الزمان وغدر الحياة . واستعباد السعى الجاد فى سبيل الرزق والجاه ، وما إلى ذلك من ضروب الاستعباد . زد على ذلك الثقافات الطارئة وألوان الحضارة الزاهية وزخارفها الباطلة ، وأوضاعها المتكلفة ، وأنظمتها المضروبة فى المواكب والاحتفالات والمواسم والتهانى والتعازى ، والحرب والسلم ، فى الحياة الخاصة والحياة العامة ، للخواص والعوام على السواء ، فضلا عن شيوع الترف المتطرف فى الطبقات العليا . وشيوع ألوان من الحرمان فى الطبقات السفلى ، وشعور البعض بالحاجة إلى البعض ، وشعور البعض بالخوف من البعض ، وغير ذلك من ألوان الحياة التى أخذت تصبغ الشعوب العربية ومن اختلطت بهم من فرس وترك وروم وهند وقبط وبربر ، وغير هؤلاء وهؤلاء .

هذا التفاعل العجيب بين شتى الشعوب الإسلامية ، الذى كان له أثره البالغ فى النفوس العربية وغير العربية ، كان له أثر بالغ فى توجيه الأسلوب وجهة جديدة هى الوجهة البديعية ، وانساق الأدباء كتابا وشعراء إلى أن يصبغوا نتاجهم بصبغته لما فيه من الزينة الزاهية والألوان الملهية ، والمخاتلات الذهنية ، والمداعبات الفكرية والإبهامات الطريفة والتلميحات الظريفة ، إلى غير ذلك من مما يناسب هذه الحياة الجديدة ، حياة الدهان والملق والحيلة ، وحياة الزخرف والتمويه ، وحياة الطلاء الظاهرى الذى يخفى من ورائه نفوساً مليئة ، وقلوبا مفعمة ، لايدرى إلا الله مدى مافيها .

على هذا الضرب الأسلوبى سار كتاب البديع فى المخاطبات السلطانية وغير

السلطانية . وغلب التبسط عليهم أكثر من الإيجاز . والتفصيل بدل الاقتصار . والبذل والسرف فى العبارة ، مكان الضن والإشارة ، إلى غير ذلك . وانغمس الكتاب على توالى العصور فى تيار هذا الأسلوب ، لوفور عوامله وتوالى مؤثراته.

ولم يتخلص منه أدباء العصر الحديث إلا لاختفاء تلك العوامل والمؤثرات. وإنه لمن الجهل الفاضح أن نقول إن هؤلاء الأدباء ، هم الذين غيروا منهجهم المتبع ، وأسلوبهم المصطنع ، بمحض اختيارهم ووفق مشيئتهم وهواهم . فلم يكن تحرير الأقلام الحديثة من ربقة الأسلوب البديعى وقفا على مشيئة الأدباء المعاصرين ، ورهنا بارتجالهم . ولكنها عوامل الثقافة الجديدة المتعددة الطارئة على الأمم العربية فى نهوضها الأخير وأسباب الحياة الحاضرة ، الحافلة الحاشدة وتدفق علوم الغرب وآدابه على بلادنا من كل جانب ، وبشتى الوسائل الجديدة، وشدة اتصالنا بأمم الغرب بضروب مختلفة من الاتصال ، وغير ذلك مما هو معروف مألوف فى أسباب نهوض البلاد المصرية بخاصة والعربية بعامة فى القرن الأخير.

ولعل فى مقدمة العوامل الجديدة انصراف البرامج التعليمية الحديثة عن أخذ الناشئة بحفظ القرآن الكريم كله ، ثم تدبر آياته ومدارسة علومه المختلفة مدارسة جادة تمتزج بنفس الناشىء الامتزاج كله ، لذلك لم ترسب هذه الدراسات فى أغوار نفوسنا وعقولنا ، أو تهتضم فيهما ، حتى تكون مصدراً من أهم المصادر التى تلون نتاجنا من أدب وعلم ، ومن ثم أسلوبنا .

ولعل من المناسب هنا أن نسجل رأى ابن خلدون فى أثر المحفوظ ونوعه فى صناعة النظم والنثر قال : « قد قدمنا أنه لابد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربى . وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته فى جنسه ، وكثرته من قلته ، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ . فمن كان محفوظه شعر حبيب أو العتابى أو ابن المعتز أو ابن هانىء أو الشريف الرضى أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصابى تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة فى البلاغة ، ممن يحفظ شعر ابن سهل من

المتأخرين أو ابن النبيه أو ترسل البيسانى أو العماد الأصبهانى ، لنزول طبقة هؤلاء عن أولئك . يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق »[1] .

وهو فى كلمته هذه يعود إلى الحط من شأن المتأخرين . على أن الذى يعنينا مانوه به من جودة ملكة النظم والنثر بجودة المحفوظ . فما بالك لو كان القرآن الكريم مع العناية بدراسته .. ؟

وإن كان ثمة شىء من هذه الدراسة الآن ، فليست فيها الجدية الكاملة التى لمسناها فى ناشئة المتعلمين فى العصر المملوكى . فما منهم من فقيه أوشاعر أو كاتب أوناقد أوطبيب أومؤرخ أوأى صنف آخر من الأعلام إلاوكان القرآن الكريم أول محفوظه ، ثم مدارسة علومه وعلوم الحديث وحفظ الحديث دعائم ثقافته ، وهذه كتب تراجمهم ملأى بهذه الأخبار ، تبدو للقارىء لأول وهلة .

ولقد كانت الدراسات القرآنية والدينية — ولو إلى حد — فى مقدمة عناصر الثقافة المصرية والشامية الحديثة فى مطالع العصر الجديد . واعتقادى أنها هى — لا الضعف ولا التقليد — كانت السبب فى انتهاج أدباء الجيل الماضى ، نهجاً بديعياً متزناً ، فى شعرهم ونثرهم ، فكانوا مجازاً للترسل الحديث ومنهم رفاعة الطهطاوى ، وعبد الله فكرى ، وحفنى ناصف ، ومحمد عبده ، وغيرهم من المشاهير .

هذه الظروف أو العوامل الجديدة وحدها ، هى التى لوت عنان الأقلام قسرا فوجهتها إلى الأسلوب المرسل . وأذهلتها عن الأسلوب البديعى ، وألهتها عما يأتلق فيه من ألوان . ذلك لأنها غيرت مجرى الحياة الحاضرة فى ظاهرها وباطنها . وأصبح العرب والمسلمون يعيشون اليوم بعقول جديدة ونفوس جديدة ، فيها الجرأة والصراحة والشجاعة والحرية بشتى ضروبها . وإن الأمة لتنفر باستمرار من كل مظهر من مظاهر الضغط عليها . حتى إنها إذا خضعت لها فى ظاهر أمرها ، ففى نفسها ثورة تفور ، وفورة تثور ، فأصبحت نفوسها حرة

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٩ — فصل فى أن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ .

ولو وضعت فى زوايا السجون ، طليقة ولو رسفت فى الأغلال .

ويطول بنا مقام القول إذا أرخينا للقلم العنان فى هذا المجال . وكل ما نرمى إليه ، الإشارة إلى تحول مؤاثرت الحياة ، وتغير مذاقها ، حتى أصبح الأسلوب المقيدلا يتسق مع مقتضيات الأحوال فيها ، فعادت الألسنة قسراً إلى ترسلها ، ورجعت الأقلام قهراً إلى انطلاقها . ذلك لأن الأسلوب البديعى فى حاجة إلى نوع من الترف العقلى ، والانفعال النفسى ، لم تعد تسمح به مقومات الحياة الجديدة الخاطفة .

واعتقادنا أنه لولا تلك المغيرات الجديدة لظلت أساليبنا سادرة فى طريقها لاتلوى على شىء ، ومن يدرى؟ لعله بعد هدأة من الزمن ، وتراخ من الأيام ، واستقرار من هذا القلق ، وتركز من ذلك الصخب ، ورسوب لهذه الموجات المختلفة ، وتغير لأساليب الحياة ، وعودة إلى العناية الجادة بالدراسات القرآنية والدينية ، ستستريح النفوس مرة أخرى ، إلى حلى البديع وزينته ، فتعود إليها مرة جديدة ، تصوغ منها ما تشتهيه عرائس الأقلام من قلائد ، وترتجيه بنات الأفكار من أنواط .

ويبدو أن أدباءنا المعاصرين ممن يلحون أسلافهم ، وينعون عليهم ما نعاه ابن خلدون ، إنما استجابت نفوسهم لما قاله ابن خلدون ، نظراً لهذا التوافق بين مشربه ومشربهم ، وتذوقه وتذوقهم فالتأمت نفوسهم بنفسه ، وأعارت آراءه تلك آذانا صاغية وقلوباً واعية . ولولا ذلك لتجافت عنها ، ونعت عليها ، وبرمت بها ، ووجدت فيها غربة لم تؤهل ، وغرابة لم تعلل . كما وجد فيها معاصروه . وحسبك شهادته على نفسه إذ قال عن طريقته الكتابية فى المخاطبات السلطانية : « وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع لضعف انتحالها ، وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم من أهل هذه الصناعة . . . »

ومع ذلك كله ، فأى مذمة فى أسلوب البديع ؟ ألأنه لا يطابق مقتضى الحال ؟ هذا لا يقول به منصف واع — فليس كل أسلوب بديعى غير مطابق لمقتضى الحال . كما أنه ليس كل كلام مرسل ، مطابقاً لمقتضى الحال . . . إذن استوى الأسلوبان فى هذه الخصوصية .

بقى أن ننظر فى الفوارق الجلية ، بين الأسلوبين فنقول : إن كثيرا من المحسنات البديعية ظواهر أسلوبية عامة أصيلة عريقة فى وجودها طبيعية فى الحياة التعبيرية . وذلك كالطباق والمقابلة والعكس والتوجيه ، والإبهام ومراعاة النظير والاقتباس والتضمين أو الإيداع ، والتورية والتعليل ، والتشبيه وألوان المجاز ، وغير ذلك . وإذا كان انا فى ذلك مقياس لا ينبو ، فهو لغة العامة ولغة الشعب ، التى هى الأصل الأصيل لنشوء اللغة وتنوع أساليبها ، وبخاصة الأساليب الأدبية التى هى ، فى أصدق ألوانها — استجابة لما فى نفوس العامة ، وإن تكن استجابة أيضاً لما فى نفوس الخاصة . نقول : إن هذه اللغة ، كما نراها ونسمعها اليوم — إذا صح أن الغائب يقاس على الحاضر — مليئة بهذه الأنواع البديعية . .

هذه الأنواع — نحب أن نقول إن الأساليب المرسلة مليئة بها . ولا يمكن أن تخلو منها ، لأنها روحها ومقومها . على أن هذه الألوان متصلة بإيضاح المعنى وإعطائه فضل بيان ، وبروزوجه ، وتأثير جمال ويطول بنا مقام القول ، إذا ذهبنا نختبر كل نوع منها ، لنبين مدى صلته بالمعنى وخدمته . حتى هذه الألوان اللفظية ، كالسجع والجناس ، لجرسهما ونغمها . والجرس والنغم بعض مكملات المعانى .

ومع هذا كله فإن المتتبع لأساليب الكتاب فى العصر المملوكى — وبخاصة بعد أن درسنا مذهب الحلبى وابن حجة — يرى أن هناك ألوانا بديعية اختلفت فيها أذواق هؤلاء الأدباء ، كالجناس مثلا ، فحبذه قليل منهم ، وأباه كثيرون . وهناك ألوان لم يقبلوا عليها كل الإقبال . وبعض الكتاب لم يلتزم التقفية .

فلا يحسبن متأدب أن الأساليب النثرية المملوكية ، كانت مراحاً لكل

تلك الألوان ، وأن كل مقالة ، لابد أن يثقل كاهلها بكثرة منها كاثرة . لا . فهناك تصغير الكلمات ، وإهمالها ، وإعجامها وتصحيفها والمتصل منها والمنفصل . والجناس الخطى أو غير ذلك من ضروب . هذه كانت من نوادر المسالك التعبيرية ، لا من مشهورها ، ومن خاصها لا من عامها . تكلف اتباعها بعض الكتاب لاجميعهم ، وتكلفها هذا البعض ، فى بعض ما كتب لا فى كل ما كتب — وهذه ظواهر أو عوارض لا خطر لها ، ولا حكم بها . إنما للظواهر الغالبة الملتزمة التى يندر أن تتجافى عنها مقالة أو قصيدة مثلا ، الخطر والحكم . وهذه الظواهر كما بينا — طبيعية فى وجودها ، لا متكلفة ، وبدهية فى الأسلوب لا متعسفة .

وكل ما نستطيع استخلاصه من بعد ذلك ، أن الفارق بين الأسلوبين المرسل والبديعى الأدبيين ، أمور معدودة . هى السجع والتزام التقفية ونظام الفقرات والتزام أنواع من البديع . وهى أمور — كما ترى — ليست بمكان كبير من الخطورة ، حتى نحكم — بسبب وجودها — على الأسلوب البديعى ، أنه لا يراعى فيه مقتضى الحال .

ثم لابد بعد ذلك ، فى المخاطبات السلطانية من الخيال الشعرى ، والإطناب فى الوصف ، وسوق الألقاب ، وشىء من التهويل . وذلك كله اتباع لنظم الديوان ورسومه وأوضاعه ، واستجابة لتطلعات العامة ونحوهم ، ممن توجه إليهم الرسائل .

وبعد :

فقد آن لنا أن نلقيها كلمة صريحة — هامسة لا مدوية — فى أذن أدبائنا المعاصرين . واعتقادنا أنها لن ترضيهم . ولكنها الحق الذى ندين به ، ولن نحيد عنه ...

لقد قيضت لهم فى العصر الحديث ، وسائل ثقافية لاحد لها . منها حرية التعليم ونظمه وألوانه ، وبعث الثقافات العربية والإسلامية القديمة ، ونشر ألوان من الثقافات الغربية ، وذيوع الطباعة وتدفق مطبوعاتها ، ما بين عربى

وغربى ، ومؤلف ومعرب ، وانتشار الصحافة هذا الانتشار الرائع ، ونضج الإذاعة ويسر المواصلات . هذا ، فضلا عن الحركات القومية والثورات السياسية المتعاقبة التى سببتها وأعقبتها هزات فكرية ونفسية عميقة ، إلى غير ذلك من ضروب الثقافة الرفيعة ..

وقد أشرنا منذ قريب إلى أثر ذلك كله ، فى الأسلوب الأدبى الحديث ، وفى عجلته نحو الانطلاق والحرية ، ونبذ القيود البديعية ، وأنه بذلك قد استجاب لهذه المؤثرات الجديدة .

والحق أن كتابنا المعاصرين ، مفخرة من مفاخر مصر . ومعجزة من معجزات الدهر . فقد خطوا إلى الأمام خطوات موفقة محمودة شأوا بها الشعر الحديث وشعراءه . ومنحوا أنفسهم — أو منحتهم ظروف حياتهم — ألواناً من الحرية ، كسروا بها شرة الاستعباد النفسى القديم ، وبذلك استطاعوا أن يمتلكوا زمام القول وأعنة البيان ، فلانت اللغة ليدهم ، وخضعت لسلطان أقلامهم ، فلم يعد يستعصى عليهم معنى من المعانى دون إبرازه ، ولا تمر عليهم فكرة من الفكر ، دون إيضاحها ، مهما عمق المعنى ودق ، أو جلت الفكرة وعظمت . . وكثير منهم اكتسب بالمعالجة والمرانة خبرة وحنكة وكياسة ورفقاً بالمعانى ولطفاً فى حسن أدائها ، حتى ليستطيع أن يبسط مركبها ، ويحل معقدها ، وأن يقود أبيها ، فسمقت بذلك شخصيتهم الكتابية ، وثبتت لكل منهم فى كتابته دعائم أسلوبية ، ميزت بينه وبين غيره ، وأعادوا بحق سنة الكتاب الأوائل .

ولكن إنشاءهم ينقصه لون أصيل من ألوان الفن ! وهو اللون الذى يربطهم بعامة معاصريهم وبمجموع جماهيرهم . اللون الذى يربطهم بهؤلاء فى نظر التاريخ الأدبى ، والذى به يكونون بحق أدباء هذا المجموع ، الذى يحيون فى نفوسهم حياته ، ويتأثرون بمؤثراته ، ويحسون بإحساساته ويموجون موجه .

ذلك لأن قصارى الأديب الخالد — كاتباً كان أو شاعراً أو خطيباً أو أى صنف آخر — أن يكون مرآة لعصره ، وأن تنعكس فى أدبه صور قومه

لامعة زاهية ، بما لها وما عليها . وبمقوماتها ومظاهرها ، من عاطفة وانفعال ، وتفكير وطرق تصور ، ووسائل تعبير .

هذه هى فنية الأديب الأصيلة — كما نعتقد — أو هى أزهى ألوان فنيته على الأقل ، مهما سما فى عبارته ، وترفع فى ثقافته ، ففى أسلوبه من أسلوب قومه مشابه وسمات .

فما مدى نصيب كتابنا المعاصرين ، ونصيب تعبيرهم ، من تعبير الشعب ؟

إنى أراهم فى واد والشعب فى واد ، ولا يتلاقى بهم إلا بمقدار . ذلك أن شعبنا المصرى له فى أساليبه اتجاهات خاصة ، ودعائم تعبيرية يصور بها مافى نفسه ، ولا يكاد يبرأ منها فرد من أفراده فى حديثه — ولقد أخذت هذه الدعائم سبيلها إلى الاستقرار منذ العهد الفاطمى — على وجه الإجمال — ومازالت حتى طبع عليها الشعب وتوارثتها أجياله جيلا بعد جيل ، حتى اليوم .

ومن تلك الدعائم : التورية والطباق والمقابلة والسجع والمجانسة ، والتلميح والإيهام والتوجيه والاقتباس والتضمين . أو الإيداع . . وخلط الجد بالهزل ، والاستعانة بالتشبيه والاستعارة والكناية ، وضرب المثل والحكمة ، وبذل الفكاهة والميل إلى الأطناب فى الوصف ، مع ندرة الإيجاز . إلى غير ذلك من الدعائم البارزة — وكان بودنا لو انفسح لنا هنا الميدان لتقديم الدليل والبرهان على صدق ما نقول . ولكننا ما نحسب أديباً واعياً ينكر علينا ذلك .

يسلك الشعب المصرى هذه المسالك التعبيرية ، وهو يصورها فى نفسه ، ترفيها للخطاب ، وتجميلا للفظ ، وتجسيما للمعنى ، وإلماعا إلى الذكاء وتوقد الذهن ، وإيذاناً بحضور البديهة . فهو يجنس ، ويورى ويطابق ويقتبس ويضمن . ولا ينى يبعث فى خلال ذلك ، النكتة إثر النكتة ، والفكاهة غب الفكاهة . وفيها دلالات عدة ، واتجاهات شتى ، ينم عنها اللفظ ، بمنطوقه مرة ، وبمفهومه مرة وبملابسانه مرة أخرى ، وهكذا . .

لا نحاول هنا أن ندرس مبعث هذه الروح فيه ، ولا أن نتتبع أسبابها .

ولا نحاول أن نرجعها إلى عواملها الطبيعية من ذكاء أو طيب عيش ، أو طيب مناخ — أو إلى عواملها الاجتماعية ، من كبت عاطفة أو مقاساة حرمان ، أو كمون التياع ، أو إلى خبٍّ فى لذة ، أو تطرف فى ترف ، أو غلو فى سرف . أو غير هذا وذاك مما يتطلب له المرء مخرجاً فى القول ، فلا يجد إلا هذه الضروب البديعية ، ففيها له المتنفس والمراح ، يجمع فى أحدها ، العديد من المعانى ، ثم يترك السامع يقلبها بين يديه ، ويختار من بينها ما يلذ له ويروقه . فهو بذلك يحمله على التفكير والتصور معه ، ويدفعه إلى مشاركته ، ويسرى بخياله شتى التصورات ، ويتنقل به بين مختلف المعانى — ويكفيه بذلك فنا .

سرت هذه الروح فى الشعب ، خلال حديثه ، حتى كانت له سمتا وشارة . وعرفت عنه منذ أمد . ونمت نمواً عجيباً فى العصر المملوكى . ولعل حياة الزخرف والدهان التى ملأت فجاج العصر ، كانت لها آثارها فى هذا النمو العجيب ، الذى نضح على أدباء العصر وشعرائه . فكانوا أدنى أدباء عصر إلى تمثيل أهله ، وأقربهم إلى تمثيل معاصريهم .

واعتقادى أننا معشر المصريين ، لانزال حتى اليوم ، ندرج فى هذه المدارج ، ونطرق تلك السبل ، برغم فراهة كتابنا وحذق شعرائنا وحرية أدبائنا ، وإزاحتهم ربقة البديع عن أعناقهم ، وتغلغلهم وراء المعانى والأفكار ، وسوقهم خلف الدقائق ، وأخذهم من الفلسفة وعمق النظر بنصيب ، ظهرت آثاره على إنتاجهم وأساليبهم .

ولكنى أعتقد أنهم — رغم حسناتهم تلك — لا يمثلون بأساليبهم ، العصر الذى فيه يعيشون . ومن كان فى ريب من هذا ، فليسر فى طرقات القاهرة وليعر السمع إلى نكات العامة ، ومحاورات الباعة ، ومماحكات المارة . فليلج الأسواق الجامعة . والمنتديات الحافلة ، وما شاكلها . فلينصت إلى أساليب الناس فى فى الحديث ، وإلى مدى امتلائها بالتوريات اللطيفة والتضمينات الطريفة ، والتجنيسات والمطابقات والتلميحات وغيرها من محسنات البديع . بل فليطف بالريف المصرى الجميل ويتحسس عبارات أهله فى رواحهم وغدهم وسموهم

وصلحهم وخلافهم . فإنه سيجد أن هذه المحسنات ، لاتخلو منها عبارة ولا تفرغ منها إشارة . والجمهور فى ذلك يصدر عن طبع سليم وفطرة قويمة . فهو يعكس فى أسلوبه تصوراته الباطنة وانفعالاته الخفية الكامنة ، ومعانيه النفسية المتشابكة .

فإلى أى مدى صار أدباؤه المعاصرون مرآة له فى مسالك أسلوبه ، ومناهج حديثه . . ؟ لقد يبست الفكاهة على شبا أقلامهم ، وتوارت التورية عنها خلف حجابها ، وأخذ الجد بزمام أدبهم حتى ضلت سبيل المزاح ، ولم يعد وجه الأيام متطلقا فيما يكتبون ، ولا ثغر الدنيا ضاحكا فيما يسطرون ، وصارت سطورهم تسفر عن معانيها الجادة ، غير مداعبة ذهنا ولا مشاغبة عاطفة . وكاد العلم ومنهجه يلبسها ثوبه الخشن — مع أنهم هم فى خصوصياتهم من الشعب وإلى الشعب ، وكأنهم فيها يعودون خلقا آخر ، حيث تتوالى نكاتهم ، وتتابع فكاهاتهم ، وتتجاوب توريا تهم . وتتناغم سجعاتهم . . وهذا مما يدل على أنهم ، يكتبون بعقولهم أكثر مما يكتبون بنفوسهم . ويستوحون أفكارهم ، قبل أن يستلهموا عواطفهم . فهم نمط من أنماط ابن خلدون . ولهذا ذهبوا مذهبه وآمنوا بآرائه .

ولعل أقرب كتابنا نسبا إلى الشعب وأدناهم أدبا منه ، الصحفيون ، وبخاصة من يخرجون أحاديث السياسة وأنباء المجتمع ، مخرج الفكاهة اللاذعة ، والهزل الجاد ، وينزعون فيها منزع المبالغة والتهويل ، ويشيرون وفى إشاراتهم معان سافرة ، ويلمحون وفى تلميحهم النقد المرير ، ويضربون المثل والحكمة وفيها الوعد والوعيد . وهذه بعض طبائع الشعب المصرى .

ولعل كتاب القصص ، وبخاصة كتاب القصص التمثيلية التى تمثل على المسرح أو الخيالة ، لهم مثل هذا القرب والدنو من الشعب . ولهذا تراه مقبلا بشغف ، بل بنهم ، على تمثيلياتهم .

وبعد ! فهل آن لنا أن نقول لكتابنا ، وبخاصة المترسلون ، ومن يذهب منهم مذهب ابن خلدون : إنكم عاجزون عن الأسلوب البديعى . . ! وإنكم إنما استسلمتم للأسلوب المرسل فرارا من مسئوليات البديع . . . ! وإنه لمن العسير

عليكم أن تنهجوا النهج البديعى فى إنشائكم وتراعوا فيه — وأنتم المثقفون البلغاء — ما راعاه أسلافكم من مشاهير كتاب مصر ومنشئ دواوينها ، أمثال الفاضل وابن عبد الظاهر ، وابن فضل الله العمرى ، وابن نباتة ، وابن حجة ، وأضرابهم ، من براعة استهلال ، وروعة اقتباس ، وحلاوة تضمين ، وحسن تورية ، وتوافق سجع ، وخفة فكاهة إلى غير ذلك . . . (١) .

إن من يدرس الشعب فى أساليبكم الكتابية — لا فى أغراضها — يجد نفسه أمام شعب أخذ الجد بتلابيبه ، وأخذ هو بتلابيب الجد . وأنه قد بلغ مستوى ثقافيا ، لم يبلغه شعب حديث ، وأن حياته العقلية نموذج عال ، لم تبلغه أمة . إلى غير ذلك مما يستطاع استنباطه .

وبعد :

فحسبنا هذا فى مناقشة ابن خلدون . ومن يدين برأيه من مؤرخى الأدب فى العصر الحديث .

ونختم هذا الفصل بلفت النظر إلى فصل لطيف عقده ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان : « فصل فى أن صناعة النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى » — قال :

« اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا ، إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . وإنما المعانى تبع لها وهى أصل . فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر ، إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله . ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى ، حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم . وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل .

---

(١) لعل من المناسب هنا أن نذكر رأى ابن الأثير صاحب المثل السائر فيمن عاب السجع . قال : « وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به » . — المثل السائر باب السجع ص ٧٤ .

والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر . وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى . فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، الخ . . [1]

وابن خلدون هنا يذهب مذهب الجاحظ فى « اعتبار المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى . وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك [2] » ، ولم يذهب ابن خلدون أيضاً مذهب المعنيين بالنظم أى بطرق التعبير عن المعانى — لا المعانى نفسها — وهو مذهب عبد القاهر الجرجانى الذى يرى البلاغة فى النظم — لا فى الألفاظ ولا المعانى — وقصر ابن خلدون صناعة الكلام فى الألفاظ وحدها ، كما هو صريح كلامه وظاهره .

والعجيب أن يكون هذا ، مبلغ نظره إلى هذه الصناعة ، ثم يحمل على الكتاب المعاصرين له ، لأنهم لم يراعوا مقتضى الحال . . .

وحسبنا هذا فى مناقشته .

---

(٢) المقدمة ص ٤٧٨ .

(٣) الحيوان ج ٣ ص ٤٠ وما بعدها — راجع أيضا مقدمة الإيضاح .

الفصل الرابع

جلال الدين القزوينى (١)

٦٦٦ هـ — ٧٣٩ هـ

نختتم هذا الباب بوجازة فى الحديث عن جلال الدين القزوينى الذى يعتبر بحق رأس علماء البلاغة فى هذا العصر .

وليس من صميم بحثنا أن نؤرخ للبلاغة ومنازعها فى العصر المذكور ، ولكننا رأينا أن نسجل هذه الوجازة بسبب ما بين النقدين الأدبى والبيانى من صلة . واخترنا هذا الرجل ، وهو الخطيب القزوينى مدارا للحديث ، لأنه ورث علم البلاغة عمن قبله من علمائها ، ولا سيما السكاكى المتوفى عام ٦٢٦هـ والذى يعتبر خاتمة البلاغيين فى عصر بن العباس . هذا إلى أن علماء البلاغة بعد القزوينى إنما ساروا فى فلكه وداروا فى محيطه ، وكانت كتبهم شروحا لكتبه أو مختصرات لها .

* * *

وينبغى أن نفرق بين هذين النوعين من النقد قبل أن نعرف بهذا الرجل .

فأما النقد الأدبى فقد تحدثنا عنه فى إسهاب وتفصيل فى مطلع هذا الباب . ورأينا أنه فن دقيق يقوم على الذوق ، ويستند إلى المعرفة . ويتناول الآثار الأدبية فيميز فيها بين الغث والسمين وبين الخبيث والطيب . ويحلل ويعلل ويستنبط ، ويستلهم روح العصر وحاجات المستقبل ، فيرسم الخطة ، ويبين النهج القويم . ومن هنا ترى النقاد ذوى قيمة كبرى فى حياة الأدب والأدباء وهم — وإن احتاجوا إلى جملة علوم ومعارف واسعة فى عملهم الأدبى — يصدرون

---

(١) ترجمته فى طبقات السبكى ج ٥ ص ٢٣٨ ، الدرر ج ٤ رقم ٢ ، المنهل ج ٢ ورقة ٣ رقم ٢ ، الشذرات ج ٦ ص ١٢٣ وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ .

فى نقداتهم عن أذواقهم الخاصة . لذلك تختلف أحكامهم وتفترق تعليلاتهم . وهذه هى طبيعة النقد .

وقد ولد النقد بمولد الأدب . وكان أول نشوئه فطريا ساذجا وذوقيا خالصا . ثم أخذت التعليلات تبدو رويدا رويدا ، والموازنات تعقد شيئاً فشيئاً . وكلما سمقت حضارة العرب واتسعت دولتهم وتلاقحت فيها الثقافات ، أقبلوا على العلم . فخصف العقل وعمقت النظرة ، ولطفت الفطرة ودق الذوق ، وحسن الاستنباط .

ومن هنا تولدت من النقدات المتلاحقة ، ومن التعليلات المتناثرة ، أقيسة اطمأنت إليها الأذواق ، ورضيتها العقول . ثم أخذت تنقى . ويضاف إليها وتتركز وتستقر وتتكتل . حتى آن لها أن توضع فى تعاريف محدودة ، وقوالب مضبوطة ، فتم لها ذلك على يد السكاكى ، فصارت علوماً .

هذه هى البلاغة أو النقد البيانى . نشأ فى رعاية النقد الأدبى ممتزجا به غير مفترق عنه ولا متميز منه . ثم أخذ ينحاز وحده جانبا ، رويدا رويداً ، حتى صار علماً مستقلا .

وبينما ارتضى النقد البيانى هذا الضيق العلمى ، إذ أبت طبيعة النقد الأدبى إلا أن تكون حرة طليقة لا تتقيد بالتعاريف ، ولا ترتهن بالمصطلحات ، ولا تعيش فى وسط هذه الخشونة العلمية وبين هذا الجفاف المنطقى . وهى فى حريتها وطلاقتها تصطنع ما شاءت من العلوم والمعارف ، أدوات ووسائل تبلغ بها أهدافها .

* * *

وقد رأينا أن العصر الذى نحن بصدده ، قد سعد بعدد من نقاد الأدب ، اعتمدوا على أذواقهم ومعارفهم ، وكانت لهم آراء ، ترجموا بها عن أذواق معاصريهم وعن نزعاتهم الفنية فى مسالكهم التعبيرية .

وعاش إلى جوارهم عدد آخر من علماء البلاغة الذين وهبوا جهودهم للحديث عنها حديثاً علمياً محدودا قوامه تعاريف السكاكى . وعلى رأس هؤلاء الخطيب القزوينى .

وجلال الدين القزوينى . . « محمد بن عبد الرحمن بن عمر » ، أصله من قزوين . وولد بالموصل عام ٦٦٦ هـ وقدم دمشق . وكان شافعيا ، فاشتغل بتدريس مذهبه ، وولى القضاء بدمشق والقاهرة . وولى أيضاً خطيبا بجامع دمشق ، فاشتهر بالخطيب . وقد توفى عام ٧٣٩ هـ .

وألف فى البلاغة كتابيه المشهورين . . « تلخيص المفتاح » و« والإيضاح » .

وينبغى أن نشير قبل الحديث عن هذين الكتابين ، إلى صاحب « المفتاح » وهو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر ، السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ هـ . فهو يعتبر خاتمة علماء البلاغة فى عصر بنى العباسى . ولكتابه « مفتاح العلوم » أثر بارز فى حياة علم البلاغة .

ألف السكاكى كتابه هذا فى ثلاثة أقسام ، فقسم للنحو والصرف والاشتقاق ، وقسم للمعانى والبيان والبديع ، وقسم للعروض . وقد رزق قسمه الخاص بعلوم البلاغة شهرة وذيوعا لدى المعنيين بهذه العلوم . ويبدو أن سبب ذلك ، أنه استطاع أن يجمع مسائل البلاغة المتفرقة من قبله ، والمتناثرة فى كتب البلاغيين ، وأن يسبكها جميعا فى قوالبها العلمية النهائية بحيث لم يستطيع البلاغيون من بعده أن يزيدوا عليها شيئا ذا خطر ، إلى العصر الحديث الذى فيه أخذت هذه العلوم تستعيد نشاطها .

وقد قال ابن خلدون عن السكاكى وهو يتحدث عن «علم البيان» : « لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن محض السكاكى زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه »[1] .

والحق أن عبد القاهر الجرجانى صاحب الفضل الأكبر فى توضيح مسائل علمى البيان والمعانى توضيح ناقد ذواقة . أما السكاكى فقد وضع أدب عبد القاهر ونقده ، فى قوالب علمية .

ويعتبر عمل السكاكى ، من الناحية العلمية ، عملا جليلا . إذ لابد لكل علم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، فصل فى « علم البيان » ص ٤٥٧ .

منذ نشأته من جملة تحولات حتى تستقر أموره على يد أحد أعلامه ، فيصبه فى شكله العلمى النهائى ، الذى يتخذ دعامة هامة من بعد . وهذا هو ما صنعه السكاكى فى علم البلاغة .

غير أنه بذلك نقل البلاغة من ميدان الفنون الذوقية إلى ميدان العلوم النظرية ، فشغل البلاغيين من بعده بشرح كلامه أو التعقيب عليه والاستشهاد له ، هذا فضلا عن أنه جعل البديع تابعا لعلمى البلاغة : المعانى والبيان .

وكتابه « مفتاح العلوم » هو الذى شغل القزوينى بتلخيصه وإيضاحه ، فيما يختص بعلوم البلاغة .

وتلخيص المفتاح : هو مختصر للقسم الخاص بعلوم البلاغة من كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى . وضعه القزوينى بعد ما أبعد ما فى « المفتاح » من حشو وتطويل وتعقيد ، واختصر فى سطوره وعباراته ما احتمل الاختصار . وزوده بشىء من الترتيب والشواهد . والفوائد .

والإيضاح : هو شرح للكتاب السابق . وضعه القزوينى تفصيلا لما أجمل فى كتابه المذكور . وجعله مرتبا على ترتيبه . موضحا فيه ما أشكل ، مفصلا ما أجمل . مزودا إياه بفوائد قيمة من كلام عبد القاهر وغيره ، ومما هداه إليه تفكيره .

والكتاب تشوده المصطلحات العلمية والعبارات المنطقية والبحوث والتقسيمات النظرية ، وإن رفهت عنه أمثلته وشواهده ، غير أنه كثيراً ما استمدها ممن سبقوه ، حتى أصبحت أمثلة تقليدية يرددها علماء البلاغة ، كأن البلاغة لم تخلق إلا لوصفها وحدها .

* * *

مما سبق يتبين لنا أن البلاغة اتخذت لنفسها فى هذا العصر وجهة ، واتخذ النقد الأدبى وجهة أخرى . ويتلاقيان الفينة بعد الفينة ، فى هوادة ورفق . فلم تخل كتب البلاغيين جملة من نقدات ذوقية ، ولم تخل كتب النقاد جملة من نظرات بلاغية ، كما شهدنا فى كتابى الحلبى وابن حجة .

وهنا مفارقة لطيفة وهى أنه بينما ترى « القزوينى » قد فصل « البديع » عن علوم البلاغة واعتبره محسنا للكلام فحسب ، لا دخل له فى مطابقة الحال ، قائلا: « وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته ، هو علم البديع » . إذ ترى النقاد لا يميزون بين ألوان البديع وغيره من ألوان المعانى والبيان ، ويعتبرونها جميعا منضوية تحت لواء البديع . وأن معظمها — إن لم يكن كلها — له صلة بالمطابقة . وقد نوهنا بذلك عند الحديث عن ابن حجة .

* * *

هذا وقد عنى العلماء بعد القزوينى عناية كبرى بكتابيه المذكورين ، وتناولوهما شرحا واختصارا . ومنهم على سبيل التمثيل :

١ — بهاء الدين أبو حامد السبكى المتوفى عام ٧٧٣ هـ . وله كتاب « عروس الأفراح » وهو شرح تلخيص المفتاح .

٢ — أكمل الدين البابرتى المتوفى عام ٧٨٦ هـ . وله كتاب « شرح تلخيص المعانى والبيان » .

٣ — سعد الدين التفتازانى المتوفى عام ٧٩١ هـ وله شرحان على كتاب « التلخيص » .

٤ — جلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ . وله « الإفصاح » وهو نكت على التلخيص .

٥ — زين الدين زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ . وله ملخصان لتلخيص المفتاح . وقد شرح أحدهما وسماه « أقصى الأمانى فى علم البيان والبديع والمعانى » .

* * *

هذا . وقد بدأ جليا أن هؤلاء البلاغيين ، داروا فى فلك العلم ، وزايلوا سمة الفن . ومن هنا فهم لا يمثلون النزعات الأدبية والمسالك الفنية السائدة فى عصرهم — وإلى هنا نكتفى بحديثنا فى هذا الباب .

الباب السادس

فى خصائص النثر الفنى

تمهيد

هذا الباب يعتبر خاتمة لبحثنا ، ونتيجة له فى آن واحد . وقد كانت الأبواب السابقة معرضا لألوان من النثر الفنى فى العصر الذى نؤرخ نثره . أثبتنا منه نصوصا عدة مع تحليلها وتعليلها بين إيجاز وتفصيل ، حسب مناسبات الكلام وضروراته .

ونعتقد أننا بهذا قد أشبعنا رغبة القارىء الكريم بتلك الصور المتتابعة للنثر الفنى المذكور . وهذا ما يعيننا عونا كبيراً على الحديث فى هذا الباب الأخير .

* * *

وقد أفردنا هذا الباب، لبيان خصائص النثر. وقدمنا لفصول هذه الخصائص، بحديث وجيز نبين فيه ما نعنيه من الخصائص ، ونوضح مبلغ فهمنا لها واتجاهنا فيها . ولهذا تكلمنا عن الموضوعات الآتية على الترتيب :

طبيعة الأدب ووظيفته — المؤثرات العامة فى الأدب . معنى الخصائص وإقليميتها . بطء تطور النثر وعوائق تمصيره .

* * *

وحصرنا حديثنا فى شرح خصائص النثر الفنى ، فى ستة فصول :

الفصل الأول :

تحدثنا فيه عن استجابته للبيئة . وتناول الحديث أربع بيئات هى على الترتيب : البيئة الطبيعية . والاجتماعية . والسياسية . والثقافية .

الفصل الثانى :

تحدثنا فيه عن شيوع الوصف فى النثر . وتناول الحديث إبراز هذه الخصوصية وما اعتمدت عليه من خيال شعرى وتشبيه ومجاز واستعارة ، وإنسانية مالا يعقل أو « تعقيله » .

الفصل الثالث :

تحدثنا فيه عن اصطناع البديع . وتناول الحديث بيان أسباب هذا الاصطناع ، وولوع الأدباء به ، وأثر الدراسات القرآنية فيه ، وتأثر الأدباء بطريقة القاضى الفاضل . مع بيان وجيز لخصائص هذه الطريقة .

ثم تحدثنا عن الألوان البديعية التى لمعت فى النثر الفنى أكثر من سواها . فتكلمنا على الترتيب عن : السجع ونظم فقراته . والطباق المقابلة . والاقتباس والتضمين وحل الشعر والنثر . والتشبيه والمجاز والاستعارة . والتورية . وهنا عرفنا بكتاب « كشف اللثام » لابن حجة . وكتاب « فض الختام » للصلاح الصفدى — والاستخدام . وبراعة الاستهلال ومراعاة النظير . والجناس ، وهنا عرفنا بكتاب « جنان الجناس » للصفدى — والتوجيه والإبهام والتلميح ، والعكس والإهمال وحسن التعليل وحسن الختام .

الفصل الرابع :

تحدثنا فيه عن خصائص أخرى ومنها : الأغراض الشعرية التى اصطنعها النثر . واستشهاد الكتاب بأبيات الشعر . والميل إلى الإطالة . والفكاهة والسهولة والوضوح . وائتلاف الأسلوب مع الموضوع .

الفصل الخامس :

تحدثنا فيه عن اللوازم الديوانية وما يتصل بها . ومنها صور البدء . الأدعية . المدح والألقاب والأوصاف — والوصايا — وصور الختام . ثم عرفنا بكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » للشهاب ابن فضل الله العمرى .

الفصل السادس :

تحدثنا فيه عن النزعة الموسوعية وأسباب بروزها فى تفكير الكتاب وأساليبهم . وذكرنا فى إيجاز أمثلة لها من كتب التاريخ والأدب والحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة .

خاتمة البحث :

وتحت هذا العنوان كتبنا وجازة نختتم بها هذا البحث الطويل ، ونلخص فيه النتائج التى وصلنا إليها .

تقـــديم

لا بأس ، ونحن بصدد الكشف عن خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك، من أن نقدم بين يديها حديثا وجيزا عن طبيعة الأدب ووظيفته ، وعن المؤثرات العامة التى لها شأن فى أساليبه ، وعن معنى خصائصه ، ونحو ذلك ، حتى يكون هذا عونا لنا على معرفة خصائص النثر المذكور ، وفهم مدى ما قام به لعصره من مجهود ، وما أداه له من رسالة . فنقول :

طبيعة الأدب ووظيفته :

نتساءل ما طبيعة الأدب ووظيفته ، ما رسالته التى يؤديها فى الحياة ؟ هذا موضوع ضخم يحتاج إلى بحث مستقل . غير أننا هنا ننوه منه بما يناسب المقام فنقول :

إن الأدب تصوير ما تختلج به نفس الأديب وخياله وعقله ، وما تثور به عاطفته . يؤديه بذلك إلى قرائه .

والأديب ، عادة ، أكثر من غيره حسا وأرهف نفسا ، وأقدر على التصور والتصوير ، وعلى التخيل والتعبير . وهو إلى ذلك ذو روح أدبية ، « ديمقراطية » الإحساس ، شعبية الشعور غالبا — إذا صح هذا التعبير — بمعنى أنه سريع الحس دقيقه ، قوى الشعور بما يعتلج فى النفوس من آلام ومن أحلام . وما يترجح بين جوانحها من عواطف ووجدانات . وما يطفر إلى مخيلاتها من صور ورسوم ، وما يراود نفوسها من مختلف الأحاسيس ، وما يخف على ألسنتها من مسالك التعبير .

والأديب تثور نفسه بحوادث الحياة التى تقع فى بيئته ومحيط حسه وميدان مشاعره ، ثورة تدفعه إلى تسجيلها بقلمه كما تراءت فى صفحته الباطنة . ويرسلها إلى قرائه ، ويطالع بها الناس ، فيجدون فيها متعة ولذة ، ويجدون فيها فكرة وتوجيها ، ويجدون ذلك كلما عاودوا قراءتها . .

ومن هنا ترى وظيفة الأدب تكاد تنحصر فى أمرين :

الأول : تسجيل حوادث الحياة كما تراءت فى خيال الأدباء وكما ثارت بها نفوسهم .

الثانى : إمتاع القراء وتوجيههم .

* * *

والأدب يسلك سبيله إلى القيام بهذه الوظيفة ، معتمدا على تشجيع ظروف حياته له ، وإفساح ميدان الحرية أمامه . وهو يصطنع من أساليبه ومسالك تعبيره وتصويره ما يناسب المقام . فطورا يكتبها قصة ، مسلاة وملهاة ، أو فاجعة ومأساة . وطورا يرسلها حكمة أو مثلا أو عظة ، وآنا يدبجها خطبة أو رسالة أو مقالة ، ومرة يحررها مدحة أو استعطافة ، أو تهنئة أو تعزية إلى غير ذلك . كما أنها تارة تكون شعراً وتارة تكون نثرا فنيا . . .

وتختلف طبيعة الشعر عن طبيعة النثر . فالشعر أفسح مجالا أمام العاطفة والخيال . والنثر أوسع مدى أمام الفكرة والرأى . مع أنهما يشتركان فى حسن الأداء وروعة التعبير .

أما اختلافهما فلأن الشعر دعامته الأولى الوزن والتقفية ، أو بمعنى آخر ، طبيعته الموسيقية التى يتسم بها ولا تفارقه ، ولا يكون شعرا بدونها ، والموسيقية أشد صلة بالعاطفة وأمتن وشيجة ، لأنها من واديها . ومن هنا كان الشعر أكثر إثارة للمشاعر ، وأقرب من غيره مخاطبة للنفوس . فإذا أضيف إليها — إلى الموسيقية — الخيال الشعرى بمقوماته البيانية ، ماج الشعر بالعاطفة وبلغ بها الغاية التى ينشدها بين النفوس .

والنثر أكثر من الشعر حرية فى قوالب صوغه . ومن هنا استطاع العقل أن يجد له فيه مسرحا أوسع ، ومدى أفسح ، لكى يحمله من نتاجه ماراق ، ومن زهراته ما ازدهر ، ومن ثمراته ما نضج ، دون أن تعانى الزهرات عبوسة ولا الثمرات فجاجة .

والنثر بعد ذلك — أو قبله — يستطيع فى كثير من الأحايين أن يشارك الشعر ويقاسمه فى خصائصه ووظائفه .

النثر إذن ، يقوم برسالته الأدبية ، فيمتع القراء ويوجههم . يمتعهم لأنه يثير خيالهم ويهز نفوسهم ويشيع فيها شعور ناثره ، ويرسم فيها تصوراته ، فيتأثرون بها فيفرحون لفرحه ويطربون لطربه ، أو يحزنون لحزنه ويغضبون لغضبه . وكثيراً مايجدون فى حديثه صورهم النفسية واضحة بعد إبهام ، مبسوطة بعد تعقيد ، مفصلة بعد إجمال . فيراحون لها ويبشون . وكلما قرءوها وعاودوا قراءتها ، عادوتهم المتعة والبشاشة كأول تذوقهم لها أو أشد . وهذه الخصوصية من أسرار الأدب وطبائع تأثيره ، ومما يضفى عليه دائماثوب الجدة ولو تقادمت عليه العصور .

وكما يجدون المتعة يجدون التوجيه ، فينمى شعورهم بالجمال ، ويقوى صلتهم بالحياة ، ويهذب نظرتهم إلى مجاليها ، ويوسع معرفتهم بأسرارها . ومن هنا تراه كأنه يزف أفكاره إلى العقول ، يزفها بحملة مزدانة محلاة ، لاخشنة جافةعارية ، عليها من حسن البيان أثواب تسبغ عليها من أسباب البهجة والرواء ما يغرى بحسن اللقاء وطيب القبول[1] .

* * *

المؤثرات العامة فى أساليب الأدب :

وما دام الأدب رجع الحياة ولسانها ، وصدى حوادثها وترجمانها ، والمعبر عن أحلامها ومستقبل أيامها ، كان لزاما أن يتأثر بعناصر الحياة ، ماظهر منها ومابطن ، من غرائز نفسية وانفعالات عاطفية وعادات متبوعة وتقاليد مشروعة ، وأفكار تساور الأذهان ، ونزعات تردد على اللسان ، واندفاع فى تيار النهوض ، أو رغبة فى المحافظة والجمود . إلى غير ذلك .

وعناصر الحياة نفسها تتأثر بما يعرض لها من عوارض البيئة خيرها وشرها ، كرمها وبخلها ، سهولتها وتركيبها ، وضوحها وغموضها . وتتأثر بعوارض السياسة صلاحها وفسادها ، سموها وضعتها . استقرارها واضطرابها . نشاطها

---

(١) استأنسنا فى هذه الكلمة بكتاب « قواعد النقد الأدبى » تأليف «لاسل آبر كرومبى » وتعريب الدكتور محمد عوض محمد . ولا سيما الفصل الثانى منه وعنوانه « فن الأدب » .

وخمولها . وبعوارض المذاهب والأديان المقيمة والطارئة . وبعوارض الجنس الأصيلة والدخيلة ، الناجمة من غزو أو تجارة أو رحلة أو نحوها . وبعوارض الثقافة وألوانها ومراميها ، وبأصالتها وزيفها . وبعوارض الاقتصاد وما يتصل بها من رخاء وغلاء ، من يسر أوعسر ، ومن غنى أو فقر ، وما يصحبها من موجات سلام أورجات فزع وخصام ، بسبب نقص فى فيضان ، أو تحول من مطر ، أو جدب يصيب الأرض ، أو إصابة يمنى بها الزرع والضرع ، أو بسبب انتشار وباء أو حدوث حدث طبيعى كزلزال . إلى غير ذلك .

وكما تتأثر عناصر الحياة بهذا كله ، تتأثر بذكريات الماضى ورواسبه فى أعماق النفسية الشعبية ، وتتأثر بهواجس الحاضر ، وهمسات المستقبل .

* * *

هذه بعض المؤثرات العامة فى أساليب الأدب ، إن لم تكن كلها . والبحث فيها وفى طبيعتها وطبيعة تأثيرها ، ونتائج هذا التأثير ، وتعليلها ، والاستشهاد لها ، بحث طريف فى الأدب العربى . وعلى ما أعلم ، لم يقتحم ميدانه بعد مقتحم باعتباره موضوعا موحداً ، وفكرة مستقلة جامعة ، تحتاج إلى نظره شاملة ، واسعة المدى ، بعيدة الأفق ، وإلى دراسة مفصلة لشتى العوامل ، والوصول إلى نتائجها وتعليلاتها ، مع سوق الشواهد الكثيرة لدعم هذه النتائج والتعليلات .

* * *

وقد كتب الأستاذ على أدهم فى كتابه « على هامش الأدب والنقد » فصلا تحت عنوان « الثقافة والمجتمع » عرض فيه للعلاقة بين الثقافة والمجتمع ، ومبلغ تأثيرها فيه وفى نتاج أدبائه . وهو مقال ممتع يصلح أساساً لبحث واسع النطاق . ويهمنا منه فى هذا المقام أن نذكر إحدى عبارته حيث قال : « وتأثير البيئة الاجتماعية فى الصناعة الفنية ، من الموضوعات الطريفة التى لم تستوف بعد نصيبها من البحث والتنقيب والشرح والتعليل فى مختلف آداب الأمم . ويعنى بها فى العصر الحاضر بوجه خاص ، النقاد الماركسيون[1] . ويبدون فيها ملاحظات قيمة

---

(١) الماركسيون . الروس أتباع ماركس .

ويقدمون معلومات ثمينة ، لولا ما يفسد عليهم أمرهم من النظر إلى المسألة من جانب واحد . فإنه لا يكفى لتقدير الآثار الأدبية والفنية ، النظر إلى قيمتها من الناحية الاجتماعية وحدها ، الخ[1] — والناحية الثقافية أو الاجتماعية بعض المؤثرات .

* * *

على أننا فى هذا المقام أيضاً ، لابد لنا من الإشارة إلى أن كثيراً من الأدباء والنقاد السابقين والمعاصرين بحثوا فى هذه المؤثرات أو بعضها ، وأدلوا فيها بآراء قيمة .

فقديما تنبه — مثلا — أبو تمام فى وصيته للبحترى ، إلى أثر الحالات النفسية للشاعر فى إنتاجه . وتنبه الآمدى فى كتابه « الموازنة » إلى أثر البيئة والثقافة فى الشعر ، وإلى أن المطبوع منه خير من المصنوع . وتنبه الجرجانى فى كتاب « الوساطة » إلى أثر البيئة والطباع فى الأساليب صلابة وضعفا وجفاء ورقة ، وإلى طبيعة الموضوعات وأثرها فى تنويع الأساليب . وتحدث ابن رشيق فى كتابه « العمدة » عن المطبوع من الشعر والمصنوع ، مبينا مرجع ذلك ، وهو الثقافة والحضارة ونحوهما . وقديما أيضاً قالوا إن جريراً قد رق أسلوبه لرقة طبعه ، وإن الفرزدق صلب أسلوبه لصلابة طبعه . إلى غير ذلك .

وحديثا أخذ نقاد الأدب المعاصرون ، ومؤرخوه ، فى دور التعليم وخارجها ، يعللون أحداث الأدب وتنوع الأساليب ، بعلل شتى ، من بداوة البيئة وحضارتها ، أو رقة الطباع وغلظتها ، أو سمو الثقافة وضعتها ، إلى غير ذلك .

ونشط أخيراً نوع من النقد جديد وهو « الأدب المقارن » الذى أخذ الباحثون فيه يستقصون ألوان المؤثرات الأدبية ، ويوازنون بين أدب وأدب ، وبين أسلوب وآخر ، معللين مستنبطين .

---

(١) راجع كتاب « على هامش الأدب والنقد » لعلى أدهم ص ١٣٤ — طبع دار الفكر العربى .

كذلك تقدمت البحوث الجامعية ونحوها ، إلى الميادين ، فاقتحمتها ، وظهرت منها بواكير من الدراسات النافعة ، ولا سيما ما يتصل منها بالأدب العربى المصرى ، وبيان المؤثرات فيه أصيلة ودخيلة ، مقيمة وطارئة ، محاولة الوصول إلى تحديد هذه المؤثرات وإيضاح آثارها ، وإبراز عناصر الشخصية المصرية ، ومظاهر الإقليمية فى أدب مصر العربية[1] .

وقد أوحى بذلك كله ، وشجع عليه ، انتشار الثقافة العالية فى عصرنا . والاتجاه القوى إلى تقويم النقد الأدبى وإقامة صرحه على دعائم علمية منظمة مهذبة دقيقة ، تأثراً بنظيره فى الآداب الأوربية . هذا إلى تقدم الدراسات النفسية على اختلاف أنواعها تقدما يعد من أهم الحوافز إلى دراسة الأدب العربى دراسة جديدة قوامها التحليل والتعليل وربط النتائج بأسبابها الحقيقية .

ولكن البحوث المشار إليها — على أهميتها ووجاهتها وما فى كثير منها من صدق وصواب ، ومن دقة وعمق — بدت جزئية متناثرة لم ينتظمها بحث مستقل موحد جامع يحيط بالشتات ويلم الشعث ، ويوحد الاتجاه نحو استنباطات علمية منظمة صريحة ، تتخذ دعامة للباحثين فى آداب العربية ، وتكون سندا لهم فى نقدهم الجديد ، ولاسيما النقد التطبيقى الذى قوامه التمثيل والاستشهاد ، وتعينهم على فهم ماهم بصدده فهما أكثر دقة وعمقا وصدقا .

وهذا — فى الحق — يحتاج إلى جهد كبير . يحتاج إلى دراسات شتى فى مختلف العلوم والفنون من لغوية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها ، مما يتصل بمصر العربية — مثلا — مع دراسة تاريخها دراسة مفصلة تتميز فيها عناصر الفكر والاجتماع والنفسية ، مؤيدة بالوقائع والشواهد .

بذلك نصل ، أو نكاد نصل ، إلى فهم مقومات الشخصية المصرية ، وعلى ضوئها نستطيع أن ندرس الأدب المصرى العربى من جديد . فنقرأ سطوره ونستجلى نصوصه ، ونرى إلى أى مدى برزت هذه الشخصية فيه ، وإلى أى مدى بلغت إقليميته . ومن هنا تبرز لنا خصائص هذا الأدب فى كل فترة من

---

(١) انظر مقدمة « الحركة الفكرية » للدكتور عبد اللطيف حمزة .

فتراته — وهذه جهود ضخمة لا تستطيعها يد واحدة ، وفى فترة من فترات العمر القصير . . .

* * *

ونحن هنا نحاول جهد طاقتنا أن نبرز خصائص النثر الفنى فى أدب عصر المماليك وأن نعللها . ولاندعى ، ولانستطيع أن ندعى ، أننا قد أحطنا بها خبرا . أو أننا قد حصرناها حصرا ، لا يقدر أحد أن يزيد عليه . فإن مجال التحليل والتعليل هنا واسع جد فسيح ، للباحثين فيه جولات وجولات ، إذا أرادوا .

ولا ننكر أن هذه القرون الستة ، تقريباً ، التى مرت على مصر منذ الفتح العربى إلى أن وليها المماليك ، سمحت لإقليمية الأدب العربى فيها أن تتضح بعد غموض ، وأن تستقر بعد قلق ، وأن تنشط بعد فتور . ولو إلى حد . وسمحت لعناصرها أن تتركز وتتكتل وتلمع . وهذا خير عون للباحث فى هذا الميدان الفسيح . وهذا لا يمنع أن يكون نثر عصر المماليك امتدادا فى جملته لأنواع النثر التى تقدمته ، وأن يكون مستمدا منها ومن خصائصها .

وبعد فما معنى الخصائص وما معنى إقليميتها ؟ .

* * *

معنى الخصائص وإقليميتها :

يتسم الأدب فى كل عصر بسمات وخصائص تميزه عما عداه من آداب العصور الأخرى ، ويكتسب هذه السمات والخصائص من روح العصر الذى يعيش فيه ويحكيه ويتأثر ، كما هى طبيعته بنزعات العصر واتجاهاته فى نواحى الحياة كافة

هذه النزعات والاتجاهات ، اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو لغوية أو لفظية أو غير ذلك ، تتفاعل معا تفاعلا مركبا ، فيه تحلل فامتزاج فتكوين جديد ، له أثره فى نفوس الأدباء فيلهمون أدبهم على نسق هذا التكوين وغراره . ومن هنا ترى لكل أدب سمات وخصائص تميزه عما عداه ، نتيجة

مباشرة لاختلاف عوامل البيئة وظروف الحياة وعاداتها وأمزجتها وأمزجة الأدباء فى كل عصر .

وهذه السمات والخصائص ، مجتمعة ، هى التى تميز أدب عصر عما عداه ، وتكسبه إقليميته .

وقد قلنا « مجتمعة » . وذلك لأننا نعتقد أنه ما من خصوصية بمفردها لأدب عصر — مهما بدت مقصورة عليه — إلا ولها نظير فى أدب عصر غيره . وذلك نتيجة لتشابه بعض ظروف العيش واستمرار مقومات الشخصية القومية .

ولكن الذى لا يستطاع لأدب عصر أن يماثل فيه أدب عصر آخر ، هو مجموع خصائصه وسماته . والأدب بمجموع خصائصه وسماته يكتسب « شخصيته » بين الآداب الأخرى .

ويطرد تناسب شخصية الأدب مع اطراد تعدد خصائصه وتنوعها وتحولها وقوة بروزها وفنيتها وسمو هذه الفنية ، كما تطرد قيمتها باطراد تجاوب مجموع هذه الخصائص مع ظروف حياة هذا الأدب وبيئاته وباطراد دلالتها على مزاج الأدباء وأذواقهم .

والخصائص هى القواعد الفنية الدقيقة ، والصفات الأسلوبية التى تروق أذواق ادباء أحد العصور وتستطيبها أمزجتهم ، فيلتزمونها حينما يتصدون لصوغ أساليبهم فكرة وتصويرا .

وهذه الأذواق والأمزجة هى التى كونتها لهم وهذبتها ووجهتها ، ألوان بيئهم التى عاشوا فيها . ومن هنا نشعر بمقدار أثر هذه البيئات فى وجود تلك الخصائص ونشأتها وبروزها ، وفى إكسابها ما تتمتع به من قوة وإشراق .

* * *

فسجع الكهان فى الجاهلية ، نشأ بسبب انتشار الوثنية وسيادة الكهان ، والرغبة فى إيهام العامة أن هناك معميات تخفى على فطنتها ، وتغيب عن ذكائها

وتلطف عن حسها . وكان بالعامة استعداد لقبول هذا الوضع ، لاتساقه مع عقائدها . ومن هنا نشأ السجع المتكلف المبهم ذو الرجم بالغيب ، وفيه تأثير بالغ تخضع له النفوس وتستكين الأفئدة وتستسلم الأحلام .

والبادية بغلظتها وقسوتها وخشونتها ، نضحت على ألفاظ أدبائها غرابة وعنجهية ، ولكنها من ناحية أخرى طبعتهم بطابع الشهامة والمروءة وحب الإلف وتذكره — لقلة الألاف وتحول المنازل — ومن هنا ظهرت المدائح والفخريات والأغزال فى أدب الجاهلية .

ولما ذاعت الثقافة الدينية القويمة فى عصر النبوة والراشدين ، وسمقت دعائمها على أساس من القرآن الكريم والحديث ، رقت الأساليب برقة النفوس ، وصفا القول بصفاء الأرواح . وتهذبت العبارات بتهذيب العقول . وأخذ الخطباء يدعون الناس إلى الجهاد فى سبيل الله وسبيل دينه ، ويحثونهم على التمسك بالفضيلة فى وضوح لا يشوهه لبس ، وفى قوة لا يعتريها وهن . لهذا هجر سجع الكهان الزائف . ولم يبق منه إلا ما يكمل المعنى ، ويزيد موسيقا اللفظ تأثيراً فى النفوس .

ولما دونت الدواوين أخذت طبقات من الكتاب فى الظهور ، ونهضت كتابة الرسائل التى كانت فى أول أمرها مقصورة على لباب المعنى وجوهره . ثم لما اتسعت رقعة الدولة فى عصر بنى أمية ، أخذت الرسائل تطول تناسباً مع سعة الدولة ، ونهوضها إلى ضبط أمورها . وتنوعت فى الكتابة صور بدئها وختامها تبعاً لتنوع أغراضها . وهكذا .

ولما امتزجت الثقافات فى العصر العباسى ، وأقبل الناس عليها ، وقوى اختلاط العرب بالفرس وغيرهم وأخذت الدولة زخرفها وازينت ، وأقبل الناس على تلمس الجمال ، وطلبوا الأناقة فى كل مظهر من مظاهر الحياة ، وبدا الترف يرف بأعلامه على مجالس العباسيين ومحافلهم ، برزت الألوان البديعية إلى الصفوف الأولى بين دعائم الأساليب ، يصاحبها عمق الفكرة وشمول النظرة

وسلامة المنطق وقوة التعليل . وعلا نجم المجاز بأنواعه ، والتشبيه بشتى ضروبه وعاونا معاً على تسجيل صور جديدة مبتكرة مما جاد به الخيال المهذب .

ولما تمكن العرب من الأندلس واستوطنوها واستتبت بها أقدامهم ، ودب بينهم فيها دبيب المدنية ونعموا بطيب الهواء ومعتدل الجواء وجودة التربة وكثرة الثمر ورخاوة العيش ، مع جمال الطبيعة ، وتعدد مناظرها الرائعة ، طبعهم هذا كله بطابع السهولة والرقة والوضوح ، ونبا بهم عن التعقيد والخشونة والغموض . فكانت هذه الصفات بعض الخصائص البارزة فى أدبهم .

ولما أخذت مصر تسير قدماً إلى الأمام فى نهضتها الحديثة ، وتلاقت فيها ثقافات عدة بين قديمة وحديثة ، وبين شرقية وغربية . تزاحمت المعانى كلية وجزئية ، على أبواب العقول . فاسترسلت الأقلام ، وانطلقت العبارات ، ولم يعد هناك فتون بالموسيقية اللفظية التى قوامها السجع والجناس ، ولم يعد هناك جنون بالطباق أو المقابلة أو التضمين أو الاقتباس . ولم يبق حنين إلى التورية والاستخدام ، فقد أخذت الحياة الجادة بتلابيب الأدباء حتى كأنها لم تعد تبقى لهم صفاء بال ولا وقت فراغ ، يزوقون فيه التركيب ، وينمقون الأسلوب ، ويبثون الدعابة ويثيرون النكتة . ولا سيما أنهم يرون أن عهد المظاهر والبهارج قد زال وانقضى . وإن كنا نعتقد أنهم بذلك قد باعدوا بينهم وبين أذواق العامة ، ولو إلى حد .

* * *

هذه جملة من المؤثرات الأدبية ، ونتائجها من خصائص الأدب فى بعض العصور .

وهذه الخصائص تتغير فى كل عصر عما عداه . وتلك نتيجة لتغير مؤثراته . وكثيراً ما نرى عصرين — مثلا — يتشابهان فى بعض خصائصهما الأدبية ، ويكون ذلك بسبب تشابه بعض مؤثراتهما ، وتماثلهما فى القدرة على إحداث نتيجة معينة . غير أنه من العسير أن يتشابه عصران تشابهاً تاما فى أدبهما وفى خصائص هذين الأدبين . وتلك نتيجة حتمية لاختلاف كل منهما عن الآخر فى مجموع بيئاته ومجموع مؤثراته .

ويكتسب الأدب — ولو كان طارئاً — صفة الإقليمية بتوطنه فى المصر . ولكن لا يكفى هذا التوطن وحده ، بل لا بد للأدب ، مع تغير بيئته الطبيعية الأولى ، من تغير بقية أنواع البيئات ذات الأثر فيه . كالبيئة الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وما إلى ذلك . وكلما تشابه أدبا عصرين فى ألوان بيئاتهما ، كان ذلك عائقاً دون بروز الإقليمية فيهما ، بروزاً فيه قوة ولمعان واستقلال . أو بمعنى آخر ، فيه شخصية .

هذا إلى أنه ليس من الضرورى أن تتضح كل خصائص الأدب فى عصر ما ، فى أدب كل أديب فيه . بل ولا فى أدب كل أديب من أدباء حلبة واحدة من حلباته . وذلك لأن الأدباء يختلف بعضهم عن بعض ، باختلاف ظروف حياتهم الخاصة وباختلاف أذواقهم وطبائعهم . وهذه الاختلافات ذات أثر بين فى تنوع خصائص كل أديب عن غيره . وإلا ، أصبحوا جميعاً نسخاً مكررة لأصل واحد . .

ولكنك ترى ، على الرغم من هذه الاختلافات ، أن هناك خصائص أدبية تنتظم أدبهم جميعاً ، أو على الأقل تغلب على أدبهم أو تلون أدب أكثرهم . فهذه الخصائص الغالبة ، هى أهم ما نعتبره فى أحد العصور خصائص لأدبه .

فنحن حينما نتحدث عن خصائص الأدب فى عصر ما ، لا ننظر نظرة فردية ، بل نظرة شاملة عامة ، بمعنى أننا لا ننظر فى خصائص كل أديب على حدة ، بل نستقرئ الخصائص المشتركة بين أدبائه جميعاً . وإن كنا لا نغفل قط عن خصائص الأدباء الأخرى .

بهذه الفكرة والنظرة خطونا فى بحثنا هذا كله . ولم نتحر إبراز خصائص كل أديب من أدباء عصر المماليك بمفرده ، لأننا نبغى أن نؤرخ للعصر جميعه باعتباره وحدة متماسكة ، متماثلة البيئات متشابهة المؤثرات فى كل فترة من فتراتها .

وبدهى أن يكون لكل أديب فى العصر المذكور ، خصائص قد يفارق فيها أديباً آخر من أدباء عصره . ولا يصعب تعليل هذا باختلاف الطبائع والدوافع الأخرى . فمثلا كان منشئو ديوان الإنشاء ومن لف لفهم من كتاب

الرسائل يلتزمون — أو كادوا يلتزمون — السجع ونظام الفقرات الذى سنشير إليه فيما بعد . وذلك لأن هذا الالتزام كان أحد التقاليد الأسلوبية فى الديوان. وبينما ترى رسائلهم تفيض بذلك وتموج بالأخيلة الشعرية والمبالغات وإجادة التصوير ، إذ ترى نصائح الفقهاء ومواعظهم لم تعبأ بهذه الالتزامات ، وذلك لأنها غلبت عليها الفكرة والدقة فى إبراز الرأى ، قبل العناية بموسيقية الألفاظ وتوافق القرائن وازدواج التراكيب .

وكانت التورية إحدى دعائم الأسلوب عند ابن نباتة المصرى فى شعره ونثره . بل هو الذى تزعم طريقتها وحمل رايتها بعد القاضى الفاضل . ومرجع ذلك — فيما نعتقد — عكوفه على قراءة آثار الفاضل وتشبع مزاجه منها . حتى إنه جمع من كلامه كتاباً سماه « الفاضل من إنشاء الفاضل » .

وكان ابن نباتة شعبى النشأة والثقافة ، لذلك كان شعبى الشعور ، ومن هنا نهضت خصائص أساليب العامة فى شعره ونثره ، من فكاهة ونكتة وتورية . وقد نبا به مزاجه عن الإغراق فى الجناس ، لأنه « نوع ردىء ، أو محسن لفظى لا يتصل بتحسين المعنى » — كما يقول ابن حجة .

وبينما كان ابن نباتة يقلل من الجناس ، أو يخرجه مخرج التورية ، إذ كان معاصره صلاح الدين الصفدى غارقا فيه إلى ناصيته ، فتكلفه تكلفا شديداً ، وأكثر من استعماله فى شعره ونثره .

لكل أديب إذن ، خصائص قد يفارق بها سواه من أدباء عصره . ولكننا حينما نؤرخ نثر أحد العصور ينبغى لنا — كما أشرنا — أن نعمم النظرة ، حتى تبدو لأعيننا الخصائص العامة التى تنتظم جميع الأدباء فى ذلك العصر ، وإن لم نغفل عن الخصائص الفردية .

هذه هى الخطة التى اتبعناها — كما قلنا — ويعيننا على اتباعها ، بل واعتقاد صوابها ، أن البيئات والمؤثرات المختلفة التى أنتجت خصائص الأدب ، التزمت فى هذا العصر ، حالات واحدة من أوله إلى آخره ، تقريباً .

* * *

ولا بأس من أن نقف وقفة يسيرة لنبين كيف التزمت البيئات والمؤثرات حالاتها هذه ، طول العصر . وقبل ذلك نشير إلى الفصل الآتى الذى تحدثنا فيه عن البيئات المصرية ذات الأثر البارز فى أدب العصر . فقد قصرنا الحديث فيه ، على أربع بيئات نعتقد أنها جماع مختلف البيئات ، وهى : البيئة الطبيعية والاجتماعية والسياسية والثقافية . ووصفناها وصفاً يناسب المقام ، وألمعنا إلى آثارها فى أساليب الأدباء .

فلا بأس من أن نسبق هذا الفصل بعجالة نبين فيها أن البيئات المذكورة لم يعترها ، أو لم يكد يعتريها تغير يذكر ، وجمدت أو كادت تجمد على حالات واحدة .

أما البيئة الطبيعية وما يتصل بها من موقع ومناخ ، فهى هى لم يلحقها تغير ولا تبديل ، اللهم إلا ما كان من نشاط بعض الأوربيين فى أواخر العصر ، وعلى عهد الأشرف الغورى ، من كشف طريق رأس الرجاء ، والطواف بالسفن حول سواحل أفريقية عن طريق الجنوب حتى تصل إلى الهند . وتسبب عن ذلك تحول بعض المتاجر والرحلات بين الشرق والغرب عن طريق مصر ، فقلل ذلك من أهمية موقعها ومن دخلها ، وشغل بالها .. وكان لذلك أثر فى القلق السياسى والاقتصادى الذى منيت به فى عهد الأشرف المذكور . ولكن ذلك كان والعصر على وشك الزوال .

والبيئة الاجتماعية ظلت كما هى أيضاً فنظام الطبقات بقى كما كان من أول العصر إلى آخره . وكذلك نظام الإقطاع وقصر الجندية على المماليك واستخدام « المتعممين » فى القضاء والكتابة والحسبة وما إليها . حتى النظم الإدارية وترتيب الدواوين وإمارات الجند ، لم تتحول عما رسم لها منذ أوائل العصر إلا قليلا لا أثر له فى الأوضاع الاجتماعية . وكذلك الأجناس التى تتألف منها الأمة كانت هى هى — اللهم إلا بروز العنصر الجركسى فى النصف الثانى من العصر .

والبيئة السياسية لبثت كما هى . فنظام الحكم مترجح بين وراثة واهنة وشورى صورية ، وبين غلبة المتغلبين وقهر القاهرين . وحقاً !! انتشرت الفتن

والاضطرابات الداخلية فى عهد الجراكسة أكثر مما كانت فى عهد الأتراك ، ولكنها كانت كلها من لون واحد ، وهو تطاحن بين زعماء الطبقة الحاكمة على الحكم . وظل أعداء البلاد فى الخارج هم التتار والفرنجة والعثمانيين ، والقتال بينهم وبينها سجال . غير أن تفاقم الفتن فى أواخر العصر كان خير ممهد للاحتلال العثمانى .

والبيئة الثقافية لم يتناولها تبدل ولا تحول ؛ فسياسة إنشاء المساجد ودور التعليم ، والوقف عليها وعلى طلابها وشيوخها ، والعناية باختيار الشيوخ ، سايرت الدولة إلى آخر رمق من أرماقها . وظلت علوم الدين أهم المواد الدراسية . ومذاهب أهل السنة هى المذاهب المتبعة فى القضاء وغيره ، مع تشجيع الصوفية والتماس الرأى عندهم فى بعض الأحايين .

* * *

ومن هذا وذاك ترى أن أنواع البيئات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، يكون له أثر ما فى تنشئة الأدب تنشئة أخرى أو صقله أو توجيهه وجهة جديدة . ولذلك نظرنا إلى العصر باعتباره وحدة ، لأدبها خصائص ومميزات .

* * *

بطء تطور النثر وعوائق تحريره :

وهذه النتيجة التى وصلنا إليها تسلمنا إلى حقيقة ملموسة ، وهى أن النثر الفنى فى عصر المماليك كان بطىء التطور أو نادره على مدى العصر ، وذلك بسبب استقرار عوامل البيئة .

وإذا اختبرنا ثلاثة نصوص أدبية لثلاثة رجال من حلبات مختلفة لم نجد بينها فروقا تذكر .

خذ مثلا : قول شهاب الدين بن فضل الله العمرى يترجم للشاب الظريف ويصفه ويصف شعره :

« نسيم سرى ونعيم جرى . وطيف لا بل أخف موقعا منه فى الكرى .

لم يأت إلا بما خف على القلوب . وبرئ من العيوب . رق شعره فكاد أن يشرب . ودق فلاغرو ، للقضب أن ترقص ، والحمام أن يطرب . ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان . وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان »[1] ... الخ .

وقول شهاب الدين أحمد بن عربشاه يترجم للسلطان جقمق ويصف جهاده :

« ظل الله فى الأرضين . ناشر آيات الخير على الإسلام والمسلمين . ماد سرادق الويل على الكفرة والملحدين . رافع ألوية الحق . ناصب أبنية الصدق . كاسر أرباب النفاق . جازم أصحاب الشقاق . مظهر كلمة الله العليا . مخفى آثار الشرك والرياء . منصف المظلومين من الظالمين . مشيد مسند سيد المرسلين »[2] . . . الخ .

وقول جلال الدين السيوطى يترجم لشيخه الشمنى ويصف علمه :

« قدوة عين الزمان وإنسانها . وواحد عصره فى العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها . وشجرة المعارف التى طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها . ورياض الآداب التى فاضت ينابيعها . وفاحت زهورها وتنوعت أفنانها . إن أخذ فى التفسير كل عنده الكشاف واختفى . أو الحديث كان عن ألفاظه الغريبة مزيل الخفا »[3] ... الخ .

وقد توفى ابن فضل الله عام ٧٤٨ هـ ، وابن عربشاه عام ٨٥٤ هـ ، وجلال الدين السيوطى عام ٩١١ هـ فبين وفياتهم مسافات بعيدة . ولكنك ترى مع هذا تقارب أساليبهم وتشابه التزاماتهم ، حتى لكأنهم رجال حلبة واحدة . فعندهم السجع وترجح الفقرات بين الطول والقصر ، واصطناع التشابيه والمجازات والتوريات والجناسات والمطابقات ، والتوجيهات والتلميحات ، إلى غير ذلك .

على أننا ننبه إلى أن بطء تطور النثر لا يطعن فى إقليميته ، وفى لمعان هذه

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكبتى . فى ترجمته الشاب الظريف .

(٢) عن تاريخ جقمق لابن عربشاه — مصور شمسى .

(٣) عن حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٤ .

الإقليمية فى عصر المماليك . فقد برزت هذه الإقليمية بمجموع خصائصها فى فترات أولى من فترات العصر ، على يد محيي الدين بن عبد الظاهر ، والشهاب محمود الحلبي ، وعلاء الدين بن الأثير ، وأبناء فضل الله العمرى ، وابن نباتة المصرى . ويمكن القول إن عهد الناصر بن قلاوون كان أملأ العهود بالرجال من كل صنف ، وهم الذين وطدوا دعائم النهضة الأدبية والعلمية ، وأرسوا أساسها وأعلوا أعلامها . فعاشت الدولة من بعدهم فى ظل ماشادوا وما بنوا .

كما أنه لا يطعن فى إقليميته ، تعدد وجوه الشبه بينه وبين غيره من أنواع النثر فى العصور الأخرى . فالعبرة — كما نبهنا — بمجموع خصائصه لا بمفرداتها . ومن الصعب أن تجد هذه المجموعة من الخصائص التى سنبينها ، فى أدب مصر أو غيرها فى عصر آخر . سواء ما يتعلق منها — أى من الخصائص — بالموضوع وما يتعلق بالمعنى أو بطريقة التصوير . وإن كان نثر المماليك امتدادا للنثر الأيوبى .

ولا نرتاب فى أن هناك عوامل عاقت التعجيل بإقليمية الأدب فى الأمصار الإسلامية كمصر ، ومنها اللغة المشتركة والحرص على فصاحتها كما ورثت عن العرب الأوائل ، ورعاية هذه الفصاحة فى التأليف والشعر وكتابة الدواوين ونحوها . وكذلك الدين المشترك والإقبال على دراسة القرآن الكريم والحديث النبوى وأدب الجاهلية ، والتأدب بهذه الدراسة ، إلى غير ذلك مما سنشير إليه مرة أخرى .

ولكننا لا نرتاب أيضاً فى أن مجموع خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك تكفل له صفة الإقليمية . وهذه الخصائص هى التى نتحدث عنها فى الفصول الآتية .

كما أننا لا نرتاب فى أن الأدب العامى أو النثر العامى أكثر إقليمية من الأدب والنثر الفصيحين ، وذلك لعدم جموده أو وقوفه ، أمام عوائق الإقليمية ، أو اكتراثه بها .

الفصل الأول

١ – الاستجابة للبيئة

نقصد باستجابة النثر الفنى – أو الأدب – للبيئة التى عاش فيها ، أن يكون رجعا لهذه البيئة وصدى لوحيها ومرآة يتراءى فيها كما أحسها الأدباء .

وإذا كان الأديب فى أدبه مرآة عصره وترجمان دهره – كما يقولون – فإن أصدق من هذا القول أن يكون نتاج الأدباء المتعاصرين فى حقبة ، مرآة لها وترجمانا يترجم عنها . ذلك لأن الأديب مهما أوتى من النبوغ ، بل العبقرية ، محدود بالنسبة إلى عصره الواسع النطاق . ولكل أديب خصائص . ومن مجتمع هذه الخصائص ، نجد وحى البيئة وصورها ، وإن كان فيها مزاج الأديب وذوقه .

ويمكن القول إننا لو درسنا خصائص العصر ، ووقفنا على مستويات ثقافته وذوقه ، ومتجهات تفكيره وحدسه ، ودوافع عاداته وتقاليده ، ومثيرات وجداناته وعواطفه ، لوجدنا لذلك كله مظهراً فى أدب الأدباء ، لا فى أدب أديب واحد .

ومن التكلف الشديد أن نلتمس صورة العصر فى أدب واحد من أدبائه ، فحسب إلا إذا كنا نريد أن نحقق فى الأديب قول الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقد أشرنا إلى أن أهم وظائف الأدب أن يحدث عن بيئته ، وأن يقوم فيها بأداء رسالة تسجيلها وإيضاح صورها كما عاشت فى نفوس الأدباء . وأن يكون إلى ذلك ، مصدراً من مصادر المتعة والتوجيه .

ونحاول أن نصف بيئة الأدباء فى عصر المماليك ، وأن ننظر فى خصائصها

وفيما عسى أن يكون وحيها إلى أدبائها ، ومبلغ استجابة هؤلاء الأدباء لوحيها ومدى قيامهم بأداء رسالتهم .

والبيئة أنواع . وقد اقتصرنا هنا على تناول أهم أنواع البيئة فى عصر المماليك واصفين مؤثراتها فى النثر الفنى ، والآثار التى تدل عليها .

وهذه الأنواع أربعة هى : البيئة الطبيعية ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة السياسية ، والبيئة الثقافية .

البيئة الطبيعية :

نعنى بها ما يتصل بموطن الأديب من شكل الأرض والمناخ والموقع . فالأرض هى وما فيها من علو وانخفاض وجبل وسهل ، وصحراء وماء ، وخصب وجدب ، وزرع وضرع ، وجماد وحيوان . والمناخ هو وماله من تطرف أو اعتدال ، ورطوبة وجفاف ، وريح ونسيم ، وما يعرض فيه من صفاء وبرق ، ورعد وسحاب ومطر . — والموقع هو ومبلغ صلته بمواقع غيره من الأوطان ، وما يحف به من بحار أو بحيرات او جبال أو صحراوات ، إلى غير ذلك .

وهذه البيئة الطبيعية وما يتصل بها من الموقع الجغرافى ، كانت ولا تزال ، صاحبة التكييف الأول المبكر للنفسية الأدبية . لأن الأديب قصاراه — ولا سيما قبل أن يتعمق الثقافة — أن يعرف حقائق الكون من أجزاء بيئته التى يتنفس فيها ، ومن محتوياتها . وتتأثر نفسه بعواملها البارزة لحواسه . كما تتربى عاطفته وتثور انفعالاته ، وتتكون عاداته وأخلاقه ، فى أحضان هذه البيئة ، نتيجة لما تخلقه فيه مظاهرها ، وتبعثه فى أعماقه وبواطنه . ومن هنا كان للبيئة الطبيعية آثار قوية فى تكوين خصائص أدبها .

ولا نغلو إذا قلنا إن الأديب معجمه الأول بما فيه من مفردات وتراكيب ، وما يحمله من تصورات وتشبيهات ، وما تدور حوله من موضوعات ، منتزع من هذه البيئة ، وضرب من وحيها وإن أدبه المبكر انعكاس لمفردات بيئته وأساليبها وموضوعاتها كما بدت على مرآة نفسه . مع اعترافنا بما يكون من أثر

لمزاجه الشخصى وحوادثه الشخصية ، هـذه مسائل أعتقد أنها احتلت مكانها بين البدهيات .

وبجانب البيئة الطبيعية وما يتصل بها من موقع ، عوامل أخرى ، لا شك أن لها أثرا فى تكوين شخصية شعبها ، ومن ثم فى تكوين خصائص أدبه ، بجانب أثر البيئة فيه . ويكون هذا الأثر بتهذيب أو تحوير ، بزيادة أو بنقص ، بسمو اوضعة . ومن هذه العوامل : الأجناس الطارئة ومالها من مقومات . وألوان الثقافات المقيمة والوافدة . والأديان والمذاهب الأصيلة والدخيلة . والأحوال والتقلبات الاقتصادية ومقتضياتها ، والحروب والغزوات وأنواع الحكم وما يصحبها أو يتبعها من تغير القيم الخلقية والاجتماعية . وغير ذلك .

غير أنه لا يصعب على الباحث المدقق أن يحسن الربط بين هذه العوامل ، وبين عوامل البيئة والموقع . ولا يصعب عليه أن يدلل على أنها ذات الأثر الأول فى حدوثها وطروئها . مع ملاحظة أن نتائج الربط التى نحصل عليها ، ربما تتأثر أو تتغير أهميتها ، إذا نظرنا إلى وسائل المواصلات الحديثة ، وإلى النظريات الاقتصادية الجديدة التى قللت — ولو إلى حد — من أهمية البيئة والموقع .

وقد تحدث الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزة فى مقدمة كتابه « الحركة الفكرية » عن الشخصية المصرية[1] ، وأرجع عوامل تكوينها إلى جملة مؤثرات أهمها البيئة والموقع . ويرى أن من أهم عناصر هذه الشخصية الميل إلى السهولة والوضوح والاستقامة والاستقرار والذوق . ولهذه العناصر آثار كثيرة فى الأدب المصرى . وله فى أدب مصر العربية شواهد لا تحصى .

ونرى أيضاً أن المناخ — وإن كان من لوازم البيئة والموقع — له أثر ممتاز فى صفاء القريحة المصرية ، واعتدال مزاجها ، وفى لطافة حس المصريين ورقة ذوقهم .

على أن الذوق الرقيق ، وإن كان من نتائج الموقع والمناخ ، فربما كان قد

---

(١) الحركة الفكرية . المقدمة ص ٣ وقد انتفعنا بها فى هذا الفصل .

تولد فى مصر بسبب أنها بلاد متوسطة بين أمم العالم القديم وبين شعوبه المتحضرة ، وأن شواطئها ممتدة على طول بحرين كانا ولا يزالان أهم — أو من أهم — معابر التجارة والرحلة . لهذا كانت مصر ممراً للمسافرين بين الشرق والغرب . وفضلا عما اكتسبه سكانها — وبخاصة سكان شواطئها وثغورها وحواضرها — منهم من أرباح وثقافات وعادات ، اكتسبوا إلى جانب ذلك ، الذوق واعتدال المزاج . ولم يكن ذلك لأن الهابطين إليها أو المارين بها قوم أولو ذوق ومزاج معتدل ، وإنما لأن المصريين بلوا فيهم ألوانا كثيرة من الأذواق والأمزجة ، فوازنوا بينها وعرفوا معتدلها من متطرفها ، وسليمها من سقيمها ، وسهلها من معقدها . فربما كان هذا سبباً لخبرتهم ، وأصبحوا فنيين فى معرفة الأذواق وتمييزها ، وهذا هو الذوق الأصيل . . .

على أن التمييز بين الأذواق ، والحكم بينها أو الحكم عليها ، إنما هو النقد . وتعدد النماذج أمام الناقد يعاونه على الوصول إلى حكم أكثر صحة وصدقا . وهكذا توطن حب النقد فى أذواق المصريين مرأ لاذعا ، وإن بدا فى جملته سطحيا عابراً ، عبور المسافرين والهابطين . . . وذلك لاختلاطه فى كثير من الأحايين بنزعة السخرية والتهكم والفكاهة . وقد قال ابن إياس ما مؤداه : « إن أهل مصر ما تطاق ألسنتهم »[1] .

وعلى الرغم من أن البيئة المصرية علمت أهلها الكدح والكفاح والدأب ، علمتهم بجانب ذلك الرضا بالقضاء والقدر ، والاتكال والاستسلام لهما ، والأمل ولو بلا عمل . . . ذلك لأن التربة الزراعية تنبت لهم كثيراً مما يحتاجون إليه من الغذاء ، ولو لم يبذلوا فى سبيلها كفاءها من العمل والتعب . وهذا هو جود التربة وكرم الخصب اللذان يغريان بالكسل والاتكال وليس معنى ذلك أنهم كسلوا وتراخوا . وإنما معناه أنهم يعلمون حق العلم أن لو تكاسلوا لوجدوا أيضا غذاءهم ، وأن لو تراخوا لجادت لهم التربة كعاداتها — ولو إلى حد — .

هذه الحالة من دأبها ألا تبعث اليأس إلى النفس ، ولو فى أشد حالاته

---

(١) بدائع الزهور

حرجا وشدة ، وهذا خلق راسخ بارز فى حياتنا وفى أدبنا ، لا نيأس أبداً ، ونعيش بالأمل أبداً . . . ولعل هذا كان السبب فى استسلام المصريين قبل العصر الحديث ، وقبل أن تستيقظ الشعوب لحقوقها وكرامتها بدافع من انتشار الثقافات العالية المشتركة ، وتيسير سبل المواصلات على اختلاف أنواعها ، مما ماثل بين رغبات الشعوب . نقول كان السبب فى استسلام المصريين وخضوعهم للدول الفاتحة المتعاقبة عليها فى العصور الوسطى ولحكم الفرد . وقد عاون على هذا الاستسلام ، الفهم الخاطئ لمقتضيات الدين المشترك .

* * *

وبعد فما مبلغ تجاوب النثر الفنى فى عصر المماليك مع هذه البيئة ، وما خلقته من عناصر الشخصية المصرية ؟ نقول : هو إقليمية الأدب وإقليمية نثره ، ولو بمقدار. إذ كانت ولا تزال هناك عناصر ومقومات مشتركة ، يشترك أو يتشابه فيها عدد من الأوطان ، من بينها مصر . فاللغة العربية والدين والجنس ومدرسة القرآن الأدبية ، كل أولئك كان له أثر فى بروز وجوه شبه متعددة بين آداب الأوطان العربية . . . وسبقت لنا إشارة إلى ذلك . وإنك مثلا ، لا تكاد ترى فروقا جلية بين نثر مصر ونثر الشام فى العصر المذكور . ذلك لأنهما كانتا واقعتين تحت تأثير الوحدة السياسية والثقافية . على أنك قد ترى فروقا بين نثر مصر ، ونثر المغرب والأندلس .

خذ مثلا :

كتب لسان الدين بن الخطيب نابغة كتاب الأندلس ، المتوفى عام ٧٧٦ هـ رسالة إلى الرئيس عامر بن محمد الهنتانى[1] عميد مراكش ، وقد عزم على الرحيل إليه إجابة لدعوته — وقد صدرها بأبيات ثم قال :

« لم يكن همى — أبقاك الله — مع فراغ البلاد وإسعاف الآمال ومساعدة الأيام والليال — إذ الشمل جميع والزمان كله ربيع . والدهر مطيع سميع —

(١) هنتانة : جبل قرب مراكش .

إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية . وكانت إليه العودة ومنه البداية . فلما حم الواقع . وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع . وأصبحت ديار الأندلس وهى بلاقع . وحسنت من استدعائك إياى المواقع . قوى العزم وإن لم يكن ضعيفا . وعرضت على السفر بسببك فألفيته خفيفاً . والتمست الإذن حتى لا أرى فى قبلة السداد تحريفا . واستقبلتك بصدر مشروح . وزند للعزم مقدوح ، والله تعالى يحقق السول ، ويسهل بمثوى الأمائل المثول ويهىء من قبل هنتانة القبول ... بفضله »[1] .

يشعر قارىء هذه الرسالة بأن الكاتب التزم فيها السجع ، ولكنه فى جملته سجع خفيف هين ميسور الصوغ لا يكاد صائغه يبذل فيه جهداً ، أو يحوجه هو إلى لباقة وتكيس . ويكاد بعض فقراته أن يتألف من كلمتين اثنتين . على أنك خلال الفقرات ترى مجازات قريبة وأخيلة غير بعيدة ، كإسعاف الآمال ومساعدة الأيام والليالى وزند العزم المقدوح . هذا دون أن تجد لونا بديعياً يلمع ويبهر النظر بين السطور ، اللهم إلا شيئاً من الاقتباس فى قوله : جبل يعصم من الطوفان ، وإلا شيئاً من الجناس فى قوله مثلا : الأمائل والمثول .

وهذه الرسالة فى جملتها تبين — ولو إلى حد — مذهب ابن الخطيب فى الكتابة . فلم يكن مغرقا فى البديع ، ولا متشبثا بأنواع منه ، ككتاب مصر والشام فى زمانه . ومع استشناء ميله أحيانا إلى اصطناع التوجيه بمصطلح العلوم وأقيستها

والواقع أن ابن الخطيب ، فى جملة كتابته — وشأنه فى هذا شأن المتأخرين من منشىء الأندلس — كان وسطاً بين طريقة المصريين ، وبين المترسلين الأوائل .

وهذه رسالة للجمال بن نباتة بعثها إلى الصلاح الصفدى وفيها عتب رقيق ، قال :

رضيت بالكتب بعد القرب فانقطعت حتى رضيت سلاما فى حواشيها

(١) عن العصر العباسى للأستاذ السكندرى

وينهى أنه كان كسير الخاطر . حسير الناظر . لانقطاع برمولانا الممتاز . ولامتناع المملوك من المكاتبة ظنا أن بينها وبين القصد مجاز[1] فلما وقف الآن على ذكره فى حاشية جمالية ، استأنف للخاطر سروراً . وأقام وزن البيت القلبي وكان مكسوراً . ووضع الطرس على وجه حظه الأعمى فارتد بصيراً . وجمع بين ذلك الخاطر واللفظ والقلب ، وإنما جمع مسكيناً ويتيما وأسيراً . وسره — أشهد الله — أن يكون معدود الذكر فى الحاشية . واستوقف ألفاظ العتاب وقد كانت إلى درج الأدراج ماشية .

حلال للبلى أن تروع فؤاده بهجر ومغفور للبلى ذنوبها، الخ[2]

هذه سطور يتألق فيها البديع ويملؤها الفن بآياته . فسجع ملتزم فى إصرار ، مع كياسة فى سوقه ، ودقة فى تنميقه انظر إلى ازدواجه أو جناسه فى قوله « كسير الخاطر . حسير الناظر » . وإلى اقتباساته الدقيقة التى تصرف فيها تصرفا يشهد الذوق بسلامته ، فى قوله . وضع الطرس على حظه الأعمى فارتد بصيراً . وقوله إنما جمع مسكيناً ويتيما وأسيراً . وانظر إلى توريانه فى قوله: القصد ، ومكسوراً ، والحاشية ، ودرج الأدراج . وإلى مجازاته السائغة فى قوله : وجه الحظ . وإلى المقابلة فى قوله الخاطر واللفظ والقلب ، وقوله مسكيناً ويتيما وأسيراً . ثم إلى التورية البادية فى قوله « يتيما » . إلى غير ذلك . — والحق أن أسلوب ابن نباتة فريد فى بابه ، وجديد بين أترابه . وهو أثر — ولاريب — من آثار بيئته ومزاجها ، ورجع لها .

وما دمنا نتحدث عن البيئة الطبيعية ، فمن الإنصاف أن نشير إلى أن البيئة المصرية قليلة المناظر متشابهة الأجزاء ، ضنينة بهذا التنوع فى الشكل واللون والثمر ، هذا التنوع الذى يفتق أخيلة الأدباء ويفتح أمامها آفاقا من التصورات المبتكرة .

والبيئة الشامية أكثر منها تنوعا . ولعل هذا الفرق مضافا إليه ما انتاب بلاد الشام من اتصال بأمم التتار والفرنجة وغيرهم ، كان ذا أثر فى ذيوع

(٢) هكذا لضرورة السجع . (٣) الوافى بالوفيات ج ١ ص ٣٢٠ .

الوصف فى أدب الشام ، مع دقته ورقته بالقياس إلى نظيره فى أدب مصر .

على أننا فى هذا المقام نكرر ما قلناه من أن أهل مصر وأهل الشام كانوا فى عصر المماليك كأنهما شعب واحد . وحدت بينه نظم الحكم والسياسة والثقافة . وكان موظفو الدولة يتنقلون من مصر إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، كما يتنقل موظفو اليوم من القاهرة إلى أسيوط مثلا . وهكذا كان شأن أدبائهما . والرحلة بينهما لا تنقطع . ومن هنا تجانس فيهما العلم والأدب ، وتجانست المسالك التعبيرية على وجه الإجمال . وسادتهما مذاهب فنية واحدة خضعت لها الأساليب .

* * *

ومهما يكن من شىء فإن للبيئة المصرية وزميلتها صدى بعيد المدى فى موضوعات الكتابة وأساليب المنشئين فى عصر المماليك . وإن كان فى الموضوعات أبرز منه فى الأساليب .

فى الموضوعات : وصفوا النيل وفيضانه وبنوا آثاره . وقد رأينا فى بابى الرسائل والوصف مبلغ عنايتهم به . وما ذاك إلا لأن النيل ذو أثر بارز فى مصر ، فهو مصدر خصبها وثروتها ، وعماد حياتها وقوتها ، فلهم به صلة هى إلى القداسة أقرب منها إلى الصداقة ، وهى إلى الولاء أدنى منها إلى الإخاء . فمنه غذاء الجسم والروح معاً . لهذا كان إحدى نواحى الإلهام ، ومصدرا من مصادر الوحى للأدباء .

وإنك لتراهم فى رسائلهم الديوانية وغيرها ، قد أفردوا له عناية خاصة فى « البشارات » ، وكثيراً ما كانت بشاراتهم ببوفاء النيل . بل تنافس الكتاب فى وصف فيضانه أو نقصانه أو وفائه . وعارض بعضهم بعضا فى هذا الميدان .

وكما وصفوا النيل وصفوا بعض مناظر الطبيعة المصرية الأخرى ، ووصفوا الفصول والبساتين والأشجار والثمار والأطيار ، وما يحيط بهم من حيوان كالفرس وحمائم الرسائل . ومن أدوات كالسيف والقلم والسكين . وغير ذلك مما تراه مبسوطا فيما سبق من أبواب الرسائل والوصف والمقامات .

وفى المفردات والتراكيب وألوان البيان ، نعرض عليك شيئا مما سجلناه من إنشائهم :

يقول ابن حجة الحموى فى بشارة له بوفاء النيل :

« وخلق أصابعه ليزيل الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة . وكسر بمسرى فأصبح كل قلب بهذا الكسر مجبوراً . وأتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا . ودق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه . وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت بأعطاف غصونها إليه وشبب خريره فى الصعيد بالقصب . ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب . فضرب الناصرية واتصل بأم دينار . وقلنا إنه صبغ بقوة لما جاء وعليه الاحمرار » .. ومنها :

« وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب . فأرضع جنين النبت وأحيالها أمهات العصف والأب . وصافحته كفوف اللوز فختمتها بخواتيمه العقيقية . ولبس الورد تشريفة وقال : أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية » . الخ .

ونلحظ فى هذه السطور ما يأتى :

١ — تعبيرات منتزعة من البيئة المصرية . منها : تخليق الأصابع . إعلان الشهادة . جبر القلوب . تشبيب الخرير بالقصب . التختيم بخواتيم العقيق . لبس التشريفة .

وإنما حكمنا عليها بالمصرية بدليلين ، الأول : تكرر وقوع الحوادث التى تتحقق فيها معانى هذه التراكيب ، وذلك واضح فى تخليق الأصابع — إذ جرت العادة عند فتح الخليج والاحتفال بعيد وفاء النيل ، أن تخلق أصابع المقياس بالروضة فيدهن بطيب يسمى الخلوق — وواضح أيضاً فى « لبس التشريفة » وهى أردية رسمية تلبس حينذاك فى الاحتفالات . الثانى : خلود هذه التراكيب فى لغة العامة إلى يومنا هذا ، فلا نزال نسمع فى المناسبات : التختيم بالعقيق ،

وإعلان الشهادة ، وجبر القلوب . أما قوله « تشبيب الخرير بالقصب » فهو تعبير مصرى صميم . وذلك أن ماء النيل قبل أن يبلغ القاهرة يمر ببلاد الصعيد على أرض تزرع قصبا ، فخريره يشبب به حينذاك فرحا وطربا باللقاء .

٢ — توريات لامعة مع مراعاة للنظير دقيقة . يتجلى لك ذلك فيما يأتى مثلا :

(ا) الإبهام : يريد الأصبع أو الغموض .

(ب) الشهادة : يريد شهادة أن لا إله إلا الله ، أو الشهادة بالوفاء .

(ج) نوروز : يريد به نوروز الحافظى الذى كان أميرا على بلاد الشام وخرج على السلطان المؤيد شيخه فقاتله المؤيد وقتله . وقد يريد به العيد المعروف .

(د) شبب : يريد بها غنى وزمر ، أو تغزل .

(ه) القصب : يريد به « الشبابة » مثلا ، أو يريد به قصب السكر ، النبات . وعلى هذا فالقصب إما أداة التشبيب أو محله .

(و) الشوكة : يريد السلطة والنفوذ ، أو يريد شوكة الورد وإبرته .

٣ — تشبيهات واضحة وتتراءى لك فيما يلى مثلا :

(ا) الراية البيضاء من كل قلع عليه : تشبيه القلع بالراية البيضاء .

(ب) قبل ثغور الإسلام : شبه مرور المياه بالتقبيل والعلاقة الملامسة مع السرور .

(ج) أعطاف الغصون : فيه تشبيه جوانب الغصون بأعطاف الإنسان ، أو تشبيه الغصون بأفراد من الناس .

(د) شبب خريره : فيه تشبيه الخرير بالمغنى أو الغزل ، والعلاقة الصوت فى كل .

(ه) أرضع جنين النبت : فى « أرضع » استعارة تبعية ، وشبه السقى بالإرضاع . وفى جنين النبت تشبيه بليغ ، شبه النبت المختفى فى باطن الأرض

بالجنين . وفى صافحته كفوف : استعارة . الخ وإلى غير ذلك . وهذا كله يدل على خيال بارع فى التصوير ، وقلم رائع فى التعبير .

٤ — وهناك ألوان بديعية أخرى ، ومنها على سبيل التمثيل .

(ا) مراعاة النظير بين الأصابع والإبهام . وبين الإعلان والشهادة . وبين السبائك والذهب والناصرية ، وضرب ، وأم دينار . وبين أرضع وأحيا ، وبين جنين وأمهات .

(ب) مطابقة بين كسره ومجبور .

(ج) توجيه فى . الاسم ومكسور ، وهى مصطلحات نحوية

وهكذا ترى بين ثنايا تعبيراته لطائف ذوقية ، وظلالا معنوية ، تنم على رقة حس ودقة ملاحظة . هذا إلى عمق التأثر بالبيئة وما جرى على رقعتها من وقائع وأحداث طبيعية وغير طبيعية .

ولعله قد بدا لنا فيها كيف وهب الكاتب الحياة والحركة للنيل وما حوله ، وما يتصل به من نباتات خلع عليها حسه ومنحها إنسانية يفيض بها خياله ويعج بها تصوره . فالنيل يقبل ، والأغصان تنتشى فتميل ، وخريره يغنى ويتغزل ، وسبائكه الذهبية تمتد فتتصل بأم دينار ، ووجهه يجىء وعليه الاحمرار ، وجنين النبات يرضع ، وكفوف اللون تصافح ، الخ الخ .

ومعذرة عن هذا الاستطراد .

هذا . وسنعود إلى الحديث عن « إقليمية التعبير » فى الفصل الثانى ، عندما نتحدث عن التشبيه والمجاز .

البيئة الاجتماعية :

سبقت الإشارة فى مقدمة هذا البحث . إلى طبقات المجتمع المصرى[1] . وقد استرشدنا فيها بما كتبه تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » .

---

(١) نعيد هنا بعض ما كتبناه فى المجلدات السابقة ، للمناسبة .

وقد رأينا أن هذا المجتمع كان ينقسم إلى طبقتين متميزتين بينهما فوارق عدة . هما طبقة الحاكمين ، وطبقة المحكومين . وظلت الطبقة الحاكمة ، حاكمة . ولبثت الطبقة المحكومة ، محكومة . لا تبديل لهما ولا تحويل . وبقيت الأولى مترفعة عن الامتزاج بالثانية ، متأبية على الاتصال بها إلا فيما تقتضيه دواعى الحكم . وإلا فى بعض حالات فردية كزواج ومصاهرة ، لا قياس عليها ولا تأثير لها[1] .

وتتألف الطبقة الحاكمة من ثلاثة عناصر هى :

١ — السلطان . ٢ — أمراء الجند ومنهم نواب المملكة .

٣ — الجنود السلطانية .

وهذه العناصر أغلبها من الأتراك فى الدولة الأولى ، ومن الجراكسة فى الدولة الثانية ، وقلما دخل عنصر آخر فى هذه الطبقة غير هذين العنصرين . ذلك لأنه دخل بينها — مثلا — بعض التتار واسمهم « الأويراتية » ، على عهد السلطان المظفر كتبغا المنصورى الذى حكم مصر بين سنتى ٦٩٤ هـ ، ٦٩٦ هـ . وقد قيل إن السلطان المذكور كان من سبايا التتار . وقد جلبت هذه الطائفة بأمر كتبغا إلى مصر وتوطنت بها . وذكر المقريزى أن هذه الجيوش التركية كان بينها أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان وغالبهم من المماليك المبتاعين[2] .

ويبدو أنه سمح لأفراد قلائل من الشعب «أى من الطبقة الثانية» بالالتحاق بالجندية . وكان ذلك فى أخريات العصر . وكانوا يسمون « أولاد الناس » . واعتبر السماح لهم بذلك ، ضربا من ضروب الفساد الذى لحق نظام الجيش فى أخريات حكم الجراكسة .

---

(١) يرى الدكتور عبد اللطيف حمزة أن المماليك امتزجوا بالشعب المصرى « راجع الحركة الفكرية ص ٢٢ » ونحن نخالفه فى ذلك ، إلا إذا كان يقصد بهم مماليك العصر العثمانى .

(٢) الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٥٠ (ذكر جيوش الدولة التركية) .

وكان المماليك يجلبون من أسواق آسيا إلى مصر فيباعون بها ويشترى السلطان منهم ما يشاء ، فيربون تربية عسكرية دقيقة . وبنى المنصور قلاوون لهم أبراجاً بالقلعة لإقامتهم وتعليمهم ، ومنهم تتكون الجنود السلطانية ، وهم عامة جند الجيش المصرى حينذاك .

ويعتق السلطان منهم من يرى فيه نجابة وشهامة وامتيازاً فى ناحية ما ويهب له مالا وقماشاً وفرساً . ومن ثم يسلك طريقه نحو الترقى فيكون أميراً صغيراً ثم يرقى فى سلك الإمارة حتى لقد يصل إلى « الأتابكية » أو « نيابة السلطنة » ، وهما أرقى الرتب والمناصب فى الدولة بعد مرتبة السلطنة . وقد تساعد الظروف أو كثيراً ما ساعدت — الأتابكى أو نائب السلطنة على الوثوب إلى عرش البلاد . وبلوغ السلطان مرتبته هذه ، يأتى بطريق الشورى بين الأمراء لاختيار من يصلح للسلطنة منهم عند موت السلطان أو خلعه أو فراره أو قتله ، أو خلال مؤامرة تدبر ضده . والشورى هى السنة المتبعة لاختياره ولكنها شورى ظاهرية فى أغلب حالاتها . أما الشورى الحقيقية فقد كانت لسيف المتغلب وسطوته ..

وكانت الأرض الزراعية مملوكة للسلطان . وليس لغيره حق ملكيتها أو إيجارها ، ولاسيما أفراد الشعب من الطبقة المحكومة . وقد قسمت هذه الأرض أربعة وعشرين قسما . وكل قسم إلى جملة إقطاعيات ، تضيق كل منها أو تتسع فى المساحة . واستأثر السلطان لنفسه بجملة من هذه الأقسام ، ومنح البقية أمراءه وجنده وكان للسلطان ، حسب التقدير فى الروك[1] الناصرى المقرر عام ٧١٥ هـ ، عشرة أقسام ، وللأمراء والجنود أربعة عشر .

ويمنح السلطان لكل أمير أو جندى إقطاعاً يناسب مرتبته ، وذلك بعد خروجه من العتق . فيملكه طول حياته ، إلا إذا رقى إلى رتبة أعلى فاستحق بسببها إقطاعاً أوسع ، وإلا إذا غضب عليه السلطان فإنه يسترد منه الإقطاع ،

---

(١) الروك معناه مسح الأرض وتقسيمها وتقدير خراجها . وقد تم الروك الناصرى بأمر الناصر بن قلاوون عام ٧١٥ — راجع خطط المقريزى ج ١ ص ١٤١ ، وهامش السلوك ص ٨٤٢ ج ١ .

وقد ينفيه عن البلاد ويسمى حينئذ « بطالا » . وإلا إذا مات صاحب الإقطاع ، فإن إقطاعه يرد إلى السلطان ليهبه لرجل جديد ، وهكذا . ولا يصيب ورثته منه شيئاً . ومن هنا لجأ كثير من الإقطاعيين إلى حيلة شرعية وهى « الوقف » ليضمنوا لأولادهم رزقا .

ومالك الإقطاع يملكه بمن فيه ومافيه قال المقريزى : « واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . لا تعرف هذه « الأبذة » التى يقال لها اليوم « الفلاحة » . ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحاً » قراراً . فيصير عبداً قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له كذلك[1] » .

فللإقطاع فى مصر تاريخ طويل . وهو وصمة فى الجبين ، وطعنة فى الكرامة ، وحرمان لأغلبية الشعب من حقها الطبيعى ، ومن التمتع بثمرات يدهم وعرق جبينهم .

هذه هى الطبقة الحاكمة . كانت المستأثرة بالعز والسلطان والنعيم ، دون الطبقة الأخرى التى كانت — إلى جانب حرمانها من أرضها — تعانى الأمرين من فداحة الضرائب المقررة عليها .

وحقاً كانت الطبقة الحاكمة تقوم بواجب حماية البلاد المصرية وممتلكاتها فى الخارج ، ورد أعدائها عنها . ولكن هذا لا يجزئ فى مقام الاعتذار عن مظالمها .

* * *

أما الطبقة الثانية — المحكومة — فكانت ، على ما رواه المقريزى ، مؤلفة من ستة عناصر :

---

(١) الخطط ج ١ ص ١٣٨

١ — أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

٢ — الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم « أصحاب البز » ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة .

٣ — وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٤ — والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة[1] .

٥ — أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٦ — ذوو الحاجة والمسكنة وهم أهل السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم .

* * *

وهذه العناصر تتألف من رواسب من الأمم التى حكمت مصر أو عاشت فيها من قبل ، فضلا عن العنصر العربى . ففيهم الروم والأرمن والمغاربة والأكراد وبعض من الترك والعجم ، واليهود والنصارى والقبط . امتزج بهم منذ زمن بعيد ، العنصر العربى بالمشاركة فى الاحتراف وبالمصاهرة والمجاورة وغيرها .

ونذكر بهذه المناسبة أن العنصر القبطى كان ذا بروز فى عصر المماليك ، وأن كثيراً من أسره أسلموا وبرعوا أو برعت ذرياتهم فى العلم والأدب وكان فيهم نوابغ بلغوا مرتبة الوزارة ، ونافسوا فى ميدان الكتابة والشعر ونحوهما . ونذكر منهم على سبيل التمثيل : أسرة ابن حنا وأسرة ابن مكانس . ولعلنا نستطيع أن نوفى هذه الأسر ونوابغها حقها من الحديث فى بحث مستقل .

والذى نذكره كذلك أن لغة هذا الشتات الممتزج كانت العربية ، فصيحة فى ميدان العلم والأدب والتأليف والرسميات ، وعامية فى ميدان التخاطب .

---

(١) أجناد الحلقة : يبدو أنهم ضرب من الجنود لا يلازمون السلطان ولا يقيمون فى أبراج القلعة . ولهم إقطاعات خاصة . ويبدو أن المقريزى أدخلهم فى عداد الطبقة الرابعة لأن منهم من باع إقطاعه للصناع ونحوهم فدخل بعض الصناع فى عدادهم . ولما دخل بينهم الصناع ونحوهم عدوا من أجناد الحلقة ، وذلك بعد الناصر بن قلاوون . وكان هذا فساداً لنظام الجيش . أما الجنود الآخرون فكانوا يسمون « الجنود السلطانية » . — راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٥٠ تحت عنوان « ذكر جيوش الدولة التركية وزيها وعوائدها » .

وليست هذه حالة طارئة جديدة فى عصر المماليك ولكنها امتداد لما كان منها من قبل ، منذ تعربت مصر وغزتها العربية والإسلام بعد الفتح العربى .

من هذه العناصر الستة وهذه الأجناس المختلطة ، كان يتألف الشعب المصرى المحكوم ، وهى العناصر الكادحة فى سبيل عيشها . وقد اختلط بها أيضاً كثيرون من أبناء الأقطار المجاورة كالشام والعراق والحجاز وفلسطين والمغرب والأندلس ، بل ومن الهند وغيرها وذلك لأن مصر حينذاك كانت محط أنظار علماء المسلمين وأدبائها ، وطلاب العلم من أبنائها . جاء إليها العلماء والأدباء طمعا فى أمنها وطلبا لحمايتها فراراً من الكوارث التى تلاحقهم فى ديارهم ، أو رغبة فى خيرها وبرها : لما وجدوا لدى سلاطينها من ترحيب ومعونة . وجاء إليها طلاب العلم لما أنسوه فى ثقافتها من سمو ورفعة وحرية وسعة قبول .

ومن هؤلاء من استوطن مصر واندمج فى غمار عناصرها السنة الكادحة ، التى مهما قيل فى الفوارق بينها ، كانت متقاربة متمازجة يتألف منها شعب واحد .

هذا الشعب الذى كان يشقى — كما قلنا — فى سبيل عيشه ، ويتحمل عبء الضرائب الباهظة على كاهله ، وليس له من أمر الحكم شىء ، لا يستشار فى سلم أو حرب ، ولا يملك أرضه الزراعية ولا يؤجرها ، ولا يسلك فى سلك الجندية فرد منه — وقد فتحت أمامه المساجد لتعليمه وتلقينه أمور دينه قربى إلى الله وزلفى ، لا أداء لحقه وقياماً بما ينبغى له .

غير أنه جدير بنا أن نشير إلى العنصر الرابع وهو عنصر الفقراء وهم جل طلاب العلم . فنقول إن الممتازين من رجال هذا العنصر الذين يشتهرون بالفضل ويعرفون بسعة العلم والأدب ، كان يطلق عليهم لفظ « المتعممين » . ويتخذ منهم كثير من أرباب الوظائف الديوانية — عدا الجندية — ومن أهمها وأشرفها وظائف القضاء وكتابة الإنشاء ، ثم الوزارة والحسبة .

ورؤساء هذه الطائفة كانوا أقرب عناصر الشعب إلى الحاكمين ، وأشبه بالأمراء ، فاكتسبوا بذلك جاها ونفوذا ، واكتسب بعضهم مالا وفيرا .

واستطاع بعضهم أن يدرأ عن الشعب أحيانا ، كثيراً من السوء الذى يدبر له ، ومن الظلم الذى يراد به .

هذه العناصر التى تكون منها الشعب ، سادها إلى حد كبير ، جو من الرضا والاستسلام لمشيئة الأقدار ، نشأ هذا من الوضع الاجتماعى الذى عاشوا فيه ، ولم ينشأ بسبب البيئة الطبيعية وحدها . فخضعوا لحكامهم لما استبدوا به من أسباب القوة ، ولما ظهروا به من مظهر الحماة للدين وللمسلمين.

وللحالة الاقتصادية أثرها أيضاً فى هذا الخضوع ، إذ يكيف الاقتصاد فى كثير من الأحيان أخلاق الناس وعاداتهم . وقد كانت ثروة البلاد ، فى جملتها وفيرة ضخمة ، يشهد بذلك ما بناه السلاطين والأمراء وبعض الأعيان ، من أبنية وعمائر ، ذات زخرف وروعة . ويشهد لذلك جيوشهم الجرارة وما كانت تنعم به من ملبس ومأكل وعدة ، ولا سيما فى الدولة البحرية ، وأساطيلهم الجوابة فى بحار مصر وما وراءها إلى بحار الهند ، ومواكبهم الحافلة الفاخرة ، وليالى أنسهم العامرة . وإنك إذ تقرأ أخبار ملوكهم وأعيانهم ، تأخذك الدهشة ويملكك العجب ، حينما تطالع أخبار مخلفاتهم و « موجوداتهم » إثر وفاتهم أو حينما تقرأ أنباء مصادرات الملوك المغضوب عليهم من الرؤساء .

وهذا كله ، على الرغم من تناقص النيل أحياناً وشيوع الجدب وتفاقم الغلاء واستفحال الأدباء فى بعض السنين .

ولكن القابض على هذه الثروة من أطرافها ، الطبقة الحاكمة ومن إليها . أما البقية فإنها كانت تعانى شقاء فى حياتها ، وحرماناً فى عيشها . وإلحاح الحاجة والحرمان معاً على المرء قد يفضيان به إلى يأس لا أمل فيه . فيكون ذلك سبباً فى كبت نبوغه وذكائه ، ووقف استعداده للسمو ، فضلا عن قتل ما فى نفسه من عزة وكبرياء .

أفليس عجيباً أن يولد فى هذا العصر جملة من أفاضل الأدباء كسراج الدين الوراق وأبى الحسين الجزار ونصير الدين الحمامى وابن دانيال الكحال ، وغيرهم

كثيرون ، ثم تنبو بهم الحياة وتعوزهم الحاجة ، وتدركهم حرفة الأدب . فيجأرون بالشكاية من موهبة الأدب والشعر التى وهبتها لهم العناية ، ويتبرمون بها لأنها لم تعد عليهم بطائل . . . ولووا عنانهم إلى الحرف يمتهنونها ، وإلى الصناعات يتخذون منها مصدر رزق ، وينعون على الأدب وصناعة الشعر .

يقول أبو الحسين الجزار :

لا تعبنى بصنعة القصاب فهى أذكى من عنبر الآداب
كان فضلى على الكلاب فمذ صـــرت أديباً رجوت فضل الكلاب

وربما كانت حياة الحرمان المتواصلة التى ابتليت بها جموع الشعب فى عصورها المتعاقبة ، وفى هذا العصر ، سبباً لطول شكايتها ، حتى صارت الشكوى أحد الأصباغ اللامعة التى ظهرت فى الأدب المصرى العربى . وهذا ابن نباتة أديب عصره ، امتلأ شعره بالشكوى ، ونبا به المقام فى بلده مصر ، وطوح به طلب العيش إلى دمشق وحماة . وهو الذى يقول :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتباً وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيا عجباً منى لثروة لفظ وافتقار يد

والشكوى تسلم إلى النقد ، وإذا اجتمع النقد والخوف ، نبتت الفكاهة الساخرة ، أو النكتة العابرة . وهكذا وجدت التورية والفكاهة والنكتة سبيلها إلى الأدب العربى فى عصر المماليك .

* * *

ومن الحق أن نشير إلى أن بعض الأدباء شقوا طريقهم نحو ديوان الإنشاء ووظائفه السنية . أجادوا الكتابة وسعوا إلى وظائفها بالنبوغ فيها ، وبالاتصال بالأمراء والسلاطين ، فواتتهم متع الحياة ، ووفى لهم الدهر ، وابتسم لهم ثغر الزمان — فى جملتهم — حتى اكتنز بعضهم الذهب والفضة . وعاشوا كالأمراء أو بهم أشبه ، وربما شاهم بعضهم فى ميدان الجاه والرياسة . ومنهم محيى الدين ابن عبد الظاهر الذى حظى لدى بيبرس ، وسعى إليه الشاب الظريف مادحا برقيق الشعر وجزله ومنهم أبناء فضل الله العمرى الذين كانوا رؤساء الإنشاء

فى زمن الناصر بن قلاوون ، ولا سيما شهاب الدين صاحب مسالك الأبصار ، وأخوه علاء الدين . وقد مدحهما ابن نباتة بقصائد خلدت ذكرهما أبد الدهر . ومنهم أبو بكر بن مزهر كاتب سر الغورى الذى بطش به وأحاط « بموجوده » وكان ضخماً . إلى غير هذا وذاك .

ولم يحظ الشعراء بتشجيع يذكر بجانب مالقيه الكتاب ثم المؤلفون ، ونشير إلى شىء من ذلك عند الكلام عن البيئة الثقافية .

* * *

هذه لمحة وجيزة تصور لنا المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، وما كان ينتابه من مختلف العوامل . فما مبلغ استجابة النثر الفنى لهذا كله ، وأين صدى حوادث المجتمع وعاداته بين سطوره ؟

إن كتب التاريخ ملأى بذكر حوادث هذا المجتمع والتنويه بكثير من عادات أهله وتقاليدهم . فمثلا تحدثت عن حفلات تنصيب السلاطين ومبايعة الخلفاء ومواكب السلاطين والأمراء والأعيان ، إلى حرب أو نزهة أو صيد أو نحوه . وحفلاتهم فى عيد وفاء النيل وخروج المحمل ، ووصفت المواسم الدينية وحفلات الزواج والختان ، وما كان يصحب ذلك من مرح ولهو وطرب ومغنين ومغنيات[1] وما يتهادى به الأصدقاء فى مثل هذه المناسبات .

كما تحدث المؤرخون عن الضرائب وأنواعها والأوباء العامة وحوادث الغلاء وما يصحبها عادة من موت وفناء ، وما يتصل بذلك من دمار وبوار . إلى غير ذلك[2] .

ولكننا لا ننكر أن أكثر حديثهم عن ذلك كان وصفا مسرودا شبيها بأساليب المخاطبة ، لا أناقة فيه ولا جمال تعبير ولا روعة تصوير ولا قوة تأثير . واختلطت به بعض المفردات والأساليب العامية والدخيلة . ولا ندرى ماذا كان يكون مصير اللغة « فصيحها وعاميها » لو تم الامتزاج بين طبقتى الأمة فى هذا العصر ، وعاونه الاتفاق فى الدين والمذهب . ؟ وخضعت الطبقة المحكومة

---

(١) انظر كتابنا عصر سلاطين المماليك المجلد الثانى ص ٣٦٢ تحت عنوان العادات والتقاليد .
(٢) المصدر نفسه ص ٣١١ وما بعدها .

للغة الطبقة الحاكمة ؟ لعل الله سبحانه وتعالى أراد للغة القرآن أن تحفظ ، فباعد بين الطبقتين . .

غير أنه ينبغى أن لا نظن بالنثر الظنون ، ونصمه بأنه تخلى عن الميدان دون بيان . فلقد أدلى بدلوه فى الدلاء . وكان له أسهم وفيرة صائبة فى عدة نواح جوهرية ، منها على سبيل التمثيل :

١ — النصائح والعظات :

وهى فى أساسها نقد . وإن كانت صادرة من قلوب حانية وأفئدة عاطفة ونفوس مشفقة . وقد رأينا بعض الأدوار التى لعبتها النصائح والعظات ، مما تحدثنا به عنها فى الباب الرابع . وشهدنا كيف كان بعض العلماء جريئاً على الملوك ، لايهابونهم ولا يقيمون لملكهم وزنا ، ولا يقدرونهم إلا بمقدار رعايتهم للعدالة . كانوا يراقبونهم ، إذا جاروا كشفوا لهم وجوه الجور ، وإذا أساءوا عددوا لهم مواقع الضر ، وإذا قسطوا رسموا لهم سبيل العدل ، وجهدوا فى ردهم إلى أحكام الشريعة الغراء وآداب الدين السمح الحكيم .

وهذا محيى الدين النووى ينصح بيبرس ، ومن كان بيبرس ؟ كان أقوى ملوك المسلمين فى زمانه ، وقاهر التتار والفرنجة ، ومالك مصر والشام وكثير من المدن والثغور من حولهما .

وهذا تقى الدين بن تيمية ينصح ملك قبرص المسيحى ويتهدده ويتوعده ويغريه ويعده . وهذا جلال الدين السيوطى يعظ ملوك التكرور ويدعوهم إلى كلمة الحق ورعاية العدل .

٢ — الحوادث العامة :

وقد عاشت مصر فى عصر المماليك هدفا لجملة غارات شنها عليها الغلاء والوباء والزلازل فلم يتوان الأدباء عن وصفها . ومن ذلك :

(ا) وباء جارف وقع عام ٧٤٩ هـ وقد رأينا ابن الوردى يصفه فى إحدى

مقاماته . ومنها قوله يصف هلع أعيان حلب ويذكر شيئاً من عاداتهم فى مثل هذه النكبة ، قال :

« فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض . ويكثرون فى علاجه من أكل النواشف والحوامض . قد تنغص عيشهم الهنى . بملاطخة مسلم الطينة الطين الأرمنى . وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدل . وبخروا بيوتهم بالصبر والكافور والسعد والصندل . وتختموا بالياقوت . وجعلوا البصل والخل والصحنا من جملة الأدم والقوت . وأقلوا من الأمراق والفاكهة . وقربوا إليهم الأترج وما شابهه . ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى . وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتا . لوليت منهم فرارا . ولأبيت فيهم قرارا » الخ[1] .

(ب) زلزال شديد حدث فى عام ٧٠٢ هـ قال المقريزى فى وصفه ، وقد وقع يوم الخميس ٢٣ من ذى القعدة ويبدو أن فى قوله مبالغة :

« عند صلاة الصبح اهتزت الأرض كلها . وسمع للحيطان قعقعة ، وللسقوف أصوات شديدة وصار الماشى يميل . والراكب يسقط حتى تخيل الناس أن السماء انطبقت على الأرض . فخرجوا فى الطرقات رجالا ونساء قد أعجلهم الخوف والفزع عن ستر النساء وجوههن . واشتد الصراخ وعظم الضجيج والعويل . وتساقطت الدور وتشققت الجدران . وانهدمت مآذن الجوامع والمدارس . ووضع كثير من النساء الحوامل مافى بطونهن . وخرجت رياح عاصفة . ففاض ماء النيل حتى ألقى المراكب التى كانت بالشاطىء ، قدر رمية سهم . وعاد الماء عنها فصارت على اليبس ، وتقطعت مراسيها . واقتلع الريح المراكب السائرة فى وسط الماء وحذفها إلى الشاطىء » الخ[2] .

٣ — النقد الاجتماعى :

وقد مر علينا مظاهر عدة للنقد الاجتماعى . وقد كان المجتمع مملوءاً بمواضع

---

(١) ديوان ابن الوردى (٢) سلوك المقريزى ج ١ ص ٩٤٢ .

النقد . والنقد الاجتماعى الذى ينشئه الأدباء هو فى الواقع صدى لما تتنزى به صدور العامة ، ورجع لما تلوكه ألسنتهم من نقدات .

وقد كانت عوامل النقد مهيأة ميسرة مواتية ، والشعب المصرى شعب ناقد بفطرته وذكائه وبيئته ووقائع حياته ، وتلك الخصوصية إحدى مقومات شخصيته . وقد علمته بيئته الخصبة الكثيرة الثمرات القناعة والصبر والأمل . وعلم أنه إذا هو حرم اليوم فسيعطى غدا . وبين الحرمان والأمل تولد النظرة الناقدة .

وقد نشط الشعراء فى ميدان النقد الاجتماعى — فى هذا العصر الظالم — نشاطاً يغبطون عليه . وشأوا فى ذلك أندادهم من المنشئين . ولعل لذلك سببا ، هو أنهم كانوا يعانون ألم الحرمان . فاتفقت من هنا مآسيهم ومآسى الشعب . أما الكتاب أو كثير منهم ، فقد وجدوا سبل العيش أمامهم أكثر يسرا ، وأرحب صدرا . ودرت عليهم وظائفهم الجاه والمال ، فلوت عنان أقلامهم عن النقد ، ولا سيما أنهم ارتبطوا بسياسة السادة الحكام . ومن هنا أيضاً كان الشعراء أكثر حرية من الكتاب ، فأباحوا لأنفسهم ما لم يبحه الكتاب .

وقد نقد البوصيرى صاحب البردة ، طوائف المستخدمين فى أيامه وفضح أعمالهم ، وهتك أسرارهم ، وأول قصيدته قوله :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو حرا أمينا[1]

وفى قصيدة شاكية طريفة وصف البوصيرى أسرته لأحد الوزراء ، ذاكرا ماعانته من خلاف بسبب تأخر مرتبه وبسبب ضيق ذات يده فى شهر رمضان وأيام العيد وصور كيف دب النزاع بينه وبينها بسبب كعك العيد ومايتصل به .

ومن أبيات هذه القصيدة يخاطب الوزير :

يأيها المولى الوزير الذى أيامه طائعة أمره
ومن له منزلة فى العلا تكل عن أوصافها الفكره

---

(١) راجع ترجمة البوصيرى وشعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ .

إليك نشكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عسره

ومنها يصف صيام أسرته وطعامها :

صاموا مع الناس ولكنهم كانوا لمن أبصرهم عبرة
إن شربوا فالبئر زير لهم ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبيز مصلوقة فى كل يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها تنزهوا فى الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم قمح ولا خبز ولا فطرة
فارحمهم إن عاينوا كعكة فى كف طفل أورأوا تمرة
تشخص أبصارهم نحوها بشهقة تتبعها زفرة ... الخ

والقصيدة — وإن كانت ركيكة النسج — تصف حالة الأسرة وما أصابها من شظف ، ومادب بينها بسببه من نزاع . وكأن البوصيرى بها يؤرخ للحالة الاجتماعية التى كانت سائدة فى الأسر المصرية الفقيرة والمتوسطة فى عصره والتى لا تزال سائدة حتى اليوم ، فى كثير من الأسر المذكورة .

وقال شهاب الدين الأعرج ينقد الأتراك والأقباط واستئثارهم بالرزق فى مصر :

وكيف يروم الرزق فى مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلائق فى السدس

وللفتح بن سيد الناس أربعة أبيات مفذعة نقد بها الصوفية فى زمانه نقدا مرا بل قذفهم بها قذفا سافرا وأولها :

ما شروط الصوفى فى عصرنا قطعا سوى ستة بغير زيادة ... الخ[1] .

وهجا ابن أبى حجلة المغربى المماليك الجلبان ونقدهم نقداً لاذعا ووصف

---

(١) راجع ترجمة شهاب الدين الأعرج فى الدرر الكامنة .

مفاسدهم وشرورهم ؛ فى قصيدة طريفة بدأها بقوله :

غدا الجلبان فى دست الخسارة وفاتتهم بما فعلوا الشطارة[٤] .

والقصيدة وإن كان نظمها ركيكا لها قيمة تاريخية لا تنكر .

وحمل الشاعر جمال الدين السلمونى فى عصر الغورى ، على قاضى قضاة الحنفية « عبد البر بن الشحنة » حملة شعواء ونسب إليه الزور والرشوة ونحوهما من المفاسد ومطلعها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

أينكر فى الأحكام زور وباطل وأحكامه فيها بمختلفاتها .. الخ[٣]

وكان لهذه القصيدة ضجة وقضية ليس هذا مجال بيانهما

* * *

وإنما استطردنا إلى ذكر هؤلاء الشعراء والتنويه بشىء من جهودهم فى ميدان النقد الاجتماعى لنبين فارقا واضحا بين الكتابة والشعر . فإن الأولى قصرت فيه بينما خطا الثانى فيه خطوات لا بأس بها ، ولكل من الحالتين أسباب أشرنا إلى بعضها .

إلا أننا إنصافا للنثر ، لا نرى بأسا من التنويه بفقيه أديب كاتب ، جال فى ميدان النقد الاجتماعى ولكنه نظر إليه بمنظار الدين ، وقاس أحوال الناس فى عصره بمقياس الشريعة . فما نبا عنه من هذه الأحوال حمل عليه وبين سبيل إصلاحه . وقد استطاع بذلك أن يرسم لنا بنقده هذا كثيراً من صور العصر وعادات أهله ومباذلهم . هذا الفقيه الأديب هو ابن الحاج صاحب كتاب « المدخل » .

كتاب المدخل لابن الحاج[١]

ابن الحاج هو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى . تلقى

---

(١) الأبيات فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٣ .

(٢) القصيدة فى ديوان ابن أبى حجلة . وهو مخطوط بدار الكتب .

(٣) راجع ابن إياس الجزء الخاص بالغورى حوادث شعبان عام ٩١١ هـ .

(٤) ترجمة ابن الحاج فى الدرر الكامنة ج ٤ رقم ٦٢٧ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٧ — وكتابه المدخل مطبوع عام ١٣٤٨ هـ .

الحديث ببلاده . ثم قدم إلى مصر ، ثم حج وسمع موطأ مالك ، واستوطن مصر ، وعلت بها مهابته ، وزاول التأليف . ومات بالقاهرة عام ٧٣٧ هـ .

ومن أجل مؤلفاته « المدخل » فى أربعة أجزاء ، فرغ من تأليفها فى المحرم عام ٧٣٢ هـ وهو كتاب بديع فى بابه ، ألفه ابن الحاج تحقيقا لرأى شيخه أبى محمد عبد الله بن أبى جمرة ، وهو قوله : « وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم فى أعمالهم ، ويقصد إلى التدريس فى أعمال النيات ليس إلا » .

فرأى ابن الحاج أن يكتب مؤلفه هذا تعليما للناس وتنبيها لهم على أمور دينهم فيما يتصل بالعقائد والمعاملات والعبادات ، والعادات والتقاليد .

وقد عنى المؤلف فى كل مناسبة يتحدث فيها عن موضوع من موضوعاته الدينية التعليمية ، بأن يسجل ما اعتاده الناس فى هذا الموضوع ، ويصفه وصفا واضحا سافراً لاغموض فيه ولا مبالغة ، ويبين كيف كانوا يفهمون الأمور ، ما يأخذونه منها وما يدعونه . وبهذا سجل كثيراً من عادات الناس فى زمانه وتقاليدهم ، ولا سيما الممقوتة منها والمحرمة شرعا ، الخارجة عن نطاق الآداب الخلقية والفضائل المتفق عليها .

هذه العادات والتقاليد الممقوتة التى رسخت بين الناس رسوخ العقيدة ، والتى جروا عليها كما يجرى المؤمن على ماأحل له ، هذه العادات والتقاليد ، حمل عليها ابن الحاج وسفه المعتادين لها والمتمسكين بها ، ونقدها نقداً مرا لاذعا ، مبيناً ما فيها من مفاسد ونقائص وأضرار وخروج عن الدين القويم والذوق السليم .

ويكاد المرء يجزم بأن ابن الحاج لم يدع بدعة بارزة ، ولا تقليدا مرذولا مما اعتاده أهل القاهرة ودرجوا عليه إلا نص عليه ونبه . وسجله ونقده بوضوح وبين حكم الشرع فيه ، وما ينبغى أن يحل محله من سليم العادات وشرعيها داعياً إلى اتباعه والانقياد له لما فى ذلك من سعادة . وغايته أن يحل الحلال محل الحرام ، والمقبول مكان المرذول والمستحب بدل المكروه . والرجل يبدو —

على زهده وورعه — واسع الخبرة مديد النظرة عليما بما هنا وما هنالك . ذلك لأنك تراه فى نقدانه لم يترك محلا إلا اقتحمه ، ولا بابا إلا سلك إليه، ولا خفية إلا سرى إليها . فطورا تراه فى سطوره ، يتجول بين الأسواق ، وطورا يلج البيوت والدور ،وآنا يشهد الموالد ، ومرة يدخل المساجد . وهكذا تراه مع المرء فى نومه ويقظته ،فى بيعه وشرائه ،فى عمله وصناعته فى أكله وشرابه ، فى زيه وثيابه ، فى لهوه ولعبه ، فى أنسه وطربه . فى عبادته وقيامه ، فى تحيته وسلامه ، وفى الحفل والجنازة ، وفى السعى والكسب » الخ الخ

وإليك بعض موضوعاته على سبيل التمثيل :

خروج النساء إلى المحمل . اللهو فى الأعياد الدينية ومنها مولد النبى عليه الصلاة والسلام . السكنى على البحر . زيارة القبور . المواسم المنسوبة إلى الشرع وليست منه كأول ليلة فى رجب . نعى الميت . انتشار الرشوة وما جاء فى تحريمها . ضرب الدف والرقص . الصلاة على النبى وقت البيع . الصناعات كالخياطة وما يبدو فيها من مفاسد فى العمل . العقيقة . الختان . تشييع الجنائز . الكتابة على القبر . . الخ

وموضوعاته أكثر من أن تعد ، وربما بلغ عددها نحو مائتين وخمسين موضوعا . وتحدث عن كل موضوع فى فصل مستقل يطول أو يقصر . ولا نقول إنه عنى فى كل فصل منها بالشرح والإيضاح والتسجيل والنقد دائما ، وإنما هذه صفة غالبة على أسلوبه وفصوله .

وقد عنى ببيان حكم الشرع فى كل موضوع — كما أشرنا — معتمداً على آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبى عليه الصلاة والسلام . غير أنه — كما ذكر فى مقدمته — روى الأحاديث طوراً بلفظها وطوراً بمعناها، وتارة بسندها وتارة بغير سند . وذلك لعدم وجود كتب الحديث لديه وقت التأليف، فاعتمد على حفظه وذاكرته . ومن هنا نرى أن الكتاب فى حاجة إلى نظر وتحرير . وقد أشار ابن حجر إلى هذا الكتاب فقال : « هو كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها ، وأكثرها مما ينكر ، وبعضها مما

يحتمل »[1] . ويبدو من قراءة مقدمته أنه لم يستأثر وحده ببيان حكم الشريعة فيما يتناول الحديث فيه ، بل اعتمد أحياناً على أولى الدراية والمعرفة فناقش وجادل ، وقبل منهم ورفض . .

وقد استعان فيما استعان به بآراء السلف ومختارى الفقهاء ، وبجملة من القصص والحكايات الصالحة ، والأبيات الشعرية . ومن هذا وذاك ترى أن الكتاب جعبة فياضة بالملاحظات الدقيقة الناقدة لمذموم العادات ، ومليئة بالدروس التعليمية النفاذة إلى أعماق النفوس وقرارات القلوب ، بما جاء فى خلالها من حكم وعظات بليغة ، وهو إلى أنه كتاب فقه وتشريع ، كتاب نقد وأخلاق وأدب ، وكتاب تعليم وتقويم . وقد سلك فى أسلوبه سبيل الاسترسال ، فلا سجع ولا جناس ، ولا طباق ولا مقابلة ، إلا ما عرض لماما ودون عمد . وهو يجنح نحو الوضوح المطلق وبيان المعانى ، ثم هو يحمل على البدع وينعى على متبعيها فى عبارات لذاعة وجمل قاسية لا لين فيها ولا هوادة .

وبعد فإليك بعض سطوره : قال من فصل طويل تحت عنوان « فصل فى خروجهن إلى المحمل » :

« وينبغى له أن يمنعهن من الخروج إلى شهود المحمل حين يدور . ويمنعهن من الخروج فى تلك الأيام التى يستعد فيها لدوران المحمل ، إذ فى ذلك من المفاسد وارتكاب المحرمات ومخالفة السنة أشياء عديدة ، فمنها : تزيين الدكاكين فى الأسواق وغيرها بالقماش من الحرير والحلى وغيرهما . وفى بعض ذلك من الصور المحرمة ما هو معلوم مشاهد لا ينازع فيه وتحريمه لا خفاء فيه ، وذلك كله قبل دورانه إلى أن ينقضى . ويقع فى تلك الأيام من المفاسد استمتاع الرجال بالحرير المحرم عليهم إلا ما استثنى فى الشرع لحكمة أو جهاد . ويدل على تحريم ذلك ما ورد من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - حيث قال : « فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس » . فسمى استعمال الحصير لبسا . فدل على أن لبس كل شىء بحسبه ، فدل ذلك على أن ما يفعلونه من تزيينهم بمسائد

(١) انظر الصفحة الأولى من كتاب المدخل ، وفيها كلمة للناشر .

الحرير والبشخانات[١] المعلقة وما أشبه ذلك حرام ، سيما إن كان فيها صور محرمة ، فيتأكد الوعيد . » الخ .[٢]

وقال تحت عنوان « فصل فى اختلاف العوائد فى التسحير » :

« اعلم أن التسحير لا أصل له فى الشرع الشريف. ولأجل ذلك اختلفت فيه عوائد أهل الأقاليم . فلو كان من الشرع ما اختلفت فيه عوائدهم ألا ترى أن التسحير فى الديار المصرية بالجامع : يقول المؤذنون « تسحروا كلوا واشربوا » وما أشبه ذلك . على ما هو معلوم من أفواههم ، ويقرءون الآية الكريمة التى فى سورة البقرة ، وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » إلى آخر الآية . ويكررون ذلك مرارا عديدة ثم يسقون على زعمهم ، ويقرءون الآية الكريمة التى فى سورة « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » . من قوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس » إلى قوله : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » والقرآن الكريم ينبغى أن ينزه عن موضع بدعة أو على موضع بدعة . ثم يقولون فى أثناء ذلك ما تقدمت الإشارة إليه من إنشاد القصائد وما ترتب على ذلك . ويسحرون أيضاً بالطبلة يطوف بها أصحاب الأرباع[٣] وغيرهم على البيوت ويضربون عليها . هذا الذى مضت عليه عادتهم وكل ذلك من البدع .

وأما أهل الإسكندرية وأهل اليمن وبعض أهل المغرب فيسحرون بدق الأبواب على أصحاب البيوت وينادون عليهم : « قوموا كلوا » وهذا نوع آخر من البدع نحو ما تقدم .

وأما أهل الشام فإنهم يسحرون بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والهنوك[٤] والرقص واللهو واللعب . وهذا شنيع جداً وهو أن يكون شهر

---

(١) البشخانة : لفظة دخيلة يبدو أنها تطلق على قطع أقمشة نفيسة ذات ألوان وقد ورد هذا اللفظ كثيراً فى كتب المؤرخين بما يدل على هذا المعنى ، وتستعمل فى الملبس والزينة وتكفين الموتى من نساء الأعيان .

(٢) الجزء الأول من كتاب المدخل ص ٢٧٢ .

(٣) الأرباع جمع ربع بضم الراء ويبدو أن المدينة كانت مقسمة إلى أربعة أرباع لكل منها صاحب يشبه شيخ الحارة فى زماننا . وقد كانت كلمة ربع مستعملة فى بعض المدن بهذا المعنى إلى عهد قريب .

(٤) الهنوك : يبدو أنها لفظ دخيل يطلق على إحدى الآلات الموسيقية .

رمضان الذى جعله الشارع عليه الصلاة والسلام للصلاة والصيام والتلاوة والقيام ، قابلوه بضد الإكرام والاحترام .فإنا لله وإنا إليه راجعون . ،الخ[1]

* * *

٤ — المجونيات :

وإنما تنشط عادة بنشاط اللاهين فى ساعات صفوهم وأوقات أنسهم ولهوهم، وليالى فراغهم وطربهم . وقد أشرنا إلى ما كان هنالك من أسباب داعية ، وعوامل مغرية أدت إلى انتشار كثير من الآثام . .

وفى كتاب « المدخل » لابن الحاج الذى سبق وصفه ، أحاديث عدة عن بعض مجونيات هذا العصر ومباذل أهله . ومن ذلك خروج النساء والرجال إلى الحمامات العامة ودخولهم دون تستر . . وخروج النساء إلى البركة للاستحمام أمام عيون الرجال ، وكذلك إلى البساتين ، وحب السماع والرقص والاجتماع بالمرد . . الخ

وفى مقامة صلاح الدين الصفدى « دمعة الباكى » . وفى تمثيلية ابن دانيال « طيف الخيال » ، وفى مقامة جلال الدين السيوطى « رشف الزلال » ، ما يغنى عن البرهنة والاستدلال . . .

وتحضرنا بهذه المناسبة فكاهية سبقت إليها الإشارة عن ابن دانيال الموصلى الذى كان أديبا وطبيبا كحالا يتعاطى صناعة الكحل فى حانوت داخل باب الفتوح . وقد حدث عنه فتح الدين بن سيد الناس ، قال :

« كان الحكيم شمس الدين بن دانيال له دكان كحل داخل باب الفتوح . فاجتزت عليه أنا وجماعة من أصحابه فرأينا عليه زحمة ممن يكحله ،فقالوا : « تعالوا نخايل على الحكيم » . فقلت لهم : « لا تشاكلوه تخرجوا معه » . فلم يسمعوا . وقالوا « يا حكيم تحتاج إلى عصيات ؟ ، فقال بسرعة : « إلا إن كان فيكم من يقود لله تعالى . فمروا خجلين » .

(١) عن الجزء الثانى من المدخل ص ٢٥٥ .

قال ابن سيد الناس : « وله من هذا النوع غرائب تنقلها المصريون عنه » .

وقال عنه ابن حجر العسقلانى : « وكان كثير النوادر والرواية[1] .

* * *

٥ — التورية وما يتصل بها :

ليست التورية وليدة هذا العصر ، ولكنها ازدهرت فيه ازدهاراً واضحاً ، ولمعت حتى صارت إحدى سمات الأسلوب ودعائمه شعراً ونثراً ، لا يكاد ينهض كلام إلا على أساس منها . ولبروز التورية فى المجتمع المصرى وفى أدبه ، أسباب كثيرة عرضنا لبعضها فيما مضى ، ونعرض لها ولغيرها فى مناسبة قريبة .

والذى نريد تسجيله هنا هو أن بروز التورية فى أدب العصر ، كان صدى لما شاع منها فى المجتمع . واصطناعها فى الأساليب يعتبر تجاوبا منها مع البيئة الاجتماعية وذوقها وأدبها . ولنا تفصيل فى ذلك آخر .

٦ — العلاقات الشخصية :

ما من عصر مضى أو يمضى ، إلا وفيه علاقات شخصية تخلقها مصادفات الحياة بين فردين أو بين جماعتين مثلا . ومن هذه المصادفات الاتفاق فى مجاورة أو حرفة أو تعلم أو مصاهرة أو رحلة أو وظيفة أو نحو ذلك .

وتتولد العلاقة بالتعرف أولا ثم بالتودد مثلا ، والزيارة والإهداء والمعاونات والدفاع فى الغيبة . فتتولد حينذاك الصداقة والمحبة والألفة . وتسمو الصداقة بين الصديقين أحيانا إلى درجة أن يألم الصديق لألم صديقه ويفرح لفرحه ، ألما أو فرحا مصدره القلب لا الشفاه .

والصداقة ، على هذا النحو ، أجمل ما ينشأ فى الحياة بين رجلين ، وبها تهون متاعب الحياة وتخف أثقالها .

لكن الصداقة ليست دائماً المظهر الوحيد للعلاقة الشخصية ، بل ربما تكون

---

(١) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ١١٦٦ ، وفوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٧ .

العلاقة مبنية على رياسة أو إشراف أو تلمذة لمؤدب ، بل ربما تكون المنافسة والعداء مظهرا لها أو سبباً من أسبابها .

والعلاقات الشخصية ، على اختلاف مظاهرها وأسبابها ، من أبرز عادات المجتمع وتقاليده . وتصبح ذات أثر كبير فى الأدب إن وقعت بين أديبين . وهما بما يتبادلانه من رسائل ونحوها يعبران عن ذوق مجتمعهما وهواجسه وعلاقاته ، ولو إلى حد ، ويضيفان إلى الأدب نتاجا جديدا .

والنتاج الأدبى المتولد من العلاقات الشخصية ، كثيراً ما تتراءى فيه شتى العواطف والروابط الإنسانية ، ويصلح أن يكون موضع دراسة نفسية شائقة ، تتجلى فيها عادات المجتمع وتقاليده ومشاعره ، أو بعضها .

والعلاقات الشخصية لعبت دورها بنشاط فى ميدان الأدب فى عصر المماليك . والمتصفح لما دوناه فى أبواب هذا البحث يشعر بصواب ما نقوله .

فالعلاقة بين السلطان جقمق والمؤرخ شهاب الدين بن عربشاه ، دفعته إلى تأليف كتابه فى تاريخ جقمق المذكور ، وسماه « التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر » .

والعلاقة بين ابن أبى حجله المغربى والسلطان الناصر حسن حفيد قلاوون ، دفعته إلى أن يؤلف له كتابه « سكردان السلطان » .

والعلاقة بين ابن حجة الحموى وصديقه ناصر الدين البارزى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد المؤيد شيخ ، دفعته إلى إنشاء قصيدته « البديعية » وشرحها فى كتابه « خزانة الأدب » .

وروى السيوطى أنه ألف لصديقه الخليفة العباسى المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز كتابين هما « الأساس فى فضل بنى العباس » . و « رفع الباس عن بنى العباس[1] » .

* * *

(١) راجع مقدمات الكتب المذكورة على التتابع ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٧ .

على أن الإخوانيات والإجازات الأدبية وما نوهنا عندها به من رسائل ، تصور لنا إلى حد كبير ، كيف كانت هذه العلاقات وكيف كان أثرها فى الأدب، وكيف كان هذا الأدب دليلا عليها ناطقا بها .

فالصداقات دفعت إلى تقارض الثناء وتبادل المدائح بين الصديقين ، ودفعت إلى الشكر على المعونة والهدية ونحوها ، ودفعت إلى التهانى والتعازى فى الأفراح والأتراح ، ودفعت إلى مكابدة الأشواق وشكواها ، وإلى الحنين وإلى المعاتبة ، وإلى الاعتذار ، وغير ذلك مما يكون بين الأصدقاء . والصداقات أحيانا تزين اللهو والمجون والتهكم والدعابة والتندر . وقد كان هذا طابعا لكثير من الأدباء إلى حد كبير . ومن هنا برزت مجونيات الصفدى وابن دانيال مثلا ، واستدعاءات فخر الدين بن مكانس وغيره .

وبمناسبة ذكر الإخوانيات نشير إلى كتاب لصلاح الدين الصفدى لايزال مخطوطا بدار الكتب ، وهو « ألحان السواجع » ، وقد ملأه الصفدى بإخوانياته المختلفة الموضوعات ، مما تبادله مع أصدقائه وخلصانه ، مسجلا فيه ما كتبه إليهم وما كتبوه إليه شعرا ونثرا . فالكتاب بهذا يعتبر مجموعة قيمة وسجلا حافلا للأدب الإخوانى فى عصر المماليك .

وقد تحدثنا فى باب الوصف عن كتاب « سجيع المطوق » وهو لابن نباتة — ولا يزال مخطوطا — وقد جمع فيه تقاريظ الأدباء الذين قرظوا بها كتابه « مجمع الفرائد » وترجم لكل منهم ، وسجل شيئاً من مكاتباته إليهم . بهذا وذاك صار الكتاب مظهراً طريفا من مظاهر العلاقات الإخوانية ، يبدو فيه جمال الصداقة ووفاء الأخوة ، ومقارضات الأدباء .

وما دمنا نوهنا بالتقاريظ ، فلننوه بالأهاجى . وقد رأينا فى الفصل الذى تحدثنا فيه عنها ، ما كان — مثلا — بين ابن الوردى والقاضى الرباحى المالكى ، وبين ابن عبد الظاهر ومن تنقصه ، وهكذا .

ويضيق المقام هنا إذا ذهبنا نستوفى الحديث عن العلاقات الشخصية وأثرها

فى أدب عصر المماليك شعره ونثره . وهى فى الواقع تحتاج إلى بحث مستقل واسع المدى . فحسبناهنا ما سجلناه .

* * *

البيئة السياسية :

نوهنا بهذه البيئة عند الحديث عن البيئة الاجتماعية ، وألمعنا إلى انقسام الأمة إلى طبقتين متميزتين الحاكمة والمحكومة : الأولى تركية الجنس واللغة والعادات ، أو جركسيتها . والثانية مصرية الجنس أو عربيتها ، وعربية اللغة والعادات . ولكن تجمعهما جامعة الإسلام .

استأثرت الأولى بالمجد والسلطان والحكم والثروة والأمر والنهى والتعيين والعزل وإعلان الحرب وغير ذلك من مظاهر القوة . وتوارت الثانية وراء الحرمان والإقطاع — ومنهم « الفلاحون » عبيد المالكين — وأنت تحت الضرائب الفادحة .

وفى الخارج كان — فى الجملة — أعداء للبلاد ثلاثة هم : التتار والفرنجة ثم العثمانيون . هذا إلى العربان المنتشرين فى داخل البلاد وخارجها من ممتلكاتها ، وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة آناً بعد آن ، ويثورون ويحدثون الفتن ويسببون لسلاطين مصر الهم والقلق .

لم يجد الحاكمون صعوبة تذكر فى إخضاع الشعب وحكمه ، ولم يفكروا فيه كثيراً ، إلا بأنه شعب طائع وهم سادته وكبراؤه ، يتصدقون عليه بحكمه وحمايته من أعدائه ، وبما ينشئون له من مساجد ودور تعليم ، وبما يقدمونه أحياناً من ضروب الإحسان . . .

أما الأعداء الخارجون والعربان ، فقد شغل الحاكمون بمكافحتهم وقتالهم ورد عدوانهم عن مصر وعن ممتلكاتها . ولهم فى جهادهم صفحة بيضاء ناصعة يذكرها لهم التاريخ .

* * *

هذه هى عناصر البيئة السياسية داخلية وخارجية .

على أن مصر اكتسبت حينذاك منزلة سامية ممتازة بين الدول عامة والدول الإسلامية خاصة ، فأرسلوا لها يخطبون ودها . وذلك بما كان لها من جيش عظيم كثير العدد والعدة ، وبقيامها بمكافحة أعدائها وأعداء الإسلام مكافحة سجلت لها فى ميدان الفخر والمجد صفحات زاهية . وانضم إلى ذلك ، العامل الثقافى ، فتم لمصر بهما زعامة العالم الإسلامى فى ذلك العصر . وقد دعم لها هذه الزعامة إنشاء الخلافة العباسية الثانية بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ، فربحت بها — ولا ريب — ربحاً أدبياً ، على الأقل ، وأرسل بعض ملوك الهند يلتمسون من خليفتها إقرارهم فى سلطنتهم[١] وأرسل بعض المسلمين بالأندلس يستنجدون بملوكها ، على أعدائهم من الفرنجة الممعنين فى إذلالهم[٢] .

تزعمت مصر إذن ، فى عصر المماليك ، دول الإسلام ، وخلالها فى ذلك الميدان . وكانت هناك دول تنازعها فى الزعامة من قبله ، كدولة الخلافة ببغداد ودولة نور الدين بالشام مثلا . وكانت قد بلغت فى العصر الفاطمى مكانة مرموقة . غير أنها لم تبلغ فيه حد زعامة الأمم الإسلامية ، هذه الزعامة التى قيضت لها فى عصر المماليك[٣] .

* * *

وقد شارك النثر الفنى بأكبر نصيب فى هذه الأوصاع ، وقام بأداء دوره

---

(١) فى عام ٨٧٦ هـ أرسل ملك الهند غياث الدين رسولا إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف يطلب منه تقليدا بولاية الهند — ابن إياس ج ٢ ص ١٣١ حوادث عام ٨٧٦ هـ .

(٢) استنجد بعض أمراء المسلمين الباقين فى بلاد الأندلس بالسلطان الغورى ليكف عنهم أذى الفرنجة هناك . فأرسل إلى ملوك الفرنجة يلفت نظرهم إلى ذلك ويهددهم بإساءة معاملة رعاياهم بمصر . — ابن إياس ج ٥ .

(٣) يبدو أن سلاطين المماليك كانوا يعتقدون أنهم ملوك الإسلام والمسلمين . وقد ورد مايفيد ذلك فى كتاب ابن عربشاه فى تاريخ جقمق ، على لسان هذا السلطان إذ قال : « إن الله حكمه فى رقاب الناس وولاه سلطنة الإسلام والمسلمين وجعله سلطانا على ملوك مشارق الأرض ومغاربها » ص ٧١ .

وما يعزز ذلك ما ذكره الشهاب بن فضل الله فى كتابه « التعريف » يصف القاهرة ، قال : « هى اليوم أم الممالك وحاضرة البلاد . وهى فى وقتنا دار الخلافة وكرسى الملك ومنبع العلماء ومحط الرحال . وتبعها كل شرق وغرب وبعد وقرب ، خلا الهند فإنه نائى المكان بعيد المدى » ص ١٧٢ .

كاملا ، فى هذا المضمار السياسى . بل ربما كان دوره فيه ألمع أدواره التى قام بها . وذلك لما كان لديوان الإنشاء من أهمية .

ولا نستطيع الجزم بأن استمرار ديوان الإنشاء وتعيين كتاب السر ، فى ذلك العصر ، كان خيرا للبلاد أو شرا عليها . ذلك لأن وظائفه السنية بهرت أنظار الأدباء والمنشئين ، فتنافسوا فيها وسعوا لبلوغها ، حتى يظفروا من ورائها بالجاه والسلطان والثروة الطائلة .

وقد نوهنا فى « باب الرسائل » بأهمية رؤساء الديوان وكتاب السر ، وبينا مقدار مابلغه كاتب السر لدى السلطان من منزلة . حيث كان بمثابة المستشار الخاص — أو وزير الخارجية فى عصرنا الحديث — لاستئثاره بتسلم المكاتبات السلطانية وعرضها على السلطان ثم توليه الرد عليها .

هذا الوضع جعل عددا من نابهى البلاد ونابغيها وذوى الرأى فى تدبير أمورها ، ينطوون تحت آباط السلاطين والأمراء ويمشون فى ركابهم ، بل ويتمسحون بهم . وحقا ! بلغ بعضهم من العزة والكرامة مبلغا عظيما كأبناء فضل الله العمرى . ولكن هذا لم يخرجهم فى الجملة عن أنهم كانوا خدما للسلطان فى دولته ، وتبعاً له فى صولته . إن شاء أبقاهم أو عزلهم . أو شاء أقرهم أو نقلهم . أو شاء قربهم أو أبعدهم ، أو شاء أشقاهم أو أسعدهم . لهذا كان تفكيرهم ورأيهم وحسن بيانهم رهنا بمشيئة السلطان وظروف الدولة .

وقد نبغوا ونبغ معهم نثرهم الفنى فى هذه الناحية ، فكان صورة صادقة ومرآة ناطقة لكثير من مظاهر الدولة ، وسجلا حافلا لحوادث سياستها واتجاهاتها فى الداخل والخارج ، على وجه التقريب .

وكان منشئو الديوان رؤساء الأدباء فى البلاد ، وقدوتها — فى الجملة — ولهذا سار النثر الفنى الحر ، فى أذيال النثر الديوانى الرسمى — على وجه التقريب كذلك .

ورسائل الديوان على اختلاف أنواعها ، مما بسطناه فى « باب الرسائل » خير شاهد على ذلك وأفضل دليل . فقد وصف الكتاب فيها تنقلات السلطان

وحوادثه الهامة — وقد كانت هى حوادث الدولة — وكتبوا عنه بيعاته وتقاليده وتواقيعه ومراسيمه وأبدعوا فى وصف بشاراته وغزواته وتهديداته ومصالحاته وما إلى ذلك . وفيها رسم لسياسة الدولة فى الداخل والخارج — كما نوهنا — ويستغنى بها المؤرخ — ولو إلى حد — فى فهم هذه السياسة وفهم عناصرها .

وهذه خصوصية لا نجدها اليوم — أوقل أن نجدها — فى المكاتبات الديوانية فى عصرنا الحديث . وربما كان من أسباب ذلك ، قيام خطب الرؤساء ومنشوارتهم ، ومقالات الصحف ، بأداء هذه المهمة فاستغنت المكاتبات الديوانية اليوم بذلك عن القيام بمهمتها التقليدية ، وتخلت عن أدائها .

* * *

وفى « باب النقد» ولا سيما عند مناقشة ابن خلدون فى رأيه فى نثر معاصريه من المصريين ومن لف لفهم ، أسهبنا فى بيان العوامل البيئية المتعددة التى دعت الكتاب حينذاك إلى مخالفة قانون البلاغة الذى يرتئيه ابن خلدون، واصطناعهم الخيال الشعرى والمبالغات ، وما إلى ذلك فى أسلوب المكاتبات . لأن هذا هو المنهج التعبيرى الذى ترتئيه ظروف حياتهم وسياق عصرهم وملابسات معيشتهم.

وقصروا حقا فى الحديث عن الشعب ورأيه فى سياسة بلاده الداخلية والخارجية . ولكن لهم عذرا واضحا فى هذا التقصير ، وهو أن الشعب نفسه لم يكن له حينذاك رأى فى هذه السياسة غير رأى سلطانه وأمرائه وجيشه . يتضح لناذلك — على الأقل — من إقامة آيات الزينة ومعالم الأفراح عندما كان سلطانه يعود من حرب منتصراً ، ومن بلبلة خاطره وحزنه الشامل عند عودة سلطانه مهزوما . ويقع هذا وذاك فى كل مناسبة مماثلة . وهذه هى التبعية فى الرأى فى نظرنا — ولا ينبغى أن نعتبر ذلك « رأيا » إلا من باب حسن الظن والوطنية .

إن الشعب — ونعنى عامة الشعب — لم يكن قد نضجت فيه القومية وقوى فيه الوعى، نضج القومية وقوة الوعى فيه ،فى عصرنا الحديث ، وبخاصة جيلنا الذى يحلو

لنا دائماً أن نقيس به وبمظاهره ، عصور مصر السالفة ومظاهرها . فالقومية والوعى مسائل اكتملت لهما عوامل النضج — أو كادت تكتمل — لما تيسر للشعوب عامة من ثقافة عالية ووسائل مواصلات وتحولات اقتصادية ونحوها.

وقد نبهنا إلى شيء من ذلك فى « باب الخطب والمناظرات » عند الكلام عن أسباب اختفاء الخطب السياسية .

* * *

وترى أثر البيئة ، كما بدا فى الموضوع ، باديا فى المعانى الجزئية وطرق التعبير عنها . انظر إلى هذه السطور ، وفيها تتمثل عزة الإسلام وقوة الدولة فى مخاطبة أعدائها من الفرنجة .

يقول محيى الدين بن عبد الظاهر ، فى رسالته التى كتبها عن الظاهر بيبرس إلى بيموند أحد أمراء الصليبيين بالشام — وقد هزمه بيبرس واحتاز منه طرابلس وأنطاكيه — يقول مخاطبا له واصفا :

« وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت . وإذا سمعت صوتا قلت فزعا، «على هذا الصوت» وكيف رحلنا رحيل من يعود . وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود . وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهى لدنيا ماشية. ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية . » الخ

ويصف فتح أنطاكية وما عاناه جنود بيموند :

« فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول . وديارك والنهابة فيها تصول . والكسابة فيها تجول . وأموالك وهى توزن بالقنطار . وداماتك[1] وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار . ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت . وصحفها من الأناجيل المزيفة قد نثرت . » الخ[2] .

* * *

وكذلك ترى الدعوة إلى العدل والإحسان ، أو دعواهما ، ماثلة فى كثير

---

(١) يبدو أن كلمة « دامات » جمع « دام » ، وهى اللفظ الفرنسى الذى عربيه « سيدة » وأمرأة » والمعنى » « نساؤك » .

(٢) راجع فصل الرسائل الملوكية فى باب الرسائل من هذا البحث .

من المبايعات والتقاليد . وهذه سطور من مبايعة الخليفة المستنصر بالله العباسى، للسلطان الظاهر بيبرس ، قال فيها يوصيه :

« فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا . وخلص نفسك من التبعات اليوم ، ففى غد تكون مسئولا لا سائلا . ودع الاغترار بأمر الدنيا ، فما نال أحد منها طائلا . وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها حائلا زائلا . والسعيد من قطع منها آماله الموصولة . وقدم لنفسه زادالتقوى ، فتقديمه غير التقوى مردودة لا مقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل فقد أمر الله بالعدل والإحسان . وكرر ذكره فى مواضع من القرآن ... » الخ[1] .

ومن تقليد كتبه محيي الدين بن عبد الظاهر عن لسان الملك السعيد بن بيبرس ، إلى بهاء الدين بن حنا يعهد إليه بالوزارة . قال يبين صفاته التى رشحته لهذا المنصب :

« سيد الوزراء والأصحاب فى العالمين . كهف العابدين . ملجأ الصالحين . شرف الأولياء المتقين . مدبر الدول . سداد الثغور . صلاح الملك . قدوة الملوك والسلاطين » الخ[2] .

ومن تقليد كتبه أيضا تقى الدين بن حجة — عن المؤيد شيخ — بتعيين جلال الدين البلقينى فى قضاء الشافعية . قال منوها بصفاته التى اختير من أجلها:

«علمنا أنه حجة للشافعى الذى منه الاستقصاء وإليه منتهى السؤال . وما أبدر فى أفق درس إلا أزال ظلم الشك أنواره وأسفر بداره عن التتمة والإكمال . وهو أبو العلماء الذى ولد من الأم أفراحهم . وأبو المهمات الذى شهر من العدة الكاملة فى ميدان الفرسان سلاحهم . وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا فى وجيز تقريبه بالعجاب . ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا فى إبانته باللباب »[3] .

* * *

---

(١) راجع فصل المبايعات فى باب الرسائل .
(٢) راجع فصل التقاليد فى باب الرسائل .
(٣) راجع خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٢٩ باب السجع .

على أن هذه الظاهرة بادية فى النصائح — بادية مثلا فى نصيحة ابن دقيق العيد لنائبه فى إخميم، بادية فى نصيحة النووى لبيبرس ؛ بادية فى نصيحة السيوطى لملوك التكرور .

وهكذا نستطيع من الرسائل أن نفهم دعائم السياسة المصرية حينذاك فى الداخل والخارج ، وهى على وجه الإجمال : رعاية العدالة أو دعوى رعايتها — والعمل على نشر الدين واتخاذه أساساً للدولة واتباع أحكامه ، واختيار الأكفاء لمناصب الدولة ممن عرفوا بالإحسان والتقوى ، وبخاصة فى مناصب القضاء والوزارة ، والسهر على الرعية باعتبارها أمانة الله فى يد الحاكم ، والظهور بمظهر التقوى . ثم حماية الدين والمسلمين وبلادهما من أعدائهما فى الخارج ، وإظهار الدولة بمظهر من القوة والعظمة فيه إرهاب وإخافة لهؤلاء الأعداء .

وحسب النثر أن تتضح فيه هذه الظواهر .

* * *

البيئة الثقافية :

نعنى بالبيئة الثقافية الوسط التعليمى ، والظروف التهذيبية التى نشأ فيها الأدباء وتأثروا بها ، والنظم التى ساروا عليها وأخذوا بها فى دراساتهم ، ونوع الدروس التى تلقوها ، والتى ازدادوا بها علما ، وازدادت عقولهم بها نموا وتهذيباً ، والأساتذة الذين تلقوا عنهم والعلوم التى برع فيها هؤلاء الأساتذة ، وما يتصل بذلك من دور كتب ووسائل تشجيع للعلماء والطلاب على السواء .

وهذه البيئة ذات أثر بالغ فى أدب الأدباء شعراً ونثراً . فإذا كانت البيئة الطبيعية أو الاجتماعية تزود الأديب بالغذاء الروحى والعاطفى ، فإن البيئة الثقافية تمده بالغذاء الفكرى . وخيال الأديب إنما يصرفه قائدان هما العاطفة والفكر . وكلما كان كل منهما على مقدار واسع من القوة والدقة والعمق ، قيضا للخيال مسرحا فسيحا يجول فى أرجائه ويطوف فى أنحائه . فتطفر إلى صفحته صور يبتكر فى إبداعها ما شاءت له قدرته وبراعته . ثم يتسلط الثلاثة على اللسان فيوحون إليه بألوان من الحكمة ، وينفثون على أسلته ضروبا من البيان ، يترجمها جملا مطربة وعبارات معجبة .

والثقافة الواسعة الأفق تنتج أدباً واسع المدى . يبدو فيه العقل الحصيف والذوق اللطيف والنظر الثاقب والرأى الصائب ، والذهن المتفتق المبتكر ، والتصوير الدقيق .

غير أن الثقافة إذا أخذت بتلابيب الأديب ، وتشبثت بتفكيره ، واستأثرت بعقله ، استغرقت حواسه ، وجعلته يتتبع الحقائق وحدها ، يجمعها ويحللها ، ويختبرها ويعللها . وبدا أدبه لذلك ذا قيمة خطيرة فى عالم الفكر ، ولكن تزايله السماحة والظرف ، والرقة واللطف ، وتفيض عنه البشاشة أو تكاد

والبيئة الثقافية تزود اللسان باللغة وأدواتها ، فتكسبه مقدرة على التعبير ، وتوضح له ما خفى عليه وند عن خاطره من أسرار البيان . وهى أيضا تضع بين يديه حقائق الكون وحوادث التاريخ ، فيجد فيها لأدبه مددا لا ينضب .

وكثيراً ما يدل الأدب ، لا بما فيه من أفكار وآراء فحسب ، بل بما فيه من معان جزئية وطرق تصويرية لما ارتسم فى خيال الأديب ، على مقدار ما تعيه ذاكرته من هذه الحقائق والحوادث . حتى البديع وأنواعه — وهى ما بين زخارف معنوية ولفظية — ينطق بما لصاحب الأسلوب البديعى من فقه وعلم ، ومن تلك الأنواع : الاقتباس والتضمين والتورية والتوجيه والتلميح .

* * *

وقد أشرنا فى مقدمة هذا البحث إلى شىء من أوصاف هذه البيئة ومظاهرها . ونحاول هنا أن نرسم صورة تقريبية تساعدنا على فهم هذه البيئة التى تلقى الأدباء فيها دروسهم وبها تخرجوا ، فى عصر المماليك .

ولا حديث لنا عن ثقافة العنصر المملوكى ، ذلك لأنها كانت ثقافة عسكرية ، الغرض منها تنشئة الجنود وإعدادهم للحرب . فلم تكن ثقافة يتخرج بها الأدباء . وأما ما قيل من أن بعضهم كان يعرف العربية أو ينظم بها الشعر ، أو يناظر العلماء فى فقه أو تاريخ مثلا ، فتلك مسائل فردية لا يقاس عليها . فقد قيل مثلا : إن المؤيد شيخا المحمودى كان ينظم الشعر بالعربية ، وإن الأشرف الغورى كان ينظم بها الشعر أيضاً ويناظر العلماء . وعرف بعض الأمراء بقرض الشعر أو التأليف — هذا والثقافة العسكرية لم يكن للشعب ولا لأدبائه صلة بها .

اما الثقافة التى تعنينا والتى نعرض لها هنا ، فهى ثقافة المساجد التى تخرج بها فقهاء الشعب وأدباء الأمة .

وقد كانت سياسة السلاطين والأمراء منصرفة إلى إنشاء المساجد واتخاذها معابد يتعبد فيها الناس لربهم ، ودوراً للتعليم يتلقى فيها الطلاب دروس العلم .

ولا ضرورة هنا إلى البحث فى الدوافع الحقيقية إلى اتباع هذه السياسة . فقد تكون إحدى الدعائم التى أرادوا بها تعزيز سلطتهم فى داخل البلاد وخداع الشعب من هذه الناحية الدينية ليتم لهم خضوعه . وقد تكون صادرة عن إيمان حق وإخلاص لله دعاهم إلى أن يعمروا مساجده . وقد تكون إحدى وسائلهم إلى استمرار انتفاع ذراريهم بما تدره عليهم أوقاف مساجدهم من أموال . وقد يكون غير هذا وذاك مما تكلم فيه كثير من المؤرخين وعللوه .

على أن هذه السياسة قد انتهجها من قبلهم ملوك الدولة الأيوبية ، إذ شيدوا بالقاهرة عدة من المساجد اتخذوها دوراً للتعليم .

وقد أوقف المماليك أوقافا واسعة على المساجد التى أنشئوها ، لينفق عليها من ريعها . وخصصوا فى أحيان كثيرة معاونات للطلاب المقيمين بها المنقطعين لطلب العلم . وعنوا عناية تامة باختيار الشيوخ الذين يتولون التدريس بها . وكادوا يجعلون فى كل مسجد مكتبة ملأى بنفائس كتب العلم والأدب .

وقرروا أنواع الدروس التى تلقى بها . وإذا تصفحنا أخبار هذه المدارس — وكانت تعد بالعشرات وكان بالقاهرة منها عدد كبير — وجدنا أن دروس الدين كانت الدروس المقدمة المفضلة على غيرها كالفقه على اختلاف مذاهبه ، وخاصة فقه الشافعية فالحنفية ، والحديث والأصول والكلام ، ويأتى بعدها فى الأهمية علوم اللغة ، ثم المعقولات كالمنطق والهيئة والفلك ونحوها .

وبهذه المناسبة نذكر أيضاً أن مراحل التعليم حينذاك كانت ثلاثا : الأولى : يعلم الطفل فيها فى المكتب الخط والإملاء وشيئاً من الحساب ، ويحفظ القرآن الكريم . والثانية : يأخذ الشاب فيها نفسه بحفظ كثير من الكتب والفنون

المختلفة ، وهنا تبدو همة الطالب وذكاؤه ومبلغ شغفه بالعلم ، ويستطيع الطالب أن يتقدم كلما حفظ كتابا أو متنا ، إلى أحد الشيوخ ليعرضه عليه ، فإذا اطمأن الشيخ إلى حفظه كتب له « إجازة عراضة » يشهد له فيها أنه سمع منه الكتاب أو المتن . والثالثة : هى مرحلة التعليم الحقيقى أو الدراسة العالية بلغة عصرنا ، وينتفع الطالب فيها بذخيرته المحفوظة فى المرحلة الثانية . وفيها يلازم الطالب شيخاً أو أكثر يطوف عليهم ويختارهم بمحض رغبته وبعد اختباره . ويظل يتلقى العلم عنهم حتى يجيزوه أو يجيزه أحدهم بالفتوى أو التدريس ، ومن ثم يصبح أهلا لتولى وظائف الدولة ، وهذان النوعان من الإجازات قد نوهنا بهما فى « باب الرسائل » .

* * *

هذا المنهج التعليمى تغلب عليه الروح الدينية . وقد كان استجابة لاتجاه العصر ومنطقه الذى هو — فى الواقع — امتداداً لما كان منه فى العصر الأيوبى . ذلك لأن الأيوبيين كانوا سنيين متعصبين لمذهب الشافعى فى الفقه ، ولمذهب الأشعرى فى العقيدة — كما نوهنا من قبل — وحكموا البلاد بعد أن عاش فيها المذهب الشيعى أكثر من قرنين ، غريباً أو كالغريب . ويعتبر تعصب هؤلاء رد فعل لوجود هذا المذهب الذى أريدت البلاد عليه .

فشت الروح الدينية إذن وبلونها هذا ، وزادت نشاطاً وانتعاشاً بتفاقم الحروب الصليبية وبما قام به أمراء المسلمين خلالها من بطولة .

ولما بدأ عصر المماليك ورث هذا كله . فضلا عن أمور ثلاثة عاونت على استمرار هذه الروح وعلى اتصال نشاطها . هذه العوامل هى : استمرار الحروب الصليبية ، وانقضاء دولة الخلافة البغدادية على يد التتار أعداء الدين حينذاك ، وإنشاء الخلافة العباسية الثانية فى القاهرة . وقد خشيت مصر حينذاك سطو التتار عليها وعلى ممتلكاتها فكان ذلك حافزاً لها للعمل على رد العدوان .

من هذه الروح الدينية استوحى السلاطين والأمراء أنواع المواد الدراسية ، لأنهم كانوا هم الذين يقررونها . والنتيجة الطبيعية لهذا اللون الثقافى اصطباغ المتعلمين بالصبغة الدينية ونزوعهم إلى الناحية الدينية فى تفكيرهم وإنتاجهم .

وقد لمعت فى هذا العصر أسماء كثيرين من أعلام الدين والفقه والكلاميات ، وقد نوهنا بعدد منهم فى مناسبات مختلفة . وازدهرت مؤلفاتهم الدينية أيما ازدهار ، وبدت عليها روح التجديد لا التقليد ، كما يرميها البعض بذلك ظلما . وكنا نود لو انفسح مجال بحثنا هذا واتسع صدره لبيان ذلك . ولعلنا نجد مناسبة أخرى للكتابة المستقلة فى هذا الموضوع .

على أننا شهدنا بعض آثار هؤلاء العلماء الفضلاء وجهادهم فى سبيل الدين والحق والعدالة . وقد شهدنا ذلك مما سجلناه لهم من رسائل ومقالات ونحوها ، فى « باب المناظرات والخطب والنصائح » .

ومن هؤلاء العلماء من جنح نحو الأدب فاغترف من بحره وجمع من دره وجال فى ميدانه وخطر فى بستانه ، فنظم ونثر ، وكتب وسطر ، وأبدع واخترع .

ومن هنا سلك بعضهم سبيله إلى ديوان الإنشاء فلمع نجمه وأزهر قلمه ، وكتب الرسائل الحاذقة فى مختلف شئون الدولة . ولم تزايله الصبغة الدينية فيما يكتب . انظر إلى مفتتحات الرسائل وما فى الديباجة من الحمد لله والثناء عليه ودعائه والصلاة على نبيه ، حتى السطور الوسطى فى هذه الرسائل قلما تخلو من ذكر الله سبحانه وتعالى وذكر نعمه وآلائه ، واستزادته منها وشكره عليها ، واستمداد القوة منه والمعونة ، إلى آخر ما يتصل بهذه المعانى .

هذه المسالك نفسها تراها ماثلة لا فى المكاتبات الديوانية وحدها ، بل أيضاً فى غيرها من المكاتبات والمقالات حتى خطب الكتب ، ترى المنهج نفسه فيها . لم يكن ذلك أمراً مدّعىً ولا نهجاً متكلفا ، وإنما هو فطرة العصر ونتيجة ثقافته .

وكنت أود فى هذا المجال أن أقارن فى إيجاز بين ما كان متبعاً من ذلك النهج فى ذلك العصر الغابر ، وما هو متبع اليوم بين أكثر الكتاب والمنشئين فى الرسائل والمقالات وخطب الكتب ونحوها ، ممن يعدون الافتتاح بالحمد لله والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام نهجا « قديما » تنفر روح العصر الحديث منه .. هذا النهج القديم الذى لم يعدله من أثر تقريبا إلا فى الخطب المنبرية وبعض كتب أفاضل المؤلفين . أقول كنت أود أن أعقد هذه المقارنة ، لولا أن المجال لا يتسع لها .

هذا . وهناك عامل ثقافى له أهميته حينما نتحدث عن النثر الفنى وأثر الثقافة فيه . ذلك العامل هو منهج القاضى الفاضل . وقد كان أكثر كتاب عصر المماليك يعشقونه عشقا ويمجدونه تمجيدا . ترى ذلك مثلا ، فى خزانة ابن حجة ، فما ينساق فى حديثه ، إلى ذكر القاضى الفاضل حتى يسبغ عليه ثوب الحمد ضافيا ، ويعلى من قدره ويشيد بذكره . وقد كان هذا المنهج ذا أثر بالغ فى مناهج الأدباء حينذاك . ولن نفيض فى هذا الموضوع الآن ، فله موضعه من فصل « البديع » الآتى عما قريب .

* * *

وهناك عامل آخر له أثره ، ولا ريب ، ذلك هو الفنون العملية المنتشرة حينذاك ونخص بالذكر هنا فن هندسة البناء . ذلك لأن الحكام أولعوا — كما رأينا — ببناء المساجد والقصور والقاعات والسبل والقلاع والحصون والقناطر ، وما إلى ذلك . وعنوا عناية كبرى بنقش مبانيهم الهامة وزخرفتها وطلائها وتزويدها بالقطع الخشبية أو الزجاجية أو الحجرية أو الخزفية الفنية الصناعية ، الملونة البديعة الألوان ، الزاهية الأصباغ . ولوحظ ميلهم إلى ضخامة البناء وسعة حجمه وأفنيته ، هذا فضلا عن العناية بإنشاء البساتين وغرس الأشجار وجلب أصناف الفاكهة لزرع أعوادها فى الأرض المصرية .

وتقرأ أنباء هذه المساجد والقصور والبساتين وكثير من المنشآت فى تاريخ بيبرس وقايتباى والغورى مثلا .

وهذه الفنون التى يتجلى فيها ذوق العصر ويترجم عن ميله ، كانت ماثلة أمام أنظار الأدباء ، فلا غرابة أن يكون لها أثر فى نفوسهم ودوى فى وجدانهم ، ينضح بهما أدبهم . ومن هنا زاد ميلهم إلى المبالغات والتهاويل والطنطنة فى الأسلوب ، والإقبال على صبغه بأصباغ البديع .

* * *

وبعد ، فهذه دراسات وجيزة لأنواع البيئات المصرية الهامة ، ومبلغ استجابة النثر الفنى لها . ونعتقد أننا بها خطونا خطوة فى هذا الميدان .

* * *

ملحوظة :

قد شاهدنا أن البيئة — على تنوعها — كان لها أثر كبير فى إقليمية النثر ، إلا أن هذه « الإقليمية » برزت فى « الموضوع » أوضح مما برزت فى الأسلوب وطريقة التعبير . ويبدو أن الأسلوب وطريقة التعبير أكثر من « الموضوع » ارتباطاً بدراسة الأدب القديم وتلقى أساليب الفصحى الموروثة . لهذا أبطأت إقليميتها . على أننا سنسجل فى مناسبة قريبة جملة من النصوص تبدو فيها هذه الإقليمية الأسلوبية .

وعند حديثنا عن البيئة ومبلغ استجابة النثر الفنى لها ، نظرنا فى ذلك إلى مجموع النثر باعتباره نتاج العصر . فلم ننظر إلى نتاج كل منشىء على حدة . على أننا لم نهمل الإشارة إلى الفوارق الواضحة بين أسلوب أديب وأسلوب آخر ، وأرجعنا ذلك إلى المزاج الشخصى ، الذى — لاريب — أنه متأثر بضرب من ضروب البيئة .

الفصل الثانى

٢ – شيوع الوصف

أفردنا من أبواب هذا البحث بابا هو « باب الوصف » . وقد أفردناه باعتبار «الموضوع» . إذ رأينا طائفة ضخمة من الرسائل والمقالات والموازنات ، موضوعها وصف شىء ما مما تحتويه بيئة الأدباء ، وذلك مثل أداة أو منظر أو جماد أو حيوان أو طير ، أو غزوة أو صيد أو رحلة ، أو وصف النيل أو علم من العلوم ، كالتاريخ والفقه ، إلى غير ذلك .

فالغاية من هذه الرسائل والمقالات وصف شىء ما وبيان نعوته . وعللنا عناية الناثرين واهتمامهم بوصف هذه الأشياء التى تحف بهم وتتصل بحياتهم ، بعمق شعورهم بها ، وصدق إحساسهم بأهميتها فى محيط حياتهم . ثم بامتزاجهم بها حتى صار لها فى نفوسهم منزلة الصاحب والخليل ، ومكانة الجزء الذى لا ينفصل من الحياة . ولهذا خلعوا عليها شتى الأحاسيس ، وتحدثوا عنها أو ساجلوها أو أنطقوها بما ينم عن مشاعرهم . وما ذلك إلا لأنها أجزاء بيئتهم التى نشئوا فيها وتأثروا بها ، ونمت مشاعرهم تلك فى أحضانها ، فطبعتهم بطابعها ، وصقلتهم بصقالها ، وكانت بعض مصادر إلهامهم . فلا غرابة أن تغنوا بها وأشادوا بمآثرها ، وسجلوا أوصافها وخلدوا ذكرها لتبدو بين ثنايا التاريخ سافرة المعالم ظاهرة الأوضاح . وتاريخها جزء من تاريخهم لا ينفصل .

* * *

ولكن الذى نريد أن نسجله هنا فى هذا الفصل ، وننبه عليه ، هو نزعة الوصف الذائعة بين سطور النثر الفنى ، على الرغم من تباين أبوابه واختلاف موضوعاته . هذه النزعة فاشية – على وجه التقريب – فى سطور هذا النثر . فرسائل الديوان سواء منها ما كان مبايعة أو تقليداً أو توقيعا أو بشارة أو غيرها ،

مبنية على الوصف، أو الوصف — على الأقل — فى مقدمة عناصرها . والرسائل الإخوانية ، سواء منها ما كان فى المدح أو الشكر أو الشوق أو الشكوى أو العتاب أو غيره ، مبنية على الوصف ، وكذلك رسائل الاستدعاء بل الاستجازات والأجازات كلها أوصاف . وكذلك ترى هذه النزعة بادية بارزة فى الحكايات والقصص والمقامات ، بل فى الخطب المنبرية والنصائح والعظات . بل إن كتب التاريخ والسير والخطوط والآثار مبنية على الوصف معتمدة إلى حد كبير عليه. هذا ، إلى ما شهدناه فى باب الوصف ، فكله فى هذا المعنى سائغ طريف .

وفشو النزعة الواصفة فى ألوان النثر يدل فيما يدل عليه ، على أصالة النزعة الأدبية فى نفوس المنشئين .

ونقتبس عدة شواهد من أبواب مختلفة ، لنرى فيها مبلغ عنايتهم بالوصف . الوصف الذى يتناول المعانى الجزئية لا الموضوعات العامة فحسب .

فمن رسالة هولاكو إلى المظفر قطز ، يصف عُدده وعَدده ، وينذر ويتوعد ، قوله :

« خيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وقلوبنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع . والعساكر لقتالنا لا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يسمع . فإنكم أكلتم الحرام . ولا تعفون عند كلام . وخنتم العهود والأيمان . وفشا فيكم العقوق والعصيان . » الخ[1]

ومن مبايعة السلطان المنصور أبى بكر بن محمد بن قلاوون للخليفة المستكفى بالله العباسى ، قول الكاتب يصفه :

« إنه الحائز لما زرت عليه جيوب المشارق والمغارب . والفائز بملك ما بين المشارق والمغارب . الراعى فى صفيح السماء هذه الدرة المنيفة . الراقى بعد الأئمة الماضين ونعم الخليفة . المجتمع فيه شروط الإمامة . المتضع لله وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة . الذى يفضح السحاب نائله . والذى لا يغره عاذره ولا يغيره عاذله . » الخ[2]

---

(١) عن سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٢٧ .

(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩ .

ومن تقليد كتبه ابن حجة الحموى عن السلطان المؤيد ، بصحبة دواوين الإنشاء الشريف ، لكمال الدين بن البارزى بعد موت أبيه. قال يمدحه ويصفه:

« الكتابة دون كماله ومحاسنه تجل أن تقابل بمثال . وإن كان الكمال زها بحاشيته فحاشيتنا زهت بهذا الكمال . وكان والده عقدا فرط فيه الزمان ولكن استدرك فارطه . وقد نظمناه فى عقد سلكنا الشريف إلى أن صار به نعم الواسطة . وامتدت ألسن الأقلام إلى ثغور المحابر فقبلتها . وانشرحت صدور الأوراق وعلق فيها عنابر سطور فحملتها . وقالت لحمر أقلامه أهلا بالعربيات التى ليس لها إلا الأيدى الجهينية غرر ، ومرحبا بعد النوبة بقهوة الإنشاء فإن شباب الزمان قد عاد ، وزهر المنثور قد زهر » الخ[1] .

ومن بشارة بوفاء النيل كتبها صلاح الدين الصفدى ، قال

« والنيل له الآيات الكبر — وفيه العجائب والعبر . منها وجود الوفا عند عدم الصفا . وبلوغ الهرم . إذا احتد واضطرم . وأمن كل فريق إذا قطع الطريق . وفرح قطان الأوطان . إذا كسر ، وهو — كما يقال — سلطان . وهو أكرم وأعذب مجتنى وأعظم مجتدى . . » الخ[2] .

وكتب برهان الدين القيراطى يمدح ابن نباتة ويثنى عليه ويصف بلاغته فقال من رسالة :

« فتبارك الذى جعل فى سماء دوحته لشمس بلاغته بروجا . وأعلى همه التى لا ترضى الشهب جيادا والأهلة سروجا . حتى أقام يراع قلمه لسوق الأدب قصبة . وشاد من قصائده كل بيت إذا مر الحاسد ببابه قبل العتبة . وسارت كالسبعة السيارة مصنفاته . وعلت من قصره المشيد بسينات سطوره شرفاته » الخ[3] .

ومن رسالة ابن نباتة المصرى التى كتبها إلى الشهاب محمود الحلبى يشكره فيها على أن رد غيبته ، قال يصف له أشواقه إليه :

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة ص ٤٢٥ فى سياق باب السجع .
(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .
(٣) خزانة الأدب باب الاقتباس ص ٤٤٨ .

« العبد يخدم بسلام . ماروضة نقطها الجو بدر سحائبه . وأفرغ عليها الأفق سفط كواكبه . وامتد نوء[1] الذراع لتدبيج سمائها . وتأريج أرجائها . وتخميش معاصم أنهارها المنشقة بأفنائها . وصقال نسماتها السحرية . ومغازلة عيونها السحرية . وهو أن الغالية بنفحاتها الشجرية . تصرف دنانير أزهارها الصروف . ويسل جدولها على الهموم السيوف . وتجذب القلوب بالأطواق . ويتشفع دوحها إلى النواظر بالأوراق . قد ترقرق فى وجناتها ماء الشباب . وغنى مطرب حمامها وعنتره فى حك من الذباب . وبحرها رونق السيف وفى قلب روضته الذباب .

فما كل أرض مثل أرض هى الحمى وما كل نبت مثل نبت هو البان

يوما بأبهج منه أشواقا . . وأطيب منه انتشاقا واتساقا . » الخ[2] .

وكتب الشهاب محمود الحلبي رسالة إلى مقدم سرية كشف . فقال فى مطلعها يدعو له . وهو دعاء ملؤه الوصف قال :

« لا زال أخف فى مقاصده من وطأة ضيف . وأخفى فى مطالبه من زورة طيف . وأسرع فى تنقله من سحابة صيف . وأروع للعدى فى تطلعه من سلة سيف . حتى يتعجب عدو الدين فى الاطلاع على عوراته من أين دهى وكيف » . الخ[3] .

ومن مقامة الشاب الظريف يصف محبوبه :

« وجه كالبدر فى سناه وسنه . وعطف لا يشفع العطف عنده إلا بأذنه . ومبسم كالبرق ضياء ولمعا . وأعين يخيل من سحرها أنها تسعى . قد نادت محاسن وجهه بكل من هام بحبها : لتأتينكم بجنود لا قبل لكم بها . » . الخ[4]

---

(١) قال فى مختار الصحاح : النوء سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته ... الخ وقال : وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع منها . — هذا ويبدو أن قوله « نوء الذراع » يعنى نجمه الممطر على سبيل التشبيه .

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤٢ . (٣) حسن التوسل ص ١٣٣ .

(٤) من مقامة للشاب الظريف بدار الكتب .

ومن مقامة الصفدى « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » يصف الروضة وطيرها وزهرها قال :

« ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق . ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق . ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه . ويحرص على الوفاء ويحرض عليه . وقام الشحرور بينهما واعظاً وخطيبا . فأجدت مواعظه ، وكان قلب النهر صافياً وقريبا . وقام النسرين من السرور على ساق . وجذب كل صدوح للغناء بالأطواق . وتبسمت من الأقحوان الثغور . وتنسمت نفحات المسك والكافور الخ[1] » .

ومن طيف الخيال لابن دانيال الموصلى ، ماجاء على لسان «حويش الحاوى» يصف ما معه من الأفاعى ، قال :

« إن فى هذه السلال . سُلال الآجال . وهلاك النساء والرجال . وهذا الناشر . بل الأسد الكاشر . الهجام الحجام . بلية مصر والشام . وهو الصل . والموت المطل » . الخ[2] .

* * *

هذه أمثلة متعددة للوصف من مواطن مختلفة يتبين منها مقدار اعتماد الإنشاء فى عصر المماليك على النزعة الواصفة . وقد اعتمد الوصف على جملة دعائم فنية أساسية نذكر منها :

الخيال الشعرى :

نقصد بالخيال إحدى القوى الذهنية التى عملها الانتفاع بالحقائق والمعلومات المختزنة فى خزانة الذهن لتوليد الجديد من الصور ، وتكوين المبتكر من الأشكال ، التى تصب فيها التصورات التى يسرح إليها الخيال أو تطفر على صفحته ، والتى ترتب فيها الحقائق ترتيباً جديداً لا عهد للذهن به من قبل .

---

(١) راجع دمعة الباكى : للصفدى مطبوع .

(٢) راجع طيف الخيال «منه مطبوع» ومنه مخطوط بالمكتبة التيمورية .

ويقوم الخيال بعمله تحت تأثير الانفعالات العاطفية والسمو الفكرى .

والخيال الشعرى هو الذى يبرز صوره المولدة ، وأشكاله المبتكرة فى أثواب من الألفاظ جميلة خلابة لامعة ، وقوالب من التراكيب جذابة رائعة ، فيها للقارئين متعة ، ولها فى قلوبهم أثر ، وفى نفوسهم هزة وطرب .

هذا الخيال المبتكر المجدد ، هو الذى يكشف الخفى ، ويوضح الغامض ، ويفخم الضئيل . وهو الذى يضفى على الأدب جدة ، وينشر فيه روحا ، ويربط القارىء بالحياة ، ويصل ما بين نفسه ونفس الأديب . وهو الذى يخلق من الحياة العادية الهادئة ضروباً من الحياة متحركة صاخبة مدوية مليئة ، فيها قصص وروايات ، ووقائع وحوادث ، ومواقف تحدث الوجدان وتثير العاطفة ، وتنطق الجماد والحيوان ، وتنسب إليهما من صفات الإنسان ما هو مقصور عليه ، ومن ألوان المعانى والأفكار ما هو خاص به .

« وللخيال شأن فى تحويل المدركات ، فهو يخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة ، ويحول المحسوس إلى معنى ، والجماد إلى مدرك وجدانى ، تهتز له النفس ، فترى المحسوس المجسم وقد تحول إلى فكرة متموجة قائمة ، تنعم بجمالها الفنى وقوتها المعنوية[1] » .

* * *

وقد امتلأت سطور النثر الفنى فى عصر المماليك بهذا الخيال الشعرى ، فكان للوصف أهم دعامة وأفضل وسيلة . وقد اتضح هذا الخيال مثلا ، فى المقامات . وهو وإن اعتمد فيها على شىء من الواقع كوصف مدينة أو منظر أو حادث ، لم يبق متعلقاً بهذا الواقع إلا ريثما سرح بين جوه الإبداعى ليأتى بكل ممتع ، ويصور كل مطرب معجب .

يقول ابن الوردى فى مقامته : « صفو الرحيق فى وصف الحريق » يصف سوق الكفت خلال حريق دمشق :

---

(١) عن « الأصول الفنية للأدب » تأليف الأستاذ عبد الحميد حسن . ص ٩٨ فى سياق فصل « الخيال » .

« ما كفت النار عنه لسانا . ولا ثنت عنه سرابقها عنانا ، ونعوذ بالله من نار علكت عليهم اللجم . وسبكت مهجته حتى أفصح التأسف له الألسن العجم » .

فترى الكاتب قد سبح بخياله فى وديان الخيل ، فربط بينها وبين وادى النار بروابط متلائمة متوافقة . فأصبح للنار ألسنة وسوابق ولجم وأعنة .

ويقول الصلاح الصفدى فى مقامته « رشف الرحيق فى وصف الحريق » :

« انظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق اللهب اللامع ، فبادرت إلى صحته ، والناس فيه قطعة لحم . والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم . ورأيت الناس وقد نشرت فى حداد الظلام معصفرات ذوائبها . وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها » .

فترى الكاتب قد جمع بين اللهب والعقائق لصلة اللون . ولمناسبة النار وضع قطع اللحم فى الصحون ، وقرب بين الشحم والقلوب .

على أن هذا الخيال ، وإن تعلق بأذيال الواقع فى بعض المقامات ، واتخذ منها سلما للعروج إلى سماء فيها طلاقة وحرية ، قد تخلص من هذا القيد فى بعض المقامات الأخرى .

وهذا هو الشاب الظريف وهو يحكى فى مقامته قصته مع محبوبه فيقول واصفاً روضتهما وما فيها من جداول وغدران وأزهار وأغصان :

« فمن جدول يميل كالأيم . شطآه بالزهر كقزح فى الغيم . فهو من صور الحباب كالحباب . ومن طرب الاضطراب فى عباب . تصفق غدرانها . وترقص أغصانها . وتفخر أزهارها . ويشدو هزارها » .

وترى فى هذه العبارات ألوانا من الأخيلة . وقد جمع فى العبارات الأخيرة جمع حافل متلائم الأجزاء ، فتكون منها ناد زاهر فيه سمر وطرب وصفق ورقص وشدو .

وكذلك كان الصلاح الصفدى فى مقامته « دمعة الباكى ولوعة الشاكى » ، فقال :

« ولم يزل الطير يسعى بين النهر والغصن فى الاتفاق . ويكرر ألحانه ويراسل فى الأوراق . ويجتهد فى الصلح ويدعو إليه . ويحرص على الوفاء ويحرض عليه . وقام الشحرور بينهما واعظا وخطيبا » .

فقد طفر خيال الكاتب من روضته التى يصفها ، إلى مجلس متباعدين متحابين هما « النهر والغصن » . وصور بينهما هجراً وصداً وحبا وودا ، ومراسلة ومكاتبة ، ومصالحة ومعاتبة . والفضل فى ذلك يرجع إلى سعاة الخير من الطير .

ولعل إنسانا يتوهم أن الكاتبين تعلقا بالواقع . وهنا نشير له إلى مقامات الجلال السيوطى ، فقد بدا فيها الخيال الاختراعى حراً طليقا . فقد عقد — مثلا — فى مقامته « الوردية » مناقشة عنيفة وجدلا حاداً بين ألوان الرياحين ، ومنها : الورد والنرجس والياسمين والبان والنسرين . . إلخ . والمناقشات بين الرياحين لا تقوم إلا فى عالم الخيال .. ؟؟

يقول النرجس للورد الذى فخر بنفسه :

« لقد تجاوزت الحد يا ورد ، وزعمت أنك جمع فى فرد .

ثم يقول واصفاً نفسه :

« ولكن أنا القائم لله فى الدياجى على ساقى . الساهر طول الليل فى عبادة ربى فلا تطرف أحداقى . وأنا مع ذلك المعد للحروب . المدعو عند تزاحم الكروب . ألا ترى وسطى لا يزال مشدوداً . وسيفى لا يزال مجروداً . وفى العبارات الأولى وثبة خيالية جردت من بيئة النرجس صومعة عبادة ورباط ذكر وزهادة .

وعلى هذا النمط من الخيال توثب قلم السيوطى فى مقاماته الكثيرة . التى عقد فيها الموازنات والمساجلات الطريفة بين شتى النباتات والأزاهير والمعادن ، ومنها مقامته « المسكية » و « التفاحية » و « الزمردية » الخ .

ولعل هذا الخيال كان أطلق سراحا وأكثر رواحا فى ميدان الابتداع فيما

قرأناه فى تمثيلية ابن دانيال وهى « طيف الخيال » فماهى إلا سرحة بال وتلفيقة خيال . فقد اتسق فيها جمع من بنى الإنسان والحيوان ، لكل من أفراده حيل وضروب مكر ، فى ترقيق القلوب واستدرار الجيوب . . .

* * *

لم تكن القصة أو المقامة وحدها ، ميدان الخيال ومراحه . بل كانت الرسائل ، حتى الديوانية منها مسرحا له وملهى يجول بين سطورها ويصول .

وقد حمل ابن خلدون حملته الشعواء ، على كتاب الدواوين الإنشائية فى عصره لمزجهم المكاتبات بالخيال الشعرى . وعد ذلك إبعادا لإنشائهم عن إصابة البلاغة وبلوغ أهدافها . وقد عرضنا لهذا الرأى فى باب النقد .

والذى يهمنا هنا اعتراف ابن خلدون بوجود هذا الخيال الشعرى فى جو الرسائل . وما لجأ إليه الكتاب فيها إلا لأنها فى نظرهم كان لها هدف أدبى بجوار هدفها الرسمى . فانها مكاتبات قصد منها التأثير ، بجانب التبليغ وإيصال المعلومات أو تسجيل الحقائق . والتأثير له أدوات فى مقدمها الخيال الشعرى . ولوجوده فى المكاتبات الديوانية ونحوها ، بقى لها لونها الأدبى وصبغتها الأدبية . وبقيت فيها هذه الروحية التى تنم عن الحياة ، كما ينم الورق والزهر ؛ بل الماء فى عروق الأفنان ، على حيائها .

ومن الأساليب الشعرية والأخيلة الشعرية فى المراسلات ما يأتى :

من رسالة للشهاب الحلبى إلى مقدم سرية كشف ، يصف طليعتها قال :

« بطليعة أعجل من السيل . وأهول من الليل . وأيمن من نواصى الخيل . وأقدم من النمر . وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر . وأروع فى مخاتلة العدى من الذئب الحذر » .

ومنها يصف الخيل :

« على خيل تجرى ما وجدت فلاة . وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعة

أو أناة . تتسنم الجبال الصم كالوعل . وإذا جارتها البروق عدت وراءها ، تمشى كما يمشى الوجى الوجل » .

ومنها يرسم له خطة السير :

« وليكن كالنجم فى سراه . وبعد ذراه . إن جرى فكسهم . وإن خطر فكوهم . وإن طلب فكالليل الذى هو مدرك . وإن طلب فكالجنة التى لايجد ريحها مشرك » .

وقد جمع خيال الكاتب فى هذه السطور بين شتى الصور معتمدا على المحسوس والمعنوى . ملائما بين كل اثنين ملاءمة دقيقة ، طورا على سبيل التفضيل وآنا على طريق التشبيه معتمداً على الاقتباس أو غيره .

ومن تقليد بالسلطنة للمنصور قلاوون على لسان الخليفة — وكتبه ابن عبد الظاهر — قال يوصيه برعاية العدل :

« والعدل فهو الغرس المثمر . والسحاب الممطر . والروض المزهر » .

وقال يوصيه بالحصون والثغور :

« والحصون والثغور . فهى ذخائر الشدة . وخزائن العديد والعدة . ومقاعد القتال . وكنائن الرجا والرجال » .

* * *

والخيال الشعرى ذائع فى الإخوانيات يكسبها حياة إلى حياتها . وينشر ألوية الفن فى طياتها .

ومما قاله القلقشندى فى رسالته التى كتبها للمقر الفتحى أبى المعالى فتح الله صاحب دواوين الإنشاء يمدحه ، هذه الفقرات :

« فرأيه السيف لاما صنع الهند . وعقله الصارم لاما استودع الغمد » .

« أقلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل . وتجرى بصلة الأرزاق فتزيد على الأمانى وتربو على الأمل » .

« فمكارمه تغنى عن الإملاق . وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق . وعطاياه تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق » .

وفى إزراء الأقلام وهزئها خيال ، وإسناد للصفات الإنسانية إلى مالا يعقل .

ووصف ابن الوردى صقرين أهداهما إليه أحد أصدقائه ، فقال من رسالة إليه :

« فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر . وتأمل نحوهما فإذاهما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصيد على الكسر » .

وقوله بموقع يفوق النسر ، يتضمن التشبيه والتفضيل بين النسر والصقرين ، وفيه مزج بين الحسى والمكانة المعنوية اللذين وقعا فيها . وهذا مستفاد من كلمة « يفوق » فاحتملت المعنيين .

ومنها أيضا قوله :

« مقلهما حمر كسيوفه وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه » .

وقد لاءم خيال الكاتب ملاءمة يدعو إليها المقام بين أوصاف الهدية ، وأوصاف مهديها . فوجد فى المقل الحمراء ما يحضر إلى بؤرة شعوره ، سيوف صديقه . وشاهد فى الأجنحة المسبلة ما يذكر بالبر . ثم انظر إلى تنقل خيال الكاتب بين عدة ميادين من ميادين التصور . فمن الأجنحة المسبلة . إلى الغمائم الهاطلة . وقد جمع بينهما المنظر والامتداد واللون المشترك . ثم من الغمائم الهاطلة إلى البر الكثير . وقد جمع بينهما الانتفاع والرعاية . — وبهذا كله استطاع الكاتب فى هذه العبارة الوجيزة أن يعقد مشابهة بين طرفى مشابهين وهما الأجنحة والبر ، مع وضوح المعنى وتسلسل الصور فى هوادة ورفق .

ومنها أيضاً قوله :

« ومخالبها كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير . ومناقيرهما كالأهلة المبشرة له ولأوليائه بكل خير » الخ .

ومن استدعاء كتبه بدر الدين بن الصاحب وأرسله لفخر الدين بن مكانس يصف فى مطلعه الخمر فيقول :

« هل لك — بسط الله آمالك . وضاعف نعيمك ودلالك . فى عذراء مصونة . كالدرة المكنونة . كأن على خدها فوق وردة ياسمينة . مظلومة الريق فى تشبيهه بالضرب . وحاشا ثغرها الدرى أن يفوته شنب . لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير . بلقيسية الجمال لها صرح ممرد من قوارير . ليلها من حسنها نهار . وضوء وجهها للامسها سوار . عجوز الاسم صبية الاستمتاع . بكر تستخف الحليم بكشف القناع » الخ .

ويكاد الكاتب المبدع يلتزم بخياله هذا الجو المرح المحبوب ، وهذا الميدان المشوق المطلوب ، وهو فى هذا الالتزام متنقل ينساب من دائرة إلى دائرة كالطير فى بستانه يتنقل من فنن إلى فنن فالجو هنا كله جو نعمة ودلال ، وجو قرب ووصال ، فيه العذراء الحسناء تغرى بالخد والريق والثغر والشنب والنغم النفسى والضوء الحسى .. الخ .

* * *

ورأينا فى باب الوصف ، بين رسائله ومقالاته وموازناته وتقاريظه وأهاجيه وغيرها ، أخيلة متوثبة يدفعها أدب أصيل ، فلاءمت بين شتى الصور والأشكال بما يدعو إلى الدهشة والإعجاب ، وما يوثب الخاطر ويدفع النفس إلى السروح فى وديان واسعة المرامى فى دنياها الخافية ، وبين سريرتها المطوية . وما يشعرنا بأن من منشئ هذا العصر من كان يدبج إنتاجه ومن ورائه وجدان يقظ ، وعاطفة مشبوبة ، وشعور قوى مستمر ، وانفعال ثائر ، ونظر دقيق الملاحظة . فلم يركن إلى المحسوس فحسب يصوره ، وينقل إلى القارئ أوصافه الحسية وأوضاعه الملموسة ، مقتصرا عليها دون سواها ، لا ، وإنما صاحبته نفسه الممتزجة بموصوفه ، المتأثرة بأوضاعه ، فكان من وراء بصره بصيرته ،

ومن خلف ظاهره سريرته . وهـذه ضروب فى المسالك الوصفية تشعرنا بما وهب المنشئون لأنفسهم من حرية وطلاقة ، وأن عقولهم أو نفوسهم لم تحبس خيالها فى أودية من التصور ضيقة ، ولم ترد جماحه إذا كان للظفر بصيد سمين . ولذا تعددت مخترعاتها ولم تقف أمامهم حوائل العصر من استعجام وضعف ثقافة فى الجملة بالنسبة لأسلافهم ، وندرة التشجيع — إلا فيما يتعلق بالأعمال الرسمية — إلى غير ذلك من عقبات كان من شأنها أن تكبت النفوس ، وترد الخيال ، وتعقل الألسنة ، وتحطم الأقلام .

وهذا ابن أبى حجلة المغربى يصف « جزيرة الطير » حينما غمرها فيضان النيل ، فإذا بخياله يصورها فتشعر معه برقدة الجزيرة بعد يقظتها ، وهدوئها غب حركتها ، وبليل سكونها الطويل بعد نهارها الضاحى الجميل ، بعد أن تفرق عنها أحبابها من القطان والسكان ، قال :

« لم يبق بها هاتف يبشر بالصباح . ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح . إلا اتخذ نفقا فى الأرض أو سلماً فى السماء . أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء . فأذاق بها الحمام الحمَام فى المروج ، وترك أرضها كسماء مالها من فروج » .

ولو أنك سايرت ابن أبى حجلة فى مقالته هذه كلها ، لوجدت هذا اللون القاتم من الإحساس ، وهذا الصبغ الواجم من الشعور ، يغشى مقالته ، ويمشى بين سطورها كلها ، وهذا دليل على أن الكاتب حينذاك كان تحت تجربة شعورية واحدة ، وهى تجربة صادقة لا كاذبة ، جديدة لا مقلدة . يسودها لونها هذا حتى نهايتها ، لا تتخللها خفقة فرح ، ولا صفقة تفاؤل ولا بسمة أمل . وللكاتب عذره ، فقد كان فيضان النيل الذى يصفه ، عاليا ألحق الضرر بأنحاء عدة .

وقد وصف الكاتب « المنشاة » فقال :

« أصبحت للبحر مقره . بعد أن كانت للعيون قرة . وقيل لمنشئها : « أنى يحيى هذه الله بعد موتها» . قال : « يحييها الذى أنشأها أول مرة » . قد مال

على ما فيها من شون الغلال كل الميل . وتركها تتلو بفمها — الذى شفتاه مصراعا بابها — : « يا أبانا منع منا الكيل[1] » .

ويقول الشهاب محمود الحلبى فى سياق رسالة يصف الشمس :

« برزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها . وتشير من الأفق الغربى إلى جانب رمسها . وتغازل عيون النور بمقلة أرمد . وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود . فكأنها كئيب أضحى من الفراق على فرق . أو عليل يقضى بين صحبه بقايا عمر بالرمق » الخ .

وهذه تجربة شعورية أخرى . ولكنها كثيرة البروز بين تجارب الأدباء ، مما يدعو إلى الارتياب فى خيالها ، وأنه خيال مقلد لا مجدد . وقد استعار الكاتب فيه قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

فأخرجه من الغزل إلى الوصف ، ومن وصف المحبوبة إلى وصف الشمس عند غروبها . وهذا الإخراج مما يضفى على خياله طرفا من الجدة .

على أننا لا نمنع أن تتشابه تجارب الأدباء ، فى جوهر شعورها ، ولكن مع هذا التشابه نلمح بين أعمالهم الأدبية الناتجة من هذه التجارب المتشابهة ، تغايرا ، ولو فى ناحية أو جزئية . كما بدا هذا فى سطور الشهاب الحلبى . غير أننا لم نرتح إلى كلمة « تغازل » فإنها لا تنسجم فى معناها ومناسبتها مع ذكر الجود بالنفس ، وجانب الرمس ، والمريض ، والعود ، فهذا مقام لا يحتمل المغازلة . إنما يتطلب الوداع . . .

ومن رسالة تاج الدين البارنبارى التى وصف فيها عادة الناصر بن قلاوون فى الخروج كل عام إلى الصيد . قال يصف الأدهم :

« ومن أدهم : مدرك كالليل . منصب كالسيل . كريم الناصية . جواب قاصية . كأن غرته صبح تنفس فى الدجى الحالك . وكأنه من الليل باق ، بين

---

(١) عن صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٧٦ وما بعدها .

عينيه كوكب يضيء المسالك . وكأن حجوله بروق تفرقت فى جوانب الغسق فحسن منظرا لذلك ، الخ .

والأدهم الذى يصفه الكاتب ، فرس أسود قاتم فى جبينه غرة ، وفويق حوافره حجول . وقد وصفه الكاتب فأبدع . وصوره جزءاً من الليل الحالك ، بقى فى أعقابه يضيء أمامه كوكب . والملاءمة هنا بين طرفى هذا التشبيه ، فى هذه الوجازة ، براعة خيالية بارزة عاونه عليها الاقتباس .

* * *

وبعد فيطول مجال القول إذا ذهبنا نستعرض صور الفن ووحى الخيال فى سطور النثر . غير أنه اتضح لنا أن هذا الخيال يعتمد على دعائم سمق عليها ، منها التشبيه والمجاز وإليك كلمات قصيرة عن كل منها :

التشبيه :

التشبيه جمع بين طرفين بينهما خصوصية مشتركة كاللون والحجم والطعم والشكل وغير ذلك . ويعتمد الخيال على هذه الخصوصية فيسرح بوساطتها من طرف إلى آخر . توضيحا وكشفا . وكلما تعددت جزئيات الطرف الواحد ، وكانت هذه الخصوصية مركبة ، كان عمل الخيال أبين وأظهر ، وأجمل وأفضل . وإذا أبرز صوره المركبة فى قالب من اللفظ والتركيب لا يعانى غموضا ولا نقضا ولا تناقضا ، دل ذلك على طبع قويم وذوق سليم ، واندماج نفسى بين المنشئ وأطراف تشبيهه ، وتجاوب روحى بينه وبين مركباته وتمثيلياته . والأديب الذى يرزق هذه الصفة ، وهى الاندماج والتجاوب ، أديب مطبوع يجود خاطره بالرائع البديع من التشبيه وصور البيان ، دون أن تعانى نفسه تكلفا ، أو تحمل روحه مشقة .

ومن هنا ، وبما نعرضه من صور التشبيه فى شتى فنون النثر ، نشعر بما كان للمنشئين من أصالة فى الأدب وعراقة فى الذوق .

والذى نحب أن نلفت النظر إليه أمور :

أولا : أن التشبيه فى جوهره ، إيضاح للمعنى وبيان لخصوصيات فى المشبه يصعب بروزها فى إيجاز دون اللجوء إلى عقد التشبيه . ولا ننكر أنه ربما يغلو أديب فى اصطناع التشبيه ويقصده لذاته ويكثر منه فيصبح بذلك عنده ضربا من الزينة التى يجب أن يظهر تفوقه فى اصطناعها ، وهنا يثقل التشبيه ويسفل .

ثانياً : أن التشبيه قد تعلق به أدباء عصر المماليك ، وكان دعامة من أهم دعائم الخيال عندهم ، كما بينا . ولا نكاد نستثنى منهم أحداً . وسواء فى ذلك شعراؤهم ومنشئوهم . ولسنا فى مجال الحديث عن الشعر الآن ، ولكنها خصوصية مشتركة بينه وبين النثر أحببنا أن نسجلها ولا ننكر كذلك أن يكون التشبيه عند بعضهم قد عراه التكلف فسقط أوغث . ولكنهم فى جملتهم قد أتوا فى مجاله بالعجب المطرب .

ثالثاً : أن أغلب أدباء العصر ، شعراء ومنشئين ، كانوا ينهجون منهج القاضى الفاضل ويصعب التمييز بينهم إلا بخصائص فردية .

رابعاً : أن التشبيه كان إحدى دعائم الأسلوب الفاضلى ، ولم يقصد لذاته وإنما لزيادة إيضاح المعنى ولتفصيل شىء فى المشبه يصعب تفصيله فى وجازة دون عقد التشبيه . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى .

هذا وإليك منتخبات من التشبيه :

من كلام ابن حبيب الحلبى فى الحكم والمواعظ :

« التقوى أفضل حلة والمروءة أجل خلة . سيف الحق قاطع . والحلم درع مانع . الزم الحجا فهو ألطف سائس . ولا تعدل عن العدل فهو أحفظ حارس » (١)

ومن كلام ابن حجة الحموى من رسالته فى وصف « حمائم الرسائل » التى عارض بها رسالة القاضى الفاضل قوله فى أحدها .

---

(١) من نسيم الصبا (الفصل التاسع والعشرون) .

« كم علا فصار بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس . وأمسى عند الهبوط لعين الهلال كالطمس » .

وقال أيضا فى وصفها . « وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخضيب . وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفق لأمر مريب . وكم لمع فى أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح . فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح[1] » .

ووصف جمال الدين بن نباتة الفرس الأشهب فقال :

« ومن أشهب كأنه طلعة نجح . أو قطعة صبح . أو غرة قمر يضرب بأشعته أدبار جنح[2] » .

ومن كلام الصلاح الصفدى يصف غلاماً تركيا :

« كأنه بدر سافر . أو غزال نافر » . وقال : « إن تبدى أنكرت البدر فى تمامه . أو تثنى لم تعرف الغصن من قوامه . أو رنا لم تدر أسحر بدا أو نصال . أو التفت لم تذكر بعدها جيد الغزال[3] » .

وكتب الشهاب الحلبى من رسالة له فى وصف رمى البندق ، قال يصف الطيور :

« وكأن صواف الطير المبيضة بتلك الحلق خيام . أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام . أو أباريق فضة رءوسها لها فدام . ومناقيرها المحمرة أوائل ما انكب من المدام » .

« وكأن رقائقها أرماح ، أسنتها من ذهب . أو شموع أسود رءوسها ما انطفأ ، وأحمره ما التهب » .

ومنها يصف القسى :

---

(١) رسالة ابن حجة فى وصف حمائم الرسائل بكتابه ثمرات الأوراق ص ٥١

(٢) عن مجرى السوابق بكتاب قهوة الإنشاء لابن حجة .

(٣) عن لوعة الشاكى للصفدى .

« ومعهم قسى كالغصون فى لطافتها ولينها . والأهلة فى تحافتها وتكوينها . والأزاهر فى ترافتها وتلوينها . بطونها مدبجة . ومتونها مدرجة . كأنها كواكب الشولة فى انعطافها . أو أرواق الظباء فى التفافها » .

ومنها يصف عيبة الكرات :

« تصونها عيبة كأنها جرج درر . أو درج غرر . أو كمامة ثمر . أو كنانة نبل . أو غمامة وبل » .

ومنها يصف أحد الطيور ، وكان أبيض اللون :

« فاستقبل أولنا تماً تم بدره . وعظم فى نوعه قدره . كأنه برق لمع فى غسق . أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق : تحسبه فى أسداف المنى غرة نجح . وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح[1] » .

وقال شهاب الدين بن فضل الله العمرى يصف « المنجنيق » :

« قد استلت كأنها عقاب . وامتدت كأنها سحاب . وهدرت كأنها رعود . واستترت كأنها خود . واضطرمت كأنها حريق . واضطربت كأنها طليق . وأطلت كأنها أجل . وولت كأنها وجل[2] » .

وقال يصف « القدور » :

« وقدور بذهب النيران حالية . كأنها جبال راسية . أو جمال سارية . من كل قدر كأنها على موقد النار زنجية متوركة . أو ليلة ظلماء بأطراف النهار من كل ناحية متمسكة[3] » .

* * *

المجاز :

والمجاز صنو التشبيه ، وهو أدل منه على قوة الخيال ، لأنه مبنى على إدماج المشبه فى المشبه به حتى كأنه هو أو أحد أفراده . ونبادر فنقول إن أهم أنواع المجاز فى باب الخيال ، الاستعارة .

---

(١) عن حسن التوسل ص ١٤٨ وما بعدها .

(٢ ، ٣) عن التعريف لابن فضل الله .

ونقول أيضا إن المجاز لا يحمل إلا إذا ساقه خيال بارع وذوق سليم ولسان طبع . فليس من السهولة بمكان ، ولا بالأمر المستساغ فى يسر ، أن ندمج شيئين فى قرن واحد حتى كأنهما توأمان ، أو أن أحدهما فرد من أفراد الثانى . وإنما يستساغ ذلك بكياسة خيالية وبراعة تصورية تلائم بين الطرفين وتجمع بين الشتيتين ، بما يوفق إليه ذوقها الدقيق ونظرها العميق وحساسيتها الممتازة ، من تعرف الخصوصيات المشتركة بين الطرفين .

وقد أتى كتاب المماليك فى هذا الباب بالبديع الرائع ، والمبتكر اللامع ، الذى تستسلم له الأذواق وتطرب له الخواطر . وما من رسالة أو مقالة أو مكاتبة كيفما كانت وكان موضوعها إلا والمجاز أهم عناصر الأسلوب فيها . وربما شأى التشبيه كثرة وشيوعا .

ومنه قول ابن الوردى من رسالة يعزى بشرف الدين البارزى :

« ينهى أنه بلغه انهداد الطود الشامخ . وزوال الجبل الراسخ . الذى بكته السماء والأرض . وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض . فشرقت أجفان المملوك بالدموع . كما شرق صدر القناة من الدم ، وأحرق قلبه بين الضلوع[1] » .

ومنها : « فالعلوم تبكيه . والمحاسن تعزى فيه . والأقلام تمشى على الرءوس لفقده . والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده » .

وفى هذه العبارات كنايات عن عموم الحزن .

ومن كلام شهاب الدين بن فضل الله يصف السكين :

« وقد شرعت السكينة تنضنض لسانها . وتعطى على خشونة الحد ليانها . وقد كتب الفرند فيها سطورا . وضرب الشنبر عليها سورا . وأطلع ليل الغلف صبيحتها الغراء . وطبع حديدها الأزرق من الجوهر الأبيض ما يصير بالدعاء ياقوتة حمراء »[2] .

---

(١) عن ديوان ابن الوردى .

(٢) عن التعريف لابن فضل الله .

وقال فى وصف الخمر:

« سعى الساقى بكأسها . وصب الذهب من أكياسها . وفض منها طينة ختام كانت طابعا لشمسها . ودواء مما يخامر العقول من مسها . وراضها بالمزاج ولولاه لجمحت . ولاينها بملاطفته حتى جنحت . وافتض منها بكرا لم تعنس . وقدح منها نارا لو رآها عابدها لزمزم ، والعيسوى لقدس[1] » .

وفى كلمات : الذهب والأكياس والشمس وراضها وجمحت مجازات واضحة .

ومن إجازة كتبها فخر الدين بن مكانس لصديقه بدر الدين البشتكى ، قال يمدحه :

« لقد أربى كلامه على زهر الخميلة . ورقت فكره الدقيقة على درج المعالى إلى المعانى الجليلة . ورجعت عين كل فكرة عن بلوغ قصور نظمه الأدبية كليلة[2] » .

وفى « رقت فكره ، ودرج المعالى ، وعين كل فكرة ، وقصور نظمه » ، استعارات .

هذا ، ونحيل القارئ الكريم على النماذج الكثيرة فى أبواب هذه الرسالة ، فقلما خلا أحدها من ألوان المجاز .

ولقد شاركت الاستعارة التمثيلية ؛ وهى أحد ضروب المجاز ، بنصيب وافر . وقد فاضت بها رسالة محيى الدين ابن عبد الظاهر التى كتبها إلى صديقه ناصر الدين ابن النقيب ، وعنوانها « فى التواضع » وحقيقتها « فى الهجاء » . فهى أهجية فريدة فى بابها وجهها كاتبها إلى من عابه وتنقصه ، وملأها بالسخرية والوعيد . وقد قال عنها صلاح الدين الصفدى : « إنها شبيهة برسالة ابن زيدون » . فمنها يتهكم ويتوعد ويمدح نفسه :

---

(١) عن التعريف لابن فضل الله .

(٢) ديوان فخر الدين بن تمام مخطوط بدار الكتب .

« ما كل الأفاعى تعبث بها الأنامل . ولا كل المراعى تنصب بها الحبائل . ولا كل زخار يخاض . ولا كل جناح يهاض . ولا كل جامح يراض . ولا كل سابغة تفاض . ولا كل نسر واقع . ولا كل نير راجع . ولا كل السموم يدخل فى درياق . ولا كل مطوق يجذب بالأطواق » .

ومنها أيضاً قوله فى المعنى نفسه :

« ومتى خافت الرعود من الوعود . أم متى أحجمت الأسود عن القرود . أم متى جزعت البحار من التيار . أم متى صارت النار كالأنوار » .

ومنها يفخر بنفسه :

« والبيت بأهله . والغمد بنصله . والثوب بلابسه . والجواد بفارسه . والقوس برامیها . والصهوة براقيها . ومن أسافل البحور تترقى الدرر إلى أعالى النحور . وقد ينمى كبير من صغير[1] » .

* * *

إقليمية التعبير

هذا وقبل أن نترك الحديث فى التشبيه والمجاز ، نحب أن ننبه إلى مسألة أثر البيئة فيهما وفى غيرهما من دعائم الأسلوب التى يعتمد عليها لتصوير المعانى الجزئية ، ورسم التصورات الفردية . ومن هذه المعانى والتصورات يتألف « الموضوع » الرئيسى الذى يتصدى الكاتب لبيانه ، وقد نوهنا بمدى إقليميته .

ولاريب أن للبيئة الطبيعية آثاراً واسعة النطاق فى تمصير التشابيه والمجازات وغيرهما من وسائل البيان وفى صبغها بصبغة المصر .

غير أن هذه القاعدة لا يمكن أن تنطبق فى كل حين ، ولا فى كل مصر . وربما كانت هذه القاعدة منطبقة تمام الانطباق على تشابيه الجاهلية ومجازاتها ، يوم أن كانت البيئة الطبيعية الحجازية هى المعين الأول والأخير الذى تستقى منه ، وتستمد جزئياتها من موارده ، ويوم كانت ألوان البيئات الأخرى فيها وليدة لها ومدينة لها بوجودها وحياتها إلى حد بعيد . ويوم كانت ألوان البيئات الأخرى

---

(١) الرسالة مخطوطة بدار الكتب ومنها مطبوعة فى نهاية تمام المتون للصفدى .

فى طور من أطوار السذاجة والبداءة لا يسمح لها بأن تكون ذات أثر يذكر فى طبع تشبيهات الأدباء ومجازاتهم بطابع خاص ، قد يكون فيه مغايرة أو تهذيب أو مزاحمة لطابع البيئة الطبيعية .

ولكن لما تطاولت الأيام وتنوعت بيئات الأدب العربى الطبيعية ، وتداولته فى أمصاره الجديدة ألوان من البيئات الأخرى ، سياسية واجتماعية وثقافية — على نحو ما بينا عند الحديث عن البيئات — وكل منها متأثر بعوامل لا حد لها ولا حصر ، من أفكار وفلسفات وحروب واقتصاديات ولغات ، إلى غير ذلك من العوامل ، التى اختلفت باختلاف العصور ، زاحمت مؤثرات هذه البيئات ، مؤثرات البيئة الطبيعية ، فلم تعد وحدها مصدر الوحى ولا مبعث الإلهام للأدباء فى تشبيهاتهم ومجازاتهم وغيرها من مسالك التعبير .

لهذا نعد من الغلو ، ومن تكليف الأيام ما لا تطيق ، أن نطلب إقليمية الأدب فى تشبيهاته ومجازاته أو غيرها من وسائل تصوير المعانى ، وأداء التصورات الذهنية ، على أن تكون هذه الاقليمية إستجابة من الأدب لوحى البيئة الطبيعية وحدها . والثقافة — مثلا — فى كل عصر من عصور الأدب العربى مشتقة من أدب الجاهلية والإسلام ، أو مرتبطة بهما ارتباطاً وثيقا . وكان هذا الأدب المذكور من أهم مصادر الثقافة فى الأمصار الإسلامية على السواء ، حتى فى عصرنا الحديث ، على الرغم من تدفق الثقافات الأوربية علينا .

وهذا الارتباط هو السبب الأصيل فى طغيان التشبيهات والمجازات المألوفة فى أدب الجاهلية والإسلام ، يحسبه كثيرون « تقليداً » ، ويحملون بسببه على الأدباء — أو بعضهم — ويرمونهم بالجمود . والحق أنه استجابة لوحى البيئة الثقافية ، فإذا كانت استجابة نفوس الأدباء لوحى لون من ألوان بيئتهم يعد جمودا ، فهم إذن جامدون .

ونحن الآن لا ندافع عن تقليد أدباء عصر المماليك وجمودهم على الموروث من « تجارب » أسلافهم ، ولكننا نعلل هذه الظاهرة بعللها الحقيقية التى يتبين

منها براءتهم من تهمة الجمود ، ووصمة التقليد .

ومن هنا نرى أن البيئة الطبيعية فى مصر ، لم تكن وحدها ، ذات الأثر فى الأدب وتعبيراته ، بل زاحمتها ألوان أخرى من البيئة ، ينبغى لنا أن نحسب لها حسابا ، ونحن بصدد الحديث عن « إقليمية التعبير » . ولو خلصت البيئة الطبيعية وحدها للتأثير فى أساليب الأدب ، لشهدنا لذلك آثاراً بارزة كثيرة العدد .

لهذا ينبغى لنا ونحن نطلب « إقليمية التعبير » أن نتلمس «الروح المصرية» التى هى نتيجة لامتزاج جملة من العناصر المختلفة ، وتفاعل عدة من البيئات . والتى أصبحت تتمشى فى تعبيراتها — إلى جانب ما ننشده من تشبيهات ومجازات — ألوان بديعية فى مقدمتها التورية والتضمين مثلا ، فضلا عما طبعت عليه — غالبا — من السهولة والوضوح .

على أننا — مع هذا كله — رأينا عند الحديث عن البيئة الطبيعية نموذجاً لابن حجة الحموى ، وهو فقرات من « بشارة » كتبها بوفاء النيل ، وتذوقنا طعم المصرية فى عباراتها وتشبيهاتها ومجازاتها .

* * *

والآن نسجل نماذج أخرى نستشعر أيضاً طعم المصرية فى ضروب مختلفة من تعبيراتها .

إليك فقرات من رسالة الفخر بن مكانس فى وصف النيل ، قال :

« جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح . ودخل الناس إلى أسواق مصر — وخصوصاً سوق الرقيق — على كل جارية ذات ألواح . وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم . وأصبحت هضاب اللوح فى سماء البحر وكأنما هى قطع الغيم . واستحالت الأفلاك فكل برج مائى . وتغيرت الألوان فكل ما فى الأرض سمائى . وحكى ماؤه حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط . وزاد فاستحال نفعه فتحقق ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط . فلقد كانت أمواجه ودوائره الأعكان والسرر . وغدا كل حىّ ميتا من زيادته

لا كما قال المعرى: «حيا من بنى مطر». وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر. واحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر». الخ.

وترى فى هذه السطور صوراً مصرية وتعبيرات مصرية صميمة. ففيها أسواق مصر وسوق الرقيق وذكر الجوارى ولون الماء. وتحالى وأقرف، والليمون الأخضر، واحمرت عينه على الناس، كلها ألفاظ وتعبيرات مصرية. ومنها ما يتردد على ألسنة عامة مصر حتى الآن، كلفظ «تحالى» و «الليمون الأخضر» و «أقرف الليمون الأخضر» و «احمرت عينه» الخ. والمجازات فى العبارة مشتقة كما رأينا من البيئة المصرية.

ومن كلامه أيضاً من الرسالة نفسها يصف بعض النبات وما أصابه من زيادة النيل، قوله:

«والورد، وقد قيل له: مالك من آس. وغصن البان وقد قيل له: «طوبى لمن عانقك ولا باس». والأسماك وقد ألجمها العرق. والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وابنه من الغرق. والقصب بالجيزة وقد شرب ماء النز فهو بئس الشراب. والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب. والفارسى بالبساتين وقد ترجل ووقع فأرانا كيف تكسير الأقصاب. وقيل للآس: عالج جيرانك بالغيطان فالناس بالناس. وبادر إلى جبر ما كسر، فالحاجة تدعو المكسور فى الحالين إلى الآس»...

هذه فقرات مصرية ولا ريب. تحفها تورياتها الطريفة فى: آس، ولا باس، وغاب — وكذلك تعبيراتها مثل: عانق ولا باس. وألجمها. وكونه غاب. وتكسير الأقصاب. والناس بالناس. وهذا التعبير الأخير لا يزال فى ألسنة عوام مصر إلى اليوم. وكذلك مجازاتها فى: ألجمها العرق، وجبر. الكسر هذا كله فضلا عن المفردات اللفظية التى هى من أجزاء البيئة المصرية نحو: القلقاس وقصب الجيزة وماء النز، وجيرانك بالغيطان. والفارسى بالبساتين. والقصب ببولاق.

ومن رسالة تاج الدين البارنبارى فى وصف عادة الناصر بن قلاوون فى الخروج إلى الصيد كل عام قال :

« وسار فى زروع مخضرة . وثغور نبات مفترة . وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره . وأعدت للصيد بزاته وصقوره . من كل متوقد اللحظ من الشهامة . محمول على الراحات من فرط الكرامة . يتوسم فيه النجاح . قبل خفق الجناح »[1] الخ

وترى فى هذه العبارة كذلك ريح المصرية فى قوله : « متوقد اللحظ » و « محمول على الراحات » فهاتان العبارتان ولا سيما ثانيتهما مما يستعمل لدى العامة حتى اليوم ، فى بلادنا .

وإليك نموذجا آخر ، وهو قول الشهاب الحلبى من رسالة فى وصف الخيل يصف الجواد الأشهب :

« فمن أشهب غطاه النهار بحلته . وأوطأه الليل على أهلته . يتموج أديمه ريا . ويتأرج ريا . ويقول من استقبله فى حلى لجامه : هذا الفجر قد طلع بالثريا . إن التفت المضايق انساب انسياب الأيم . وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم . كم أبصر فارسه يوما أبيض بطلعته . وكم عاين طرف السنان مقاتل العدى فى ظلام النقع بنور أشعته » .

ومنها : « يكاد يسبق ظله . ومتى جارى السهم إلى غرض بلغه قبله » .

وترى فى هذه التعبيرات أو بعضها ريح المصرية ورجع البيئة . مثل قوله : « غطاه بحلته » و « أبصر يوما أبيض » و « يسبق ظله » و بلغه قبله » . — هذه تعبيرات لا تزال تتردد ، هى أو ما يشبهها فى ألسنة العامة .

وبالسطور من طرائف البديع — عدا السجع — ما يضفى على المعنى جمالا وقوة وتأثيرا . وذلك كالتعليل فى قوله « غطاه النهار بحلته » وقوله « وأوطأه الليل على أهلته » وكالتشبيه فى قوله « يتموج أديمه » و « انسياب

---

(١) انظر وصف النيل فى باب الوصف من هذه الرسالة .

الأيم » و « مرور الغيم » و « طرف السنان » — والجناس والمطابقة فى « غطاه وأوطاه » .

على أننا نرى أن قوله « مر مرور الغيم » تعبير منتزع من البيئة الطبيعية المصرية . وذلك لأن غيمها سريع المرور . وليس كل غيم سريعا .

هذا إلى ما يتراءى على العبارات من وضوح وسهولة ، فلا تعقيد ولا تكلف . فهى خفيفة المئونة هينة الحمل .

* * *

ومن موازنة جمال الدين بن نباتة بين القلم والسيف ، يقول السيف للقلم .

« أولست الذى طالما أرعش السيف للهيبة عطفك . ونكس للخدمة رأسك وطرفك . وأمر بعض رعيته — وهو السكين — فقطع قفاك وشق أنفك » .

وترى فى العبارات « نكس للخدمة رأسك وطرفك . وقطع قفاك وشق أنفك » منزعا مصريا . ولا سيما فى العبارة الأولى . فتنكيس الرأس للخدمة ، ظاهرة منتشرة فى مجالس السلاطين والأمراء .

* * *

ومن استدعاء بدر الدين بن الصاحب الذى أرسله إلى الفخر بن مكانس ، يقول فى وصف الخمر :

« كأن على خدها فوق وردة ياسمينة » ويقول « كأنها خلقت نشوانة من الطينة » . وهذه تعبيرات مصرية ترددها العامة أحيانا

* * *

ويقول ابن الوردى فى تقريظه لقطعة من شعر بدر الدين بن حبيب الحلبى :

« فقبسها بدرى ، وكوكبها درى . هاجت لى ذكرى حبيب ، فهى زبدة من حلب ، لابل قطعة من طيب . أعذب من الوصال ، وألذ من الماء الزلال . وألطف من الرياض عند الصباح ، وأرق من رحيق الطل فى ثغور الإقاح . فيالها من مقطعات نيل ، أضرمت فى روح كل كليم نار خليل . » ...

ومنها أيضاً : « وكيف به إذا تعلق بأفنان مواد هذا الفن وامتاز . ونزل بدر خده فى دارة دار الطراز » .

وفى قوله . « زبدة من حلب ، ومقطعات نيل ، ودارة دار الطراز » مقتبسات مصرية

* * *

وللشاعر البارع والكاتب برهان الدين إبراهيم القيراطى فى تقريظ رسائل ابن نباتة ومنظوماته قوله :

« طالما سرح الناظر فى بستانها منظرة ، ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة » .

انظر إلى قوله « فى بستانها منظرة» و « مسكرة » تر أنها تعبيرات مصرية صميمة ، فضلا عما فى « مسكرة » من استخدام ، مهد له بكلمتى « ابن سكرة » و « فتح الأبواب » .

ووصف ابن نباتة الجواد الأشهب « راجع مجرى السوابق » . فقال :

« ما خفيت مصلحة إلا قيضها . ولا ادلهمت سحابة نقع إلا قام لها بنفسه وبيضها » .

وفى قوله : « إلا قام لها بنفسه وبيضها » تعبير مصرى .

* * *

ويقول ابن حجة فى مقدمة « مجرى السوابق » يبين سبب معارضته فى وصف الخيل لكل من الشهاب الحلبى وابن نباتة ، وابن فضل الله العمرى ، وهو أنه رُسم له بمعارضتهم — ويبدو أن الراسم هو صديقه ناصر الدين بن البارزى صاحب ديوان الإنشاء : —

« إنه رسم له بالاستطراد إلى سوم المعانى الغالية فى وصف الخيول المسومة وقالوا : قهوة الإنشاء من جنس الكميت ، فعلة الضم فى دور كاساتها مقدمة . فقلت إذا كان المطلوب حسن الأدب فامتثال المراسيم من سلوكه . وتعين أن

أقيم لرقيق اللفظ سوقاً . وأسأل من رسم لى أن لا يناظر السادات فى سوق الرقيق بمملوكه » .

وشاهدنا فى قوله « أقيم لرقيق اللفظ سوقا . وأن لا يناظر السادات فى سوق الرقيق بمملوكه » . وأسواق « الرقيق » فى عصر « المماليك » كانت قائمة على قدم وساق . ويقد إليها « السادات » للشراء . . . فألفاظ الكاتب وعباراته ومجازاته وتشبيهاته هنا وتورياته ، منتزعة من البيئة الاجتماعية القاهرية.

* * *

هذا . وحسبنا ما أوردنا هنا من الأمثلة على « مصرية التعبير » ونرجو أن يكون فيه مقنع بأن « الموضوع » ليس وحده الذى اتسم بالإقليمية ، وإنما امتدت هذه الإقليمية إلى طرق التعبير أيضا ، ولو إلى حد .

وبهذه المناسبة نذكر أننا نعتقد أن الشعر المملوكى حظيت فيه « طرق التعبير » بنصيب من الإقليمية أكبر مما حظيت به فى النثر . ومن أظهر الأدلة على ذلك ، كثرة ما اصطنعه الشعراء من تعبيرات العامة وأمثالهم . ومن الشواهد على ذلك :

قول الشاعر على بن برد بك موريا متفكها يتندر على صديقه بدر الدين الدميرى « محمد بن يوسف » المتوفى عام ٨٨٧ هـ .

وكان معروفا بين الناس بكتوت ، فقال الشاعر :

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من ملاح الملاح

والنكتة فى قوله « ملاح الملاح » كنى بها عن « الكتاكيت » ولا يزال باعتها تنادى عليها بهذا الوصف .

ويقول البوصيرى فى قصيدة يشكو بها حال أسرته إلى أحد الوزراء .

أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيط والأبرة

ويعنى بقوله « الخيط والإبرة » جميع الحديث . وهو تعبير مصرى لا تزال عوام المصريين يعبرون به .

ومن شعر الصلاح الصفدى يصف جرة خمر :

وجرة أظهروها والراح فيها كمينة
شممت طينة فيها فرحت سكران طينة

وقوله « فرحت سكران طينة » تعبير مصرى .

والأمثلة من هذا القبيل كثيرة[1] وهى شاهدة بإقليمية التعبير فى أساليب الشعر — ولو إلى حد أيضاً .

* * *

ونحب أن نعيد الإشارة فى ختام هذه الكلمة ، إلى أن « التجديد » يكون فى « الموضوعات » ويكون فى « المعانى والتصورات » ويكون فى طرق التعبير والأداء سواء بسواء .

وقد شهدنا مما مر علينا من دراسات ، أن كتاب عصر المماليك كانوا مجددين فى « الموضوعات » والتجديد فى الموضوعات ، يجر حتما إلى التجديد فى معانيها الجزئية وتصوراتها ، ولو إلى حد .

والذى نعنيه بالتجديد فى الموضوعات ، أنهم كانوا فيما طرقوه من أبواب ومسائل ، مستجيبين لوحى بيئاتهم المختلفة — على نحو ما بيناه فى مكانه — وكان أدبهم مرجعاً لهذه البيئات ، ولم يقصروا فى هذا المضمار .

ومن المبالغة أو من المغالطة ، أو من الإرهاق ، أن يدعى مدع أن « الموضوعات » ليست محل تجديد أو تقليد ، وفى نظره أن من يصف « النيل » كمن يصف « دجلة » مثلا ، فكلاهما يصف « نهراً » وأن من يصف « رحلة صيد » فى ظواهر القاهرة ، كمن يصف « رحلة صيد » فى ظواهر بغداد ، مثلا ، فكلاهما يصف «رحلة صيد» ...

---

(١) كتبنا مقالة بعنوان « أساليب العامة فى الشعر الفصيح » نشرت فى مجلة الرسالة بالعدد رقم ٧٧٨ بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٤٨ تتضمن أمثلة كثيرة من هذا النوع .

أما مقياس التجديد عندنا فاستجابة الأديب لوحى بيئاته . ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ومن هنا نرى أن تشابه « الموضوعات » هنا وهناك ، واشتراك مصر مع غيرها من أمصار الأدب فيها ، لا يمنع أن تكون محل تجديد ، وإن ظهر ذلك فيما توحى به من جزئيات المعانى والتصورات .

على أننا فى مقدمة كلامنا عن الخصائص ذهبنا إلى أن العبرة فى « شخصية » الأدب أو « إقليميته » إنما يكون بمجموع هـــذه الخصائص ، سواء أكانت فى الموضوعات أم فى المعانى والتصورات وغيرها ، فإن هذا المجموع يصعب أن يتاح لأى أدب آخر .

* * *

إنسانية ما لا يعقل أو تعقيده :

ونعنى بذلك إسناد ما يختص بالإنسان من نطق أو عمل أو إحساس باطن أو ظاهر إلى غيره من الحيوان والطير والنبات والجماد .

وهذا ضرب من عمل الخيال ، ووسيلة من وسائله التى يبلغ بها رسم ما يريد من المعانى ، ويصور بها ما يبغى من الأفكار . وفيه دلالة على اليقظة الوجدانية لدى الأديب والامتزاج النفسى بمظاهر البيئة .

وهذا المسلك الأسلوبى ذائع الانتشار بين أساليب كتاب عصر المماليك . وقد تعددت فيه ضروب الخيال ولا سيما البصرى والسمعى ، والوجدانى ، وكلها أخيلة الأديب ، تخلع وجدانه وشعوره بالموصوف ، عليه ، حتى يتحدث الموصوف بما فى نفس الأديب .

ويبدو هذا الضرب حين التصدى لوصف مناظر الطبيعة أو الحيوان أو الطير أو الأدوات الأخرى كالسيف والقلم والسكين . وترى نماذج لا حصر لها من ذلك ، فى وصف النيل ووصف الخيل والحمائم والموازنات بين السيف والقلم . فيما كتبه ابن نباتة وابن حجة والصفدى والفخر بن مكانس والشهاب بن فضل الله وغيرهم .

والقصة معرض واسع لهذا الأسلوب الخيالى ، ولا سيما إذا رويت على ألسنة الحيوان أو الطير أو الجماد ، أو على ألسنة الجنة والشياطين . وترى ذلك ماثلا فى «فاكهة الخلفاء» لشهاب الدين بن عربشاه .

وإليك فقرات وجيزة توضح ما نقول :

من وصف ابن نباتة للنيل قوله :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه . وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل فقتل الإقليم ، وهذا الاحمرار إنما هو دمه .

حمرتها من دماء ما قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه . ولا وهداً بل جبلا إلا أخفاه . أقبل كالأسد الهصور إذا احتد واضطرم . وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم . وعامل البلاد بالخيلاء .. [1] » إلخ .

فانظر كيف نسب إليه القدم . وإلى تياره النصل ثم القتل . وهذه أخيلة بصرية .. ثم نسب إليه وفاء الوعد ، وتنفيذ الوعيد ، والخيلاء . وهذه أخيلة وجدانية . وكذلك نسب إليه الاحتداد والاضطرام وفيهما خيال مشترك بين البصرى والوجدانى ، وربما كان معه السمعى أيضا ، إذا صحب حركة الغضب صوت وزمجرة هى خرير النهر .

هذا إلى ما فى قوله « قتل الإقليم » من حسن تعليل .

ومن موازنة ابن الوردى بين السيف والقلم قوله على لسانهما :

« قال القلم :

« أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين . يفاخر — وهو القائم عن الشمال — الجالس على اليمين . أنا المخصـــوص بالرى وأنت المخصوص بالصدى . أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى . ما لنت إلا بعد دخول السعير .

---

(١) انظر باب الوصف فى هذه الرسالة .

وما حددت إلا عن ذنب كبير . أنت تنفع فى العمر ساعة . وأنا أفنى العمر فى الطاعة . أنت للرهب وأنا للرغب . وإذا كان بصرك حديداً فبصرى ما ذهب . أين تقليدك من اجتهادى وأين نجاسة دمك من تطهير مدادى » .

قال السيف :

« أأنف فى الماء . واست فى السماء . أمثلك يعير مثلى بالدماء . فطالما أمرت بعض فراخى وهى السكين . فأصبحت من النفاثات فى عقدك يامسكين . فأخلت من الحياة جثمانك . وشقت أنفك وقطعت لسانك . ويك ! إن كنت للديوان فحاسب مهموم . أو للإنشاء فخادم لمخدوم . أو للبليغ فساحر مذموم . أو للفقيه فناقص فى المعلوم . أو للشاعر فسائل محروم . أو للشاهد فخائف مسموم . أو للمعلم فللحى القيوم . أما أنا فلى الوجه الأزهر . والحلية والجوهر . والهيبة إذا أشهر . والصعود على المنبر[1] » .

هذه فقرات من هذه الموازنة الطويلة التى تجادل فيها القلم والسيف وتشاحنا وتفاخرا وتهاجيا ونسب كل منهما إلى زميله ما شاء من العيوب . وفخر عليه بما نسب لنفسه من محامد ومآثر ، ثم تحاكما ، وكل هذا من خصائص الإنسان ولكنها وسيلة الخيال الشعرى إلى الوصف ، وهو خيال وجدانى تصويرى فى آن واحد . فبينما يصف الكاتب كلا من الأدائين على لسانها أو لسان مناظرتها وصفاً واقعياً إذ يخرجه بضروب من اعتباراته الوجدانية .

فتحديد مكان كل منهما من كف مالكه . ودخول السيف إلى النار . واستعماله للرهب وكونه من الحديد ، وأنه تسيل عليه الدماء . . . كل هذه تصويرات واقعية . ولكن التنشئة فى الحلية ، والجلوس على اليمين أو الشمال واقتراف الذنب ، والتقليد والاجتهاد . كل هذه تصويرات وجدانية ... وهكذا .

وقد استعان الكاتب على بلوغ تصويراته بأمور منها . الاقتباس كما فى قوله « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » . ومنها الطباق كما فى قوله :

---

(١) الموازنة فى ديوان ابن الوردى .

الرى والصدى . والحياة والردى . والرهب والرغب . والتقليد والاجتهاد . ومنها التورية كما فى قوله : « ماذهب » وقد أخرجها مجنسة . هذا إلى ضروب من المجاز واضحة فى كلا الفصلين .

وإليك قطعة أخرى من كلام ابن عربشاه فى كتابه « فاكهة الخلفاء » . قال فى الباب الخامس وهو فى « نوادر ملك السباع ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع » :

« أخذ الحكيم حسان يقص على الملك نوادر الوحوش والسباع فقال :

كان فى بعض الغياض . أسد رباض . عظيم الصورة . كريم السريرة والسيرة ، وافى الحشمة . عالى الهمة . كثير الأسماء والألقاب . عزيز الأصحاب . كبير بين الأمراء والحجاب والوزراء والنواب . يدعى فى جوانب مملكته . وأطراف ولايته . بحيدرة وبيهس وضيغم والدوكس . والغضب والضرغام والعنبس . والطيثار والهندس . والغضنفر والهرماس . والغضبان وأبى العباس . إلى سائر الأسماء والألقاب والكنى . وكثرة الأسماء . تدل على شرف المسمى . وهو مطاع فى ممالكه وولاياته وأقاليمه . مترشف ثغور الامتثال بشفاه أمثلته ومراسيمه . وكان له من خواص الندماء وكبراء الجلساء . نديمان كندمانى جذيمة . يلازمان حضرته ويلجان حريمه . أحدهما ثعلب يدعى أبا نوفل . والآخر ضبع يسمى أبا نهشل . طبعهما ظريف . وشكلهما لطيف . ومحاضرتهما مرغوبة . وصحبتهما مطلوبة . وكان فى خدمته دب هو وزيره . ومعتمده ومشيره . كافل أمور مملكته . ومدبر مصالح رعيته . والملك مفوض أمور الرعية إليه . ومعتمد لما يعلم من كفايته عليه . ومشغول ليلا ونهارا بمعاشرة نديميه .

فاتسع خيال الوزير . وأخذ فى مجال التفكير . إلى النديمين . لكونهما ناصحين قديمين . ربما يصدر منهما عند الملك ما يحط منزلته . ويفسدان — للحسد الذى لم يخل منه جسم — صولته . واستحوذ عليه هذا الخيال . واتسع فى ميدانه المجال . فكان خائفا على وظيفته ومنصبه . مترقبا منهما ما يكون عزله بسببه . فنشأ من ذلك فى خاطره جساوة . أورثته قساوة . وجذبته إلى عداوة . ووقر فى فيه ذلك وتأكد . وطال عليه من الدهر الأمد . فكان يترقب لهما الفرص

ليوقعهما من الغصص فى قفص . ويسابقهما قبل انتيابه . ويتغذى بهما قبل أن يتعشيا به . ويقول : لابد من تنظيف الطريق . قبل حصول التعويق . وقد أحسن من قال . وأتقن فى المقال :

ومن لم يزح عن دربه الشوك قبل أن يطاه فلا يعتب إذا شاك رجليه[1]

وغنى عن البيان ما يتراءى خلال هذه السطور من تعقيل الحيوان ونسبة لوازم الإنسان العاقل إليه . وحسبنا أن نشير إلى نسبة هذه الأمور إلى الأسد وهى : كرم السريرة والسيرة . وعلو الهمة . والملكية وكثرة الأصحاب والأمراء والحجاب ووجود الندمان واتخاذ الوزير . وطاعة الرعية له . ومما يصدر عنه من مثال ووسام على نمط الملوك . والشرف . هذا إلى ما نسبه الكاتب ، إلى الدب وزير الأسد من سعة الخيال ، والأخذ فى التفكير ، والخوف من انحطاط المنزلة ، وامتلاء قلبه بالغيرة والحسد وانشغال باله بوضع خطة يزيح بها النديمين من طريقه إلى غير ذلك ، مما هو ناطق بهذه الخصوصية التى ذهبنا إليها واصطنعها خيال الكاتب . ويبدو أن الكاتب قد تأثر بقصص كليلة ودمنة ، إلى جانب تأثره بكتاب المقامات .

---

(١) فاكهة الخلفاء — الباب الخامس .

الفصل الثالث

٣ ـ اصطناع البديع

البديع من أهم خصائص الأسلوب الفنية فى هذا العصر ، سواء أكان فى شعره أم نثره . وقد بلغ البديع فى الشعر ، على يد أصحاب البديعيات ، الغاية التى بلغها فى النثر على يد الحريرى وأضرابه من متكلفى البديع .

أما فى النثر فلم يكن طابع البديع جديداً عليه . وإنما هو امتداد ، فى جملته لما كان فى العصر الماضى . على أن كثيراً من ضروبه كالطباق والمقابلة والتضمين ومراعاة النظير ، حتى ألوان السجع والجناس — وهى حلى لفظية — ظواهر أسلوبية طبيعية تكاد تكون ملازمة لأساليب الناس على اختلاف طبقاتهم فى جميع العصور العربية[1] . يشهد لذلك أساليب العامة ، التى هى فى قديم العصور أساس تكوين اللغة .

ويشهد لذلك أيضاً ما نراه فى أساليب الجاهليين من توخى ألوان من البديع كثيرة . حتى الأسلوب القرآنى ، لقد جرى على اصطناع ألوان منها عدة ، وقد ضربنا لذلك الأمثال .

فدعك من معانى المفردات اللغوية ، فإن الأدب أوسع نطاقا من أن يعنى بالأداء اللغوى فحسب ، فإنه إلى جانب ذلك ، يؤدى أداء عاطفياً ونفسيا . وموسيقا العبارة ، وتوافق الجرس اللفظى فيها ، واتساق الإيقاع فى المعنى بالطباق والمقابلة مثلا ، أو بالنورية المجنسة ، كل ذلك أجزاء من المعنى يقصد به

---

(١) راجع رسالة « الصبغ البديعى » للأستاذ أحمد موسى بكلية الدراسات العربية مخطوطة بمكتبة الكلية . انظر الباب الثالث وفيه ص ٢٢١ قد ذهب إلى أن كثيرا من ألوان البديع طبيعية فى أساليب الناس ، وإلى أنها ذات صلات بالمعانى . — ومع هذا لذى ذهب إليه سفه كتاب البديع فى عصر المماليك وحمل عليهم حملة شعواء — ونسب ذلك إلى تكلفهم البديع — وفى ذلك نظر ...

أن يبلغ المعنى — فضلا عن لغويته — هدفه من التأثير والإثارة . وبهذا يتم للعبارة تأديتها العاطفية والنفسية ، وربما كانت أهم من تأديتها اللغوية المجردة .

* * *

ومن هنا ينبغى ألا نتنكر للبديع كل هذا التنكر ، نحن أدباء العصر الحديث ونقاده — وإن كان بعض البديعيين قد غلوا فيه وتكلفوه — وأن نعيد إليه النظرة ، ونستأنى فى فحصه وتفهمه ، لنستجلى ما تخفى أنواعه من طرف معنوية فيها تأثير وإيحاء .

وأعتقد أنه قد مرت الفترة التى راعنا فيها تدفق المعانى الجديدة ، وغمرتنا فيها النشوة من اطلاعنا على آداب مختلفة قديمة وحديثة ، عربية وغربية . فدفعنا هذا إلى التنكر لألوان من الأدب القديم ، وفى جملتها أدب البديع ، ناسين فى خلال هذه الروعة أو النشوة ، أن هذا الأدب لم يبتدع ابتداعا ولم يرتجل ارتجالا ، وإنما كان دوراً من أدوار الأدب عامة ، تحدر من منطق العصور وسياقها ، وانبثق من تحول البيئات ونوعها .

وكان تنكرنا له سببا فى حملتنا عليه وتنقصه ، وسببا فى عدم دراسته دراسة مجدية مثمرة ، تفصح — مثلا — عن مدى مابلغته عقلية شعب ونفسيته فى مدى ثلاثة قرون تقريباً .

وكنت أعتقد أننى أول من وجه اللوم إلى نقاد الأدب فى العصر الحديث لتنكرهم لأدب البديع . ولكننى وجدت رجلا آخر يسبقنى إلى ذلك . وهو المرحوم الدكتور زكى مبارك . فقد كان يتكلم عن نثر القرن الرابع الهجرى فى كتابه النثر الفنى — وهو نثر غلبت عليه الصناعة — فقال :

« وإذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيبون أكثر آثار ذلك العصر ، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية ، فلأنهم أسرفوا فى مهاجمة النثر الفنى الذى غلبت عليه هذه الصنعة ، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعاً أو جناساً

أوطباقا . أو أى محسن وقع عن قصد . مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية وتلك الطبائع السليمة ، التى سمحت لأولئك الناس بالتعمق فى وصف ما شهدته أعينهم ، وأحسته أنفسهم ، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة بطريقة فنية هى وحدها تتطلب دقة فى الفهم ، وقوة فى العقل ، وسلامة فى الذوق »[1] .

والفارق بينى وبين الدكتور أنه يتحدث عن أدب القرن الرابع ، وأتحدث عن أدب عصر المماليك . وكلاهما من أدب البديع .

* * *

ولوع الأدباء بالبديع :

على أن الظاهرة التى نريد تسجيلها هى ولوع أكثر أدباء عصر المماليك بالبديع وتقديسه ، إلى حد أنهم سلكوا فى عقده كل ضروب البلاغة ، ومنهم أصحاب البديعيات . هذا عدا ما ابتكروه من ألوان جديدة . ويتضح لك ذلك مما ذكرناه عن ابن حجة الحموى وخزانته التى شرح فيها بديعيته وما تحتوى عليه من ألوان بديعية فى جملتها التشبيه والاستعارة مثلا .

ونحن لا نعجب لهذا الهيام البالغ . فالعصر عصر الحلية فى كثير من ضروب حياته ، فى الحفل ، فى الموكب ، فى الملبس ، فى السلاح ، فى غير ذلك ، حتى فى الأخلاق ... ولهذا كله رجع بعيد المدى فى أساليب الكلام .

وقد بلغت ألوان البديع فى بديعية ابن حجة مثلا ، نحو مائة وخمسين لونا تقريبا .

والنثر فى ذلك صنو الشعر . وإن كان للشعر أنواع بديعية مقصورة عليه كالإيداع والاكتفاء . غير أنه لمعت فى النثر ألوان من البديع لا عداد لها ، ولعل مرجع ذلك إلى أن الشعراء كانوا كتابا ، أو كان الكتاب شعراء . وكان زعماء الشعر هم زعماء الكتابة أو العكس . أو ربما كانت زعامتهم للكتابة

---

(١) النثر الفنى لزكى مبارك ج ١ ص ١٧٥ .

ورياسة بعضهم للديوان سببا من أسباب تعمد البديع فى الكتابة ، ومن ثم تعمدوه فى الشعر . وقد كانت الرسائل الديوانية فالإخوانية فرسائل الوصف على اختلاف أنواعها فالقصص والمقامات ، من أوسع الآفاق التى لمعت فيها نجوم البديع .

* * *

الدراسات القرآنية :

وأعتقد أن عناية النقاد والأدباء حينذاك بدراسة أساليب القرآن وطريقة نظمه كانت ذات أثر فى إقبالهم على اصطناع البديع . وذلك بدافع الإعجاب بنظمه الفريد . ولا يخلو هذا الإعجاب من نزوع دينى .

وقد كان القرآن وأساليبه موضعاً لدراسات كثيرة متنوعة ، منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا . ومنها دراسة نظمه وطرق أدائه . غير أن هذا الضرب من الدراسة لم يخلص مرة لفن نقد الأسلوب ، وحده . بل ظل ممتزجا بالرغبة فى بيان الإعجاز أو شرح الآيات وبيان الأحكام مثلا . أما النقدات الفنية الخالصة فكانت تعرض بين الآن والآن . غير أنها أخذت تنشط ويزيد خطرها ، وتنظر إلى نظم القرآن باعتباره أمثل نموذج للأساليب الفنية ، هذه النظرة التى صاحبتها منذ بدء أمرها .

واتضحت هذه النظرة فى كتب النقاد ، التى من متأخرها كتاب « المثل السائر » لابن الأثير (١) المتوفى قبيل العصر المملوكى بسنوات معدودة . وتأثر بآرائه — ولا ريب — نقاد العصر المذكور .

وكلما تحدث النقاد عن أحد ألوان البديع ، استشهدوا له أولا بأمثلة من القرآن الكريم . واتضحت هذه الظاهرة فى كتابى « حسن التوسل » و « خزانة الأدب » ، حتى إن ابن حجة استدرك على ابن المعتز ، عند حديثه عن « المذهب الكلامى »

---

(١) يقول ابن الأثير فى مقدمة كتابه وهو يتكلم عن علم البيان : « وكنت قد عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم لم أجد أحدا ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها . العلم ومى إذا عدت كانت فى هذا بمقدار شطره » .

وقول ابن المعتز إنه لا يعلم ذلك فى القرآن ، فقال ابن حجة : « وليس عدم علمه مانعاً علم غيره . ولم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد القرآن. وأوضح الأدلة فى شواهد هذا النوع وأبلغها قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »[1] .

واعتبار النقاد والأدباء أن نظم القرآن الكريم يحتوى على كل الألوان البديعية ، وحرصهم على الاستشهاد عليها بأمثلة من القرآن ، وعثورهم فعلا على هذه الأمثلة ، دفعهم كل ذلك إلى تحرى أساليبه والاقتداء بها فى كتابتهم .

وقد تكلم القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، عن السجع فعقد له فصلا طويلا ، سنعرض لشىء منه فيما بعد . وقد استوفى فيه الحديث عن السجع وأنواعه ونظم فقراته وعددها ، واستشهد لكل ما قال بآيات من القرآن الكريم ناقلا كثيراً مما يقوله عن ابن الأثير والشهاب الحلبي . وقد بين أن أكثر سجعتين فى القرآن ألفاظاً ، قوله تعالى: « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور » . فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة — وقد عقب القلقشندى على ذلك بقوله : « وهذا غاية ما انتهى إليه الطول فى القرآن الكريم . قال « وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفا مع ما ورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأقوم نظام. وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره »[2] .

هذا هو موطن شاهدنا . ورأينا أن فهم النظم القرآنى على هذا الوجه ، فيه مبالغة من هؤلاء النقاد .

غير أن هناك فارقا بين نظمهم ونظمه ، ذلك أنه لم يكرر أمثلة النوع الواحد

---

(١) خزانة الأدب ص ١٦٥ باب « المذهب الكلامى » .

(٢) صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٩ .

إلا حيث يطلب الإيضاح والتأثير . أما هم فكرروها أحياناً حيث لا داعى إلى ذلك .

ولا ننسى أن للحديث النبوى أثراً آخر فى هذا الاتجاه ، بعد أثر القرآن .

* * *

تأثرهم بطريقة القاضى الفاضل :

وهذا الجو الفنى الذى عاشوا فيه ، والذى نشأ من ذوق العصر واتجاهه إلى الحلية ، ومن طريقة تذوقهم للنظم القرآنى ، أفسح السبيل أمام طريقة القاضى الفاضل فى الكتابة والشعر معاً ، أن تكون أهم المناهج التى يحتذونها وأن يتخذوا صاحبها لهم إماما فى مسالكهم الأسلوبية ، وذلك لأنها أمثل طريقة تتفق مع هذا الجو ، ويلتئم معها .

وتراهم عندما يعرضون لذكر الفاضل يضفون عليه آيات الثناء والإطراء ، ويعترفون له بالفضل والسبق والإمامة ، حتى إنهم كانوا يشبهون به ويضربون المثل بأدبه عند المناسبات فى الشعر أو النثر . وقد فرض الفاضل نفسه على الكتاب منذ عصره بما كان له من بسطة فى المال والجاه والسياسة والعلم والأدب .

وذكر ابن حجة القاضى الفاضل فقال عنه : « كان نظم القاضى الفاضل — رحمه الله — ونثره كفرسى رهان . ولكن نثر أكثر مما نظم . وأجمع الناس أنه أتى مع الإكثار بالعجائب . وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى تاريخه أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وهو يجيد أكثرها . ولعمرى إن الإنشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والأيام العباسية نسى وألغى بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعية . والذى يؤيد قولى قول العماد الكاتب فى الخريدة أنه فى صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع . »[1] .

هذا ، وقد مدح ابن قلاقس ، القاضى الفاضل وقلده فقال من أبيات :

---

(١) عن ثمرات الأوراق .

فى كفه قلم إن شئت أو قدر يصرف الخلق بين النفع والضرر[1] .

ونعتقد أن لنبوغ الفاضل فى استعمال التورية ، أثرا فى إعجاب كتاب المماليك به ، ومشيهم تحت رايته . وذلك لأن التورية — فى الحق — عنصر أصيل من عناصر التعبير المصرى ومظهر بارز من مظاهر الذوق المصرى . هذا فضلا عن نبوغه فى ألوان أخرى غيرها لها صلة بهذا الذوق ، كالاستخدام والتضمين مثلا . وقد أشاد ابن حجة فى خزانته بذكر الفاضل عند كلامه عن التورية ، وعده أنه هو الذى عصر سلافتها .

وكذلك فعل من قبله صلاح الدين الصفدى فمجد الفاضل فى كتابه « فض الختام » .

وقد كان لافتتانهم وافتتان معاصريهم بأدب الفاضل ، أثر فى إقبالهم على معارضة شىء من رسائله . والمعارضة الأدبية فى الشعر أو النثر دليل ضمنى على الإعجاب والاقتداء .

وكان الفاضل قد كتب رسالة على لسان سلطانه « صلاح الدين الأيوبى » يرد بها على الإمام الناصر العباسى الذى أرسل إليه يأخذه بأشياء . وكانت رسالة الناصر بقلم كاتبه ابن زيادة . فكتب الفاضل الرد فى نحو ٢٤٠ سطراً ، وفيه يحاسن الإمام .

وقد اطلع المنشىء القدير محيى الدين بن عبد الظاهر على رسالة الفاضل ، فاستشاط غضباً وحنقاً ، ورأى أنه كان ينبغى مخاشنة الإمام لامحاسنته . وأخذ فى معارضة الرسالة الفاضلية برسالة ضمنها هذه المخاشنة . . . وإن كان ذلك بعد فوات الحادث بعشرات السنين . . .

ومن كلام الفاضل فى رسالته ، قال فى مطلعها :

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . أدام الله أيام المجلس السامى القوامى ، إدامة تؤذن بتشييد معاليه . وتشمل بيمنها وبركتها حاضر وقته وتاليه . وتؤيد من

---

(٤) الأبيات فى تاهل الغريب • مخطوط . انظر باب المديح فيه .

يواليه من مواليه . وتخلد معها ناضر وقته وحاليه . ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه . وتزينه بمحاسن الصفات وتحليه . » . الخ —

ومن عتبه فيها قوله :

« فى سالف الوقت قيل فيمن سارع للاثم إليه وأعجله . رب ملوم لا ذنب له . وإن كان — أعلى الله كلمته — قد أعنق فى النصيحة وأوضع . فقد أنهر الجروح وأوسع . وربما بالغ الطبيب فى إغراق المبضع فأوجع . واشتد الألم وإن لم يلم . لأنه غير خاف عن أحد من ملة الإسلام وذوى العقول والأحلام . أن الدين عقد سيدنا ومولانا ، أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، واسطته . وعقد هو رابطته » . . الخ[1] .

* * *

ومن المعارضات أيضاً ما ذكره ابن حجة الحموى أن قطعة من إنشاء القاضى الفاضل بوفاء النيل قرئت على مسامع السلطان المؤيد شيخ عام ٨١٩ هـ وأحضرها صاحب ديوان إنشائه الناصر محمد بن البارزى . ثم طلب إليه أن يعارضها، وحذر من التعرض إلى شىء من ألفاظها ومعانيها . فأنشأ رسالة فى ذلك[2] .

وإليك سطوراً من رسالة الفاضل ، قال :

« نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا . وأضفاها سبوغا . وأصفاها ينبوعا . وأسناها منفوعا . وأمدها بحر مواهب . وأضمنها حسن عواقب . النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره . ويربى النبات حجره . ويجرى على سواد الأرض بفضته البيضا . ويهنأ بيده الخصيبة نقب الجرب من الجربى . ويحيى مطلعه أنواع الحيوان . ويجنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان . وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها . ويوضح معنى قوله تعالى : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها . » الخ .

* * *

---

(١) الرسالة بتمامها فى تذكرة الصفدى الجزء الثالث عشر — مخطوط بدار الكتب. وكذلك رسالة ابن عبد الظاهر التى عارضها بها .

(٢) سجلنا سطورا من رسالة ابن حجة هذه فى باب الرسائل تحت فصل « البشارات » . والرسالتان فى خزانة الأدب ص ٤٣١ وهما فى ثمرات الأوراق كذلك .

ولا بأس من أن نسجل مختارات أخرى من نثر الفاضل وشعره معا ، لنضع أمام القارىء ألوانا من فنونه الأدبية نستخلص منها خصائص طريقته .

قال الفاضل يمدح بنى أيوب :

« قد كان يقال إن الذهب الإبريز لا تدخل عليه آفة . وأن يد الدهر البخيلة به كافة . وأنتم يا بنى أيوب أيديكم آفة نفائس الأموال . كما أن سيوفكم آفة نفوس الأبطال . فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أدهم . وقلدتم أيامه صوارم . ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم . وأيام دولتكم أعراس ، وما تم فيها إلا على الأموال ما تم . والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم . »[1] .

ووصف الفاضل حمائم الرسائل فقال من رسالته :

« سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة . وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة . وتحمل من الأخبار ما تحمل الضمائر . وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر . وتزوى لها الأرض حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الأمة . وتقرب من السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة . وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا . وتركب الجو بحرا يصطفق فيه هبوب الريح موجا مرفوعا . وتعلق الحاجات على أعجازها . ولا تعوق الإرادات عن إنجازها . ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع . ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرجع . » الخ[2] .

ومن شعر الفاضل قوله من قصيدة يمدح بها :

أهذه سير فى المجد أم سور ... وهذه أنجم فى السعد أم غرر
وأنمل أم بحار والسيوف لها ... موج وإفرندها فى لجها درر
وأنت فى الأرض أم فوق السماء وفى ... يمينك البحر أم فى وجهك القمر

ومنها :

وأنت فى جيش رأى لا غبار له ... ترعى العداة بقوس ماله وتر

---

١ ، ٢ — عن ثمرات الأوراق .

سقى بك الله دنيانا فأخصبها والعدل يفعل ما لا يفعل المطر
لما استقلت ستور الملك لاح لنا ملك به الجود عين والثنا أثر (١)

وقال يصف السيوف ويمدح :

ولرب هاتفة دعتهم للوغى جعلوا صرير المرهفات صداها
هى فى بحار يديه أمواج ترى ونفوس من قتلته من غرقاها (٢)

وقال يصف الدمع والجفن :

أشكو إليك جفونا عينها أبداً عين تترجم عن نيران أحشائى
كأن إنسانها وافى بمعجزة فصار من أدمعى يمشى على الماء (٣)

فى هذه المختارات غنية وكفاية . ونستطيع باستقرائها وفحصها أن نعرف خصائص الفاضل فى نثره وشعره . وهما كما قال ابن حجة فرسا رهان ، أى فى جودتهما وفى أنهما تباريا فى إظهار هذه الخصائص وتشابها فيها .

ومن هذه الخصائص : بروز الخيال الشعرى : الذى يعتمد عليه الوصف اعتمادا كبيرا . وقد تجلى هذا فى النثر كما تجلى فى الشعر . انظر مثلا إلى وصفه للنيل تر التشبيهات والمجازات الآتية : بحر مواهب . بسط الآمال وقبضها . تربية النبات . حجره . فضته . يهنأ . يده . ينشر المطوى . ينشر الموات .

وأما « إنسانية ما لا يعقل » أو « تعقيله » فأمر بارز كل البروز ، وذلك فى إسناد البسط والقبض والتربية والحجر والهنء « الطلاء » واليد والنشر ، إلى النيل ، وهى من خصائص الانسان .

والذى نحب أن نلفت النظر إليه أن الكاتب يبدو وقت كتابة سطوره وقد استغرق الموضوع كل شعوره ، حتى تمشى فى عباراته كلها لون عاطفى واحد

---

(١) عن تأهيل الغريب « مخطوط » انظر باب المديح .
(٢) عن تأهيل الغريب باب وصف السيف .
(٣) عن تأهيل الغريب باب وصف الدمع .

متواصل الأجزاء . وكلها أمور تشعر بالإقرار بالنعمة وإكبارها وعمق الإحساس بفضلها وتعظيم مانحها سبحانه وتعالى ، ولذلك أبرز الكاتب آثارها وضخم هذا الإبراز بذكر البزوغ والإضاءة والإضفاء والسبوغ والصفاء والنبع ، والسناء والنفع ، والإمداد والبحر والمواهب والبسط والآمال والتربية والجرى . . . الخ الخ . وكلها — كما ترى — من واد واحد ومن صبغ عاطفى واحد ، وفى هذا الدلالة الكافية على وحدة الشعور وعمق التجربة وصدقها .

وقد استعان الكاتب على عمله الأدبى ، وتسجيل تجربته هذه بأمور ذات صلة وثيقة بإيضاح المعنى بل يكاد المعنى لا يتم — فى مثل هذه الوجازة — بدونها ومنها :

الطباق : وذلك واضح فى البسط والقبض . والمد والجزر . وصنوان وغير صنوان . وينشر المطوى . وينشر الموات .

الاقتباس : وذلك واضح فى : صنوان وغير صنوان . وفى : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

الجناس : وعلى الرغم من أنه محسن لفظى — كما يقال — فهو هنا شديد الصلة بالمعنى . هذا فضلا عن توافق نغمه وانسجام جرسه ، حتى إن الباحث عن الألوان البديعية لا يفطن إليه فجاءة ، وذلك لشدة توافقه وقوة انسجامه . وهو بادٍ فى قوله : أضفاها وأصفاها وينشر وينشر .

السجع : وهو الطابع الذى طبعت به القرائن . فالكاتب هنا لا يحيد عنه . وهذه إحدى خصائصه التى يفترق بها عن ابن العميد مثلا . ويتفق فيها مع ابن عباد مثلا من ملتزمى السجع . ولكن سجعه فى هذه السطور خفيف هين لا تكلف فيه ، ملتئم مع المعنى وتتطلبه القرائن . فإذا قلنا مثلا : من أضوئها ، كانت كلمة : « بزوغ » أقرب . وإذا قلنا : « أضفاها » كانت كلمة : « سبوغ » أقرب . وهلم جرا . وسجعه كما ترى مترجح بين قصر الفقرات وطولها وبين الموازنة وعدمها . وهو لا يلتزم إطالة الفقرات ، كما يصفه بعض النقاد .

التورية : وهذه إحدى خصوصيات طريقة الفاضل ، وقلما خلا منها مقال أو قصيدة له . ومنها قوله فى مدحه لبنى أيوب : « وماتم فيها إلا على الأموال ماتم » . ففى كلمة ماتم الثانية جناس التورية بمعنى « الذى تم » وبمعنى « مأتم » وهمزتها ، مسهلة وهو المعنى المراد . وكذلك قوله : والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم . ففى كلمة خاتم الأولى تورية بمعنى الحلية وبمعنى اسم الفاعل من ختم يختم بمعنى الذى انتهى إليكم فليس بعدكم مكرم . وهنا تبدو تورية أخرى فى كلمة « نقش » بمعنى المنقوش فى الخاتم ، أو بمعنى ما سطرته أيديكم فى تاريخ الكرم وهو المعنى المراد . ومرشح التورية الأولى فى قوله : « فى أيديكم » ، ومرشح الثانية قوله : « ذلك الخاتم » وقوله : « نفس حاتم » أيضاً . ونستطيع فهم تورية أخرى فى قوله : « نفس حاتم » المعنى القريب هو « أمل حاتم » والبعيد « حاتم نفسه » . وهكذا .

حسن التعليل : وقد بدا فى قوله فى القطعة الثالثة فى وصف الحمائم : « ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع . ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرجع » . فقد علل سجع الحمائم باطلاعها على بلاغات البطائق . وعلل دوام رجعها بإلفها الرياض .

هذا وفى كلمة « الرجع » تورية . المعنى القريب الرجوع ومرشحه الإلف . والبعيد العناء .

ولو أننا استقرأنا دقائق فن الفاضل فى بقية تلك المختارات لبدا لنا أسلوبه واضحاً بخصائصه فى كل موضوع يتحدث فيه .

ولا بأس من أن نوجه النظر إلى بيته فى وصف السيوف حيث يقول :

هى فى بحار يديه أمواج ترى ونفوس من قتلته من غرقاها

فقد لاءم بحنكة ومقدرة وخيال بمجمع بارع بين بيئة البحار وصورها ، وميدان القتال وصوره . ومازج بين الطرفين ممازجة دقيقة جمعت جملة من التشابيه مع وضوحها وحسن أدائها للمعانى ، ومع رسم تصور الشاعر — وهو تصور واسع النطاق — فى هذا البيت الواحد .

وأول مرحلة أو صورة رسمها هى « بحار اليدين » فصور يدى الممدوح بحارا ، وفى هذا معنى الكرم أو معنى السعة والبسط والقوة والعمق ، ومعنى الحلم والغضب أيضاً وهما مما يعترى البحار . . ثم أخذ الشاعر يزاوج بين ملائمات الطرفين ملاءمة بارعة قوية . فى صور متوالية . فالسيوف أمواج . والنفوس المقتولة غرقى . أما الصورة الأولى : ففى السيوف والأمواج لون وصقل وتموج وحركة وصعود وهبوط وبلل وقطرات . وفى الصورة الثانية فى القتلى والغرقى : هلاك واستقرار وبلل . إلى غير ذلك . هذه كلها جملة من المعانى والتصورات رسمتها ريشة الفاضل فى يسر ووضوح ووجازة . وقد عاونه على ذلك كله خياله البارع ودقته فى تخير التشبيهات والمجازات .

والذى نسجله بعد هـــذا أن طريقة الفاضل لم تتعمد التشبيه للتشبيه ، أو تتكلف المجاز للمجاز . وإنما هما أمران نزع إليهما الخيال الشعرى فاتخذ منهما أجنحة يطير بهما نحو تصوراته ، ويقع بهما على تصويراته .

ومن هنا نعلم أن الفاضل كان مدرسة المعانى ، كما كان مدرسة التشبيه والمجاز كما كان مدرسة البديع[1] .

ونستطيع بعد هذا أن نلخص خصائص طريقته فى النثر والشعر على السواء ، وهى التزام السجع فى غير تكلف ، وترجح فقراته بين القصر والطول وبين الازدواج وعدمه ، والطباق والمقابلة ، والتضمين والاقتباس على وجوهه وحل الشعر ، واصطناع التشبيه والمجاز ولا سيما الاستعارة أداء للمعانى . مع العناية بالتورية والاستخدام وبراعة الاستهلال ومراعاة النظير والتلميح إلى الحوادث ، والتوجيه بمصطلحات العلوم ، ونحوها ، وحسن التعليل والجناس المقبول .

---

(١) يذهب الدكتور الفاضل عبد اللطيف حمزة فى كتابه « الحركة الفكرية » ص ٢٨٢ ، إلى تقسيم مدارس الأدباء منذ عصر الفاطميين إلى نهاية الدولة البحرية إلى ثلاث : مدرسة البديع وزعيمها القاضى الفاضل ومن رجالها محيي الدين بن عبد الظاهر وابن نباتة المصرى . ومدرسة المعانى ومن رجالها الجزار والوراق والحماى . ومدرسة التشبيه ومن رجالها ابن حيدرة العقيلى فى زمن الفاطميين ولم يذكر أحدا من رجالها فى عصر المماليك . — ونحن نرى أن الفاضل أستاذ المدارس الثلاث ، وأن أدباء عصر المماليك شعراء ومنشئين نهجوا نهجه وجمعوا فى أدبهم بين البديع والمعانى والتشبيه .

وبعد فهذة وجازة فى المنهج الفاضلى الذى كان له أثر بعيد المدى فى المناهج الأدبية من بعده . ومنها ترى سر تعلق الأدباء الذين خلفوه بالبديع ، وبالإكثار من التشبيه والمجاز ، سواء منهم المنشئون أو الشعراء . فقد كان للجميع مذاهب أدبية مشتركة على وجه التقريب .

* * *

وفى السطور التالية نعرض بعض الألوان البديعية التى لمعت فى نثر المنشئين ونضرب لها الأمثلة .

ونقول : « التى لمعت » وفى ذلك تحديد للألوان التى نعرضها . إذ لم تكن كل ألوان البديع لامعة فى نثرهم الفنى .

على أن لكل لون أصولا ودرجة من اللمعان . ننبه عليها فى حديثنا التالى .

فمن القسم الأول :

السجع ونظم فقراته :

السجع هو توافق مفردات القرائن المتتالية فى الوزن أو الحرف الأخير ، أو فيهما معاً . والمفردات أى المتقابلة منها . والسجع إحدى سمات الأسلوب التى ظهرت فيه من أمد بعيد ، آنا يلتزم فى عصر أو لدى طائفة ، وآنا لا يلتزم ، وذلك تبعاً لظروف الحياة وطبيعة الموضوع ومزاج الأديب .

وقد ظهر السجع فى عصر المماليك ، والتزم فى الأساليب الأدبية على اختلاف موضوعاتها ، سواء أكان فى الرسائل الديوانية أو الإخوانية أو المقالات الوصفية أو الموازنات أو الإجازات أو الألغاز أو خطب الكتب أو الأهاجى أو المقامات أو القصص أو غير ذلك مما شاهدنا نماذجه واضحة خلال أبواب هذا البحث . وقد تعدى أمر السجع إلى الكتب العلمية ونحوها فتراءى بين سطورها بين الفينة والفينة ، ولا سيما فى كتب التاريخ والسير والتراجم . وقد شهدنا من بينها كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه ، وشاهدنا كيف التزم المؤلف السجع فى الكتاب من أوله إلى آخره .

على أن بعض الأدباء لم يلتزم السجع ، بل كان يسجع أحيانا ويسترسل أخرى . ولا سيما المناظرون وأصحاب المقالات الكلامية والناقدون . فقد كادت مقالاتهم تكون خالية من الأسجاع . وسبب هذا أن النزعة العلمية فيها كانت أكثر من غيرها .

* * *

والسجع محسن لفظى ، وهذا ما اتفق عليه الأدباء والبلاغيون . وهو بهذا لا يمت إلى تحسين المعنى بصلة . ولكننا نرى مثلا رجلا كابن الأثير يتعصب للسجع تعصبا شديدا ، ويرمى من يعيبون السجع من معاصريه بعجزهم عن إجادته[١] . وترى مثلا رجلا كالقلقشندى يقول : « السجع هو قوام الكلام المنثور وعلو رتبته »[٢] . واشترطوا أن يكون سمحا لا متكلفا ، وأن يجىء منقادا للمعنى .

ونرى أنه كثيراً ما يكون طبيعياً أتت به ضرورة المعنى ، فتجتمع له بذلك الحليتان اللفظية المعنوية ، وآية ذلك ما شهدناه فى نماذج القاضى الفاضل . ومن بين كتاب المماليك من خف سجعه فلذ وقعه . ومنهم الشهاب الحلبى الذى يقول فى وصف فرس كميت :

« ومن كميت نهد . كأن راكبه فى مهد . عندى الإهاب . شمالى الذهاب . يزل الغلام الخف عن صهواته . وكأن نغم الغريض ومعبد فى لهواته . قصير المطا . فسيح الخطا . إن ركب لصيد قيد الأوابد . وأعجل عن الوثوب الوحش الأوابد »[٣] .

* * *

على أننا نذهب فى السجع مذهبا نرجو أن يكون صائبا . وقد رددناه عند ما تحدثنا عن السجع القرآنى . فنحن نعتقد أن من أهم وظائف الأدب «التأثير

---

(١) راجع المثل السائر باب السجع ص ٧٤ .

(٢) راجع ج ٢ من صبح الأعشى فصل السجع ص ٢٧٩ .

(٣) حسن التوسل ص ١٤٢ — ويبدو أن الفقرتين الأوليين ضمنهما من كلام بديع الزمان — انظر ص ٧٤ من حسن التوسل .

والإثارة » ، فهما إذن جزء من المعنى الأدبى الذى يصوره الأديب . فهو يريد تصويره مؤثراً مثيراً . ووسائله إلى ذلك متعددة ، ومن بينها «السجع» وذلك لما فيه من موسيقا وحسن إيقاع وجمال اتساق . والسجع كان ولا يزال من أهم العوامل التى تعتمد عليها الأغانى فى بلوغ هدفها من السامعين .

وحقاً كلما كان السجع طبيعياً لا كلفة فيه ، منقاداً للمعنى ، كان أجمل وأفضل . وفى هذا يقول القلقشندى ما ملخصه : « إن حسنه أن يكون بريئاً من التكلف خالياً من التعسف ، محمولا على ما يأتى به الطبع وتبديه الغريزة . ويكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه المعنى ، دون زيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع . حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى ، خرج السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم — وأن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة ، لاغثة ولا باردة ، مونقة المعنى حسنة التركيب ، غير قاصرة [1] على صورة السجع الذى هو تواطىء الفقر . — قال فى المثل السائر : « وهذا مقام تزل عنه الأقدام . ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد » .[2]

ونحب أن نعقب بأن نقول بوضوح ، إن القلق والتعسف والتكلف ليست أموراً مقصورة على السجع ، وإنما تمتد إلى كل ضرب من ضروب القول ، وكل مسلك من مسالك الأسلوب ، يستوى فى ذلك الحقيقة والمجاز ، والبديع وغير البديع ، والسجع وغير السجع — والفهم القويم والذوق السليم وحدهما القديران على إزالة كل أسباب القلق والتكلف من كل طريقة من طرق الأداء .

انظر إلى محيى الدين بن عبد الظاهر يقول من رسالة « التواضع » .

« والبيت بأهله . والغمد بنصله . والثوب بلابسه . والجواد بفارسه .

---

(١) قاصرة : هكذا وردت فى الأصل . وحقها : مقصورة .

(٢) ج ٢ من صبح الأعشى ص ٢٩٠ .

والقوس براميها . والصهوة براقيها . ومن أسافل البحور . تترقى الدرر إلى أعالى النحور »[1] .

تر سجعات رائقة . وفقرات متوافقة ، لا يئودها تكلف ، ولا يثقلها تعسف ، وكل قافية فيها تتطلبها معانيها . فلله دره ودر قلمه .

* * *

على أننا لا ننكر أن بعضهم وقع سجعه ثقيلا مرذولا ، وأطال فى فقراته إطالة مملة . ولعله يحسب نفسه بذلك ناهجاً نهج القرآن فى نظمه وسجعاته .

انظر قول فخر الدين بن مكانس ، وقد أرسل رسالة إلى بدر الدين بن الصاحب تاج الدين يصفه فى خبره عنه :

« الموسع من بدايته فى سائر العلوم . الرادف خلفه خواص العلماء على العموم . القائم بناسوته على كل أقوم » .

ومن رسالته هذه — وهى فى وصف الشتاء — قوله يصف المطر وماءه ورعده :

« ثم أفرط إلى أن بلغ سيله الزبا فعم الربا والوهاد . وأوجب الغلاء لفساد الثمار ، خلافا للنيل فإنه طالما نقص الأسعار لما زاد . فما كان أولاها بالوصف من حال اللسان . وما أعجب ما غيب عين الشمس عين الماء فأراناقلب الأعيان . وما أسمع زجل رعده الذى أذكر المشارقة بكان وكان . فلقد عبس زهر اللوز بعد أن كان فى فم الدنيا ابتسام »[2] .

انظر إلى ثقل « العموم » وقد قهرها على المجىء ليطابق بينها وبين الخواص وليورى كذلك . وانظر إلى كلمة « ابتسام » فإنها واجبة النصب لأنها خبر كان ومع ذلك سكن آخرها .

وبهذه المناسبة نذكر ما سبق التنويه به وهو أن السجع يعفى الساجعين من مراعاة إعراب الحرف الأخير ، ليتم بذلك ، توافق الحرفين — هكذا قالوا

---

(١) رسالة « التواضع » لابن عبد الظاهر مخطوطة بدار الكتب .

(٢) ابتسام هكذا لضرورة السجع . والرسالة عن ديوان فخر الدين بن مكانس « مخطوط بدار الكتب المصرية » .

واستشهدوا لذلك بأمثلة . ونحن نرى أن تمحك الساجع فى هذا الإعفاء ضعف منه . وإن إخراج السجعة هذا المخرج ثقيل .

ومما ورد من ذلك قول ابن حجة مثلا فى مقدمة خزانته يتحدث عن طريقة نظمه لبديعيته وعرضها على صديقه ابن البارزى صاحب الديوان .

« فصرت أشيد البيت فيرسم لى بهدمه . وخراب البيوت فى هذا البناء صعب على الناس . ويقول : بيت الصفى أصفى مورداً وأنور اقتباس »[1]

وقف على « اقتباس » بالسكون ، وحقها النصب

ومن ذلك ماجاء فى رسالة كتبت على لسان الناصر بن قلاوون إلى غازان ملك التتار يقرعه ويذكره بانتصارات الجيوش المصرية على جيوش مملكته قال :

« وإن كنت نصرت مرة فقد كسرت آباؤك مرار . وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقام ، ولجيوشنا قرار » . الخ

فانظر إلى قوله « مرار » وقف عليها بالسكون وحقها النصب .

* * *

هذا ، والسجع أنواع كما أشرنا فى باب النقد . ويختلف النقاد أو البلاغيون فى تسمية كل نوع . على أن التسمية لا تهمنا بمقدار ما يهمنا وصف النوع نفسه .

فمنه : المطرَّف : وهو — كما قال الحلبى — أن يراعى الحرف الأخير فى كلتا قرينتيه من غير مراعاة الوزن . وهذا النوع أكثر أنواع السجع دورانا فى النثر فى العصر الذى نحن بصدده . وهو لا يكاد يتفق إذا اختلفت السجعات فى عدد مفرداتها .

ومنه قول ابن حجة فى رسالة كتبها عن المؤيد شيخ إلى قرا يوسف صاحب العراقين :

---

(١) مقدمة خزانة الأدب لابن حجة .

« لازالت زوراء العراق فى أيامه القويمة مستقيمة الجانبين . وحلتها الفيحاء عالية المنار وشمل الدين بها مجتمعا فى الجامعين . وعراق العرب والعجم بارزين من محاسنه اليوسفية فى حلتين »[1] .

ومنه قول شهاب الدين القلقشندى يصف تحرك الجيوش المصرية ، على لسان الناصر فرج بن برقوق :

« وتحركنا من الديار المصرية فى جيوش لا يأخذها حصر ، ولا يلحقها هصر ، ولا يظن بها على كثرة الأعداء كسر . ولم نزل نحث السير . ونسرع الحركة للقاء العدو إسراع الطير حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها ، مستمطرين النصر فى أوائل حركتنا وآخرها »[2] .

ومنه قول شهاب الدين بن فضل الله العمرى على لسان سلطانه إلى نائب الشام مهديا إليه طيور صيد جوارح :

« صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح . وثناء يطير إليه وكيف لا تطير قادمة بجناح . ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى من رسمه . وجرت عادة صداقتنا الشريفة أن تحسب فى قسمه . وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مطار . ولا يوقد للقرى فى غير حماليقها جذوة نار . ولا تؤم طيراً إلا وترش الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار »[3] الخ

ومنه قول النويرى صاحب نهاية الأرب فى مفتتح المجلد الثانى من كتابه المذكور ، يصف الفن الثانى وموضوعه الإنسان وما يتعلق به . قال :

« وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع . مشنفة للمسامع . مرصعة لصدور الطروس والدفاتر . جاذبة لنوافر القلوب والخواطر . واضحة البيان ، معربة عن وصف الإنسان . فمن تشبيهات فائقة ، وغزليات رائقة .

---

(١) خزانة الأدب باب السجع ص ٤٣٨ .

(٢ ، ٣) عن المفصل ج ٢ ص ٢٥٣ .

وأنساب طاهره . ووقائع ظاهرة . وأمثال امتدت أطنابها . وتبينت أسبابها وأوابد جعلتها العرب لها عادة ودليلا . واتخذتها ضلالة وتبديلا . ونصبتها أحكاما ونسكا ، وصيرتها عبادة ومداواة ، فتبوأت بها من النار دركا . وشيء من أخبار الكهان ، وزجر عبدة الأوثان »[1] الخ .

* * *

ومن السجع : الترصيع وهو — كما قال الحلبي — أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقه الأعجاز : ومعنى ذلك أن تكون كل كلمة فى إحدى فقرتى السجع مساوية لنظيرتها فى الأخرى ، فى الوزن الصرفى ، ومتفقة معها فى الحرف الأخير . وهذا النوع أكثر ما يتفق فى الفقرتين المتساويتين . وهو نوع فريد فى السجع قليل الورود فى الشعر والنثر على السواء .

وقد ذكره الحلبي والقلقشندى بين أنواع السجع . أما ابن حجة فقد ذكره فى إيجاز سريع بين أقسام السجع كذلك ، ولكنه كان قد عقد له فصلا على حدة قبل فصل السجع ، ولم يذكر أنه نوع من أنواعه . واشترط للتبريز فيه عدم تكرار أى لفظ فى الفقرتين لا يكون داخلا فى الترصيع . ويبدو أن هذا التأرجح الذى بدا من ابن حجة ، نشأ من تأثره بكل من الأديبين الكبيرين ابن الأثير والشهاب الحلبي . فبينما أثبت الحلبي الترصيع صراحةً نوعاً من أنواع السجع ، إذ أفرده ابن الأثير فى فصل مستقل ، ولم يصرح فيه ولا فى فصل السجع ، بأنه نوع منه . ثم إن ابن الأثير أنكر أن يكون فى القرآن ترصيع ، وذلك لما هو عليه من زيادة التكلف . ولم يقبل الآية الكريمة : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » مثلا للترصيع لتكرار لفظ « لفى » وهو غير داخل فى الترصيع ، فنقض شرطه . وربما كان هذا سبباً فى أن ابن حجة اشترط للتبريز فيه عدم تكرار أى لفظ فى الفقرتين ليس من الترصيع ، وعد هذا اللفظ حشوا . هذا مع العلم بأنه أورد بين أمثلته تلك الآية الكريمة ، التى لم يرتضها ابن الأثير مثلا للترصيع .

---

(١) نهاية الأرب مفتتح ج ٢ .

وهذا النوع نادر الوقوع فى نثر المماليك وإن ورد فبيعض التحريف ؛ ومنه قول الشهاب بن فضل الله فى وصف القوس :

« لا يشبع سغبها . ولا يدفع شغبها . معطية منوع . واهية تروع[١] » .

ومنه قوله فى وصف السهام والكنائن :

« بلاء منزل . وقضاء مرسل[٢] » .

ومنه قوله فى وصف المجانيق :

« وقد استلت كأنها عقاب . وامتدت كأنها سحاب . وهدرت كأنها رعد . واستترت كأنها خود . واضطرمت كأنها حريق . واضطربت كأنها طليق . وأطلت كأنها أجل . وولت كأنها وجل[٣] » .

وقال برهان الدين القيراطى فى وصف الربيع :

« يوم أنيق . وغيم رقيق . وروض إذا تسلسل ماؤه المطلق ، تهلل وجهه الطليق الخ[٤] » .

ومنه قول ابن عبد الظاهر فى رسالة « التواضع » يصف نفسه :

« وقد لامست منى شيهما . ومارست ضيغما . وجالست أرقما . وزاحمت جندلا ، وهاوبت أجدلا[٥] » .

ومنه قول ابن عربشاه فى مدح السلطان جقمق :

« وقد من الله سبحانه فى هذا العصر . وجبر هذه الأمة الضعيفة بعد الكسر برحمة شاملة . ونعمة كاملة . ودولة عادلة » . ومنه أيضاً قوله :

« المؤيد بالنصر . المسدد بالفخر[٦] » .

* * *

(١ ، ٢ ، ٣) عن التعريف بالمصطلح الشريف .

(٤) حلبة الكميت للنواجى ، الباب الثامن عشر فى وصف الربيع .

(٥) عن رسالته المخطوطة بدار الكتب .

(٦) راجع مقدمة تاريخ جقمق لابن عربشاه .

ومن السجع : المتوازى ، وهو — كما قال الحلبى — أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين ، الوزن مع اتفاق الحرف الآخر منهما . وسماه ابن حجة « الموازى » ويبدو أن القلقشندى يسميه « المتوازن » إذ أنه لما أشار إليه قال : « والمرتبة الثانية أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين .. الخ . — غير أنه سمى النوع الآتى « المتوازن » كما سنوضحه . — هذا ، والموازى إذا اتفقت فيه الكلمتان فى الوزن وجميع الحروف خرج إلى الجناس إذا اختلف معناهما .

والمتوازى كثير الوقوع فى نثر كتاب المماليك . ومنه :

قول ابن حبيب الحلبى فى الوعظ والنصح :

« أيها الناس . ما الموت بساه ولاناس . فتأهبوا لحلوله . واستعدوا له قبل نزوله . وحصلوا الراحلة والزاد . وردوا العاصى إلى الطريق فقد زاد . ولا تعدلوا عن محجة الحجا . واتقوا دعوة المظلوم فى ظلام الدجا . وآمنوا بالقدر خيره وشره . وارضوا بالقضاء حلوه ومره[1] » .

والمتوازى واضح بين حلوله ونزوله . والحجا والدجا . وشره ومره . وخرج قوله : الناس وناس ، والزاد وزاد ، إلى الجناس .

ومنه أيضاً قول تقى الدين المقريزى فى مقدمة كتابه السلوك :

« سبحان الله من إله حكيم قادر . ومليك مقتدر قاهر . يعطى العاجز الحقير . ويمنع البطل الأيد الكبير . ويرفع الخامل الذليل . ويضع ذا العز المنيع والمجد الأثيل » الخ[2] .

وبين قادر وقاهر . وبين الحقير والكبير . وبين الذليل والأثيل . سجع متواز .

ومن السجع : المتوازن . وهو — كما عرفه الحلبى — أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين ، الوزن مع اختلاف الحرف الآخر منهما . ولم يذكره ابن حجة قسما من أقسام السجع . أما القلقشندى فقد أفصل القول فيه وسماه « الازدواج » ، وقسم ما يقع منه فى النثر قسمين .

---

(١) نسيم الصبا : الفصل الثلاثون .

(٢) سلوك المقريزى — مقدمته : ج ١

الأول : ماروعى فيه اتفاق الكلمات المتقابلة فى القرينتين ، فى الوزن — كلها أو أكثرها — مع اختلاف حرف الروى فى آخر القرينتين .

الثانى : ماروعى فيه اتفاق الوزن فى الكلمتين الأخيرتين فقط من القرينتين ، مع اختلاف حرف الروى أيضاً . وكلا الضربين يسمى : « المتوازن » . فهو عنده مقابل لكلمة « الازدواج » . وذكر أنه يسمى عند الرمانى « السجع العاطل » وسماه هو « الحالى » .

ومن المناسب هنا أن نذكر أموراً منها :

١ — أن الحلبى ذكر أن المتوازن إذا ورد فى الشعر سمى « الموازنة » .

٢ — أن ابن حجه عقد فصلا خاصا ذكر فيه « المزاوجة » وهى عنده أو على ما نقله « الازدواج » . وكلاهما على حد تعبيره : « أن يزاوج المتكلم بين معنيين فى الشرط والجزاء . » وبهذا خرج عن السجع .

٣ — أن ابن الأثير لم يعتبر « المتوازن » قسما من أقسام السجع ، بل قال إنه « أخو السجع » ثم جعل بينهما صلة خصوص وعموم . وسماه « الموازنة » وعقد لها فصلا مستقلا . وتعريفها عنده لا يخرج عما عرّف به الحلبى والقلقشندى « المتوازن » .

٤ — أن ابن حجة عد من أقسام السجع « المشطر » ، وهو خاص بالشعر . وعرفه بأن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتى النصف الأخير .

هذا وإليك أمثلة من هذا المتوازن أو المزدوج ، مع العلم بأنه لم يرد فى نثر المماليك إلا نادراً ، وإذا ورد فإنه لا يستوفى شروطه عند البلاغيين ، بل يرد مسجوعا أو لا تتزن جميع كلماته المتقابلة . وهكذا .

ومنه قول ابن حبيب الحلبى فى الحكم والمواعظ :

« العلم نعم السمير . والعقل بشير . بالخير يشير . اجتهد فى طلب العلوم تنفرد بما يرفعك إلى النجوم . المجد ببذل اللها ، والفضل بالأدب والنهى . من صادق العلماء زها بدره . ومن رافق السفهاء وهى قدره » . ومنه : « الحق سيف قاطع . والحلم درع مانع » . ومنه : « العقل أحسن المواهب . والجهل

أقبح المصائب » . ومنه « اليأس يعز الأصاغر . والطمع يذل الأكابر» ومنه : « أرفع الأعمال ما أوجب شكرا . وأنفع الأعمال ما أعقب أجراً » . ومنه : « من لزم شأنه دامت سلامته . ومن حفظ لسانه قلت ندامته » .

فأنت تراه التزم فيه السجع وجنح إلى الجناس . ولم تتزن معه المفردات المتقابلة كلها . . وعلى كل فني عباراته ازدواجات جزئية ، ومنها قوله :

العلم والخير . وبشير ويشير . — والمجد والفضل . واللها والنهى . — وصادق ورافق ، وبينهما جناس — والعلماء والسفهاء . وزها ووهى . — والحق سيف ، والحلم درع .

وقوله : العقل الخ . هاتان الفقرتان بينهما ازدواج أكثر من غيرهما — وبين يعز ويذل ، والأصاغر والأكابر . — أما قوله : أرفع الأعمال . . . الخ فني الفقرتين ترصيع — وبين لزم وحفظ ، ودامت سلامته . وقلت ندامته .

وواضح جداً أن سبب هذا الاضطراب عندهم في سوق المزدوج ، أنهم قيدوا أنفسهم بالسجع . ثم مالوا إلى الفقرات غير المتساوية — والملحوظ أن المتوازن أو المزدوج لا يتفق إلا إذا كانت الفقرتان متساويتين .

وحسبنا هذا من التمثيل . ولنتحدث عن نظمهم في صوغ الفقرات المسجوعة :

* * *

نظم الفقرات :

تحدثنا عند ما بينا مذهب الحلبي وابن حجة ، في باب النقد عن نظم الفقرات المسجوعة لديهما . وذكرنا أنهما متأثران في ذلك برأى ابن الأثير ، وهو أقرب النقاد السابقين إليهما .

وقد قرأنا للقلقشندى — وهو معاصر لابن حجة — فصله الشائق عن السجع ونظام فقراته . وقد استوفى فيه عنها الحديث بما لا مزيد عليه لمستزيد . وملخص ما قاله — وهو لا يخرج في جملته عن آرائهم .

١ — أن السجعات تارة تكون متساوية في عدد مفرداتها . وتارة تكون غير متساوية .

٢ — أن السجعات المتساوية فى عدد مفرداتها ، أقواها ما تألفت فيه الفقرة الواحدة من كلمتين فحسب . وهذا النمط بأنواعه كثير فى القرآن الكريم . وهو يدل على قوة تمكن الكاتب وإحكام صنعته .

٣ — أن السجعات غير المتساوية ، وردت فى القرآن بكثرة تزيد على سابقتها . وعللوا زيادة كلمات الفقرة الثانية عن الأولى . بتشوق الساجع إلى الزيارة ، بعد سماع الفقرة الأولى — وفى هذا التعليل تذوق موسيقى واضح . إذا أن سامع اللحن إذا سمع منه نغمة تطلعت نفسه حقا إلى زيادة تاليتها عنها مطاوعة لتموج النغمة وأثرها فيها .

٤ — أن أطول الفقرات القصيرة ، لا يزيد عدد مفرداتها على عشرة . وأن أقصر الفقرات الطويلة ماكان عدد مفرداتها أحد عشر . أما أطولها فلا ضابط له — هذا ما قاله الحلبى وابن الأثير . وقد ذكر القلقشندى أن أطول سجعتين فى القرآن الكريم قوله تعالى: « وإذ يريكموهم . . . » الخ . فالسجعة الأولى عشرون كلمة ، والثانية تسع عشرة ، وقال : « وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفا مع ماورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأقوم نظام » .

٥ — أنه فى الفقرات غير المتساوية ، لا تزيد الثانية على الأولى أكثر من المثل . وعللوا ذلك بأن طولها أكثر من هذا يقلل من التذاذ السامع بسماعها .

٦ — فى الفقر غير المتساوية إذا وجدت سجعة ثالثة ، فلتكن زيادتها يسيرة عن الثانية . ولا يضر تساوى الأولى والثانية . والمرجع — على كل — هو الذوق .

٧ — فى الفقر غير المتساوية ، ينبغى ألا تنقص الثانية عن الأولى . وقد ذكر ابن الأثير أن هذا عنده قبيح وعيب فاحش ، وعلل ذلك بأن السامع يكون قد استوفى أمده فى الفصل الأول — أى الفقرة الأولى — بحكم طوله ثم يجىء الفصل الثانى قصيراً فيكون كالشىء المبتور فبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها .

وقد عقب القلقشندى على ذلك بقوله : « وفيما قاله نظر . فقد تقدم فى قوله تعالى « إذ يريكهم الله فى منامك قليلا . . . الآيتين » . أن الأولى عشرون

كلمة ، والثانية تسع عشرة » . قال : « وحسن ذلك أبو هلال العسكرى فى الصناعتين محتجا بكثرة وروده فى كلام النبوة »[1] .

٨ — فى الفقر غير المتساوية إذا زاد عددها على اثنتين ، تفصيل رأينا ألا داعى لعرضه ، اكتفاء بما مر .

* * *

هذا مجمل ما ذهبوا إليه فى نظم السجعات وعدد مفرداتها . وفى كل هذا التقنين مبالغة — كما سبقت إشارتنا إلى ذلك — وفى حسبانهم أن القرآن الكريم تعمد كل هذه النظم فى سجعاته ، غلو . وفى تقييدهم أنفسهم بهذا المنهاج القرآنى — على اعتبار أن سجعاته مقصودة المزينة والعدد واستيفاء أقسام الفقرات — إغراق .

وينبغى لنا — بعد أن عرضنا نصوصاً كثيرة العدد من نثرهم — أن نحكم بأن هذه النظم كانت نظرية أكثر مما كانت عملية . وأنها كانت تدور فى أدمغة الناقدين ، أكثر مما كانت تدور فى أقلام الكاتبين . وأن سجعات الكتّاب ترجحت بين الطول والقصر . وأن طولها أكثر من قصرها . وأن طول الثانية كان واضحاً ولكنه غير ملتزم . وكذلك طول الثالثة .

ونعرض هنا سطوراً نتبين منها شيئاً من ذلك :

قال المقريزى فى خطبة كتابه « السلوك » يصف العرب حين قام فيهم النبى عليه الصلاة والسلام :

« وجمع — أى الله سبحانه وتعالى — له أسود العرب وقد كانت فى جزيرتها متفرقة . ولم يبركته شعثها بعد ما غبرت زمانا وهى متمزقة . وألف قلوبها على موالاته وطاعته . وحبب إليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته . فتواصلوا بعد القطيعة والتدابر . وتحابوا فى الله كأن لم ينشئوا على البغضاء والتنافر . حتى صاروا باتباع ملته . والاقتداء بشريعته . من رعاية الشاء والبعير .

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٧٩ إلى ص ٢٩٠ .

إلى سياسة الجم الغفير . وبعد اقتعاد سنام الناقة والقعود وملازمة بيت الشعر والعمود . وأكل القيصوم والشيح . ونزول القفر الفسيح . إلى ارتقاء المنابر والسرير . وتوسد الأرائك على الحرير[1] » . الخ ، .

ترى فى هذه السجعات أن فقراتها لم تلتزم لونا معينا . فمنها الطويل والقصير . وأحيانا تتفق قرينتان فى عدد كلماتهما كقوله : وجمع له . . . إلخ . فكل فقرة تحتوى على ثمانى كلمات . وتارة تنقص السجعة الثانية عن الأولى ، كقوله : «والاقتداء بشريعته» فإنها أقل من سابقتها .

وقال شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، يصف الصباح :

« وقد رفت تلك البكر . ووضحت تلك الغرر . وحسنت تلك الصبح المسفرة . وأصبحت بها الأيام ضاحكة مستبشرة . وقد أخذت بجامع الحسن تلك المبادى . وأولت بيض الأيادى . وحليت تلك السماء الفضية . وجليت تلك المرآة التى كانت من بقايا الليل صدية . ودبت حمرة الشفق فى وجه النهار . وتوقدت جمرة الصباح إلا أنها من نور لا من نار . وكان انفتاق الضوء فى أخريات الليل مثل شجر ياسمين ينفض . وأقبل النهار فى شبابه إلا أن شباب النهار أبيض وباكر الصباح بالصبوح . ودفن الهموم والزق لديه مذبوح . وشرب على على ورد الشفق مثلة من المدام . وجاهر النهار ولم يخش الملام[2] » .

وترى هنا فقرات مترجحة بين الطول والقصر أيضا . منها ما عدد كلماته ثلاث ، ومنها أربع ، وهكذا . كما ترى أن هناك مثلا سجعتين أولاهما أطول ، مثل قوله : « وقد أخذت بجامع ..» الخ . وأن هناك سجعتين ثانيتهما أطول مثل قوله . « وحليت تلك السماء ... » الخ .

وفى هذا القدر ما يكفى . وقد أطلنا فى الحديث عن « السجع » . لأنه أول الخصائص التى تبدو القارىء فى النثر حتى لم يكد يخلو منه عنوان كتاب أو خطبته حتى كتاب العبر لابن خلدون وخطبته — على الرغم من مؤاخذته لكتاب عصره.

***

(١) مقدمة السلوك ج ١ .

(٢) التعريف ص ٢٣٧ — الفصل السادس .

الطباق والمقابلة :

الطباق هو الجمع بين معنيين متضادين ، والمقابلة هى ذكر شيئين أو أكثر ، ثم ذكر مايتصل بكل ، سواء أكان على طريق المخالفة أو الموافقة . ولهما أنواع .

وهما حليتان معنويتان لتحسين المعنى . وهما من ضروب البديع الطبيعية الكثيرة الدوران فى الأساليب ، حتى فى أساليب العامة ، وذلك لأن — فى الطباق مثلا — الضد أقرب خطورا بالذهن وجريانا على اللسان وقت حضور ضده . والمقابلة فيها سمات من الطباق . وقد شهدناهما فى النثر منذ جاهليته .

ولا تكاد تجد رسالة أو مقالة أو نحوهما إلا وبين سطورها تتراءى ضروب الطباق والمقابلة ، وذلك فى عصر المماليك . ونوردلك أمثلة منه :

من رسالة للصفدى إلى صديق له يقول :

« فلما اتفق بعد ذلك للمملوك ما اتفق من المقادير التى لا محيد عنها . والأمور التى إن سخط أورضى لابد منها . ما أمكنه إلا التسليم لحكم الله وأمره . ولعل ذلك أن لايكون لشر قضاه الله بل لخير قدره . ورزق يسره »[1] .

طابق بين سخط ورضى . وبين الشر والخير .

ويقول ابن الوردى من إجازة :

« أمابعد حمد الله الذى زاد أهل العلم شرفا ورقيا . وجعلهم خلف السلف فحبذا سلفا وخلفا تقيا . والصلاة على نبيه محمد الذى جعل فى حربه وسلمه الموت والحياة . وسجل لعترته المنيفة كتاب الطهارة وأنبع من أصابعه الشريفة باب المياه . وعلى آله الذين فتح لهم باب الولاء لإحياء الموات . وأغلق عنهم باب الرد بالعيب لما زكا معدنهم وطاب نباتهم فهذه زكاة المعدن والنبات . وعلى صحبه المعدودين من خيار المجلس . المقصودين للاستسقاء وصرف القبض عن المفلس . وعلى تابعيهم الذين عقلوا الوصايا فأدوا فرائض العبادات . وحسنت منهم السير فنزه تعديلهم عن الجرح فى الشهادات . » الخ[2]

---

(١) ألحان السواجع — راجع ما كتبه الصفدى إلى إبراهيم بن محمود بن سليمان .

(٢) ديوان ابن الوردى ص ١٧١ .

فأنت تراه قد طابق بين الخلف والسلف . وبين الحرب والسلم ، وبين الموت والحياة . وبين إحياء وموات ، وبين فتح وأغلق ، وبين الصرف والقبض ، وبين التعديل والجرح .

وفى بعض مفرداته توجيه بمصطلحات الفقه ، وهى واضحة ومنها : الطهارة والولاء والرد بالعيب والاستسقاء والفرائض وغير ذلك .

وقال ابن دانيال فى قصة « طيف الخيال » على لسان « نباتة العشاب » يقدم أعشابه للحاضرين : « سلكت فى اقتناء هذه الأعشاب ، مسالك الرى والماحل . حتى حصل لى فى هذه الأكياس والأجربة . ما شهد بصحته القياس والتجربة وأنتم أرشدكم الله ، تعلمون علم اليقين . ثم تحققون أقوال النقلة الصادقين . أن ما من حشيشة فى الأرض نابتة . إلا ولها فى الجسد علة ثابتة . فمنها ما ينفع بأذن الله ويضر . ويحبس ويذر ويسهر وينوم . ويفش ويورم . » الخ[1]

فأنت تراه قدطابق بين الرى والماحل . والقياس والتجربة . وينفع ويضر ، ويحبس ويذر ، ويسهر وينوم، ويفش ويورم .

هذا والطباق فى النثر أكثر ذيوعا من المقابلة .

***

الاقتباس والتضمين وصل الشعر والنثر :

الاقتباس هو أن يضمن المتكلم كلامه شيئا فى أى القرآن الكريم أو الحديث النبوى على أى صورة من صور التضمين ولا ينبه عليه .

والتضمين هو أن يضمن كلامه شيئا من منثور غيره أو منظومه ، على أى صورة من صور التضمين .

هذان التعريفان خلاصة لمذاهب البلاغيين والنقاد فى الاقتباس والتضمين . ولهم فيهما تفاصيل وخلافات لا نرى هنا داعيا إلى الحديث فيها فليست من

---

(١) انظر طيف الخيال ، مخطوط بالمكتبة التيمورية .

جوهر بحثنا . ونحب أن نقول إنهما من واد واحد حتى إن بعضهم غلط بينهما أو عكس .

ومن هذين التعريفين نرى أن « الحل » سواء أتناول الشعر أم النثر ، ضرب من ضروب الاقتباس أو التضمين . وقد تحدثنا عن رأى الحلبي فى « الحل » فى باب النقد وهو كلام مفصل دقيق التوجيه دال على ذوق أدبى أصيل . وخلاصته :

١ — أن الحل دليل على سعة اطلاع المنشىء وإحاطته بصنوف الأدب شعره ونثره .

٢ — واستخدام الحل بحاجة إلى لباقة وحنكة وذوق وقدرة على سبك المحلول مع إنشاء المنشىء . فهو يحل ألفاظه ويباعد بين متجمعها ويفصل بينها بألفاظه وعباراته ، وينتفع بمعانيها بإضافة معان أخرى إليها ليتألف منها شىء جديد له روعة وجلال .

٣ — ورأى الحلبي يتأثر — ولا ريب — برأى ابن الأثير فى طريقة حل الشعر . ولكن الحلبي كان أوسع مدى وأوضح توجيها وأدق حديثا وتعليلا .

وقد أشرنا هناك إلى أن « الحل » كان — ولا يزال حتى اليوم — مقبولا من الأذواق لجمعه الحسن من أطرافه ولأنه يخرج القديم مخرجا جديداً : وهو نوع من التوليد ، ولاريب : هذا فضلا عن جمال ملاءمته بين الألفاظ الجديدة والقديمة . وذلك فن معجب مطرب إذا بلغ الغاية من حسن الملاءمة وقوة الارتباط . هذا فضلا أيضاعما يتراءى خلال الأسلوب المضمن من معان خفية وظلال معنوية . لولا « الحل » ما تموجت عليه صفحة الذهن وقت مطالعتها .

وفى طرق الحل تفاصيل ، رأينا أن نضرب الذكر صفحا عنها لعدم ضرورتها فى هذا البحث ، ونحيل القارىء إلى حديثنا عن الحلبي ، وإلى كتابه « حسن التوسل » .

والآن نقول : إن النثر الفنى فى عصر المماليك امتلأ بألوان الاقتباس والتضمين والحل ، ويمتبر هذا عندهم دليل العلم وسعة الإحاطة والتمكن من

الإنشاء والقدرة على التوليد . على شريطة ألا يكلف الكاتب بالحل دون سواه ، فيصاب ذهنه بالضعف ، فلا يقوى بعد على الابتكار ، نتيجة لا تكاله عليه .

هذا ومما ورد من الاقتباسات والتضمينات والحل :

قول الشهاب الحلبي فى توقيع لإمام :

« وليعلم أنه يكون فى المحراب مناجيا لربه . واقفاً بين يدى من يحول بين المرء وقلبه [١] » .

وفى قوله « يحول بين المرء وقلبه » اقتباس من القرآن الكريم .

وقال فى وصف السيوف :

« كفى السيوف فخرا أنها للجنة ظلال . وإلى النصر مآل . وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان حديثها عمن كلمته هو السحر الحلال » .

وفيه حل لبيت ابن الرومى :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجز قتل المسلم المتحرز [٢]

وقال فى صدر رسالة إلى نواب ثغر عند حركة العدو :

« أصدرناها ومنادى النفير قد أعلن بياخيل الله اركبي . ويا ملائكة الرحمن اصحبي . ويا وفود التأييد والظفر اقربى » .

وفيه اقتباس من الحديث النبوى : ياخيل الله اركبي [٣] .

وقال من رسالة فى وصف الخيل — يصف الأدهم .

« يظن من نظر إلى سواد طرته . وبياض حجوله وغرته . أنه توهم النهار نهراً فخاضه . وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة . لين الأعطاف مريع الانعطاف . يقبل كالليل . ويمر كجلمود صخر حطه السيل » .

وفيه حل لشطر بيت امرىء القيس . « كجلمود صخر حطه السيل من

---

(١) حسن التوسل ص ١٣٠ .

(٢) حسن التوسل ص ١٣١ .

(٣) حسن التوسلى ص ١٣٤ .

عل[١] ، فضلا عما فيه من تعليل بارع جميل وتشبيه مبتكر .

وقال فى وصف الكميت :

« وإن جنب إلى حرب لم يزور من واقع القنا بلبانه . ولم يشك لو علم الكلام بلسانه[٢] »

وفيه حل لقول عنترة العبسى فى وصف فرسه :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

وقال الشهاب بن فضل الله فى وصف الشبابة :

« يوهفيف الدوح أنه منها يتعلم . ويقول لديها الحضور الصموت . ونحن سكوت والهوى يتكلم »[٣] .

وقال فى وصف الكأس :

« والكأس هلال مالت شفته . وأفق محمر الشفق تمت صفته . شب فى الكهف والتهب . والكاس من فضته والراح من ذهب »[٤] .

ولابن نباتة بيت فى وصف الخمر قال :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب فالكأس من فضة والراح من ذهب[٥]

ومن اقتباسات محيي الدين بن عبدالظاهر قوله فى رسالة إلى أحد الأمراء ، على لسان سلطانه :

« لا برحت وطأته على الكفار مشتدة . وآمالها لهلاك الأعداء كرماحه ممتدة . ولا عدمت الدولة بيض سيوفه التى يرى بها الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس تثنى على عزائمه التى دلت على كل أمر رشيد . وأتت على كل جبار عنيد . وحكمت بعدل السيف فى كل عبد

(١، ٢) حسن التوسل ص ١٤٢ .
(٣) التعريف ص ص ٢١٥ النوع السابع من القسم السابع .
(٤) التعريف ص ٢١٦ .
(٥) ديوان ابن نباتة .

سوء ومار بك بظلام للعبيد . »[1] واقباساته من القرآن الكريم واضحة .

وقال فى عهد يوصى بالشرع :

« والشرع الشريف هو قانون الحق المتبع . ومأمون الأمر المستمع . به يتمسك من يمتار ويمتاز . وهو جنة والباطل نار فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز[2] » .

ومن لطائف اقتباسات ابن الوردى قوله فى رسالة موصيا بنفسه وبأخيه يوسف :

« وإذا عنى مولانا الصاحب بالأخ رفقا وإحساناً . تلونا : هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخاناً . فالله يعلينا بعلوك . ويبلغ مرجونا ببلوغ مرجوك . حتى تقول أولادك عنا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا . ونقر بك عينا ونقرأ : أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا[3] » .

* * *

وهذا ولعل من المناسب أن نذكر أن هذه الألوان البديعية — أى أنواع التضمين — ائتلقت كذلك فى الشعر وجنح إليها كثير من شعراء العصر جنوحاً واضحاً ، وأتوا فى بابها بالعجائب المطربة ، والمطربات المعجبة ، ومنهم من أخرج مضمناته مخرجا جديدا ، كنقلها مثلا من الغزل إلى الوصف ، أو العتاب أو الهجاء . .

ومن لطيف قول مجير الدين بن تميم أحد الشعراء حينذاك :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

غير أن المضمن إذا أغرق انتقل إلى السرقة الشعرية . وقد راجت

(١ و ٢) الخزانة باب الاقتباس .
(٣) ديوان ابن الوردى ص ١٨١ .

السرقات الشعرية فى عصر المماليك ، ولها حديث طويل تناوله النقاد وليس هذا هذا مجال تفصيله . ولكننا بهذه المناسبة نذكر أن السرقات النثرية لم يعن النقاد بالحديث عنها ولا بجمعها . ونذكر فقط أن القلقشندى عند كلامه عن « حسن الاتباع » أو التقليد ربأ بالكاتب أن يسرق من غيره معناه ولفظه . ولم يمنع أن يأخذ بعض الفقرات ويحور فيها بما يناسب كلامه وما يشعر بذوقه[1] .

هذا ومن غريب ماذكر عن ديوان الفخر بن مكانس ، أن فيه نقداً لرسالة بدر الدين بن الصاحب إليه فى الاستدعاء ، فقد نقدها وبين مافيها من سرقات[2] .

وقد قرأت ديوان الفخر المذكور محاولا أن أفهم هذا النقد وأنقل شيئا منه هنا لطرافة موضوعه . ولكن خطه ردىء جدا فحال ذلك دون بلوغ الأمنية .

التشبيه والمجاز ولا سيما الاستعارة

تحدثنا بافاضة عن هذا المحسن ، وذلك فى الفصل السابق وأوردنا له نماذج عدة فلا داعى للعود إليه ، وحسبنا التنبيه إلى أنه ما من أديب سواء أكان شاعراً أم ناثراً إلا والتشبيه والمجاز دعامة هامة فى أساليبه .

التورية :

هذه الحلية المعنوية ، سبق لنا الحديث عنها بإفاضة وتفصيل عند كلامنا عن ابن حجة فى باب النقد . وعرفنا أنها لفظ له معنيان قريب لا يراد ، وبعيد وهو المراد . وأنه قد يقال لها الإيهام أو التوجيه أو التخيير .

وقد رأينا كيف أعلى ابن حجة من شأنها ورفع من مكانتها ، وتحدث عنها حديث المشغوف بها المتعصب لها المحب لأدبائها . ورأيناه كيف مجد هؤلاء الأدباء من لدن القاضى الفاضل الذى عصر سلافتها لأهل عصره ، واتبعه

---

(١) صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع تأهيل الغريب لابن حجة باب الاستدعاء — مخطوط .

من جاء بعده ، إلى جيل ابن حجة . وأورد أسماء من بينهما أدباء أجادوا التورية وحملوا رايتها ومنهم ابن عبد الظاهر والجمال بن نباتة الذى يعد فى هذا الباب ، الثانى بعد القاضى الفاضل .

وقد نحى ابن حجة عن ميدانها بعض الأدباء ومنهم الشهاب محمود الحلبى ، ورأى أن التورية لم تكن مذهبه . ومنهم الشهاب بن فضل الله الذى جرى فى ميدانها قليلا ، ومنهم الصفى الحلى الذى رضى من الشعر بالساذج المنسجم .

وقد عقبنا هناك على كلام ابن حجة بأنه يمثل عصره فى هذه النزعة تمام التمثيل ، ونحن إنما نقيس عصره على عصرنا ، ونقرن ذوق جيله بذوق جيلنا ، ونحس تماما أن شعبنا اليوم توطدت محبة التورية فى أسلوبه منذ ذلك الزمن البعيد ، وأصبحت أبرز دعائمه الفنية ، وهو يحملها ما شاء من المعانى الخفية ، والدعابات اللطيفة . ورأينا فيما رأينا قصور أدباء العصر الحديث عن السبق فى ميدانها ، وأنهم بذلك فارقوا سمة هامة يتصف بها أسلوب الشعب ، على الرغم من اصطناعهم لها فى حياتهم وجلساتهم الخاصة .

والحق أن التورية ذائعة الوجود منشورة البنود فى أدب عصر المماليك شعره ونثره . وقد وفاها ابن حجة حقها من الحديث فى كتابه . . . « خزانة الأدب » . وله فيها كتاب آخر هو « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » وإليك تعريفا وجيزا به :

كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام :

كتاب ثمين لابن حجة متوسط الحجم يقع فى نحو ١٦٨ صفحة . وقد دفعه إلى تأليفه أنه قرأ كتابى صلاح الصفدى وهما « فض الختام عن التورية والاستخدام » و « جنان الجناس » . . والأول فى التورية والاستخدام . والثانى فى الجناس . وكان الصفدى مولعا بالجناس ولوعا شديداً . فلم يعجب ابن حجة بالكتابين ، ومن ثم ألف كتابه هذا ليبين أهمية التورية ووجاهتها . وكذلك الاستخدام . وقال فى مقدمته :

« إنى رأيت الشيخ صلاح الدين الصفدى — رحمه الله — قد وضع فى هذا الفن كتابا سماه « فض الختام عن التورية والاستخدام » . ولما طالعته ورأيت مسك ختامه لم يتضوع منه رائحة . بل أضاعه من غير تورية ، وترك آرام معانيه مع غير سربها سارحة . وأورد فيه نبذة من مقاطيعه وليس لها بالمراد صلة . فإنه ذكر التورية وما جسر أن يلحق مفردا من مقاطيعه بتلك الجملة » الخ .

ومذهب ابن حجة أن الجناس أحط من التورية ، والتورية فى الذروة من البلاغة . فألف كتابه نقداً لكتاب الصفدى ومبينا سوء رأيه لما فضل الجناس وتعصب له ، ومشيرا إلى ضعفه عن السمو فى سماء التورية .

ولا يخرج حديث ابن حجة فى هذا الكتاب عما ذكره عن التورية والاستخدام والجناس معا فى كتابه « خزانة الأدب » ، غير أنه هنا تكلم عن كثيرين من أدباء التورية وبخاصة الشعراء . وأورد مجاميع حسنة من شعر كل منهم فى التورية ، وهم عشرات من شعراء العصر الأيوبى والمملوكى إلى عهده ، طبقة أثر طبقة . وكذلك ضمنه كثيراً من شعره هو فى التورية . غير أنه قصر فى سوق شواهد النثر ، فلم يورد منها إلا قليلا .

فالكتاب كما ترى ، سجل حافل لعدد من شعراء العصرين ، وجمهرة فريدة من شعرهم وقليل من نثرهم .

وقد تحدث ابن حجة فيه عن التورية فعرفها وبين أقسامها ، وتحدث عن الاستخدام فى إيجاز . فالكتاب فى الواقع استأثرت به التورية أكثر من غيرها ، تفصيلا وتمثيلا .

فض الختام عن التورية والاستخدام (١) :

ولا بأس أن نعرف فى إيجاز أيضاً بكتاب الصفدى « فض الختام » ، وهو

---

(١) فض الختام مخطوط بدار الكتب .

أحد كتابيه اللذين نقدهما وحمل عليهما ابن حجة — وكتاب « فض الختام » متوسط الحجم يقع فى نحو ٨٣ ورقة مكتوبة من الصحفتين .

وقد بدأه بخطبة حمد الله فيها وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام . ثم تحدث عن البديع وبين أنه يرد فى النظم والنثر ، بل ويرد فى كلام العوام . قال:

« فمن البديع ما هو موجود فى الكلام . وارد فى أثناء النثار والنظام . حتى إنه ليختص بالعوام . ويرد فى ألفاظهم من غير قصد ، ورب رمية من غير رام . » . ثم قال :

« ومن البديع ما هو موجود ومفقود . ومقبول ومردود . وهو يوجد أحيانا ويعدم أخرى . ويعطى إنسانا جزعا وآخر درا . ومنه ما هو نادر الوقوع . ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو نوع التورية والاستخدام . الذى تزل فيه أقدام الورود والإقدام . وتقف الأفهام حسرى دون غايته . عن مرامى المرام .

نوع يشق على الغبى وجوده من أى باب جاء يغدو مقفلا
مر الكلام وقد خلا من لفظه لما تخلل فى معانيه حلا

* * *

ثم تكلم الصفدى فى إيجاز عن البديع وروده فى شعر القدامى والمولدين . ثم أشار إلى تنبه المتأخرين إلى محاسن التورية . وعرض لذكر القاضى الفاضل وأنه — فيما يظن — هو الذى ذلل صعابها ومهد شعابها وأنزل الناس رحابها . ثم اتبعه من جاء بعده كابن سناء الملك ثم أبى الحسين الجزار والسراج الوراق وابن النقيب والحمامى .. الخ من أدباء عصر المماليك . وكلما ذكر اسما أورد شيئا من شعره فى التورية .

وقد قسم الكلام عن التورية إلى مقدمتين ونتيجة .

وفى المقدمة الأولى : وهى ذات أربعة فصول وتتمة — تكلم عن اشتقاق التورية ومادتها واختلاف البلغاء فى أصلها ، وفى حقيقتها ورسمها وماهيتها . .

ثم تحدث فى الاستخدام وما يتعلق به . ثم فى نوع من التضمين يجرى مجرى التورية . وهذان الموضوعان من طرائفه .

وفى المقدمة الثانية : وهى أيضا ذات أربعة فصول وتتمة — تحدث عن الاشتراك اللغوى ورسمه وتعدد وقوعه ، وأوهام الشعراء فى التورية . والغلط فى الاشتراك .

أما النتيجة : فقد سجل فيها أمثلة من شعره فى التورية مرتبة على حروف المعجم .

ولم يعن بذكر أمثلة نثرية ، ولو فعل لأجاد وأفاد ولكان لنا منه مدد عظيم فى بابه — هذا وإنما نوهنا به لما ساد النثر والشعر من مذاهب فنية مشتركة .

* * *

والآن نورد أمثلة من توريات الناثرين فى هذا العصر .

فمنه قول جمال الدين بن نباتة من رسالة له يصف :

« كتبها المملوك . ودمع الغيث قد رقا ووجه الأرض قد راق . وقدود الأغصان قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق . وقيان حمائمها قد ترنمت وجذبت القلوب بالأطواق . والورد قد أحمر خده الوسيم . وفكت أزراره من أجياد القضب أنامل النسيم . وخرجت أكفة من أكمامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم[1] » .

فى الكلمات : رقاو الأوراق وجذبت والأطواق، توريات يمكن إجراؤها.

ومنه قوله فى مفتتح رسالته « حظيرة الأنس » :

« الحمد لله حافظ سر الملك بأمينه . وحامى حماه بمن قسم الشكر والأجر بين دنياه ودينه . ومن إذا رفعت راية مجد تلقاها عن آية براعته بيمينه . وإذا امتدت إليه أجياد الممالك حلاها من عقد التدبير بثمينه . وإذا نوى فى السيادة

(١) خزانة الأدب ص ٥١ .

فعلا أمضى العزم السنى قبل دخول سينه . وإذا حمل بنانه القلم روينا عن ابن بحر كتاب بيانه فى الفضل وتبيينه » الخ[١] .

وفى قوله : أمينه . ويمينه . وابن بحر ، توريات .

ومنه قوله فى إجازته للصفدى :

« ولكن تقول الأكابر : والأتباع تبذل من الأجوبة جهدها . وتنفق مما عندها . وتجرد الأمائل سيوف النطق ولا تتعدى الأولياء من الطاعة حدها . ولما كنت أيها الراقم برود هذا السؤال ببيانه . والمنشىء روض هذا الاستدعاء بآثار السحب من بنانه . والسائل الذى هزت المعاطف فضائله . وسحرت أرباب العقول عقائله . وأقام المسئول مقاما ليس هو من أهله فليتق الله سائله . . . » الخ[٢] .

وفى الكلمات : حدها وسائله ، توريتان .

ومن كلام البرهان القيراطى فى رسالة له إلى ابن نباتة قوله :

« يقبل الأرض التى سقت السماء نباتها . وعمر الله بمعانى الحسن أبياتها . — فلا غرو أن فضح بديع الزمان بلفظه البديع . وأزهرت الأوراق بمنثور رسائله التى كل فصل منها ربيع . » الخ[٣] .

وفى قوله : أبياتها ومنثور رسائله توريه .

ومن كلام ابن حجة فى وصف السكين من رسالة له فى ذلك :

« يقبل الأرض التى قامت حدود مكارمها وقطعت عنا مكروه الفقر بمسنون عزائمها . وينهى وصول السكين التى قطع المملوك بها أوصال الجفاء . وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البرد والشفاء . وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام من تعثرها إلى الحفاء . زرقاء كم ظهر للبيض منها ألوان . خرساء ومن العجائب أنها لسان كل عنوان ما شاهدها موسى إلا سجد فى محراب النصاب . وذل بعد أن خضعت له الرءوس والرقاب . كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط . وعلى

---

(١) ثمرات الأوراق .

(٢) راجع إجازة ابن نباته للصفدى بباب الرسائل .

(٣) الخزانة ص ٤٤٨ .

الحقيقة ما رؤى مثلها قط وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا . وحكم بحسن صحبتها قطعا . ماضية العزم . قاطعة السن . فيها حدة الشباب من وجهين . لأنها بالتاب والنصاب معلمة الطرفين الخ »[1] .

وترى ثوريات عدة فى قوله : الحفاء وموسى والرءوس والرقاب وطرف .

* * *

والاستخدام : لون طريف جداً من ألوان البديع وهو حلية معنوية جميلة لربطها بين معنيين وما يتصل بهما فى إيجاز ، مع ما تثيره فى النفس من تأملات ، وتدفع إليه من مقارنات .

وقد سبق لنا نقل تعريفه عن خزانة ابن حجة عند حديثنا عن هذا الناقد . وملخصه أن الاستخدام فيه رأيان : رأى يقول إنه استعمال لفظ بمعنى ، ثم إعادة ضمير عليه بمعنى آخر : أو إعادة ضميرين بمعنيين مختلفين . وهذا هو رأى القزوينى وآخرين .

ورأى يقول إنه استعمال لفظ له معنيان ، ثم استعمال قرينتين معه ، إحداهما يفهم منها أحد المعنيين ، والثانية يفهم منها المعنى الثانى . وهو رأى بدر الدين بن مالك .

والفارق بينه وبين التورية أن التورية يراد معناها البعيد ولا يراد القريب . والاستخدام يراد معنياه — على أى الرأيين .

ويبدو أن هذا التشابه أو التقارب البادى بين التورية والاستخدام ، هو الذى قرنه بها ، وقرنها به إذ أن الفرق بينهما دقيق لا يكاد يلحظ ، ولا يكاد يفطن إليه إلا ذوو الفطر السليمة . وقد قال فيهما الصلاح الصفدى : « ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام الذى تقف الأفهام حسرى دون غايته عند مرامى المرام .

نوع يشق على الغبى وجوده من أى باب جاء يغدو مقفلا[2]

---

(١) الخزانة باب السجع ص ٤٣٢ .

(٢) الخزانة ص ٥٢ باب الاستخدام .

والذى أشعر به أن الاستخدام ذائع الاستعمال بنوعيه فى لغة عوام زماننا وفكاهيهم ، وهو أحد أدلة ذكاء هذا الشعب وحنكته على صوغ معانيه بلباقة تجمع بين الإيجاز والموازنة والدعابة وغيرها .

وهو فى أدب عصر المماليك ذائع فى الشعر ، قليل فى النثر بالنسبة إليه . ومنه قول ابن حجة فى رسالة السكين السابقة :

« كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط ، وعلى الحقيقة ما رؤى مثلها قط . وكم وجد بها الصاحب فى المضايق نفعا . وحكم بحسن صحبتها قطعا . ماضية العزم . قاطعة السن . فيها جدة الشباب من وجهين . لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين » .

والاستخدام واضح فى قوله : قط . فهى تحتمل معنى الفعل قط يقط . ومعنى مطلقا . وكذلك قوله : قطعا فهى تحتمل معنيين : معنى حكم حكما قاطعا . والقطع من قطعت السكين . وماضية بمعنى حادة وذاهبة . وقاطعة تحتمل معنى حادة ومعنى مقطوعة أى مشقوقة ، وذلك على المجاز . وقوله : وجهين بمعنى ناحيتيها أو بمعنى رأيين .

ومنه قول البرهان القيراطى فى رسالته إلى ابن نباتة يمدحه ويصف قصائده :

« وطالما سرح الناظر فى بستانها منظره . ورام ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباتى فوجدها مسكرة »[1] .

وشاهدنا فى قوله « مسكرة » تحتمل أنها من السكر أو السكر ، أى حلوة . وتحتمل أنها من سكر . أو سكر بمعنى غطى أو غشى أو خنق ، والمراد مقفلة . — واللفظ بهذا المعنى — أى مقفلة — مستعمل فى لغتنا العامية حتى اليوم .

* * *

براعة الاستهلال ومراعاة النظير :

يراد ببراعة الاستهلال أن يكون فى مفتتح الرسالة مثلا ألفاظ تنبىء

(١) انظر باب الرسائل الإخوانية .

بموضوعها . وينبغى أن تكون مصوغة بدقة ولباقة تفيض طرافة وحسنا .

وترى أن براعة الاستهلال ذات صلة بمراعاة النظير ، وهى استعمال ألفاظ من واد واحد بينهما جهة جامعة . غير أن مراعاة النظير لا تقتصر على مفتتح الرسائل أو الخطب مثلا . وإنما تمتد إلى غير ذلك من مواضع .

وقد شاع هذان المحسنان فى نثر المماليك شيوعا بارزاً . وعنوا عناية كبرى ببراعة الاستهلال ، عناية قدلا تظفر بها عند سواهم من كتاب العصور السابقة . وهى من العوامل المشوقة التى تشوق السامع إلى حديث محدثه . وتهيء نفسه لتفهم كلامه . فبراعة الاستهلال حينذاك إذا سيقت بلطف كانت من المشهيات إلى الحديث ومواصلته .

ومن براعة الاستهلال قول ابن نباتة — فى مفتتح رسالته فى الموازنة بين القلم والسيف — على لسان القلم : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون » . ثم قال : « الحمد لله الذى علم بالقلم وشرفه بالقسم » .

وقوله فى مفتتح خطبة السيف :

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » . ثم قال : « الحمد لله الذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف . وشرع حدها فى ذوى العصيان فأغصتهم بماء الحتوف »[1] .

وترى فى قوله : شرع حدها استخداما ، بمعنى أشهر أطرافها ، أو سن القصاص بها .

ومن استهلالات ابن حجة قوله فى خطبة كتابه « تأهيل الغريب » :

« الحمد لله الذى هدانا لتأهيل الغريب فأكرمنا مثواه . وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله . فله الحمد على هذه النعمة التى هى عن كثير من الناس بمعزل ، إذ غريب الأدب لم يتأهل بقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » الخ[2] .

---

(١) خزانة الأدب باب براعة الاستهلال .

(٢) مقدمة تأهيل الغريب « مخطوط » .

واستهل القلقشندى خطبة كتابه « صبح الأعشى » بقوله :

« الحمد لله جاعل المرء بأصغريه قلبه ولسانه . والمتكلم بأجلية فصاحته وبيانه . راقم حقائق المعانى بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على ترجمة ما فى الضمائر ، ذاك للأسماع وهذا للأبصار ، الذى حفظ برسوم الخطوط ما تكل الأذهان السليمة عن حفظه . وتبلغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديته بصورة معناه ولفظه » الخ[1] .

وحسبنا ما مر تمثيلا لمراعاة النظير . وإن كانت أعم .

* * *

الجناس :

الجناس وجود لفظين فى الكلام بينهما تشابه فى النطق وتباين فى المعنى . وهو أنواع كثيرة أشهرها الجناس التام والجناس الناقص . والتام ما كان بين اللفظين تشابه فى الحروف وعددها وترتيبها وشكلها . والناقص ما نقص فيه شىء من ذلك .

وقد تكلم ابن حجة على أنواع الجناس وأفاض فى تفصيلها والاستشهاد لها .

وقد ظهر الجناس فى الأساليب العربية مبكراً . إلا أن الأدباء قصدوا إليه وتعمدوه منذ مطالع العصر العباسى .

ومازال الجناس لامع الصفحة بين الأدب العربى شعره ونثره ، حتى أضحى إحدى دعائم الأسلوب فى عصر المماليك .

والجناس حلية لفظية وإذا أتت منقادة للمعنى كان لها وقع لطيف بما تحمله من موسيقى وتجانس وانسجام ، وهذه أمور لها وزنها فى التأثير والإثارة على نحو ما رأينا فى السجع .

وندر أن خلت رسالة أو نحوها مما كتب منشئو العصر المملوكى ، من جناس . غير أن ابن حجة صرح فى خزانة الأدب بأن الجناس نوع ردىء ، وبأنه ليس مذهبه أو مذهب من سبقوه من أدباء التورية كابن نباتة وأنه يفضل عليه التورية

---

(١) راجع خطبة صبح الأعشى ج ١ .

لما فيها من لطائف معنوية . إلا إذا أخرج الجناس مخرج التورية — وقد تحدثنا عن ذلك كله عند كلامنا عن ابن حجة فى باب النقد — ولأجل ذلك حمل ابن حجة على الصلاح الصفدى الذى أغرم بالجناس غراماً لا حدله ، انفرد به بين أدباء هذا العصر حتى ألف فيه كتابه . . « جنان الجناس » الذى تندر عليه ابن نباتة وسماه « جنان الخناس » ...

ويجمل الرأى فى هذا :

١ — أن الجناس كان إحدى دعائم الأسلوب شعراً ونثراً لا يكاد يخلو منه مقال أو قصيدة لأحد أدباء هذا العصر بما فيهم ابن حجة وابن نباتة .

٢ — أن الصفدى تعصب للجناس وأكثر منه فى شعره ونثره . وأن هذا أداه إلى التكلف فثقل ولم يلطف . ولا سيما فى شعره ، وهو فى نثره أخف منه فى شعره .

٣ — وأن الجناس تارة يلطف وتارة يسخف ، ولم يخل من هذه الظاهرة أديب ، أو لا نكاد نستثنى منها أديباً .

* * *

جنان الجناس[1]

وقبل أن نسوق أمثلة على جناسهم ، نعرف فى إيجاز بكتاب الصفدى : « جنان الجناس » .

ونبادر إلى القول بأن هذا الكتاب عنى بالأمثلة الشعرية دون النثرية . ولكننا نرى أنه لا بأس بالحديث عنه نظراً إلى تأثر الشعر والنثر حينذاك بمذاهب مشتركة .

وقد بدأ الصفدى بخطبة لا بأس أيضاً من أن نقتبس منها هذه السطور التالية لما تشير إليه من عناية الأدباء بفن البديع ، قال — وفى عباراته مجانسات متعددة فضلا عما فيها من إصرار على السجع — :

---

(١) هذا كتاب مطبوع .

« فلما كان فن البديع فى الزمن المتأخر أحسن بدعة . وأوضح لمعة . وأملح طلعة . وأكثر رواية وسعة . ولا أقول رياء وسمعة . به تبنى بيوت الشعر فى أشرف بقعة . وتبرز أبكار الأفكار منه فى خلعة بعد خلعة . وإذا كان الشعر بحراً فهو منه أعذب جرعة ، والمكاتبات حلة مرموقة فهو طراز كل رقعة . خصوصاً نوع التجنيس الذى هو ركن شريعته وبيان شرعته . وديباجة صنعائه فى صنعته . وآية سجدته ، وغاية سمعته ، وغياث نجدته ، وغيث نجعته » . إلى أن قال : « أحببت أن أضع فيه ما يشفى الغلة وينفى العلة ، ويوضح سبله بالشواهد والأدلة » . الخ

. وقد قسمه إلى مقدمتين ونتيجة :

المقدمة الأولى : تكلم فيها عن اشتقاق الجناس لغة . وما يستفاد من المعانى بتقديم بعض حروف « ج ن س » على بعض . وذكر تعاريفه وبين الفرق بين المجانسة والمشاكلة والمشابهة والمساواة والموازاة الخ .

المقدمة الثانية : تكلم فيها عن أنواع الجناس وأقسامها ، بطريقة غريبة تشبه الطرق الحسابية . وكلما تكلم عن نوع حدده ومثل له بعدة أمثلة شعرية من نظمه ونظم غيره ، شارحاً وجوه الملاحة فيما يحمل كل مثل من جناس .

أما النتيجة : فهى ثمرة ما تقدم . وقد ضمنها كثيراً مما وقع له من الجناس فى شعره . وتعتبر ديواناً لجناس الصفدى ، وما قاله فى أبواب شعرية عدة ، منها الغزل والوصف والشكوى والحنين والاعتذار والمدح والإهداء وغير ذلك .

وبين هذا الشعر أبيات رقيقة ، ولكن بينها أبيات كثيرة التكلف أيضاً .

ومن قوله فى الغزل :

عاد بعد البعاد عنى وفاء ورعى حرمة الوداد وفاء
بعد ما صدنى عن الوصل ظلماً وتناسى حق الهوى وتناءى

* * *

هذا وقد رأينا أمثلة للجناس فى السطور التى نقلناها عن مقدمة كتاب الصفدى . ومنه مابين لمعة وطلعة ، وبين سعة وسمعة ، وبين شريعته وشرعته وصنعائه وصنعته ، وآية وغاية ، وسجدته وسجعته ، وغياث وغيث ، ونجدته ونجعته ، والغلة والعلة . . الخ .

ومن جناس ابن حجة قوله من رسالة إلى الناصر صاحب اليمن ، عن لسان المؤيد شيخ :

« لازال جناس مجده سعيد الحركة بين اليمن واليمن ، وسيفه اليمانى لم يرض بمجانسة « سيف ذى يزن » والأمة بأحمدها تهنأ بجنات عدن فى عدن . ولا برحت صنائعه بصنعاء مخبرة حتى فى سطور الطروس »[1] .

وترى جناساً بين اليمن واليمن . وعدن وعدن . والسطور والطروس .

ولا بأس من أن نذكر هنا ضرباً من الجناس غريباً ، وهو الجناس الخطى ، وفيه يراعى تشابه كل لفظين متجاورين فى رسم حروفهما . ومن أمثلته الرسالة التوءمية التى كتبها صفى الدين الحلى على نمط مقامة الحريرى التى بدأها بقوله « زينت زينب بقد يقد » . ويفترق حروف كل لفظتين بالإهمال أو الإعجام .

وقد كتب الصفى الحلى رسالته تلك عام ٧٠٠هـ على إثر ذكر مقامة الحريرى فى مجلس المتصور الأرتقى . وقيل إن المتأخرين عجزوا عن هذه الصناعة . فنظم صفى الدين مقامته تلك وأولها :

« قبل قيل يراك ثراك . عبد عند رخاك رجاك . أبى أبى سؤال سواك : أمل أمك رجاء رخاء ، فألفى فألقى جدة جده ، بأعتابك باغياً بك شرفا سرفا لاذ بك لأدبك » الخ[2]

وفيها إسراف كبير فى الصياغة اللفظية طوت بهجة البلاغة وأغاضت ماء رونقها .

* * *

(١) خزانة الأدب ، باب السجع ص ٤٢٦ .

(٢) عن ديوان صفى الدين الحلى ص ٤٨١ .

التوجيه :

يطلقه بعضهم على الإبهام وهو احتمال الكلام معنيين يصح أن يراد أحدهما . ولكن المتأخرين يعرفونه بأن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملته إلى أسماء متلائمة اصطلاحا من أسماء الأعلام أو قواعد العلوم أو غير ذلك مما يتشعب من الفنون ، توجيها مطابقا لمعنى اللفظ الثانى من غير اشتراك حقيقى .

ويفترق التوجيه عن التورية بأن التورية تكون بلفظة مشتركة ، والتوجيه بلفظ مصطلح عليها . وبأن التورية باللفظة الواحدة . والتوجيه لا يصح إلا بألفاظ متلائمة عدة[1] .

وقد لمع هذا النوع فى أساليب الشعراء والكتاب على السواء . غير أن الملحوظ فى النثر أن التوجيه لم يلازم كل رسالة أو مقالة أو خطبة مثلا ، كما لازمها السجع أو الجناس أو الطباق أو التورية أو الاستعارة مثلا ، وإنما لمع فى كثير منها دون الباقى . وكذلك يلاحظ أن التوجيه فى الشعر أكثر وأخف منه فى النثر .

ويرجع سبب ولوع بعضهم به إلى أنهم كانوا علماء فقهاء فى الدين أو مبرزين فى النحو أو غيره . فكان لا بد أن ينضح هذا على إنشائهم . وشأن التوجيه شأن الجناس والسجع ، من ناحية اصطناعه خفيفاً هينا لطيفا ، واصطناعه ثقيلا غثاً متكلفاً .

وليس معنى ما تقدم أن هناك أدباء لم يصطنعوا هذا اللون البديعى ، بل الكل فى ذلك سواء . ولهذا لا نستطيع أن نفرد منهم عددا ونجعل منهم مدرسة تسمى مدرسة «التوجيه» . على أننا بالاستقراء وجدنا — مثلا — أن ابن الوردى والجلال السيوطى من أكثر الأدباء اصطناعا للتوجيه ، وإجازات ابن الوردى ورشف الزلال للسيوطى شاهد على ذلك .

---

(١) راجع خزانة ابن حجة باب التوجيه ص ١٣٥ .

والآن نورد لك أمثلة منه .

قال ابن الوردى — وفيه تكلف — مجيزا بعرض كافية النحو ، وموجها بحروف الهجاء وأسماء بعض الكتب .

« أما بعد حمد الله المقدمة رحمته . الكافية نعمته . حمداً يبلغ به المقرب خلاصة التسهيل . ويمسى به مفصل المجمل وهو بإيضاح العمدة كفيل . والصلاة على نبيه محمد الذى ألف التقوى ولام أهل العدوى . ودال على كل كاف من أهل العناد . وذال إذ قصر ثيابه فطمس عين أهل الشرك وفاء بعين المراد . وباء من إسرائه الشريف بما صاد الأضداد . وشين حاسده بما بان لكل راء فى يس وص صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل من جاهد وصبر ، ما نصب بأن الاسم ورفع الخبر » الخ[1] .

الإبهام :

الإبهام هو أن يقول المتكلم كلاما مبهما يحتمل معنيين متضادين يصح أن يراد أحدهما . وهو قريب الشبه بالتورية والاستخدام والتوجيه ، فكلها ألوان من واد واحد . ولكن بينها دقائق معنوية لطيفة .

والإبهام من أرق وأدق ألوان البديع ، بل من أليق المسالك التعبيرية التى لا يستطيع تصريفها كل كاتب وأديب . وهو أداة الناقد إلى نقده ، ووسيلة المتهكم إلى تهكمه ، والساخر إلى سخريته ، إذا أراد كل منهما أن ينال من خصمه دون أن يكون سافر الوجه بادى الحديث . أو معرضا للأذى أو المؤاخذة . فبه يبلغ ما يريد ويصل إلى ما يهدف ، مستتراً فى إبهامه . هذا كله فضلا عما فيه من طرافة معنوية ومن جمع بين ضدين ومن بعث للفكر على التأمل فى كل معنى على حدة ، وفى المعنيين مجتمعين . وفى المناسبة التى جمعت بينهما ، والظلال الممتدة من هذا الجمع ، ثم فى لباقة الكاتب وقدرته ولطف حسه الذى أداه إلى هذا الإبهام . هذا فضلا عما للإبهام من صلة بالجناس . فإنه يخرجه جناسا معنوياً تاماً .

---

(١) ديوان ابن الوردى ص ١٥٠ .

والإبهام يصلح لأساليب النقد والسياسة والإلغاز والتهكم وما إلى ذلك . ولا سيما إبان الطغيان وخوف البطش وقد شهدناه فيما مر علينا من النماذج ، بين التقاريظ الساخرة ، التي وضعت للمدح في ظاهر أمرها ، وهي تفيض هجوا وذما .

ومنها تقريظ بدر الدين الدماميني لسيرة ابن ناهض الفقاعي التي كتبها في تاريخ المؤيد شيخ ومدحه ، قال : « وأما منشئ السيرة ، فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلا . وماذا أصف وقد حملني العجز عبئا ثقيلا . هو كبير أناس . مزمل من البلاغة بأنواع وأجناس . يأتم به الهداة كأنه علم . وتروم الأدباء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم . له في الأدب صريمة وشهامة . وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سآمة . ما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم . ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم طالما أظهر برغم أنوف الحسدة في المجالس فضله . وصعبت الآداب على غيره ولكنها أصبحت عليه سهلة . » الخ[1]

وإليك بعض الإبهامات في هذه السطور . فمثلا :

(أ) قوله : « وقد رأيت الخطب جليلا : يحتمل أنه رأى عملا عظيما . أو رأى بلوى كبرى .

(ب) قوله وماذا أصف وقد حملني العجز عبئاً ثقيلا . يحتمل أن العجز عجز كاتب السيرة . أو عجز المقرظ عن إيفائه حقه .

(ح) قوله . فيقاسون . يحتمل من القياس ، ويكون المعنى أنهم يقيسون أنفسهم به وأدبهم بأدبه . ويحتمل من المقاساة بدليل قوله : من شدة الألم . ويكون المعنى أنهم يتألمون جداً إذا قيسوا به . . ومن ظرف تعبيره بقوله « يقاسون » أن اللفظة فيها أيضاً استخدام . وكلمة « المقايسة » ترشحها لمعنى ؛ وكلمة « الألم » ترشحها للمعنى الثاني .

---

(١) خزانة الأدب باب الإبهام ص ٧٩ .

(د) وقوله : ماشن فكره غارة : يحتمل المدح بأنه غزا بيوت الشعراء فغلبها . والذم بأنه أغار عليها فسرقها — وفى قوله : ماتم . يحتمل معنين : الأول الذى تم والثانى مأتم بالهمزة — ونظرا إلى جواز إرادة أحد المعنيين خرجت اللفظة عن التورية إلى الإبهام ، وفى الوقت ذاته ، فى اللفظة جناس بين لفظى معنييها . ونعتبره جناسا تاما معنويا .

(هـ) وقوله : فضله : يحتمل معناها الفضل والعلم . ويحتمل الفضلة أى الزيادة التى يصح حذفها .

(و) وقوله . ولكن الآداب أصبحت عليه سهلة . يحتمل أنها سهلت عليه لقدرته وهمته وذكائه . أو سهلت عليه لجرأته وعدم خبرته فاقتحم بابها دون تروٍ ومبالاة . . . الخ .

التلميح :

هو أن يشير المتكلم فى سياق كلامه بلفظ أونحوه إلى حادثة سابقة أوقصة معلومة أو نكتة مشهورة أومثل سائر أو رجل من الأعلام ونحو ذلك . وفى التلميح — ولاريب — طرافة وإيقاظ للفكر وتنبيه له إلى ما سبق من قصص أو نكت أو حوادث مثلا ، وإمتاع له ، للربط بين القديم والحديث ، ولاستعمال المعانى السابقة لإيضاح المعانى الجديدة .

ومنه قول الفخر بن مكانس فى وصف النيل وزيادته ، يخاطب البدر البشتكى :

« فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار . ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم ير منه غير الآثار لبكى بعين عروة » . وهو يشير بذلك إلى عروة بن حزام وهو أحد الشعراء العشاق من بنى عذرة فى عصر بنى أمية وكان يهوى ابنة عمه عفراء .

ومنه قول ابن عبد الظاهر فى وصف الحمائم : « كم أنسى مطارها عدو السلكة والسليك . » يلمح إلى السليك بن سلكة ، وهو ابن يثربى بن سنان بن سلكة وسلكة أمه . وقد كان السليك شاعراً لصاً فتاكا وهو أحد عدائى العرب .

ومنه قول ابن حبيب الحلبى فى نسيم الصبا ، يصف الرياض وجداولها .

« حكت الخنساء لا فى الحزن بل فى الحسن والفخر . ولها عيون تجرى على الديباج لا على صخر » يلمح بذلك إلى قصة الخنساء وبكائها على أخيها صخر فضلا عما فى كلمة « صخر » هنا ، من تورية .

ومنه قول ابن حبيب الحلبي أيضا فى وصف جارية : « يسرح الطرف فى روض جمالها ويتنزه . ويمحو كثير محاسنها البديعة ذكر عزة . فى حليها وحللها تميد وتميل . وبالجملة فهى بثينة الحسن لأن وجهها جميل » . وفيه تلميح إلى كثير ومشوقته عزة وإلى جميل ومحبوبته بثينة .

ومنه قول ابن حجة فى ختام رسالته التى عارض بها القاضى الفاضل فى وصف حمائم الرسائل ، داعيا لصديقه البارزى . « والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع . ولا برح تغريدها مطربا بين البادى والمراجع » وفيه تلميح إلى اسم كتاب للصلاح الصفدى اسمه : « الحان السواجع بين البادى والمراجع »

العكس :

العكس رد آخر الشىء على أوله — كما يقول ابن حجة — وهو لون بديعى زها ولمع فى هذا العصر لمعانا لا بأس به . غير أنه لم يكن دعامة أسلوبية أصيلة ، وإنما بدت كمظهر للترف البديعى .

ومنه قول ابن الوردى من رسالة .

فنسأل الله أجراً بلا بلاء ، ونعوذ بالله من بلاء بلا أجر[1] » .

وقوله : « ولا منعتهم قناطر الملوك إذ صرعتهم ملوك القناطر[2] » .

ويقول ابن دانيال فى خاتمة تمثيليته الثانية من « طيف الخيال » . « فلذلك أختصر من الاعتذار . وأعتذر من الاختصار » .

الإهمال :

ونعنى به استعمال الحروف غير المنقوطة . ولصفى الدين الحلى رسالة مهملة

(١ ، ٢) عن ديوان ابن الوردى ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

أرسلها إلى السلطان الناصر يشكو إليه قطع راتبه الذى خصصه السلطان له حين ذهابه إلى الحج عام ٧٢٣ هـ ، قال منها يمدح السلطان :

« أدام الله دولة الملك العادل العامل الأوحد الكامل مؤمل الآمل . ومآل الأرامل . مالك ملوك الدول . طامس أسماء الكرام الأول . أسد الآساد . ومكمد الحساد . ومورد الوراد . الهمام الأروع . والأسد الأدرع . أسد كل حاسر ومدرع . هادم الأموال وحامل الأهوال . حاطم الأسل الطوال . ملك همه إعمال الصوارم . وإسداء المكارم . واطراح المحارم . ما حلل محارم الله ولا عطل حدود الإله . حلمه مهد أحكام الإسلام . واسمه اسم رسول الملك العلام . ما آداه حمل ملك مصر . ولا حمل طود حلم الأصر . مدحه عطر المسامع ، وإمارة السامع . وعدله حسم المطامع . وإخاء الطامع . حكاه الأسد لولا حراسة طعامه . والمطر لولا إمساك ركامه » الخ[1] .

وترى ما فى الفقرتين الأخيرتين من احتراس لطيف .

هذا ولم يكن الإهمال ذائع الاستعمال فى الرسائل ونحوها . حتى يكون خصوصية أصيلة ودعامة ذات شأن فى الأساليب الإنشائية . على أنه واضح التكلف خارج عن حدود الطبع ومألوف الذوق .

التعليل :

هو أن يدعى لوصف أو نحوه علة أدبية لطيفة تناسبه ، ليست هى علته الحقيقية . وقد فشا هذا التعليل فى نثرهم وازدهر به أسلوبهم ودل على ذوق لطيف وحس شفيف وخيال مبتكر وذهن مقتدر .

ومنه قول الشهاب الحلبى فى وصف الخيل :

« ومن أدهم حالك الأديم . حالى الشكيم . له مقلة غانية وسالفة ريم قد ألبسه الليل برده . وأطلع بين عينيه سعده . يظن من نظر إلى سواد طرته . وبياض حجوله وغرته . أنه توهم النهار نهراً فخاضه . وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة »[2] .

---

(١) ديوان صفى الدين ص ٤٧٩ .

(٢) حسن التوسل ص ١٤٢ .

وحسن التعليل باد فى قوله : « ألبسه الليل برده » فهو يعلل سواده بأن الليل أعاره ثيابه .

وكذلك فى قوله : « توهم النهار نهراً فخاضه . وألقى بين عينيه ... الخ ». وهنا تعليلان لا تعليل واحد ، وكلاهما غاية فى الإبداع ودقة الاختراع ، مع السهولة والوضوح . فهو يعلل وجود الحجول البيض فوق حوافر الأدهم ، ووجود الغرة فى جبهته بأن الأدهم توهم أن النهار نهرٌ وهو تخيل أو توهم لطيف استطاع به الكاتب المتمكن من نقل خيال السامع من جريان الأدهم فى النهار ، إلى تيار النهر يخوضه بأقدامه . فأحاط بياض الماء بحوافره . وطارت رشاشة منه إلى جبهته فتركت به غرة . . .

ومنه قول الشهاب بن فضل الله فى وصف الخمر :

« سعى الساقى بكأسها . وصب الذهب من أكياسها . وفض عنها طينة ختام كانت طابعا لشمها . ودواء مما يخامر العقول من مسها وراضها بالمزاج ولولاه لجمحت . ولاينها بالملاطفة حتى جنحت . . » الخ[1] .

وشاهدنا فى قوله : « وراضها » الخ فإنه يعلل عدم جموح الخمر برياضتها بالمزاج . ويعلل جنوحها بملاينتها وملاطفتها .

وقد مرت علينا تعليلات كثيرة غير هذه .

حسن الختام :

هذه حلية تقابل براعة الاستهلال أو حسن الابتداء . وهو ذكر كلام فى آخر الرسالة أو نحوها يشعر بالانتهاء منها . وهذه ظاهرة لا تكاد تخلو منها رسالة أو مقالة أو نحوها .

وختم ابن الوردى رسالته التى شكر فيها أحد أصدقائه على إهدائه صقرين إليه ، فقال :

---

(١) التعريف ص ٢١٦.

« ومن كرامات مولانا أنه أصبح جابراً بكاسرين . مرحبا برسوله الذى إن قدم رسول بأيمن طائر ، فقد قدم هو بأيمن طائرين » .

ومنه قول الصفدى فى نهاية رسالة يهنىء بها :

« وما تم غير صفح مولانا الجميل . والله يبلغه من الأمانى نهاية التأميل . بمنه وكرمه » .

وختم ابن حجة بشارته بوفاء النيل بقوله على لسان المؤيد إلى أحد الأمراء :

« والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها فى كل وقت مشنفا . ولا برح فى نيلنا المبارك وإنعامنا الشريف على كلا الحالين فى وفا » .

ونظرة عجلى إلى ما سطرناه من نماذج مختلفة فى الأبواب السابقة تبين لك ضروبا من حسن الختام .

الفصل الرابع

٤ ـ خصائص أخرى

نتحدث فى هذا الفصل عن جملة من الخصائص الأخرى التى بدت فى النثر ، رأينا أن نجمعها فيه ، ونتحدث عن كل منها فى إيجاز شديد معتمدين غالباً على ماسبق لنا التمثيل به من الشواهد والنماذج . وفى الإيجاز هنا ـ كما نشعر ـ غنية عن التفصيل .

فمنها :

الأغراض الشعرية :

ونعنى بذلك أن النثر طرق جملة من الأغراض التى هى من صميم أغراض الشعر ، وذلك كالمدح والغزل والوصف والمجون .

وطوراً تكون هذه الأغراض رئيسية تدبج لها المقالة أو الرسالة مثلا ، وطوراً تكون تابعة تتراءى بين السطور .

فالمدح رأيناه فى الرسائل الإخوانية . كما رأيناه باديا فى بعض ألوان وفى الرسائل الديوانية الرسائل الإخوانية الأخرى التى كتبت فى الشكر والشوق والتهنئة وغيرها ، ولا سيما التقاليد .

والوصف قد عقدنا له بابا مستقلا ، فضلا عن بدوه فى خلال نماذج الأبواب الأخرى . وقد وصفوا مناظر الطبيعة والرياض والجداول والأشجار والنيل ووصفوا الغزوات والحروب ، والأدوات والحيوانات المحيطة بهم ، ومنها السيف والقلم والسكين والرمح والسيف ومنها الخيل والحمام والظبى والحمار الوحشى[1] كما وصفوا الحوادث العامة كالحريق والزلزال والأوبئة المنتشرة . ووصفوا الرحلات .. إلى غير ذلك .

---

(١) راجع التعريف بالمصطلح الشريف .

والغزل والمجون وقد شاهدناهما فى بعض الاستدعاءات وبعض المقامات والقصص كمقامة الصفدى وطيف الخيال .

الاستشهاد بالأبيات الشعرية :

ونعنى بذلك سوق الأبيات الشعرية المناسبة على سبيل الاستشهاد وإكمال النثر ، وإيصال بعضه بالبعض الآخر — وليس هذا على سبيل التضمين . بل كثيراً ما تكون الأبيات فى مفتتح الرسائل — ولاسيما الإخوانيات ورسائل الوصف — كما أنها تتخللها وتفصل بين سطورها ، كما أن الغالب أنها من نظم الكاتب نفسه ، وليست مستعارة من شعر سواه .

الميل إلى الإطالة :

هذه خصوصية لا تكاد تفارق مقالة أو رسالة أو غيرها . والرسائل الموجزة نادرة الوجود . وقد نوهنا فى سياق بحثنا عند الحديث عن بعض الرسائل مثلا ، بمقدار سطورها أو عدد صفحاتها ، ومن ذلك على سبيل التمثيل : رسالة محيي الدين بن عبد الظاهر التى عارض بها القاضى الفاضل ، فقد بلغ عدد سطورها ٩٨٥ سطراً . وكذلك نصيحة ابن تيمية التى بعثها إلى ملك قبرص فإنها بلغت نحو ٢٢ صفحة ، وهكذا .

ولم يكن طول الرسائل معتمداً على التكرار والترادف دائماً وإنما هو فى كثير أمره مبنى على تجديد المعنى وطول الفكرة ، واستقصاء أجزائها .

الفكاهة :

وترى هذه الخصوصية ماثلة فيما كتبوه من المجونيات والاستدعاءات وبعض المقامات والقصص ومنها طيف الخيال ، وفى التقاريظ المبهمة . وليست الفكاهة عنصراً أو صفة أساسية بادية فى كل رسالة ومقالة مثلا ، ولكن ألواناً من الرسائل أو المقالات ، بطبيعة موضوعها ، تدفع إلى التفكه ، أو أن الرغبة فى التفكه تدفع إليه .

والتفكه إنما تدعو إليه الرغبة فى التسلية ودفع السآمة والملل ، ورفع كابوس الهم والحزن ، والخلو إلى النفس إبعاداً لها عن مشاغل الحياة الثقيلة . وإطلاقا لها من أسر الجد .

على أن كثيراً من أدباء العصر — على مانرى — كان كثير الفراغ ، وكثرة الفراغ تدفع إلى اللهو والفكاهة ، ولكن مع هذا نرى أن نتاجهم فى هذا الباب لا يناسب ما كان لديهم من الفراغ . ولعل سبب ذلك ارتباط كثيرين منهم بالكتابة فى الديوان ، فأخذوا أنفسهم بقيود الجد .

على أن الشعراء منهم كانوا أكثر إقداماً على الشعر الفكاهى فأتوا فى بابه بالسائغ الممتع واللذيذ الرائع ، ومنهم الجزار والوراق وابن مكانس فخر الدين وابن دانيال الموصلى ، وابن أبى حجلة المغربى .

وقد عاونهم فى هذا الباب اصطناع التورية والاستخدام والإبهام والاستعارة ، ونحو ذلك من كل لون يحتمل معنيين .

السهولة والوضوح :

على الرغم من هذه القيود التى رأيناها والقواعد الفنية والدعائم الأسلوبية التى شاهدناها فى أساليب كتاب هذا العصر ، نرى خصوصية بارزة للعيان يشهد بها الذوق السليم العادل . وتلك هى السهولة والوضوح البادیان على عباراتهم ، رغم هذه القيود التى من شأنها أن تئود الأسلوب أو تصيبه بشىء من التعقيد ، ولا سيما إذا اجتمع منها فى العبارة أكثر من قيد أو أكثر من خصوصية . بدت أساليبهم إذاً — فى أغلبها — سهلة اللفظ واضحة التركيب بارزة المعانى سافرة الفكرة ، مما يدل على ذوق سمح وفطرة مواتية وخاطر لطيف ونفس مطبوعة على الأدب .

ونحن لا ندعى ، ولا نزعم أن كل الكتاب سلموا من التعقيد والغموض ، ولا كل كاتب على حدة سلم كل ما كتبه من التعقيد والغموض والثقل . هذا لم يحدث فى أى عصر من عصور الكتابة . ولكن الصبغة الغالبة على كتابتهم فى

العصر الذى نحن بصدده ، هى السهولة والوضوح . وهما صفتان مكتسبتان من سهولة البيئة ووضوح أجزائها وقلة تعقيد تضاريسها وجوها، بل من اعتدال هذا الجو وتماثل هذه التضاريس فى جملتها . هذا فضلا عن لون الثقافة التى تثقفوا بها فإنها كانت بعيدة عن الغوص وراء المغيبات ، والبحث فيما وراء الطبيعة والنظر فى الفلسفات والتعلق بالمعقولات على نحو مابينا فيما سلف عند الحديث عن البيئات .

ولعل مما عاونهم على بلوغ غايتهم فى السهولة والوضوح أن ألوانهم البديعية صرفوها — أكثر ما صرفوها — إلى خدمة المعانى وإيضاحها ومداعبة الأذهان بها ومعابثة النفوس فى ظلالها . . فلم تكن إذن صناعة لفظية ولم تكن عبثا بالألفاظ والحروف — كما يزعم الزاعمون .

ويضاف إلى ذلك أيضا أن الموضوعات التى كانوا يجولون فيها والحقائق التى كانوا يصورونها أو يعبرون عن خباياها لم تكن وعرة أو متعاصية أو مما يتطلب برهنة معقدة أو شرحاً علمياً تتضارب فيه الحجج أو تتزاحم الآراء .

ولم يكثروا من التقديم والتأخير إلا بمقدار يسير على طاقة ما تساق سجعة أو يتسق جناس مثلا ، ولم يغرموا بالكنايات ولا سيما الغريب البعيد منها ، الكثير اللوازم العسير خطورة فى الأذهان .

ويبدو أن الكناية تحتاج إلى خاطر عميق النظرة دقيق الربط له حيلة على استنباط اللوازم وحسن الانتقال بها فى حكمة وكياسة حتى يصوغ الكناية مستوفاة لامعة . وهذه طريقة فى التعبير تتجافى مع البيئات السهلة الواضحة ومع خواطر أدبائها .

وهم بلاريب — فى ميدان السهولة والوضوح درجات وطبقات . فمثلا ترى الشهاب الحلبى وابن عبد الظاهر وابن فضل الله وابن نباتة ، أجزل عبارة وأجمل تراكيب وألطف ألفاظا وأوضح معانى — على الرغم من دقتها وقوتها — من أمثال ابن حجة والصفدى . وهكذا .

فمن رقيق قول الحلبى فى رسالة أنشأها عن سلطانه جوابا على مراسلة لابن الأحمر صاحب غرناطة ، قوله مثنيا على ابن الأحمر .

« ونهدى إليه ثناء تعبق بنشر الرياض خمائله وتنطق بمحض الوداد مخايله . ويشرق فى أفق مفاخره غدواته وأصائله . يشافه مجده بمصونه . ويطارح فخره بمكنونه . ويجلو على حضرته العلية عقائل الشرف من أبكار الهناء وعونه »[1] .

ومنه قوله فى وصف الرياضة والصيد ، من رسالة :

« الرياضة — أطال الله بقاء الجناب الفلانى ، وجعل حبه لقلب عدوه واجبا . وسعده كوصف عبده للمسار جالبا — تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون . وتصونها عن مشابهة الحمائم فى الركون . وتحضها على أخذ حظها من كل فن حسن . وتحثها على إضافة الأدوات الكاملة اللسن . وتأخذ بها طورا فى الجد وطورا فى اللعب . وتصرفها فى ملاذ السمو فى المشاق التى يستروح إليها التعب . فتارة تحمل الأكابر والعظماء فى طلب الصيد ، على مواصلة السرى . ومقاطعة الكرى . ومهاجرة الأوطار . ومهاجمة الأخطار . ومكابدة الهواجر . ومبادرة الأوابد التى لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر » الخ[2]

ومن كلام محيي الدين بن عبد الظاهر ورقيقه وواضحه ومؤثره ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد به على صاحب اليمن عندما عزاه عن موت ابنه ، ويظهر تجلده على فقده . وقوله :

ولنا — والشكر لله — صبر جميل لا نأسف معه على فائت ولا نأسى على مفقود . وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه . والاستكانة إلى عطائه . عوض كل يوم ما يقول المبشر به هذا مولى مولود . وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لا يبالى بالصدمات كثرت أو قلت . ولا بالتباريح حقرت أو جلت ولا بالأزمات إن هى توالت أو تولت . » الخ[3] .

ومن كلام الشهاب بن فضل الله يصف البرق :

« البرق قد نبض عرقه . ووضح بين جمة الليل السوداء فرقه . وعلقت منه سلاسل من ذهب . وأوقدت مجامر من لهب . ولم يظن إلا أن أشهب الصباح قد ركض فى أدهم الليل . أو أن عمودا من فضة قد تحدر فى صبب السيل . »[4] .

(١ ، ٢) حسن التوسل ص ١٣٦ ، ١٤٨ على الترتيب .

(٣) المفصل .

(٤) التعريف ص ٢٣٩ .

ومن قوله أيضاً يصف الكركى :

« انسل من خيطه . وأقبل يستن فى شوطه . كأنما جللته السماء بردائها . أوكسته لون الماء من تساقط أندائها . قد شف لوناً عن العنبر الورد . وزين الأفق لما علق فى شفتيه بذهب ولا زورد؛ فعاجله الرامى فى تعرضه . وعالجه ببندقة خر لديها ، وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه[1] » .

ائتلاف الأسلوب مع الموضوع :

لكل موضوع أسلوب يناسبه ، وطرق ، بل وألفاظ تستخدم للتعبير عنه وبيان مراميه . ويتسق جرسها ويلتئم وقعها مع معانيه . فما يناسب الغزل من الأساليب والألفاظ ، لا يناسب وصف الحروب مثلا . فهناك يطلب الرقيق العذب ، وهنا يساق الخشن الصلب . وما يناسب الفخر والحماسة ، لا يناسب الشكوى مثلا . فالأولى تتطلب الجزل الطنان ، والثانى تنشد اللين الأنان .

على أن القدماء قالوا : « لكل مقام مقال » ، فطوراً يستجاد الإيجاز ، وطوراً يروق الإطناب . وتارة يحلو التهويل والمبالغة ، وتارة يلذ هدوء اللفظ وسكينة التركيب . وهكذا .

وإنما يفطن الذوق إلى المناسب ، إذا لطف . ويقع الخاطر على اللائق إذا حصف . فيجيد الاختيار ، ويحسنه . ويهذب الأسلوب ويتقنه ، حتى يفى الكلام بالمرام . ويبلغ القول إلى الأهداف .

وهذه خصوصية أدبية يكتسبها الأديب بالدأب والمرانة . وأخذ النفس بألوان التدريب والتهذيب والتنبه الدائم إلى اللائق من اللفظ والمناسب من الكلم .

وإذا اكتملت للأديب هذه الخصوصية وانطبعت عليها ملكته . جرت منه

---

(١) التعريف ص ٢٢٩ ، ٢٣٩ على الترتيب . وقوله : « عالجه ببندقة » ، وهى فى الأصل : عاجله ، فرجحنا عالجه جريا مع أسلوب العصر ولئلا تتكرر اللفظة فى القرينتين المتتاليتين بمعنى واحد .

فى النهاية مجرى الغريزة ، وانطلق لسانه وقلمه يفيضان بالمعجب الرائع ، والمطرب السائغ ، من الأساليب والتراكيب التى توحى بموضوعاتها قبل سفور معانيها وظهور مراميها .

وهذه إحدى خصوصيات كتاب عصر المماليك .

* * *

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أن هذه الخصوصية الأدبية أشار إليها بعض النقاد القدامى كقدامة والآمدى . غير أنهم لم يوفوها حقها من البحث والتفصيل والتدليل . ويبدو أن النقد الحديث أخذ يتجه — فيما يتجه إليه — إلى توفيتها حقها من البيان .

ونحب أن نذكر بهذه المناسبة بعض آراء الشهاب الحلبى أحد نقاد عصر المماليك ، التى بها يوصى الكتاب بأمور ينبغى أن يراعوها حين تصديهم للكتابة وتدبيج الرسائل ، ويضع لهم بذلك قواعد ذوقية تدل على الاتجاه الذوقى فى عصره ، وهى وإن دلت على ذوق أهل الديوان ، تدل تبعاً لهم على ذوق غيرهم أو ترسم لهم منهاج الكتابة . وكل هذه الأمور أو التعليمات تدور حول ائتلاف الأسلوب مع الموضوع . وقد سبق لنا أن لخصناها عند حديثنا عن الحلبى فى باب النقد ولا بأس من أن نشير إليها هنا إشارة عابرة فمنها بإيجاز :

١ — إذا كتب المنشىء عن السلطان إلى نوابه وقادته وقت الحرب فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد . ولا يهول شأن العدو .

٢ — وإذا كتب عنه وقت حركات العدو ، إلى أهل الثغور ، فليبسط القول فى وصف العزائم ويثير الحمية للدين ويبسط الآمال . ويبرز ذلك فى أبين كلام وأجله وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده عن اللين والرأفة .

٣ — وإذا كتب فى الفتوح والتهانى بها فليبسط القول ويطنب فى شكر الله وتعظيم ما يسر من الفتح . وإذا اتسع المقام لوصف الواقعة ومناجزاتها كان ذلك أفضل .

٤ — وإذا كتب فى تقريع متهم بمماألاة العدو ساق ألوان التوبيخ والتهكم والتهديد ، وذكر ذلك فى معرض الأخبار .

٥ — وإذا تصدى لوصف الخيل أو الجوارح والسلاح وآلات الحرب ووصف الحصون والجيوش الخ فليبسط الكلام .

٦ — وإذا كتب التقاليد والتواقيع ونحوها بسط الكلام حسب أهمية المكتوب له .

٧ — ويتبع فى الكتب الإخوانية ما يتبع فى سواها .

* * *

هذا ولنا ملحوظتان عابرتان أولاهما أن الحلبى تكلم عن الإيجاز وأنه مستحسن إذا كتب الكاتب عن السلطان إلى نوابه وقادته وقت الحرب . . . ونقول إن الإيجاز لم يبد فى أية رسالة عثرنا عليها فى هذا العصر ، على أننا نقول إن الإيجاز عندهم نادر . وسبقت لنا إلى ذلك إشارة .

ثانيتهما : أن الشهاب بن فضل الله قد أورد فى كتابه « التعريف » وجازات كثيرة العدد فى وصف أشياء لاعدد لها من ألوان الخيل والطير والجوارح وآلات الحرب والصيد والركوب والغناء ، وفى وصف الرياح والأنواء إلى غير ذلك . ويصف كلا منها فى سطور قليلة قد تبلغ أحيانا سطرين أو ثلاثة . وليس فى هذا دليل على رغبته أو رغبتهم فى الإيجاز . وإنما كتب الشهاب هذه الوجازات نماذج للمنشئين ينسجون على منوالها ، ولم يكتبها فى مناسبة رسمية أو إخوانية . فليست حجة إذن .

* * *

ولسنا فى حاجة إلى إيراد نماذج ندلل بها على رعايتهم ائتلاف الأسلوب مع الموضوع . فحسب القارئ أن يقلب صفحات الأبواب السابقة ليحكم معنا بما ذهبنا إليه . وليقارن مثلا بين رسالة فى وصف الغزو ، ومقامة فى وصف لقاء معشوق . أو رسالة فى وصف الخيل ، ونصيحة بذلت لسلطان . وهكذا .

الفصل الخامس

٥ — اللوازم الديوانية وما يشبهها

نعنى باللوازم الديوانية جملة من الألفاظ أو التراكيب التى اعتاد الكتاب الرسميون التزامها فى مكاتباتهم الديوانية ، لا يكادون يفارقونها . ولكل منها فى المكاتبة موضع خاص . ويغلب التزامها كذلك فى المكاتبات غير الديوانية تشبها بالديوانية ، إذ كانت أساليبهما تجرى فى الغالب على نمط واحد . على أن من الإخوانيات لم يلتزمها .

ولكل أمة فى كل عصر ، على وجه الإجمال، مثل تلك اللوازم والشكليات التى يضعها الكتاب أو يقترحها الرؤساء أو يأمر بها الملوك والسلاطين ، وكأنما هى التى تسبغ على مكاتباتهم السمة الرسمية .

* * *

وما أحق عصر المماليك بأن يكون عصر اللوازم والشكليات . فسلاطينه أعاجم يعجبهم الإطراء والمدح، وتغريهم الألقاب والأدعية، وتروقهم الملتزمات الخطية والإنشائية ، كأنما يجدون فى ذلك كله مكملا للفخامة والعظمة ، ومظهراً متمماً للرياسة والإمارة .

ولا نحاول هنا استقصاء هذه اللوازم ، فهى كثيرة متنوعة . وقد كفل بيانها كتابا « التعريف بالمصطلح الشريف » لابن فضل الله . و « صبح الأعشى » للقلقشندى . وقد أسهب الأخير فى بيانها إسهاباً لا يكاد يترك زيادة لمستزيد .

ونحن نعتمد على هذين المصدرين - ومؤلفاهما من كتاب الدواوين فى ذلك العصر — مضيفين إلى ذلك ما لاحظناه منها فى الرسائل المتعددة . مكتفين بذكر البعض دون الكل. فان نتتبع جزئياتها ، إذ غرضنا أن نذكر منها ما يرسم لنا صورة عامة مما كان متبعاً حينذاك .

* * *

صور البدء :

ونعنى بها ابتداءات الرسائل ونحوها من مقالات وخطب كتب مثلا ، وموازنات . وتبدأ عادة بحمد الله والثناء عليه ، وذكر الشهادتين ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم .

ويراعى فى العبارات المسوقة فى خلال ذلك ماسبقت إليه الإشارة من براعة الاستهلال ورعاية النظير . وذلك بأن تكون الألفاظ والمعانى متفقة مع الغرض من الرسالة ، مشيرة من طرف خفى إلى موضوعها .

ومن ذلك خطبة ابن حجة فى مفتتح رسالته «مجرى السوابق» وهى فى وصف الخيل ، قال :

« الحمد لله الذى يقف عند سوابق فضله كل جواد . ويقصر فى حلبة هذا الكرم الذى ليس له غاية فى بديع الاستطراد . فمن ألهمه الحزم وأرشده إلى حد المعرفة حاز قصبات السبق ولا نقول : كاد . نحمده على أن جعل لنا الخير معقوداً بنواصى الخيل . ونشكره شكرا نعلو به على أشهب الصبح ونمتطى أدهم الليل . » . . الخ[1] .

ومن ذلك أيضاً افتتاح عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى إلى ولده المستكفى بولاية الخلافة من بعده ، قال :

« الحمد لله الذى رفع المستكفى به ، لما انتصب بشريف همته للمحل الأسمى . ومنح الأمة به ربيع خفض العيش وجزم أمرهم على الصلاح والتوفيق جزماً . وأدام الأئمة من قريش ونظم لآلىء حكم أحكامهم فى جيد الزمان نظما . » الخ ... [2]

هذا وربما بدئت الرسالة قبل الحمد ، بالبسملة . ثم يقال « من فلان إلى فلان » أو « إلى فلان من فلان » . ويذكران من الأدنى إلى الأعلى .

---

(١) راجع مجرى السوابق فى « كتاب » « قهوة الإنشاء » لابن حجة . مخطوط .

(٢) راجع باب الرسائل — العهود والمبايعات .

وربما افتتحت الرسائل — وبخاصة ما كان منها مرفوعاً إلى الخليفة أو السلطان — بالدعاء مباشرة . كقول ابن فضل الله .

« أدام الله أيام الديوان العزيز . ولازالت سيوف أوليائه فى رقاب أعدائه محكمة . وصنوف الكفار فى أيدى عسكره الجرار بالنهاب مقسمة »[1] .

وقوله : « أدام الله سلطان الديوان العزيز ولازالت الخلائق بكرمه ضيفة . والكتائب فى هجير وطيسه مصيفة . والأيام فى نصر أنصاره مصنفة . والمواضى بأوامره فى قبضات عساكره مصرفة »[2] .

وبعد الحمد أو الدعاء يقال مثلا : « يقبل المملوك الأرض » أو « يقبل العبد الأرض » . ويتلو ذلك عبارات المدح والإطراء على المرسل إليه . ثم يذكر الغرض مصدراً بكلمة « ننهى » أو « نبدى » أو « وبعد » .

ويقال بدلها فى « المراسيم » مثلا : « رسم بالأمر الشريف » . وفى « المناشير » صدر الأمر الشريف أو العالى . وقد يقال : « صدرت المكاتبة » . وقد تفتتح رسائل السلطان بقوله : « من السلطان الأعظم الملك العالم .. الخ » — وقد تفتتح العهود بقوله : « هذا ما عهد به عبد الله ووليه « فلان » إلى « فلان » الخ .

وقد يتردد لفظ « المولى » أو « مولانا » خطاباً للمرسل إليه ، فى مفتتح الرسالة أو بين سطورها .

ولا يذكر اسمه فى غير المكاتبات السلطانية تعظيما له . ويكتفى بلقبه أو كنيته لأنهما من قبيل التعظيم .

هذا ومن رأى الشهاب الحلبى إطالة التحميدات . ومن رأى ابن فضل الله اختصارها ثم الإطالة فى الوصية أو المدح أو نحوهما من الأغراض غير الأساسية فى الرسالة[3] .

والرسائل الإخوانية تسير وفق المراسلات الديوانية ونظمها . ويبدو أنها لما تتمتع به من حرية كانت أقل التزاما لهذه الرسوم .

(١ ، ٢) التعريف ص ٥ ، ٧ . (٣) التعريف ص ٨٨ .

ومما يتصل بصور البدء : ألفاظ الخطاب . وقد قلنا إن المرسل إليه تعظيما له لا يذكر اسمه فى غير المكاتبات السلطانية .

وقد حل محل الاسم — فضلا عن اللقب والكنية — تراكيب أو ألفاظ اختص كل لون من الرجال بلون منها .

فمما يخاطب به الخليفة بدل اسمه : الأبواب الشريفة الخليفية : الديوان العزيز . وتخاطب بلفظ « أدام الله أيام الديوان العزيز » أو « أدام الله سلطان الديوان العزيز » . أو « خلد الله سلطان الديوان العزيز » .

ومما يخاطب به ولاة عهود الخلافة : الجانب الشريف . فيقال : « ضاعف الله جلال الجانب الشريف » و « أعز الله أنصار الجانب الشريف » .

ومما يخاطب به السلطان : المقام العالى . والمقام الشريف . والسلطان الأعظم وقسيم أمير المؤمنين[1] .

ومما يخاطب به ولى عهد السلطنة : أنصار المقام . فيقال : « أعز الله أنصار المقام العالى » .

ومما يخاطب به أمير مكة : « المجلس العالى » . فيقال : « أدام الله نعمة المجلس العالى » .

ومما يخاطب به نائب الشام : الجناب . فيقال : « أعز الله أنصار الجناب الكريم العالى » .

ومما يخاطب به نائب السلطنة : الحضرة وأنصار الجناب . فيقال : « أعز الله أنصار الجناب الكريم العالى[2] » .

ومما يخاطب به أهل الصلاح كالقضاة : المجلس السامى الشيخى . أو المجلس السامى الشيخ . وحضرة الشيخ[3] » .

* * *

(١) لعل من الطريف أن نذكر ما رواه ابن إياس فى البدائع ج ٤ حوادث عام ٩٢١ هـ . وهو أن السلطان سليما أرسل مكاتبة إلى الغورى وخاطبه بالمقام العالى . وقال عن نفسه « المقام الشريف » فعد ذلك استخفافا .

(٢) التعريف ص ١٧ وما بعدها إلى ٦٦ .

(٣) التعريف ص ٧٦ .

الأدعية :

وهذه لازمة ندر أن خلت منها رسالة فى أى موضوع . وأكثر ما تظهر الأدعية للمرسل إليه فى مفتتح الرسالة وقبل بيان الغرض منها . وربما جاءت بعد مدح المرسل إليه .

والأدعية متنوعة كثيرة ، وتختلف باختلاف المقامات والمخاطبين وولاياتهم وأعمالهم .

فمما يقال للخليفة مثلا — عدا ما سبق :

« لا زالت آياته محفوظة . ورياته بالنصر محظوظة . وأعداؤه بمصارع بعضها بعضاً موعوظة ولابرح شعاره المرقوم أشرف مادارت عليه المحاجر . ورعبه المعلوم أفتك مما صالت به الخناجر » الخ[1] .

ومما يدعى به لإمام اليمن مثلا :

« لا زال زمانه مربعا ، وغيله مسبغاً ، وقراه مشبعاً ، وكرمه بفيض نداه منبعاً ، وهداه حيث أم بالصفوف متبعا ، وملكه المجتمع باليمن لو أدركه سيف ابن ذى يزن ، لم يكن إلا لديه منتضى ، وتبع لم يكن له إلا تبعاً » الخ[2]

ومما يدعى به لنائب الشام مثلا : « ضاعف الله نعمة الجناب العالى » ، و « لا زالت الدول برأيه مقبلة السعود ، مترقية فى الصعود ، مملوءة الرحاب تارة ببعث البعوث وتارة بوفادة الوفود »[3] .

ومما يدعى به لنائب السلطنة مثلا : « أعز الله أنصار الجناب الكريم العالى » و « لا زالت الممالك كلها فى كفالته . والمسالك على اختلاف طرقها آيلة إلى إيالته . والملائكة محومة على بنوده محتفة بهالته »[4]

ولم تقف الأدعية فى الرسائل عند هذا الحد ، بل كثيراً ما تعددت

---

(١) التعريف ص ٦

(٢) التعريف ص ١٤ .

(٣) التعريف ص ٦٨

(٤) التعريف ص ٦٦ .

سطورها وتكررت عباراتها . وقد أورد ابن فضل الله فى كتابه « التعريف » ألوانا من هذه الأدعية نصبها نماذج للكتاب ليحذوا حذوها .

وقد سجل الجلال السيوطى فى كتابه « الكنز المدفون » جملة من هذه الأدعية اخترعها وجعلها أيضاً قدوة لمن يقتدى . وقال عنها إنها نماذج من الأدعية التى تقال فى المراسلات عقب المدح بحسب حال الممدوح سواء أكان واليا أم أميرا أم قاضياً . . . الخ . ومنها :

« لازالت السعادة تضرب عليه خيامها ، والرياسة تسلم إليه زمامها . ثبت الله قواعد مجده ، وجدد أوقات سعده . أدام الله سعادته ، وضاعف نعمته وأعلى كلمته ، وكبت أعداءه وحسدته . أدام الله سعادته وجددها ، وثبت نعمته وخلدها ، وفرق جموع أعدائه وبددها — لازالت صدقاته مساعفة . ومكارمه تعود على أصحابه بكل عارفة . ولا زال يولى المعروف ، ويأخذ بيد الملهوف . لا زال يقلد الأعناق مننا ، ويدخر عند الله أجراً حسنا . »[1] .

* * *

المدح والألقاب والأوصاف :

ومن المعتاد إسباغ آيات الحمد والإطراء على المرسل إليه — ولا سيما إذا كان تابعاً أو صديقاً أو وليا أو حميما — أو إظهار مفاخر السلطان له وإبداء نعم الله الكثيرة التى تتابعت عليه .

فمن المدح ماجاء على لسان الظاهر بيبرس إلى بيموند أمير الصليبيين بالشام :

« قد علم القومص الجليل المبجل . المعزز الهمام ، الأسد الضرغام ، بيمند فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية . كبير الأمة العيسوية . ألهمه الله رشده . وقرن بالخير قصده » الخ[2] .

ومن الفخر ما جاء على لسان السلطان ، بقلم الحلبى فى رسالة إلى متملك سيس يقره على ملكه .

---

(١) الكنز المدفون ص ١٣ .

(٢) انظر باب الرسائل ؛ فصل الرسائل الديوانية .

« فإنه لما آتانا الله ملك البسيطة ، وجعل دعوتنا بأعنة ممالك الأقطار محيطة . ومكن لنا فى الأرض ، وأنهضنا من الجهاد فى سبيله بالسنة والفرض ، وجعل كل يوم تعرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض . وأظلتنا بوادر الفتوح . وأطلت على الأعداء سيوفنا التى هى على من كفر بالله وكفر بالنعمة دعوة نوح » الخ [1].

ومن ألوان المدح : الألقاب والأوصاف .

أما الألقاب : فقد تنوعت وأصبح لكل مقام نوع منها . وقد نوهنا بشىء منها عند الحديث عن صور البدء والأدعية . فمنها : « الديوان العزيز » للخليفة و « الجانب الشريف » لولى عهده . و « المقام العالى » للسلطان . وولى عهده و « المجلس العالى » لأمير مكة . و « الجناب الكريم » لنائب الشام ، و « الحضرة ، والجناب الكريم العالى » لنائب السلطنة وهكذا [2] .

وبمناسبة الحديث عن الألقاب نذكر أنه ما من شخص حينذاك إلا اتخذ لنفسه لقباً وكنية بجوار اسمه . وصارت هذه التسميات لوازم لا محيد عنها . ترى ذلك ماثلا بوضوح فى كتب التراجم . ومثال ذلك : أبو اسحاق برهان الدين ابراهيم . وأبو الفضل شهاب الدين أحمد . وهلم جرا .

وكثيراً ما عرف الرجل بلقبه دون اسمه وكنيته ومثال ذلك : تقى الدين السبكى . وربما عرف بكنيته مثل : « أبو الفداء » . وربما عرف بأبيه وجده مثل : ابن خلكان وابن خلدون . وربما عرف بنسبته كالسيوطى والقسطلانى .

والذى نرمى إليه من تسجيل هذه الملاحظة أن الأسماء الأصيلة توارت خلف الكنى والألقاب والنسب .

والألقاب كانت على نوعين :

(١ و ٢) راجع التعريف ص ٧٣ ، ٧٤ أيضاً .

نوع مضاف إلى لفظ « الدين » مثل سراج الدين ، وتقى الدين ، ونور الدين ، وشهاب الدين ... الخ

وهذا الضرب من الألقاب هو الشائع المتبع فى التلقب . وقد كان ذلك مثاراً لتندر بعض الشعراء . . .

وهذا النوع كثيراً ما يختصر فيقال على الترتيب : السراج ، والتقى ، والنور ؛ والشهاب .

النوع الثانى مصوغ على وزن اسم الفاعل مثل الظاهر . أو المفعول من الرباعى أو الثلاثى مثل المظفر ، والمنصور . أو أفعل التفضيل مثل الأشرف — وهذا الضرب اختص به السلاطين دون سواهم . وغلب لقب « سيف الدين » و « السيفى » على الأمراء .

أما الأوصاف ، فأقرب شبها بالألقاب . مثل العالم الزاهد الورع التقى الحليم العادل ... الخ وفى بعض المكاتبات ترى فيضا غامراً من هذه الأوصاف فيتتابع عددها دون وعى .

وعندما تراد المبالغة فى المدح ، يضاف إلى الوصف ياء النسب فيقال على الترتيب : العالمى الزاهدى الورعى التقوى الحليمى العادلى . . الخ .

أو تحول الأوصاف إلى صيغة أفعل فيقال : الأعلم الأزهد الأورع الأتقى الأحلم الأعدل . . الخ ، أو تضاف ياء النسب مع صيغة أفعل فيقال الأعلمى الأزهدى الأورعى الأتقوى الأعلمى الأعدلى . الخ

وهذا كله عبث ألفاظ لاغناء فيه ، ولكنها لوازمهم على كل حال . ومظهر مزاجهم .

وقد فرق القلقشندى[1] بين الألقاب والنعوت — بحسب اصطلاح كتاب زمانه — فاللقب عنده هو ما تكون من لفظ واحد . والنعت ما تكون

---

(١) صبح الأعشى ج ٦ ، ج ٤ .

من أكثر من كلمة . وعنده أن من الألقاب ماتضاف إليه ياء النسب عند قصد المبالغة ، ومنها ما لا تضاف إليه .

ومن الألقاب ماهو عربى الأصل مثل : الأثير والأمثل والأجل والأشرف والإمام والبارع والبليغ والعادل والعضد .. الخ . ومنها ماهو غير عربى الأصل مثل : « الأتابكى ، أى أمير الجيوش » وأصله « أطابكى » أو « أطابك » أى « أميراب » . والمراد « أبو الأمراء » ومثل الاسفهسلارفى أى « مقدم العسكر » ، وهو مركب من لفظين : « اسفه » وهو لفظ فارسى معناه « المقدم » . ثم « سلار » وهو لفظ تركى معناه « العسكر » — وذكر ابن فضل الله أنه يختص بأمراء الطبلخاناه « أمراء الأربعين » ، وهى إحدى مراتب الأمراء حينذاك . وروى القلقشندى أن هذا اللقب لم يعد يستعمل فى زمانه .

ونزيد على هذا أن هناك ألقاباً كثيرة غير عربية كانت تمنح للأمراء بحسب عملهم على مقدار مراتبهم ، ومنها على سبيل التمثيل : الأستادار « أى أستاذ الدار » ويوكل إليه الإشراف على بيوت السلطان : مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه . ومنها « الدوادار » ويبلغ رسائل السلطان إليه ، ويقدم القصص والمظالم ونحوها إليه ، مع كاتب السر . و « الجاشنكير » وإليه النظر فى الموائد السلطانية مع الأستادار . » — وغير ذلك من الألقاب .

وقد لحظنا أن هذه الألقاب غير العربية نادرة الوجود فى الرسائل والمكاتبات الديوانية ، ولم يكثر ذكرها إلا فى كتب التاريخ والتراجم ، كالخطط المقريزية ، وبدائع ابن إياس والضوء اللامع للسخاوى وهلم جرا . ومن هنا نرى أنها لم تكن بذات خطر على الكتابة الفنية .

* * *

الوصايا :

وقد أشرنا إلى الوصايا أكثر من مرة . وهى إحدى لوازم الرسائل لا تكاد تريم عنها . ويراد منها إزجاء النصيحة الخالصة إلى المرسل إليهم . وتنوع فى معانيها الجزئية بتنوعهم حسب مراكزهم واختصاصاتهم وأعمالهم .

وهى فى الجملة تدعوهم إلى القيام بهذه الأعمال بإخلاص مع مراقبة الله فيها ورعاية العدالة . وقد عنى ابن فضل الله العمرى عناية بارزة فى كتابه «التعريف» بتسجيل عدد كبير من الوصايا ، يناسب كل لون منها لونا من الرجال . فهى متنوعة تنوعهم فى أعمالهم واختصاصاتهم . وهى بين موجزة ومطولة . ومنها فى وصية توجه إلى وزير ، قال :

« يوصى بتقوى الله فإنه عليه رقيب ، وإليه أقرب من كل قريب . فيجعله أمامه . وليطلب لكل ماشرع فيه تمامه . وليجعل رأيه فى كل ما تشد به الدولة أزرها . وتسند إليه ظهرها . وليجعل العدل أصلا يبنى على أسه . والعمل فى أموره كلها لسلطانه لا لنفسه . » الخ[1] .

ومنها يوصى نائب قلعة :

« عليه بحفظ هذه القلعة . التى زفت إليه عقيلتها الممنعة . وجليت عليه سافرة دونها السماء بالسحب مقنعة . وسلمت إليه مفاتيحها وخواتيم الثريا أقفال . وأوقدت له مصابيحها وقناديل البروق لا تشب لقفال . فليبدأ بعمارة ما دعت الحاجة إليه من تجديد أبنيتها . وتشييد أفنيتها . وشد عقودها . وعد مالا يحصى فى الذخائر من نقودها . وتنبيه أعين رجالها ، والكواكب قد همت برقودها » .. الخ[2]

وقد مرت بنا نماذج أخرى فى مناسبات سابقة .

* * *

صور الختام .

تختم الرسائل أحيانا بمعاودة الدعاء ، وتارة بكلمة « أنهى » أو « طالع » ، وفى النهاية كلمة « بمنه وكرمه » أو بنحوها .

* * *

ملحوظة

لعل من المناسب هنا أن نذكر أن من واضعى نظم الكتابة ورسومها ، فى ديوان الإنشاء ، شهاب الدين أحمد بن فضل العمرى . وأنه فى ذلك قدوضع

(١ ، ٢) التعريف ص ٩٣ ، ٩٤ .

دستوراً أيام شبابه بالديوان ، وظل دستوره مرعيا ونهجا متبعا يحتذيه كتاب الديوان . ثم طلب إليه فى أخريات حياته أن يعيد وضعه وتأليفه ، فوضع كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو الذى ننوه به بعد .

ومن الطريف أيضا أن نذكر أنه بعد وفاة بدر الدين[1] بن فضل الله العمرى كاتب السر ، اختير مكانه « بدر الدين محمود الكلستانى » وذلك فى شوال سنة ٧٩٦ هـ وقد قال عنه شمس الدين السخاوى فى كتابه الضوء اللامع ، مانصه :

« وكان كثير الوقيعة فى كتاب السر لاقتصارهم على مارسمه لهم الشهاب بن فضل الله ، وتسميتهم ذلك « المصطلح » ، وغضهم ممن لايعرفه . وحاول مرارا أن يغير « المصطلح » على طريقة أهل البلاغة ، ويعتنى بمراعاة المناسبة . فكان ممن قام بإنكار ذلك وشنع عليه فيه «ناصر الدين الفاقوسى» كبير الموقعين . فلما رأى ذلك منه غضب عليه وعزله . وقرر عوضه الصدر أحمد بن الجمال القيسرى بن العجمى . فلما مات الكلستانى ، عاد الفاقوسى . » — وقدمات الكلستانى عام ٨٠١ هـ[2]

هذا وإليك كلمة عن « تعريف » ابن فضل الله .

* * *

التعريف بالمصطلح الشريف :[3]

أما « صبح الأعشى » فقد تحدثنا عنه فى مناسبة سابقة . والآن نعرف تعريفا موجزاً بكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » ومؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار . وقد سبق لنا التنويه بهما .

أما كتابه « التعريف » فهو كتاب فريد فى بابه . ولعله أول كتاب ألف

---

(١) بدر الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٩٦ هـ أحد كتاب السر بمصر ، وهو ابن علاء الدين بن فضل الله العمرى الذى ظل كاتبا للسر بمصر زهاء ثلاثين عاما وتوفى ٧٦٩ هـ ، وهو أخو شهاب الدين — راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٧

(٢) الضوء اللامع ج ١٠ رقم ٥٥٤ ترجمة الكلستانى وهو محمود بن عبد الله .

(٣) تعريف ابن فضل الله مطبوع متداول .

فى موضوعه . وقد صرح القلقشندى بأنه اعتمد عليه — بين ما اعتمد عليه — فى تأليف « صبح الأعشى » .

وتدل مقدمة الكتاب على أن المؤلف ألفه فى أخريات حياته . ولعله ألفه فى عهد الملك الصالح علاء الدين إسماعيل بن الناصر قلاوون ، إذ كان يقول أحياناً « هذا كان جارياً فى الأيام الناصرية ، أما الآن فى الدولة الصالحية فكذا . . » أو نحو ذلك .

وكان ابن فضل الله قد ألف به « دستوراً » أى قانوناً للآداب الديوانية ورسومها — كما سبق التنويه — . واتخذ منهجاً لكتاب الديوان . ولكنه نسى بمرور الزمان . فطلب إليه بعضهم أن يجدده . فوضع « تعريفه » هذا . ليكون معلماً لمن يريد أن يتعلم ما يحتاج إليه العمل فى الديوان .

وقد قسمه سبعة أقسام :

وفى القسم الأول : تكلم عن رتب المكاتبات . أى أنواعها متحدثاً عن الرسوم المرعية فى افتتاحها وصدرها معللا أحياناً اختيارها . وأثبت نماذج لا تحصى مما يكتب فى صدور الرسائل ، وهى مختلفة باختلاف المرسل إليهم ، فمنهم الخليفة وولى عهد السلطنة ونائب السلطان ونائب الشام ونائب القلعة . . . الخ الخ وفى مقدمة هذه الصدور يبين طرق مخاطبة صاحب الرسالة - أى المرسل إليه - وبعض الألقاب أو الأوصاف التى خصص بها وخصصت به . وكاد لا يبقى رجلاذا اختصاص هام فى الدولة إلا بين نماذج مما يكتب إليه ، حتى الملوك والأمراء التابعون أو المحبون للدولة المصرية ، كملوك التكرور مثلا وصاحب دنقلة . والأولون أصدقاء والثانى من الأتباع . — وكذلك ملوك الفرنجة ممن بينهم وبين الدولة صلة ما . وهذا القسم من أهم أقسام الكتاب . وتتكلم فى هذا القسم أيضا عن المكاتبات العامة التى تصدر لأنواع من الأمراء فى الدولة ومنهم المقدمون ، وغيرهم .

وفى القسم الثانى : تحدث عن العادات المتبعة فى كتابة العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم والمناشير . وقد بين استعمال كل لون من هذه

المكاتبات . وعرفها واحدا واحداً ، وفرق بين بعضها والبعض الآخر . وقد اعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا فى فهم حقيقة هذه المكاتبات والفروق بينها ، وقد اتضح ذلك جليا فى باب الرسائل من بحثنا هذا .

ومن ممتع ما كتبه ابن فضل الله فى هذا القسم « جملة من الوصايا التى تذكر فى العهود والتقاليد والتفايض الخ » ومنها : وصية نائب سلطنة . ووصية وزير ووصية نائب قلعة . ووصية أستاذ الدار . . . ألخ . وترى فى كل وصية من النصائح ماينا سب المكتوب إليه . على نحو مابينا عند الكلام عن الوصايا . ومن بين وصاياه وصية جامعة بارعة يوصى بها « قاضيا من أى مذهب كان » . وقد استغرقت نحو ثمانى صفحات . —

هذا وقد امتدت وصاياه من رجال الدولة إلى صناعها وعلمائها فوصى النحوى والمحدث والمتطبب الخ ووصى المنجم والموقت ، كما وصى رؤساء الأديان . ألخ..

والقسم الثالث : سجل فيه صوراً للأيمان . وتختلف صورها باختلاف الحالفين، ومنهم النواب والوزراء والأمراء واليهود والصنارى والمجوس وأشباههم .

والقسم الرابع : تكلم فيه عن المكاتبات التى تكتب بمناسبة الأمانات والدفن والمهادنة والمواصفة والمناسخة ، مبينا نوع كل منها ومناسبته ، وما تتطلبه هذة المناسبة من أقوال وعبارات . وكتب وصوراً من ذلك .

والقسم الخامس : تكلم فيه عن « نطاق كل مملكة وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتق » . فتكلم عن مصر والقاهرة وما يتبعهما من مدن داخلية وما فيها من المنشآت المشار إليها . وكذلك تحدث عن الشام وإمارة حماة ونيابة طرابلس وصفد والكرك .

والقسم السادس : تحدث فيه عن « مراكز البريد والحمام وهجن الثاج ، والمراكب المسفرة به فى البحر والمناور . . . . » وفى هذا القسم معلومات طريفة عن مقاييس المسافات واستعمال البريد وتنظيم محاطه ومراكزه ، وإشارات إلى ما كان منها قبل عصر المؤلف ، بل ومن قديم الزمان . وبيان

الألوان من العادات المتبعة فى إرسال المكاتبات وتسهيل مسير قوافل البريد واستقبالها . إلى غير ذلك .

والقسم السابع : تكلم فيه عن « أوصاف ما تدعو الحاجة إلى وصفه مما يكثر ذكره فى المكاتبات. وقد قسمه سبعة فصول . وحسبك أن تعلم موضوعات هذه الفصول السبعة حتى تشعر بنباهة هذا الكاتب وعلو قدمه فى الكتابة والعناية بها وبأهلها . وهى على الترتيب : الآلات . الحيوان . الأمكنة . المياه وما يلزمها . الكواكب . الأزمنة . الأنواء .

ففى فصل الآلات : وصف السيف والرمح والطير والسكين والسهام والكنائن والأقواس وكل ما يتصل بالحرب وآلات الحصار كالمنجنيق وآلات الركوب كالتخت والخاتم . وآلات السفر كالمحفة والمحمل . وآلات الصيد كالفخاخ والشباك والصنانير . وآلات المعاملة كالميزان والكيل . وآلات الطرب كالدف والشبابة والطنبور . وآلات اللعب كالنرد والشطرنج . وآلات السكر كالخمر والكأس والقدح .

وفى فصل الحيوان : وصف الخيول كل لون منها على حدة ، فمنها الأدهم والأشهب والكميت . . الخ . ووصف الأكاديش والحمير الصعيدية . كما وصف الأسد والنمر والفيل والزرافة والكركدن والحمار الوحشى . والمها . . . الخ . . كما وصف حيوان الصيد كالفهد والزغارى والكلاب . . الخ ، ووصف الطيور كالحمام والقطاة :

وفى فصل الأمكنة : وصف «مدينة» و« قلعة» و « مسجدا »و«منبرا». الخ

وفى فصل المياه وما يلزمها : وصف : البحر والغدران والماء الآجن والسفن والسمك .. الخ .

وفى فصل الكواكب : وصف الشمس والهلال والقمر والنجوم والثريا والجوزاء .. الخ .

وفى فصل الأزمنة : وصف الصباح . وشدة الحر وشدة البرد . وظلمة الليل .. الخ .

وفى فصل الأنواء : وصف الرياح والسحاب والمطر والبرد والثلج .. الخ .

ومن هذه العجالات السريعة ترى مقدار ما اتسع له كتاب « التعريف » ولم تخل سطوره ولاسيما فى مطالع وصفه أو فصوله من لطائف تاريخية نادرة .

غير أنه ينبغى لنا أن نذكر أن أوصافه هذه لم تعد السطور القليلة ، فهو مثلا يصف « القمر » فى ثلاثة سطور أو يصف « الرياح » فى أربعة ، أو يصف « الشبابة » فى سطرين . وهكذا . — وكأنه بذلك يضع نماذج سريعة يقتدى بها من يريد أن ينسج على منواله .

ولاننكر أن كثيراً من سطوره فى هذا القسم رائع ممتع فيه الجديد المبتكر من التشبيهات والتصورات والتعليلات مما يدل على ذوق اصيل وخيال واسع وملاحظة دقيقة .

وكان من حق هذا الكتاب علينا أن نوفيه حقه من حسن العرض ، لما له علينا من واسع الفضل فى مدنا بالفكرة والنموذج ، فى مناسبات شتى من هذا البحث . ونرجو أن تجزى هذه العجالة فى هذا المقام .

الفصل السادس

٦ ـ النزعة الموسوعية

نعنى بالنزعة الموسوعية ، الميل إلى جمع المعلومات المختلفة والحقائق المشتتة والنصوص المبعثرة التى تجمعها جامعة ، وتربط بينها فكرة موحدة ، فينقب عليها المؤلف ويفتش عنها فى حنايا مظانها وينزعها من مكانها الذى ربما تكون غريبة فى إقامتها لديه . ثم تحشد هذه المعلومات أو النصوص تحت راية فكرتها المشتركة . ويعمل المؤلف جهده فى التأليف بينها ، وربط بعضها بالبعض الآخر ، وإحكام الصلة بينها حتى تتوثق عراها ، وتبدو بمجموعة ضخمة متراصة المفردات ، متماسكة الحلقات ، مسبوكة فى قالب تأليفى منظم متناسق فيه ربط وتقسيم وتقديم وتأخير حسب أهمية النص مثلا .

بذلك تلبس هذه المعلومات حلة قشيبة وتبدو زاهية مزدانة منطلقة ، لاجتماع الإلف فيها مع إلفه ، والترب إلى تربه . وهناك يجد القارئ فيها لذة ومتعة ونفعاً عظيما لا مثيل له .

ونحن نعتبر هذا العمل التأليفى من أهم الأعمال الأدبية التى ينبغى أن تسجل لصاحبها بالفخار والحمد .

ولا يستطيع تقدير هذا العمل حق قدره ، إلا من دفع بهم هواهم إلى مثله . فعالجوه وعانوه ، فعرفوا مشقته ، وطعموا مرارته ، وصرفوا الجهد والعقل والوقت فى تدبير أمره .

وكثيراً ما يبدو عملهم أمام الناس قليل الضنا والمشقة ، إذ أن الناس يبهرهم دائما المبتكر المجدد ، ولو كان ابتكاره وتجديده تافها لاغناء فيه . ويضفون عليه أثواب الحمد والثناء لجهوده القيمة وأفكاره العصماء .

وشعورنا أن الرجل المبتكر لا يضنى ضنى صاحب النزعة أو العقلية الموسوعية. إذا أنه يحصر ذهنه فى فكرة واحدة يؤمن بها ويعتقدها، وتتراءى لخياله فى كل مسارحه، وتتردد على لسانه فى كل مطارحه. ففى نفسه جملتها وتفاصيلها، وأدلتها وبراهينها. فإذا نضجت فى تفكيره انبعث يدبجها وفى نفسه حرارة، وفى لسانه تدفق، وفى قلمه سيل. أما الآخر فهو وإن كان صاحب فكرة، يرى عوائق تقف دون تدفقه، ذلك لأن «خاماته» لا تزال قابعة فى أضابيرها غافية فى أسرتها وهى لا تستقبل موقظها إلا بطرف فاتر وجفن سقيم... وفى هذا الصد ما يكسر القلب ويقهر الفؤاد.. ولكن الأمل وحده هو الذى يدفعه إلى المغامرة. ويسلحه بالصبر حتى ينتصر..

* * *

على أننا نعتقد اعتقادا راسخا أن «الدور الموسوعى» فى التأليف، دور طبيعى لا بد منه، ولا بد للتأليف أو للعقلية التأليفية من أن تمر فيه، تدفعها إلى ذلك ضرورات السياق ومنطق العصور.

ويكون من عوامل هذا الدور أو بمهداته إمعان العلماء فى التخصص العلمى، حتى يصبح كل منهم عالما بفن واحد أو مادة علمية واحدة. ويكون لذلك أثر فى المؤلفات وهنا تشرئب النفوس وتتطلع الأذهان إلى «دوائر المعارف الجامعة التى تقطف للناس الأطايب، وتجمع لهم أحسن الجنى وتحشده فى طاقات منسقة جميلة.

وقد كانت الظروف مهيأة كل التهيؤ فى عصر المماليك لظهور هذه العقليات الموسوعية التى تجنح إلى التأليف الجامع. وتميل إلى وضع دوائر معارف دقيقة، تكون مراجع ومصادر سهلة المورد ميسرة المقصد تمتع المطالع وتبقى عليه جهده وزمنه لينفقهما فى كفاح جديد.

نقول «مهيأة» لأن العصر العباسى كان قد انتهى وطوى بساطه وانفض سامره، بعد أن ترك للناس تراثا خالدا من علم وأدب وفن. واتسعت فيه دائرة التخصص، ووفرت مؤلفاته فى شتى العلوم والآداب.

ثم جاء عصر المماليك على إثره ورأى الناس فيه بساط الخلافة العباسية وقد

طوى ومدنية بغداد قد أصابها التلف والبوار ، وذخائر العلم فيها قد عبثت بها الأيدى ، ونفائس الدين قد أبلاها أعداء الدين . فكان لذلك رجع بعيد المدى فى نفوس الناس والعلماء ، وكان ذلك ممكنا للنزعة الموسوعية من عقولهم ، فاتجهوا إليها بجمع نفوسهم ، وغرضهم منها أن يحيوا ذلك الموات البائد وأن يبعثوا هذه الحضارة الدفينة ، وأن يعيدوا ذخائر الدين إلى الحياة .

وربما قال بعضهم — أى بعض الناقدين — إن العصر كان عصر تقليد حتى فى الناحية العلمية . ولعل كلامنا هنا عن النزعة الموسوعية يؤيد ذلك . ولكننا نعتقد أنه عصر تجديد أيضا فى العلوم المختلفة . بل نعتقد أن كثيرا من علمائه بلغ حد الاجتهاد ، وصرح بعضهم بذلك كتاج الدين السبكى وجلال الدين السيوطى ، ولهم مبتكرات جديدة فى مذاهبهم . — غير أن المجال هنا لا يسمح بالإفاضة فى بيان ذلك .

ونعود إلى نتائج « النزعة الموسوعية » فنقول إنها آية من آيات التجديد فى العلم والأدب .

* * *

وإذا كانت هذه النزعة[1] قد برزت قبل هذا العصر ، فلا يغض هذا من شأنها أو من بروزها فى عصر المماليك . والذى نعتقده أن هذه النزعة قد أخذت فى الظهور فى العصر العباسى . فظهر فى الأدب مثلا أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى ، والثعالبى صاحب اليتيمة . وظهر فى التاريخ مثلا الطبرى وابن الأثير . غير أن هذا كله كان كأنه حالات فردية وليست عامة ، أو نعتبره تمهيدا لاكتمال هذه النزعة بعد فى عصر المماليك .

ذلك لأنك لا تكاد تقرأ لأديب أو مؤرخ أو محدث أو مفسر أو فقيه أو غير هذا وذاك ، إلا وترى هذه النزعة بادية فى تفكيره ظاهرة فى عقليته بارزة فى أسلوبه .

---

(١) قد نوه جورجى زيدان فى كتابه « آداب اللغة العربية بذلك » .

ويعتبر الجلال السيوطى من أفضل الأمثلة على العقلية الموسوعية . بذاذلك فى طرق تفكيره وفى أساليبه معا . وقد ألف نحو ستمائة مؤلف ورسالة ، بين مطول وموجز ، فى فنون شتى ، منها كتب فى التاريخ وأخرى فى الفقه ، وفى الحديث ، وتاريخ القرآن ، وفى التفسير ، وفى النحو ، وطبقات النحاة ، وطبقات المفسرين ، وفى اللغة وفقهها ، وغير ذلك من العلوم والفنون حتى الآداب والإنشاء ألف فيهما .

وفى كل مؤلف على حدة ، ترى هذه النزعة مسيطرة على قلمه ، فهو شديد العناية بحشد الروايات والأخبار والنصوص والأحاديث التى تجمعها جامعة ما فيحشدها فى صعيد واحد .

لهذا ترى أن كتبه دوائر معارف عظيمة القيمة ، كل منها فى بابه .

ونحب أن نخاطب أولئك الذين يحملون على السيوطى وعلمه وتأليفه ، أن يراجعوا حكمهم عليه وينظروا إليه نظرة أخرى ، على ضوء ماذكرنا من نضج النزعات الموسوعية فى هذا العصر .

* * *

والآن نقسم الموسوعات نوعين :

النوع الأول : وهو ماتناول علوما مختلفة وفنوناً متعددة كالتقويم والتاريخ والأدب والقصص والشعر والنثر وغير ذلك . وقد نوهنا بهذا النوع فى باب الوصف ؛ وتحدثنا عن أمثلة منه وهى : نهاية الأرب للنويرى . ومسالك الأبصار للشهاب بن فضل الله . وصبح الأعشى للقلقشندى . — وإن بنى كل منها على مادة معينة .

النوع الثانى : ما لم يتناول إلا علما واحداً فحسب . وهو كثير الأمثلة . غير أننا نحصر الحديث هنا فى قليل منها : وهى كتب التاريخ . وكتب الأدب وكتب الحديث ، وكتب التفسير ، وكتب الفقه ، وكتب النحو ، وكتب اللغة .

كتب التاريخ :

وفى رأينا أن هذا العصر هو العصر الذهبي للتأليف فى التاريخ . فقد تعددت ألوانه ومؤلفات كل لون — على سبيل التمثيل لا الحصر :

ومنها كتب تراجم الأعلام مثل : وفيات ابن خلكان . والوافى بالوفيات للصفدى ، والدرر الكامنة لابن حجر ، والضوء اللامع للسخاوى والمنهل الصافى لأبى المحاسن ، وطبقات الشافعية للتاج السبكى :

وكتب تاريخ مصر والقاهرة مثل : سلوك المقريزى وبدائع ابن إياس ، وحسن المحاضرة للسيوطى ، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن .

وكتب التاريخ العام مثل : البداية والنهاية لابن كثير ، والمختصر لأبى الفداء وزبدة الفكرة لبيبرس المنصورى ودول الإسلام لشمس الدين الذهبي .

وكتب تاريخ الخطط مثل : خطط المقريزى ، والانتصار لابن دقماق .

ومن كتب الأدب :

المستطرف للأبشيهى ، وثمرات الأوراق وتأهيل الغريب لابن حجة الحموى ، وألحان السواجع والتذكرة الصفدية للصلاح الصفدى ، والكنز المدفون للسيوطى ، وحياة الحيوان للدميرى .

ومن كتب الحديث

كشف المغطى فى شرح الموطا ، والجامع الكبير ، كلاهما للسيوطى . وفتح البارى بشرح البخارى لابن حجر العسقلانى ، وعمدة القارى فى شرح البخارى للبدر العينى ، وإرشاد السارى إلى شرح البخارى للقسطلانى — وهذه الشروح الثلاثة من مفاخر مصر ومفاخر عصر المماليك .

ومن كتب التفسير :

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ، وهو كتاب جليل فى ثلاثة مجلدات ضخمة جداً مخطوطة بدار الكتب . والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى أيضاً . والبحر المحيط لأبى حيان المغربى .

ومن كتب الفقه :

الكفاية لابن الرفعة فى عشرين مجلدا وهو فى فقه الشافعية . والمجموع وتكملته وهو فى شرح المهذب - والمجموع للنووى ، والتكملة للتقى السبكى — والفتاوى المصرية للتقى بن تيمية فى فقه الحنابلة .

ومن كتب النحو :

مغنى اللبيب لابن هشام ، والأشباه والنظائر للسيوطى .

ومن كتب اللغة :

لسان العرب لابن منظور .

* * *

وبعد فيطول بنا مقام القول إذا ذهبنا نعدد الأمثلة ثم نعرض كل مثل على حدة بما يحقق رأينا فى نضج النزعة الموسوعية فى التفكير والأسلوب معاً . فنكتفى هنا بهذا العرض اليسير إشعاراً بوجود هذه الخصوصية بين خصائص النثر الفنى فى عصر المماليك .

وفى الحق أن هذا الموضوع — وهو النزعة الموسوعية فى التأليف يستأهل دراسة مستقلة مفصلة ، فلعل الأيام تساعفنا بنجازها . والله سبحانه وتعالى الموفق .

* * *

ملحوظة .

أكثر الكتب المذكورة تغلب على أسلوبها نزعة السرد وعدم التأنق فى سوق المعلومات ، وبذلك زايلتها الصبغات الفنية ، أو زايلت كثيراً منها .

بل إن منها — ولا سيما كتب التاريخ — ما التاث بالدخيل من الألفاظ والتراكيب العامية ، فكان ذلك كلفا فى صفحتها ، وتشويها فى عبارتها . وامتد إليه استعمال الدخيل التركى ونحوه والعامى ، إلى غير ذلك .

وهذا وجه من أوجه النقص الذى شان النثر ، بل والشعر . وقد كان الشعر أكثر لوثة بالعامى والدخيل ، وإذا استثنينا نثر بعض المؤلفات ، ولا سيما التاريخية ، ونظرنا إلى نثر الرسائل الديوانية والإخوانية ، والمقالات — والموازنات والمقامات — باستثناء قصة طيف الخيال — وجدنا نثراً فصيحاً سليما بريئا من وصمة العامى والدخيل فى جملته . والكمال لله وحده .

خاتمة البحث

الآن نعتقد أننا وفينا البحث عن النثر الفنى فى عصر المماليك بمصر والشام ، توفية مناسبة للمقام . وأننا قد تناولناه من جميع أطرافه ، ورسمنا للقارئ منه صورة واضحة المحجة ، قوية الحجة ، لامعة الألوان تكشف عن معالمه وأوضاحه ، وتبين صفاته وسماته . وبلغنا من وراء ذلك إلى نتائج استراحت إليها النفس ، بعد ما رأت أن شعب مصر حينذاك لم يكن لتمر عليه قرابة ثلاثة قرون دون أن يكون له نثر فنى ذو قيمة ، فى الوقت الذى انتشرت فيه ثقافته ، وفرضها على غيره من الشعوب

نعتقد أننا بلغنا من فهم هذا النثر مبلغاً محمودا ، ووصلنا من وراء دراستنا له إلى نتائج ذات قيمة ، منها :

١ — أننا أثبتنا أنه كان فى مصر نثر فنى فى عصر المماليك . وشأن مصر فى ذلك شأن غيرها من أقطار العربية . فلم تكن مصر بدعا بين هذه الأقطار ولا كانت خلوا من الآداب الحية .

٢ — وأن هذا النثر كانت له خصائص ومميزات ، كونتها بيئاته المختلفة وأمزجة أدبائه وأذواقهم ، فكان رجعا لهذه البيئات والأمزجة والأذواق . شأنه فى ذلك شأن غيره من نثر العصور السالفة . ولم يقل أدباؤه ثقافة ومعرفة بوظائف الأدب ، عن أسلافهم ، — فى جملتهم

٣ — وأن هذه الخصائص سمات فنية دقيقة أتاحت للنثر العربى فى مصر أن يبدو فيها بثوب مصرى لم يخل من جدة وطرافة . وأنه بذلك اكتسب إقليمية تميزه عن غيره من نثر العصور السالفة والأوطان المختلفة .

٤ — وأن هذا النثر قام بما فرض عليه من أداء رسالته فى حياة الشعب المصرى وتوجيهها فى كثير من نواحيها ، على الرغم مما وجد فى سبيله من عقبات ، من شأنها أن تعوقه عن أداء هذه الرسالة .

٥ — وأن الثقافة المصرية التى انتشرت فى آفاق مختلفة فى ذلك العصر الماضى ، كان النثر الفنى فى مقدمة أدواتها ووسائلها . وهذه أبرز نواحى رسالته التى أداها .

٦ — وأن هذا النثر وخصائصه ، بدراستهما درسنا جوانب ذات أهمية من الحياة الفكرية والأدبية للشعب المصرى فى عصر المماليك . ووقفنا على أنه كان شعباً حيا له مبادئ وأهداف .

٧ — وأن هذا النثر وخصائصه جديران بأن يعيد النقاد ومؤرخو الأدب المحدثون ، نظرهم فيهما ويدرسوهما دراسة جديدة بعيدة عن التعصب ، وألا يزنوهما بموازين النقد فى العصر الحديث ، ويقيسوهما بمقاييس الذوق الجديد ، دون تقدير لظروف الحياة التى كانت تحيط بهما .

* * *

هذه هى النتائج — أو بعض النتائج — التى وصلنا إليها . والتى ما دفعنا إلى تحمل المشقة فى سبيل الوصول إليها . إلا رغبة ملحة فى النفس ، وأمل قوى فى الفؤاد ، أن يكون لنا شرف القيام بخدمة مصر وأدبها وأدب العربية . وأن يكون ذلك بعيداً عن كل نزعة ، إلا نزعة النظر العلمى البحت الذى لا يقيم وزنا إلا للحقائق الثابتة ، وما يوضع منها موضع المقدمات ، وما يستنتج منها استنتاجا منطقياً مدعوماً بالحجة والبرهان القاطع

ونعتقد أننا بهذا النظر العلمى وحده ، قد استطعنا أن ننصف هذا العصر المظلوم والمظلوم أدباؤه ، وأن نعيد إلى النفوس الثقة بهم وبأدبهم .

على أننا فى النهاية لا نزعم أننا قد بلغنا من هذا البحث كل مدى ، أو وصلنا منه إلى كل غاية . ولكننا نعتقد أننا فتحنا الطريق للنظر فى هذا الميدان ، أو وضعنا لبنة فى بناء يستطيع أن يبنى فوقها من يشاء . ولنا الأمل أن يعيد الباحثون النظر ، وسيجدون حقائق جديدة تسفر لهم ، ومعها حججها وبراهينها .

والله سبحانه وتعالى ، المسئول أن يهدى إلى الحق ، ويوفق إلى الصواب .

والله أعلم

انتهى

تم

المجلد السادس

من

عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى

ويليه

المجلد السابع

فى

الشعر والشعراء

فهرس الموضوعات

للمجلد السادس

الموضوع	صفحة
الباب الرابع	
باب المناظرات والخطب وما يتصل بذلك	١
تمهيد	٣
تفصيل موضوعات فصول هذا الباب	٤
الفصل الأول : المناظرات والمقالات المذهبية	٦
النزعة الدينية وأثرها فى هذا اللون	٦
الصوفية	٩
فقهاء المذاهب الأربعة .	١٠
العلماء الأحرار	١١
غير أهل السنة والجماعة	١١
النزاع بين ابن عبد السلام ومبتدعة الحنابلة	١٣
محاكمات ابن تيمية .	١٥
فتنة بسبب ابن الفارض	٢٣
بعض مشهورى المناظرين والمتكلمين فى العقائد وشىء من كلامهم :	٢٧
١ — عز الدين بن عبد السلام	٢٨
كتابه : مسائل الطريقة فى علم الحقيقة	٢٨
كتابه : حل الرموز ومفاتيح الكنوز	٢٩
٢ — تقى الدين بن تيمية الحرانى :	٣١
كتابه : الإيمان	٣٢
رسالته : العقيدة الواسطية والمناظرة فى موضوعاتها .	٣٤
رسالته : العقيدة الحموية الكبرى .	٣٦
٣ — شمس الدين بن القيم :	٣٧
كتابه : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين	٣٨
كتابه : شفاء العليل	٤٠
٤ — شهاب الدين بن جبريل الكلابى الحلبى	٤٤
رجال اشتهروا بالمناظرة .	٤٧
خاتمة وست ملاحظات .	٤٩
الفصل الثانى : الخطب	٥٧
بيان معنى الخطبة	٥٧
وجود الخطبة فى عصر المماليك .	٥٨
صفاتها وعناصرها . وخلو العصر من الخطب السياسية .	٥٨
أنواع الخطب	٦٢
خطبة للخليفة الحاكم بأمر الله الأول .	٦٣
خطبة للخليفة الحاكم بأمر الله الثانى	٦٥
خطبة مدرس يفتتح درسه	٦٥
خطبة زواج لزين الدين بن الوردى	٦٦
خاتمة وثلاث ملاحظات .	٦٧
الفصل الثالث : النصائح والمواعظ والوصايا والحكم .	٧٢
معنى النصيحة أو العظة	٧٢
رسالة لمحيى الدين النووى إلى بيبرس	٧٥
رسالة ثانية لمحيى الدين النووى إلى بيبرس	٧٨
رسالة لتقى الدين بن تيمية .	٨١
رسالة لجلال الدين السيوطى	٨٧
كتب الوعظ :	٩٢
تاج العروس لابن عطاء الله	٩٣
بستان العارفين لمحيى الدين النووى	٩٥
مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية	٩٦
إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية	٩٩
الوصية ومعناها	١٠١
معيد النعم ومبيد النقم للتاج السبكى	١٠٣
الحكمة ومعناها	١٠٧
فصل لابن حبيب الحلبى	١٠٨
مقالة للسيوطى	١٠٨

الموضوع	صفحة
كتاب ابن عطاء الله السكندرى	١٠٩
الباب الخامس	١١١
باب النقد والنقاد	
تمهيد : كلمة عامة فى وصف حالة النقد	١١٣
النقد الأدبى وأهميته .	١١٣
نشأته وتطوره	١١٤
النقد فى عصر المماليك .	١١٥
الفصل الأول : شهاب الدين محمود الحلبى	١٢٤
كتابه : حسن التوسل فى صناعة الترسل ومنهجه فيه .	١٢٥
القسم الأول من الكتاب .	١٢٨
تأثر الحلبى بابن الأثير .	١٣٣
القسم الثانى من الكتاب .	١٣٦
القسم الثالث من الكتاب .	١٤٧
الفصل الثانى : تقى الدين بن حجة الحموى .	١٥٢
كتابه خزانة الأدب وسبب تأليفه والتعريف به . ومنهجه فيه	١٥٧
بعض آراء ابن حجة .	١٧٢
رأيه فى براعة الاستهلال .	١٧٣
رأيه فى الجناس .	١٧٩
رأيه فى السجع .	١٨٣
رأيه فى التورية .	١٩١
رأيه فى الاقتباس .	٢٠٠
الطباق . المقابلة . الاستخدام .	٢٠٢
الإيداع أو التضمين .	٢٠٣
الإبهام .	٢٠٤
التوجيه .	٢٠٥
الخلاصة :	٢٠٨
٢١١ الفصل الثالث : ولى الدين بن خلدون والتعريف به .	٢١١
أسلوبه فى كتابة تاريخه .	٢١٣
أسلوبه فى المقدمة .	٢١٣
أسلوبه فى خطبة كتابه وفى رسائله	٢١٤
رأيه فى أسلوب معاصريه .	٢١٦
مناقشة هذا الرأى ، والرد عليه .	٢١٨

الموضوع	صفحة
الفصل الرابع : جلال الدين القزوينى .	٢٤٩
كتاباه التلخيص والإيضاح	٢٥١
٢٥٣ أمثلة من البلاغيين	٢٥٣
الباب السادس	٢٥٥
فى خصائص النثر الفنى	
تمهيد	٢٥٧
تقديم :	٢٦٠
المؤثرات العامة فى أساليب الأدب	٢٦٢
معنى الخصائص وإقليميتها .	٢٦٦
بطء تطور النثر وعوائق تمصيره .	٢٧٣
٢٧٦ الفصل الأول : الاستجابة للبيئة .	٢٧٦
البيئة الطبيعية .	٢٧٧
البيئة الاجتماعية	٢٨٦
الطبقة الحاكمة	٢٨٧
الطبقة المحكومة .	٢٨٩
النصائح والعظات	٢٩٥
الحوادث العامة .	٢٩٥
النقد الاجتماعى .	٢٩٦
كتاب المدخل لابن الحاج .	٢٩٩
المجونيات	٣٠٤
التورية وما يتصل بها	٣٠٥
العلاقات الشخصية	٣٠٥
البيئة السياسية :	٣٠٨
البيئة الثقافية .	٣١٤
ملحوظة .	٢٣٠
الفصل الثانى : شيوع الوصف	٣٢١
الخيال الشعرى .	٣٢٥
التشبيه .	٣٣٠
المجاز .	٣٣٨
إقليمية التعبير .	٣٤١
إنسانية مالا يعقل .	٣٥٠
الفصل الثالث : اصطناع البديع .	٣٥٥
ولوع الأدباء بالبديع .	٣٥٧
الدراسات القرآنية .	٣٥٨
تأثرهم بطريقة القاضى الفاضل .	٣٦٠

الموضوع	صفحة
السجع ونظم فقراته	٣٦٨
نظم الفقرات .	٣٧٨
الطباق والمقابلة .	٣٨٢
الاقتباس والتضمين وحل الشعر والنثر	٣٨٣
التشبيه والمجاز والاستعارة	٣٨٨
التورية	٣٨٨
كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام	٣٨٩
فض الختام عن التورية والاستخدام	٣٩٠
الاستخدام .	٣٩٤
براعة الاستهلال ومراعاة النظير	٣٩٥
الجناس .	٣٩٧
كتاب جنان الجناس للصفدى .	٣٩٨
التوجيه	٤٠١
الإبهام	٤٠٢
التلميح	٤٠٤
العكس . الإحال	٤٠٥
التعليل .	٤٠٦
حسن الختام .	٤٠٧
الفصل الرابع : خصائص أخرى .	٤٠٩

الموضوع	صفحة
الأغراض الشعرية	٤٠٩
الاستشهاد بالأبيات الشعرية	٤١٠
الميل إلى الإطالة . الفكاهة .	٤١٠
السهولة والوضوح .	٤١١
ائتلاف الأسلوب مع المضوع	٤١٤
الفصل الخامس : اللوازم الديوانية وما يشبهها	٤١٧
صور البدء .	٤١٨
الأدعية .	٤٢١
المدح والألقاب والأوصاف	٤٢٢
الوصايا .	٤٢٥
صور الختام : ملحوظة .	٤٢٦
كتاب التعريف بالمصطلح الشريف	٤٢٧
الفصل الثانى : النزعة الموسوعية	٤٣٢
٤٣٦ فى كتب التاريخ . فى كتب الأدب .	
فى كتب الحديث .	٤٣٦
فى كتب التفسير . والنحو . واللغة .	٤٣٧
ملحوظة .	٤٣٧
خاتمة البحث .	٤٣٩

فهرس الأعلام

للمجلد السادس

(ا)

ابراهيم بن محمود بن سليمان : ٣٨٢
الأبشيهى (صاحب الأبشيهى) : ٤٣٦
ابن أبى حجلة المغربى (شهاب الدين) : ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٣٣ ، ٤١١
ابن الأثير (ضياء الدين) : ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٠١ ، ٢٤٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ ، ٤٣٤
ابن الأحمر (صاحب غرناطة) : ٤١٢
ابن إياس الحنفى : ٢٩٩ ، ٣٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦
ابن بنت الأعز (تقى الدين) : ١١
ابن تقى : ١١٩ ، ١٢٠
ابن تيمية الحرانى (تقى الدين) ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، إلى ٢٢ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢٩٥ ، ٤١٠ ، ٤٣٧
ابن جابر الأندلسى (أبو عبدالله محمد بن محمد بن على) : ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦
ابن جنى : ١٨١
ابن الحاج المغربى (أبو عبد الله محمد بن محمد العبودى) : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤
ابن حبيب الحلبى : ٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) : ١١ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ١٢١ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٤٣٦
ابن حنا (بهاء الدين) : ٢٩٠ ، ٣١٣
ابن حيدرة العقيلى : ٣٦٧
ابن خلكان : ٤٣٦
ابن دانيال الموصلى (شمس الدين الكحال) : ١٩٦ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٢٥ ، ٣٨٣ ، ٤١١
ابن دقاق : ٤٣٦
ابن دقيق العيد القشيرى (تقى الدين) : ١١ ، ١٣ ، ٤٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ٩٠
ابن رشيد القيروانى : ١٦٦ ، ١٨١
ابن الرفعة . ٤٣٧
ابن الرومى : ٣٨٥
ابن زروق الفاسى (أحمد بن أحمد بن عيسى) : ١١٠
ابن زيادة : ٣٦١
ابن زيدون : ٢٢١ ، ٣٤٠
ابن الزيات : ٢٣٨
ابن سعين : ١٦
ابن سناء الملك : ١٦٥ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٣٩١
ابن سنان الخفاجى (شهاب الدين) : ١٣٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧
ابن عبد ربه (صاحب العقد) : ٢٠٣
ابن عبد السلام الحنبلى (عز الدين أحمد بن غانم) : ٧٤
ابن عبد السلام (عز الدين) : ٤ ، ٧ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨ ، ٧٣
ابن عربى : ١٦ ، ٤٨
ابن عطاءالله السكندرى (تاج الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم) : ٥ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠
ابن العميد : ١١٦
ابن العنبرى (الشاعر) : ١١٩
ابن الفارض (شرف الدين عمر) : ٤ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٧ ، ١٧٥
ابن الفخار : ١٣٠

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد) : ٥ ، ٢٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٩٨ ، ٢٢٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥

ابن قاضى شهبة : ٤٨

ابن قلاقس : ٣٦٠

ابن القيم (شمس الدين) : ٤ ، ٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ٩٦ ، ٩٩

ابن مخلوف : ٢٢

ابن مزهر : ٢٥

ابن المعتز : ١٦٦ ، ١٧٤ ، ٢٠٧

ابن المقفع : ٢٣٨

ابن مكانس : (فخر الدين) : ٢٩٠

ابن منظور الإفريقى : ٤٣٧

ابن ناهض الفقاعى : (انظر برهان الدين)

ابن النبيه . ٢٣٩

ابن هانىء الأندلسى : ٢٣٨

ابن هشام المصرى (جمال الدين) : ٤٣٧

أبو إسحاق الصابى : ١٨٥ . ٢٣٨

أبو البركات (عدى بن مسافر) : ١٠٦

أبو بكر بن مزهر : ٥٢ ، ٢٩٤

أبو جعفر الأندلسى (أحمد بن يوسف بن مالك) : ١٥٩ ، ١٦٠

أبو الحسين الجزار المصرى : ١٩٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٩١ ، ٤١١

أبو حيان المغربى : ٥٢ ، ٥٣ ، ٤٣٧

أبو السعود الجارحى : ١٠

أبو الطيب المتنبى : ١٨٠ ، ٢٣٣

أبو العباس المبرد : ١٣٩

أبو العباس المقدسى : ٨٤

أبو العلاء المعرى : ١٩١

أبو عمرو بن العلاء : ١٧١

أبو الفرج الأصبهانى : ٤٣٤

أبو القاسم (القاسم بن يوسف النجيبى) : ١٠٦

أبو القاسم القشيرى : ٩٦

أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) : ٦٢ ، ٤٣٦

أبو هلال العسكرى : ٥٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٣٨٠

أحمد الإسكندرى : ٢١٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨١

أحمد بن محمد بن مرسى الحنبلى : ٢١

أحمد بن موسى : ١٥٨ ، ٣٥٥

الأذفوفش (ملك أسبانيا) : ١٣٠

إسماعيل بن سعيد الكردى : ٢٠٦

إسماعيل أبو الفداء (صاحب المختصر) : ٤٣٦

الأشرف خليل : ١١٩

الأشرف طومان باى : ١٠

الأشرف الغورى (قانصوه) ١٠ ، ٥٥ ، ٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ . ٣١٩ ، ٤٢٠

الأشرف قايتباى : ١٠ ، ٢٣ ، ٣١٩

الأشرف موسى : ١٣ ، ١٤

الأشعرى : ٥٠ ، ٥١

الأصفونى : ٤٨

الأعشى : ١٤٥ ، ١٨١

الأفرم نائب الشام : ٢١ ، ٣٤ ، ٣٥

أكثم بن صيفى : ٢١٩

أكمل الدين البابرتى : ٢٥٣

إمام الدين الشافعى : ١٧

امرؤ القيس : ١٧٤

أمين الدين السليمانى : ١٥٨ ، ١٥٩

(ب)

بدر الدين البشتكى : ١١٧ ، ١٨٢ ، ٣٤٠ ، ٤٠٤

بدر الدين بن جماعة : ١٨ ، ٦٨

بدر الدين بن حبيب الحلبى : ١٩٨ ، ٣٤٦ ، ٣٧٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

بدر الدين بن الدماميني : ١٢٢ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ ، ٤٠٣

بدر الدين بن الصاحب : ١٢٢ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ ، ٣٨٨

بدر الدين بن العينى : ٢٢٠ ، ٤٣٦

بدر الدين بن الغرس . ٢٤

بدر الدين بن فضل الله العمرى . ٤٢٧

بدر الدين بن لؤلؤ الذهبى (يوسف) : ١٩٦
بدر الدين بن مالك : ٢٠٢ ، ٣٩٤
بدر الدين الدميرى : ٣٤٨
بدر الدين الكلستانى : ٤٢٧
بديع الزمان الهمذانى : ١٥٣
برهان الدين البقاعى . ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٨
برهان الدين بن ظهيرة : ٤٨
برهان الدين الزرعى : ٤٧
برهان الدين القيراطى : ٢١، ١٥٣، ١٦٥، ١٧٥، ٢٠١ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٣٧٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥
برهان الدين الواسطى : ٤٩
البساطى : ٤٧
بهاء الدين السبكى : ٤٧ ، ١١٨ ، ٢٥٣
البهاء زهير : ٢٢١
بيبرس (ركن الدين الخاشنكير) : ١٨
بيبرس (ركن الدين الملك الظاهر) : ٥ ، ١٣ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ١٧٦ ، ٢٩٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٤٢٢
بيبرس المنصورى : ٢٣٦
بيموند (أمير الصليبيين) : ٤٢٢

(ت)

تاج الدين بن الأثير . ٢٢١
تاج الدين البارنبارى : ٣٣٤، ٣٤٥
تاج الدين بن شرف : ٢٤
تاج الدين السبكى : ٥، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٦٦، ٦٨ ، ٧٣، ١٠٢، ١٠٣ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ٢٤٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦
تاج الدين المراكشى : ١١٩
تقى الدين بن بنت الأعز : ٦٨، ٦٩
تقى الدين بن تيمية : (انظر ابن تيمية)
تقى الدين بن حجة الحموى : ١١٧ إلى ١٢٣، ١٢٨، ١٣٤، ١٤٣، ١٥١ إلى ٢١٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٨، ٢٧١، ٢٨٤، ٣١٣، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٨ ، ٤٣٦
تقى الدين بن الخيمى : ١٥٢
تقى الدين الإخنائى : ٢٧
تقى الدين بن قاضى عجلون : ٤٨
تقى الدين السبكى : ١١، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٤٨، ٤٣٧
تقى الدين السبكى (محمد بن عبد اللطيف) : ٦٥
تقى الدين القشيرى (انظر ابن دقيق)
تقى الدين المقدسى الحنبلى : ٦٩
تنكز (نائب الشام) : ٢٣
تيمور : ٣٦٨

(ث)

الثعالبى (صاحب اليتيمة) : ٤٣٤

(ج)

الجاحظ : ٢٤٨
جرير بن عطية الخطفى : ١٢٠
جقمق العلائى (الملك الظاهر) : ١١٧، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣٧٥
جلال الدين البلقينى : ٣١٣
جلال الدين السيوطى : ٥، ١١، ٢٤، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٦٥، ٧٨، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٠٧، ١٠٨، ١١٨، ١٥٨، ٢٥٣، ٢٧٤، ٢٩٥، ٣٠٦، ٣٢٨، ٤٠١ ، ٤٢٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧
جلال الدين القزوينى (محمد بن عبد الرحمن). ٢٧، ٦٨، ١١٨، ١٢٣، ١٣٧، ١٦٤، ١٩٥، ٢٤٩، إلى ٢٥٣
جمال الدين بن نباتة المصرى (محمد بن محمد) : ١١٦ ، ١٢١، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨، ١٩٨ ، ٢٠١ إلى ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٧، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٢٣، ٣٣٧، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٧، ٣٨٦ ، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤١٢
جمال الدين الخطيب (يوسف) : ٦٧
جمال الدين الخضيرى : ١٤
جمال الدين السلمونى : ٢٩٩
جمال الدين المزى : ٢١

جهم بن صفوان : ١٢
جورجى زيدان : ٤٣٤

(ح)

الحاكم بأمر الله العباسى الأول : ٤، ٦٣
الحاكم بأمر الله العباسى الثانى (أحمد بن المستكفى) : ٥، ٦٥، ٤١٨
حبيب بن أوس (أبو تمام) : ٢٣٨
الحجاج بن يوسف الثقفى : ٢٢٨
الحريرى : ٤٠٠
حسام الدين بن مهنا : ١٨
حفنى ناصف : ٢٣٩
الحكم بن عقال : ١١٩ : ١٢٠

(د)

الدميرى (صاحب حياة الحيوان) : ٤٣٦

(ذ)

الذهبى (شمس الدين) : ٣٨، ٤٣٦

(ر)

الرباحى المالكى (القاضى) : ٣٠٧
رفاعة الطهطاوى : ٢٣٩
الرمانى : ١٣٨، ١٦٦، ١٧٠

(ز)

زكريا الأنصارى (زين الدين) : ٥، ٢٤، ٢٥، ٦٩، ٧٠
زكى الدين بن أبى الأصبع : ٦٦، ١٧٠، ١٧٤، ٢٠٦
زكى مبارك : ٥٧، ٥٨، ١١٨، ١٥٨، ٢٥٣، ٣٥٧
الزمخشرى : ١٩٤، ١٩٥
زيد بن على : ١٢
زين الدين بن تيمية : ١٨
زين الدين بن العجمى : ١٧٧
زين الدين بن مخلوف : ١٨، ٢٧
زين الدين بن المرحل : ٤٧
زين الدين بن الوردى (عمر) : ٦٦، ٦٧، ٢٠١، ٢٢١، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٧، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٩، ٣٤٦، ٣٥١، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٧
زين الدين الأندلسى (أحمد بن محمد) : ٧٤

(س)

السخاوى (شمس الدين) : ٢١١، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٣٦
سراج الدين الوراق : ١٩٦، ٢٩٢، ٣٦٧، ٣٩١، ٤١١
سرجواس (ملك قبرص) : ٨١، ٨٢
سعد الدين التفتازانى : ٢٥٣
السعيد بن بيبرس (الملك) : ٣١٣
السكاكى : ١١٧، ١١٨، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٤، ١٦٤، ١٦٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢ .
سليم (السلطان العثمانى) : ٤٢٠
سهل بن هارون . ٢٣٨
سنقر الفارقانى ١٧٦
سيف الدين بن المشد ١٩٦
السيوطى : انظر جلال الدين

(ش)

شرف الدين أبو الروح الحميرى المالكى ٢٢
شرف الدين بن تيمية : ١٨
شرف الدين بن حسين بن ريان : ٥٤
شرف الدين الأسيوطى اللخمى (محمد بن محمد) : ٦٧، ٦٩
شرف الدين البارزى : ٣٣٩
شرف الدين البوصيرى : ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٤٨
شرف الدين عيسى الزواوى : ٢٧
شرف الدين النابلسى المقدسى (أحمد بن أحمد) ٦٨
الشريف الرضى : ٢٣٨
الشاب الظريف : ٢٧٣، ٢٩٣، ٣٢٤، ٣٢٧
شمس الدين البعلبكى : ٤٨
شمس الدين بن الجوزى : ٦٢

شمس الدين بن خلكان : ٣٦٠
شمس الدين بن دانيال الموصلى : فى ابن دانيال
شمس الدين بن عدلان : ١٨
شمس الدين بن العفيف : ١٩٦
شمس الدين بن اللبان : ٢٧، ٧٤
شمس الدين بن ناهض الفقاعى : ٢٠٤
شمس الدين الأصفهانى : ٥١
شمس الدين الذهبى : فى الذهبى
شمس الدين حسين بن راشد : ٧٤
شمس الدين السخاوى : (انظر السخاوى)
شمس الدين الكنانى : ٢٣
شمس الدين النواجى : ١٢٢، ٣٧٥
شهاب الدين أبو شامة : ٦٨
شهاب الدين أبو العباس الشاذلى : ٧٤
شهاب الدين بن جبريل : ٤، ٢٣، ٤٤
شهاب الدين بن عرنبشاه (أحمد) : ٢٧٤، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣٥٣، ٣٦٨، ٣٧٥
شهاب الدين الحلبى (أبو الثناء محمود) : ١١٧، ١٢٢، إلى ١٢٥، ١٢٨، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥١، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٠، ١٩١، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٢١، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤١، ٢٥٢، ٢٧٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤٥، ٣٤٧، ٢٦٩، ٣٧٢، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٤، ٣٨٥، ٢٨٩، ٤٠٦، ٤١٢، ٤١٥، ٤١٩، ٤٢٢
شهاب الدين الحفاجى : ١٧٠
شهاب الدين القرافى : ٤٨
شهاب الدين القسطلانى ٥٢، ٣٤٦
شهاب الدين المنصورى : ٢٤
شهاب الدين النويرى : ٣٧٣، ٤٣٥

(ص)

الصابونى : ١٥٤
الصاحب بن عباد : ١٨٥
الصالح اسماعيل : ١٣
صدر الدين بن الوكيل (محمد بن عمر بن مكى) : ٢٢
صفى الدين الحلى (عبد العزيز بن سرايا): ١٥٧ إلى ١٦٣، ١٦٨، ١٧٥، ١٧٦، ٢٣٣، ٢٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٠، ٤٠٦
صفى الدين الهندى (محمد بن عبد الرحيم) ١٧، ٢١، ٢٣، ٥١
صلاح الدين الأيوبى ١٢٩، ٣٦١
صلاح الدين الصفدى (خليل بن أيبك) ٥٤، ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٢٢، ١٦٦، ١٧٧، ١٨١، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨، ٢٠٩، ٢٢١، ٢٥٨، ٢٨١، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٣٧، ٣٤٠، ٥٤١، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٢، ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٠، ٤٣٦

(ض)

ضياء الدين بن عبد الرحيم ٤٨

(ط)

الطبرى (ابن جرير) ٤٣٤

(ع)

عائشة الباعونية : ١٥٣
العادل الأيوبى (الملك) : ١٣
عامر بن محمد الهنتانى (عميد مراكش) : ٢٨٠
عبد البر بن الشحنة : ٢٤، ٢٥، ٢٩٩
عبد الحميد حسن (الأستاذ) : ٣٢٦
عبد الحميد الكاتب : ١٢٨، ٢٢٠، ٢٢٨
عبد الرحيم بن نباتة : ١٧٨
عبد العزيز الأنصارى (شيخ الشيوخ) : ١٥٣، ١٩٦
عبد القادر بن الرماح : ١٠
عبد القادر الدشطوطى : ١٠
عبد القاهر الجرجانى : ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٦٦، ١٨٦، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٩٢
عبد اللطيف حمزة (الدكتور) : ٦، ٥٠، ٢٦٥، ٢٧٨، ٢٨٧، ٣٦٧
عبد الله بن عبيد بن عمرو : ٣٣
عبد الله بن عمرو : ٣٣

عبد الله فكرى : ٢٣٩
عبد الله القيروانى الضرير : ١٧٧
عبد الوهاب بن الحسين : ٤٨
عبد الوهاب عزام (الدكتور) : ٥٥
عبيد بن عمير : ٣٣
العتابى : ٢٣٨
عثمان بن عفان : ٢٢٨
عز الدين بن جماعة : ٥١
عز الدين المحلى : ٢٤
عز الدين الموصلى (على بن الحسين) : ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣
عز الدين النمراوى : ١٨
علاء الدين اسماعيل (الملك الصالح) : ٤٢٨
علاء الدين الباجى : ١٨ ، ٤٧ ، ٥١
علاء الدين البخارى : ٤٧
علاء الدين بن الأثير : ٢٢١ ، ٢٧٥
علاء الدين بن فضل الله العمرى : ٢٢٠ ، ٢٩٤
علاء الدين بن مغلى ٤٨
علاء الدين الوداعى : ١٢١ ، ١٩٨ ، ٩٩ ،
على أدهم : ٢٦٣
على بن أبى طالب : ١٢
على بن برد بك : ٣٤٨
عماد الدين الأصفهانى : ٢٢١ ، ٢٣٩
عماد الدين بن السكرى : ٦٢
عمرو بن عبشة : ٣٣
عمرو بن مسعدة : ١٧٦
عنترة العبسى : ٣٨٦
العينى (بدر الدين محمود) انظر (بدر الدين)

(غ)

غازان : ٦٢ ، ٣٧٢
الغزالى : ٤٨ ، ١٥٤
غياث الدين ملك الهند : ٣٠٩

(ف)

فتح الدين بن سيد الناس : ٢٩٨ ، ٣٠٥
فتح الدين البقى (أحمد بن محمد) : ٢٧
فتح الله بدران : ١٢
فتح الدين فتح الله (أبو المعالى) : ٣٣٠
فخر الدين بن بنت أبى سعد : ١٨
فخر الدين بن مكانس : ١٢٢ ، ١٧٧ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٨٨ ، ٤٠٤ ، ٤١١
فضالة بن عبيد : ٣٣

(ق)

قاسم بن قطلوبغا الحنفى : ٢٤ ، ٤٧
القاضى الفاضل (عبد الرحيم البيسانى) : ١١٦ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧١ ، ٣٣٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ .
قدامة بن جعفر : ١٣٧ ، ١٦٦ ، ١٦٧
قرا يوسف (صاحب العراقين) : ٣٧٢
قس بن ساعدة الإيادى : ٢١٩
القلقشندى (شهاب الدين) ٥٧ ، ١٤٣ ، ٣٣٠ ، ٣٥٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥
القونوى (علاء الدين على بن اسماعيل : ١٦ ، ٤٨

(ك)

كريم الدين الآملى : ١٨
كمال الدين بن البارزى : ٣٢٣
كمال الدين بن بهاء الدين : ٦١
كمال الدين بن الزملكانى : ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٥٤ ، ٩٥٥
كمال الدين بن الهمام : ٤٧
الكندى (الفيلسوف) : ١٣٩

(ل)

لسان الدين بن الخطيب : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
لاسل آير كرومبى : ٢٦٢

(م)

المأمون (الخليفة) ١٧٦

المؤيد شيخ المحمودى (الملك) ٤٨، ١٥٢، ١٥٤، ٢٠٤، ٣٧٢
المتوكل على الله العباسى (أبو العز عبد العزيز): ٣٠٦
محي الدين بن تميم : ١٢١، ١٩٦، ٣٢٣، ٣٨٧، ٤٠٠
محي الدين بن الشحنة ٢٤
محمد بن صعفن : ٨٧
محمد بن مريم : ٨٩
محمد بن يوسف الجزرى : ٦٨
محمد الترجمان : ٨٩
محمد دياب : ١٥٩
محمد عبد الكريم : ٨٩
محمد عبده : ٢٣٩
محمد عوض محمد ٢٦٢
محمد بن قلاوون (الملك الناصر) ١٠، ١٧، ١٨، ٢٠، ٦١، ٦٢، ٢٧٥، ٢٧٤، ٣٣٤، ٣٤٥، ٣٨٢
محمود بن محمد بن عبد الرحيم : ٦٧٠
محي الدين بن عبد الظاهر ١٢٤، ١٧٦، ١٩٦، ٢٢١، ٢٤٧، ٢٧٥، ٢٩٣، ٣٠٧، ٣١٢، ٣١٣، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٨٦، ٣٨٩، ٤٠٤، ٤١٠، ٤١١، ٤١٣
محي الدين بن قرناص الحموى ١٩٦
محي الدين الكافيجى ٢٤، ٥١
محي الدين النووى ٥، ١١، ٧٣، ٧٥، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٩٥، ٢٩٥، ٤٣٧
مرسيه : ٥٧
المستكفى بالله العباسى : ٣٢٢
المستنجد بالله العباسى : ٣٠٩
المستنصر بالله العباسى : ٣١٣
المظفر قطز (الملك) : ٧، ٣٢٢
(المظفر) كتبغا المنصورى (الملك) : ٢٨٧
المقريزى (تقى الدين) : ١١٩، ٢٢٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٧٦، ٣٨٠، ٤٢٥، ٤٣٦
المنصور أبو بكر (حفيد قلاوون) : ٣٢٢
المنصور صاحب ماردين : ١٧٥، ٤٠٠
المنصور قلاوون (الملك) : ٢٨٨، ٣٣٠، ٤١٣

(ن)

النابغة الذبيانى : ١٧٤
الناصر حسن (حفيد قلاوون) : ٣٠٦
ناصر الدين بن البارزى : ١٢٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ٣٤٧، ٣٦٢، ٤٠٥
ناصر الدين بن النقيب (حسن) : ١٩٦، ٣٤٠، ٣٩١
ناصر الدين الخطيب (محمد بن على) : ٥٨
ناصر الدين الفاقوسى : ٤٢٧
الناصر صاحب اليمن : ٤٠٠
الناصر العباسى : ١٦٣
الناصر فرج بن برقوق : ٣٧٣
نجم الدين بن الرفعة : ١٨، ٢١
نجم الدين بن ملى (أحمد بن محسن) : ٤٨٠
نجم الدين الأيوبى (الملك الصالح) : ٧
نجم الدين القرطبى (حسن بن محمد) : ٦٨
نجم الدين بن يحيى بن حجى : ٢٤
نجم الدين السيرامى : ٤٨
نصر المنبجى : ١٠، ١٧
نصير الدين الحمامى: ٢٩٢، ٣٦٧، ٣٩١
نور الدين المحلى : ٢٤
النويرى انظر (شهاب الدين)

(ه)

الهروى (عبد الله بن محمد بن على) : ٣٨
هولاكو (ملك التتار) : ٢٢٥، ٣٢٢

(و)

واصل بن عطاء : ١٥
وجيه الدين البهنسى : ٤٨
ولى الدين بن خلدون (عبد الرحمن) : ١٢٣، ٢١٠ إلى ٢١٥، ٢١٨ إلى ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٧، إلى ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥١، ٣١١، ٣٢٩

(ى)

يعقوب بن عبد المؤمن : ١٣٠
يوسف بن سليمان (جمال الدين النابلسى) : ٥٨

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

DATE DUE

JAFET LIB.
- 3 FEB 2004
Circulation Dept.

JAFET LIB.
- 1 FEB 2005
Circulation Dept. 1

سليم ،محمود رزق،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034433